أعلاق أندلسية
إشبيلية (٤)

سلسلة مؤلفات الإمام
أبي بكر ابن العربي (٤)

سراج المريدين في سبيل الدين

لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات
الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية
وهو القسم الرابع من علوم القرآن في التذكير

إملاء
إمام الأئمة وزين الملة الفقيه الحافظ النظار
أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المعافري الإشبيلي
المتوفى سنة ٥٤٣هـ

ضبط نصه وخرج أحاديثه ووثق نقوله
الدكتور عبد الله التوراتي

السفر الثالث

دار الحديث الكتانية


سراج المريدين في سبيل الدين





المملكة المغربية : طنجة - شارع لبنان -إقامة يامنة- الطابق الثالث رقم ٤٧
هاتف ٠٠٢١٢٦٦٥٦٩٩٣١٤٧
الجمهورية اللبنانية : بيروت - شارع برج أبي حيدر- ص.ب ٥٥٥٦-١٤ بيروت
هاتف ٠٠٩٦١-١-٨٤١٦٣٦/٠٠٩٦١-٣-٢٨٧٨١٩
e-mail. dar.alkatani@gmail.com

الكتاب : سراج المريدين في سبيل الدين لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية

المؤلف : الإمام الحافظ أبو بكر ابن العربي المعافري

تحقيق: الدكتور عبد الله التوراتي

الطبعة : الأولى ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م



[الزَّاهِدُ]: وهو الاسمُ الحادي والثلاثون

وحقيقتُه: الإعراضُ عن الشيء بعدم[١] الرغبة فيه، إذا كان للنفس مَيْلٌ إليه، أو حاجة فيه[٢].

وقد تكون هنالك حالة، وهي: أن يَفِرَّ من المال فِرَارَه من السُّمِّ[٣]، وهي المرتبة العليا[٤]، وهي قليلٌ فينا، كثيرٌ في السَّلَفِ[٥].

خَطَرُ الغِنَى:

ثم[٦] إنَّ للغنى أخطارًا[٧] ومخاوف:

منها: أن لا يؤدي حقَّ الله فيه، كما فَعَلَ ثَعْلَبَةُ[٨]، وكما يفعل اليوم كَثِيرٌ من الناس، وليتهم أدَّوا الزكاة، وإذا أَدَّوْهَا فتبقى هنالك حُقُوقٌ سواها

---

(١) في (د) و(ص): بعد.

(٢) ينظر: الإحياء: (ص١٥٧١).

(٣) في (ص): الأسد.

(٤) في (ص): المنزلة العلية.

(٥) ينظر: الإحياء: (ص١٥٤٢).

(٦) في (د) و(ص): كما.

(٧) في (د) و(ص) و(ف): أخطار.

(٨) حديث ثعلبة أخرجه الطبري في تفسيره عن أبي أُمامة ﷺ: (١٤/٣٧٠-شاكر)، والطبراني في أكبر معاجمه: (٨/٢٦٠)، وهو في قوت القلوب: (٢/٧٨٩)، وضعَّفه ابن حجر في الفتح: (٣/٢٦٦).

١

[١٣٩/أ] بعوارض تعرضُ[١]، فإن قام بها خرج المال/ عن يده، وإن حَبَسَه عنها كان على غَرَرٍ من نفسه.

ومنها: ألَّا يقوم بشكره.

ومنها: أن[٢] يُلْهِيَه عن عبادة ربه.

ومنها: أن يتوسَّع به[٣] في شهواته فيتعجَّل طَيِّبَاتِه.

ومنها: أن يتوسَّل به من طريق الأَنَفَةِ أو الشهوة إلى ما لا يَحِلُّ، فمن العِصْمَةِ أن لا تَقْدِرَ.

وكما أن الفقير يضطر إلى السؤال، فكذلك الغني يضطر إلى العطاء، والسؤال وإن كان أذلَّ من العطاء، ولكنه أخفُّ على فاعله في الأكثر، وإذا توجَّه السؤال على الغني، كيف حتى يخرج عن مقتضى الجواب؟ ولذلك كان كثير من الناس لا يقول لأحد[٤]: كيف حالك؟ لأنه إن كان سؤال مُراءاة بالعادة فهو آثِمٌ، وإن كان عن حقيقة؛ فإذا كشف له عورة[٥] أو أَطْلَعَه على حاجة[٦] كيف يصنع؟ أيسترُ العورة ويسدُّ[٧] الخَلَّةَ؟ أم يُعْرِضُ عنه فتَبْطُلُ فائدة السؤال؟

---

(١) في (س): تعزو، وفي (ص): تعرف وآداب.

(٢) في (د): ألَّا.

(٣) في (د) - أيضًا -: بها.

(٤) في (د): لرجل.

(٥) في (ص): عن عورة، ومرَّضها في (د).

(٦) في (ص): حالة.

(٧) في (د) و(ص): أو يسد.

مغالاة:

حتى انتهى الإسرافُ بقوم إلى أن يقولوا: «إن حقيقة الزهد من زَهِدَ في الجنة والحُور، وأعرض عمَّا فيها من النعيم والحُبور، وصرف قلبه إلى الله وحده»[١]، وهذه طريقة ضعيفة؛ إنما رغبت الأنبياء في النعيم، ومن جملته رؤية الله سبحانه.

ومناطُ الأمل فيها ما يقرن الله بها من النضرة واللذة ويخلقه عندها، فالكُلُّ نعيمٌ مخلوق[٢] محبوب، وبعضه أفضل من بعض.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: أَلَا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: رضائي، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[٣]، فجعل الأمن من الزوال وتمادي الوصال غايةَ الآمال، وليس فوقه مثال.

ولا يبعد أن يكون في الجنة من يقول: «أَمَلِي أن أراك»، كما يقول آخر: «أملي أن أزرع»، وتتفاوت الآمَالُ على قَدْرِ مقاصد الرجال، وبعضُها أفضل من بعض.

والزُّهْدُ إنما هو عبارةٌ عن تَرْكِ المباحات في الدنيا، فإذا خرجنا عن متاع الدنيا لم يكن زُهْدٌ[٤]، إنما هو رغبة كله، ونعيم دائم، وإنما يرغب الزاهد عن المباحات لما يرجو من الأَعْوَاضِ الكريمة في الجنات، كما

---

(١) هو قول الإمام أبي حامد الطوسي، ينظر: الإحياء: (ص١٥٨٢).

(٢) سقطت من (ص).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ص): زهدًا.

يصبر الفقير على مَضَضِ الحاجات ليرفع عن نفسه مَضَضَ التعب في الدنيا والحساب في الآخرة[١].

وربما تَقْصُرُ[٢] المرتبة في الدرجات، كما أن من تَرَكَ الدنيا طَلَبَ جَاهٍ[٣] أو ثَنَاءٍ لم يكن زاهدًا، إنما هو مُبْتَاعٌ، وليته كان مبتاعَ[٤] ما يبقى بما يفنى، وإنَّما هو بائعٌ حظًّا بأبخس[٥] منه، لا بأعلى.

وقد تقدَّم القولُ في «المقام الأوَّل»[٦] على حال النبي ﷺ في معاشه[٧] ولباسه[٨] وأصحابه، وتفصيل المنازل وتفضيلها.

[شرائطُ الزهد]:

[١٣٩/ب] ولا يزهد في الدنيا إلَّا/ من[٩] عَرَفَها وتَحَقَّقَ خساستها عند الله وهَوَانَها.

---

(١) ينظر: الإحياء: (ص١٥٧١).

(٢) في (ص): ورثوا القصور، وهو تصحيف.

(٣) في (ص): حاجة.

(٤) في (س): مبتاعًا.

(٥) في (د) و(ص): بأخس.

(٦) في السفر الأوَّل.

(٧) في (س): مقامه.

(٨) سقطت من (د) و(س).

(٩) هنا تنتهي النسخة (س)، سقط من آخرها مقدار ثلاث ورقات.

وقد ثبت أن النبي مَرَّ بجَدْيٍ أَصَكٍّ[١] ميِّت، فقال لأصحابه: «أترون أهل هذه طرحوها إلَّا من هوانها؟ الدنيا أهون[٢] عند الله من هذه على أهلها»[٣].

قال الله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

وقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٤][٤].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) قوله: «وهوانها، وقد ثبت أن النبي مر بجدي أصك ميت، فقال لأصحابه: أترون أهل هذه طرحوها إلا من هوانها؟ الدنيا أهون» سقط من (ص).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ: كتاب الزهد والرقائق، رقم: (٢٩٥٧- عبد الباقي).

(٤) بعدها في (ص): ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿إِعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد:١٩].

وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

إلى نظائر لها، فصَّل الله الآيات فيها، وجعلها ذِكْرَى لمن عَقَلَها، وأبان قُدْرَتَهُ عليها، وعرَفَ مقدارها، وضَرَبَ المَثَلَ لها ومنها وبها[١].

والأصلُ أنه شبَّه الحياة الدنيا بما أنزله من السماء، فنبَتَ به[٢] النبات، وظهرت الثمار، واخضرَّت[٣] الأرض، وأوطن أربابُها نفوسَهم عليها، واطمأنُّوا بها[٤]، فإذا[٥] بجائحة قد نَزَلَتْ بهم بغتة، كأن لم تكن، وكذلك الإنسانُ بعد تمام سِنِّه وكمال قُوَّتِه وغضارة شبيبته؛ اخترمته المنيَّة[٦]، فيقول فيه المغرورُ به[٧]:

---

(١) في (ص): بها ومنها.

(٢) سقطت من (ص).

(٣) في (ص): اخضرت به.

(٤) سقطت من (ص).

(٥) في (ص): وإذ.

(٦) لطائف الإشارات: (٢/٨٨).

(٧) في (ص): فيقول عند ذلك فيه المغرور.

فقـدناه لمـا تـمَّ واعـتمَّ بـالعُلَى　　كذاك كُسوفُ البَدْرِ عند تمامِه[١]

[بدائعُ في ضرب الله المثل للدنيا بماء السَّماء]:

وفي ضَرْبِ الله سبحانه المَثَلَ للدنيا بالماء المنزل من السماء بدائعُ:

الأوَّل: أنَّ المطـر لا يُـستنزل بالحِيلَـةِ، كـذلك الـدنيا لا تُنـال إلَّا بالقِـسْمَةِ[٢]، قـال تعـالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣١].

الثانيـة: أنـه وإن كـان المطـر لا يُحْيِـي إلَّا بتقـدير الله، فإنـه يُـستنزَل بالرغبة والسؤال، كذلك الرِّزْقُ يُلْتَمَسُ من الله[٣].

الثالثة: أن المطر في موضعه سَبَبُ الحيـاة، وفـي غيـر موضـعه سَبَبُ الخراب، كذلك المال لمستحقه سبب سلامته، وانتفاع المُتَّصِلِينَ به، وعنـد من لا يستحقه سَبَبُ طغيانه وبلاء[٤] من اتصَّل به[٥].

الرابعة[٦]:أن الماء إذا جاء بقَـدَرٍ نَفَـعَ، وإذا زاد علـى الحاجـة أَضَـرَّ، كذلك المال؛ إذا كان بقَدْرِ الكفاية فصاحبه في نَعِيمٍ، وإذا زاد فـصاحبُهُ فـي نَصَبٍ أو طغيان[٧].

---

(١) من الطويل، وهو لأبي الفتح البُسْتِي وقبله بيت، وهُمَـا فـي ديوانـه: (ص٢٩٧)، يرثي بهما الصَّاحب، وأنشده أبو القاسم القُشَيري في اللطائف: (٨٩/٢).

(٢) لطائف الإشارات: (٨٩/٢).

(٣) لطائف الإشارات: (٨٩/٢).

(٤) في (ص):بلائه.

(٥) لطائف الإشارات: (٨٩/٢).

(٦) في (ص): الرابع.

(٧) لطائف الإشارات: (٨٩/٢).

الخامسة: أن الماء إذا كان جارياً كان طَيِّبًا، وإذا اختُزِن تغيَّر، كذلك المال؛ إذا أَجْرَاهُ صاحبُه في مجاريه طاب، وإذا احتجنه خَبُثَ عليه[١] وعاب[٢].

السَّادسة: أن الماء إذا كان طاهرًا صَلَحَ للنبات والعبادات، وإذا كان نَجِسًا لم يصلح للعبادة[٣]، كذلك المال؛ إذا كان حلالًا استقام به المعاش والطاعة، وخَلُصَ من التَّبَاعَةِ[٤]، وإذا كان حرامًا إن كسا عَرِيَّتَه فقد[٥] أبدى عورته، أو سَدَّ جَوْعَتَه فقد أسقط حُرْمَتَه[٦].

السَّابعة: أن الماء إذا ثار عنه النبات، وخرجت به الأشجار، وأَيْنَعَتْ به الأزهار، واختلفت عليها المناظر للنُّظَّارِ، لا يأمن أن تُصِيبَه آفة من غير ارتقاب، وتنقلب عليه الحال بما لم يكن في حساب؛ فإنَّ المال إذا نما بيد صاحبه وتفنَّن في[٧] أنواعه، وعَمَّمَ[٨] به جميع لذَّاته، وكثُرت عليه الأعداد من الأزواج والأولاد، ورأى أن أحواله صافية، ومراتبه عالية، ومقاديره غالية، وآماله متدانية، ورياض لذَّته[٩] زاهرة، وغصون[١٠] أُنْسِه مُتَهَدِّلَةٌ[١١]،

---

(١) سقطت من (ص).

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٨٩).

(٣) في (ص): العبادات.

(٤) في (ص): التبعة.

(٥) في (ص): فلقد.

(٦) لطائف الإشارات: (٢/٨٩).

(٧) سقطت من (ص).

(٨) في (ص): تنعم.

(٩) في (ص): لذاته.

(١٠) في (ص): عضون.

(١١) في (ص): المتدللة.

إذَا بالدَّمار[١] قد أخذ[٢] الدِّيار، والذهاب قد جرى على الأحباب، والأموال قد تَقَسَّمَتْ بيد الانتهاب، واختُطِف[٣] هو من بينها[٤] أَرْجَى ما كان[٥] لها، وأَحْرَصَه[٦] عليها، وأَغْبَطَه[٧] بها، وأَشْوَقَه[٨] إليها[٩].

الثامنة: أنَّ من غَرَّتْهُ بأمانيها، وخَدَعَتْهُ بالأطماع فيها؛ دَسَّتْ له[١٠] الصَّابَ في شرابها، والحنظل في حَلْوَائِها[١١]، والشَّرَى في أَرْيِها[١٢]، تَعِدُ[١٣] فلا تَفِي، وتأخذ أكثر مما تُعْطِي، وتكسر العدات[١٤] وتخلفها، وتقيم الآفات وتُخْلِقُها[١٥]، نِعَمُها مَشُوبَةٌ بنقمها، وبؤسها أخو مأنوسها، وبلاؤها

---

(١) في (ص): الزمان.

(٢) في (ص): أبداً.

(٣) في (د): أو اختطف.

(٤) في (ص): بينهم.

(٥) في (ص): يكون.

(٦) في (د) - أيضًا -: أحرص.

(٧) في (د) - أيضًا -: أغبط.

(٨) في (د): أشوق.

(٩) لطائف الإشارات: (٢/٨٩).

(١٠) سقط من (ص).

(١١) مرَّضها في (د)، وفي الطرة: دول.

(١٢) في (ص): أربها.

(١٣) ضبَّب عليها في (د).

(١٤) في (ص): ويكثر العذاب.

(١٥) في (ف): يخلفها.

في ضمن[1] عطائها، المغرور من اغترَّ بها، والمغبون من أخذها عن الآخرة بَدَلًا، أو لم[2] يبغ عنها حِوَلًا، أو لم[3] يظنَّ نفسه عنها مُنْتَقِلًا[4].

ألم تَرَوْا[5] أن الله ضرب لذلك[6] مثلًا صاحب الجنَّتين، على الوصف الذي ذكرهما[7] سبحانه في كتابه، مع الآخر الذي لم يكن له مِثْلُها، فشكر أحدُهما خالقَه، وكفر الآخَرُ رازقَه، فأصبح الكافر وقد أخذتها[8] الجائحة، فذلك مَثَلٌ لرجلين[9]:

أحدهما: صَفَا له الوقت، ومهَّد له فَراش اللطف، وتمكَّن في الرضى من البَسْطِ[10]، فجرى على السبيل من البداية إلى النهاية؛ بصِدْقِ المعاملة، وعِزِّ القناعة، والرضى بالقَسْم، والشُّكْرِ على رَفْعِ المؤونة[11].

والآخَر: الذي أُعطي ووُسِّعَ عليه، فلم يُقَدِّرْ ما أُهِّل له، وسَكَنَ إليه[12] دون واهية، ولم يفطن أنه عارية إذا عَمِلَ فيها بالوجه المأمور به،

---

(١) في (ص): طلب.

(٢) في (ص): ولم.

(٣) في (ص): ولم.

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٣٩٨).

(٥) في (ص): تر.

(٦) في (ص): لك.

(٧) في (ص): ذكرها.

(٨) في (د): أخذته، وضبَّب عليها.

(٩) في (ص): الرجلين.

(١٠) في (ص): البطش.

(١١) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٣٩٦).

(١٢) في (ص): له.

وبليَّة إذا خُولِفَ به وجهه، فإذا بوقته قد أَظْلَمَ، ونوره قد أَغْيَمَ، وليله قد ادْلَهَمَّ، ونزلت القدرة بالعبرة، لبيان المنزلة وعدم النصرة[١]، وحقَّت عليه الكلمة[٢].

التاسعة: قوله[٣]: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٤]؛ إن[٤] كان هذا عن جائحة فهذه والآية التي قبلها سواء، وإن كان مَثَلًا للزَّرْعِ الذي أُخِذَ[٥] حَبُّه، ونُبِذَ[٦] قِشْرُه، فصار هشيمًا تذروه الرياح، أو زِبْلًا تتكرَّم به الأرض وتنداخ[٧]، فيكون ذلك لبديعة مَثَلًا، وهي:

العاشرة: إنَّ المال إذا أَخَذَ العبدُ منه حاجته في المعاش، وأرسل باقيه في الشهوات كان معدومًا[٨]، في حق الدنيا هشيمًا، وعاد به مذؤومًا[٩]، وصار وقته مذمومًا.

الحادية عشر: التنبيه على تفصيل[١٠] معنى الدنيا من المال والبنين؛ لأنها[١١] مناط الاعتضاد، ومُعْتَمَدُ العباد والاعتداد[١٢]، فإذا اغترَّ بماله،

---

(١) في (ص): النضرة.
(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٣٩٦).
(٣) سقطت من (د).
(٤) في (ص): فإن.
(٥) في (ص): أخرجته.
(٦) في (ص): لين.
(٧) في (ص): تتراح.
(٨) في (ص): مغبونًا.
(٩) في (ص): مذمومًا.
(١٠) في (ص): تفضيل.
(١١) في (ص): بأنها.
(١٢) في (ص): الاعتماد، ومرَّضها في (د).

واعتز بأولاده[(١)]، وتاه في غَفَلَاتِه، وفَنِيَتْ عليه قوابلُ[(٢)] أوقاته، وهو نَاسٍ لمولاه؛ خَسِرَ في حالِه، وندم في مآلِه[(٣)]، فإن هذا كله ذاهبٌ في نفسه، أو هو ذاهبٌ عنه يومًا، قيل[(٤)]:

فالمرء رهن مصائب لا تنقضي حتى يغيَّب في بواطن[(٧)] رمسِهِ
فمُؤَجَّلٌ[(٥)] يلقى الرَّدَى في أهلهِ[(٦)] ومُعَجَّلٌ[(٨)] يلقى الردى في نفسِهِ[(٩)]

وزينةُ[(١٠)] الدنيا بكرائمها، وزينة الآخرة بعظائمها، وزينة الدنيا ما يفنى، وزينة الآخرة ما يبقى.

وحقيقة الحال فيه: أن ما كان للنفس فيه حَظٌّ فهو من الدنيا[(١١)] وزينتها، ويدخل في ذلك الجاه وقبول الخلق وجميع المألوفات[(١٢)].

---

(١) في (د): اغتر.
(٢) قوله: «عليه قوابل» سقط من (ص).
(٣) لطائف الإشارات: (٢/٣٩٨).
(٤) قوله: «يومًا، قيل» سقط من (ص).
(٥) في (ص): فمعجل.
(٦) في (ص): رمسه.
(٧) في (ص): مواطن.
(٨) في (ص): مؤجل.
(٩) البيتان من الكامل، وهما لأبي فراس الحمداني، في ديوانه: (ص٢٠٢).
(١٠) في (ص): «وزينت الدنيا بكرائمها، والآخرة بعظائمها، وزينت الدنيا بما يفنى، وزينت الآخرة بما يبقى».
(١١) في (ص): للدنيا.
(١٢) لطائف الإشارات: (٢/٣٩٨).

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف:٤٥]: هي الأعمال الخالصة، كما تقدَّم اتِّسَاقُه[١] كما يجب؛ من ذِكْرٍ طَيِّبٍ، وعمل صالح؛ فإنهما يُصعَدان ويُحْفَظان، وهذان يذهبان ويفنيان[٢].

الثانية عشر: في وَجْهِ الذكرى[٣]؛ فإن الزرع يخرج مختلف الألوان، ثم يهيج فتراه مُصْفَرًّا، ثم يجعله حُطَامًا؛ التنبيهُ باختلاف أحوال الزرع من حين خَلْقِه واستنباته، إلى انبتاته على المرء[٤]، من أوَّل نشأته إلى وفاته، والزرع لا يخرج حبُّه[٥] إلا بعد الجفاف، كذلك المرء لا يطيبُ عَمَلُه إلَّا إذا راض نفسه، وأزال صَوْلَه[٦]، قبل أن يُرَدَّ إلى أرذل العمر، وهو حال الضعف في القوة، والوهن في الأعضاء، وقد كان النبيُّ ﷺ - في صحيح الحديث - يقول: «وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العُمُرِ»[٧]، ورَكَّبَ الناسُ على هذا التفسير الصحيح أمثالًا:

الأوَّل: أن يُرَدَّ إلى المعصية بعد الطاعة.

الثاني: أن يُرَدَّ[٨] إلى مساعدة الأماني بعد مجاهدة[٩] النفس.

---

(١) في (د): الشَّاقَّة، وفي (س): السَّاقة.
(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٣٩٨).
(٣) في (ص): الذكر.
(٤) في (ص): إلى إنشائه على المؤمن.
(٥) في (ص): منه.
(٦) في (ص): صولته.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب الدعوات، باب التعوذ من أرذل العمر، رقم: (٦٣٧١-طوق).
(٨) قوله: «أن يرد» سقط من (د).
(٩) في (د): مؤاخذة.

الثالث: أن يُرَدَّ إلى[1] السعي لحَظِّ نفسه[2]، والركون إلى الدعة بعد الاجتهاد والعبادة[3]، كان النبيُّ ﷺ إذا عَمِلَ عَمَلًا أثبته، وكان يتوقَّاه رِفْقًا بالأُمَّة[4].

الرابع: أن يُرَدَّ إلى[5] إفناء العُمُرِ في مَلَاذِّ[6] المعصية.

الخامس: إفناؤه[7] بين الجُهَّالِ.

كان كسرى إذا عَتَبَ على عالم سَجَنَه مع جاهل.

السَّادس: الذل بعد العز.

الثالثة عشر: سمَّاها باسمها المحقق، ووصفها بصفتها الخاصة[8]، فقال: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد:١٩].

المعنى[9]: أنها في الحال شاغلة، وفي المآل غير لابثة، مُطمعة غير مشبعة، تجري على غير سَنَنِ الاستقامة، جَرْيَ لُعاب الصبيان والمفندين من المتقادمين[10] في الأسنان، وتُلهي عن الصواب واستبصار الحق[11].

---

(١) قوله: «أن يرد إلى» سقط من (د).

(٢) في (ص): النفس.

(٣) في (ص): في العبادة.

(٤) في (ص): بأمته صلى الله عليه.

(٥) قوله: «أن يرد إلى» سقط من (د).

(٦) في (ص): باب.

(٧) في (ص): إفناء العمر.

(٨) في (ص): بوصفها الخاص.

(٩) في (د) - أيضًا -: أي.

(١٠) في (ص): المتقدمين.

(١١) لطائف الإشارات: (٣/٥٤١).

وحقيقةُ اللهو: هو[١] الاشتغال عن الشيء بما لا يفيد، أو بما هو دونه، وأشده بالمكاثرة[٢] في الأموال، والمفاخرة في الأولاد، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لمن أَخَذَها من غير وجهها، أو صَرَفَها في غير طريقها[٣]، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾؛ لمن قَدَرَها قَدْرَها، وعَلِمَ أنها جِيفَةٌ ملقاة، تتهاوش عليها الكلاب.

الرابعة عشر: أن المرء إنما يُكِبُّ عليها ويتهافت فيها حُبًّا للجاه[٤]، والدارُ الآخرة هي الحيوان، أي: دار الحياة، ففي تلك الحياة[٥] الباقية يجب أن يرغب[٦]، وهي التي ينبغي أن يُمَهِّدَ ويُحَسِّنَ، وينظر فيها ويستعدَّ لها، فأمَّا هذه الحياة المستعارة، والمنامة[٧] الغرَّارة؛ فيجب أن تُطْرَحَ طَرْحَ مِثْلِها، ولا يسكن إلى مائها وظِلِّها، وقليلٌ من الناس من مَلَكَ نفسه عنها، منهم: أبو ذَرٍّ، وأبو الدرداء.

[وقوفُ ابن العربي على قبر أبي ذَرٍّ بالرَّبَذَةِ]:

وقفتُ على قبر أبي ذَرٍّ بالرَّبَذَةِ مهل ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربع مائة، وهو على قارعة الطريق من الكوفة إلى مكة، غريبًا مفردًا، لا

---

(١) سقط من (د).

(٢) في (ص): المكاثرة.

(٣) قوله: «لمن أخذها من غير وجهها، أو صرفها في غير طريقها» سقط من (ص).

(٤) في (ص): الحياة، وأشار لها في (د).

(٥) قوله: «ففي تلك الحياة» سقط من (ص).

(٦) في (ص): يرغب فيها.

(٧) سقطت من (ص).

أُنْسَ[١] ولا عمارة؛ خرج هنالك أيَّامَ عثمان على وجه سليم صحيح[٢]، بيَّنَّاه في كتاب «العواصم»[٣]، لم يقدح في أحد، ولا قصَّر ببشر[٤]، ولا انتسب إليه فيه ظُلم، فأقام بها حتى مات رضي الله عنه[٥].

ولا أذكر أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا[٦]؛ فإنهم أعظم وأعلى، ومن التابعين خَلْقٌ كثير.

[زُهْدُ عامر بن عبد قيس]:

وما رأيتُ أبدع[٧] في زُهْدِه[٨] من عامر بن عبد قَيْسٍ العَنْبَرِي[٩]، قال عُبَيد الله بن الحسن: «قدمتُ الشام فسألتُ عن عامر، قال: فقيل: إنه يأوي إلى عجوز هاهنا، قال: فسألتها عنه، فقالت: هو في سفح ذلك الجبل؛ ليله ونهاره، فإن كانت لك إليه حاجة فتجيئه[١٠] عند فطوره[١١]، قال: فأتيتُه

---

(١) في (ص): أنيس.

(٢) في (ص): صحيح سليم.

(٣) العواصم: (ص٢٨٤-٢٨٦).

(٤) في (ص): قصد شرًّا.

(٥) في (ص): رحمه الله.

(٦) في (د): علي.

(٧) في (ص): أورع.

(٨) في (ص): زهد.

(٩) الزاهد الولي، عامر بن عبد قيس العنبري البصري، أبو عمرو التميمي، من أهل الفضل والعبادة والصدق، وله أخبار في الزهد والتقلل من متاع الدنيا، توفي في زمن معاوية، ترجمته وأخباره في: الزهد للإمام أحمد: (ص٢٦٩-٢٧٨)، وحلية الأولياء: (٢/٨٧-٩٥)، وسير النبلاء: (٤/١٥-١٩).

(١٠) في (ص): فجئه.

(١١) في (د) - أيضًا -: فطره، وبيَّض لها في (ص).

فسَلَّمْتُ عليه فردَّ علي السَّلام[١]، وسألني مساءلة[٢] رجل عهدته بالأمس، ولم يسألني عن أحد من أهله وعشيرته، ولم تَسُمْنِي[٣] العشاء، قال: قلت[٤]: يا عامر، لقد[٥] رأيتُ منك عجبًا، قال: وما هو؟ قلتُ[٦]: غِبْتَ عن أهلك وعشيرتك من حيث تعلم، ولم تسألني عمَّن مات منهم ومن عاش[٧]، وقد علمتَ مكاني فيهم[٨]، وساءلتني مساءلة رجل عهدته بالأمس، ولم يَسُمْني[٩] العشاء، قال لي[١٠]: أمَّا قولك في مساءلتي إيَّاك فقد رأيتك صالحًا، فعن أي شيء أسألك؟ وأمَّا عشيرتي وأهلي؛ من مات منهم فقد مات، ومن بقي فسيموت، فعن أي شيء أسأل؟ وأمَّا العشاء؛ فقد عهدتك تأكل طعام الأمراء، وطعامي فيه خشونة، ولم أظنَّ أن بك حاجة إليه»[١١].

وقال له رجل: «رضيتَ من شَرَفِك وحَسَبِك[١٢] بيتَك هذا ولباسَك هذا[١٣]؟ قال: هذه قُرَّةُ عين عامر»[١٤].

---

(١) سقطت من (د).

(٢) في (ف): مسألة.

(٣) في (ص): يسمن.

(٤) في (ص): فقلت له.

(٥) سقطت من (د).

(٦) في (د): قال.

(٧) في (ص): ولم تسألني عن أحد منهم.

(٨) في (ص): منهم.

(٩) في (ص): تتسمن.

(١٠) سقطت من (د).

(١١) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٧٢).

(١٢) في (ص): نسبك.

(١٣) سقط من (د).

(١٤) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٧٢).

[زُهْدُ أبي يزيد البِسطامي]:

وما رأيتُ أبدع في مَثَلِ الدنيا وقَدْرِها وقِيمَةِ إبليس صاحبها من قول أبي يزيد البِسْطَامِي؛ فإنه رُوي عنه في[١] أخبار العُبَّادِ أنه دخل على قوم فيهم أبو موسى عبد الرحيم الصُّوفِي، فقال لهم: في أي شيء تتكلمون؟ قالوا: في الزهد، قال[٢]: في أي أنواعه؟ قالوا[٣]: في الزهد في الدنيا، فنَفَضَ[٤] يده، وقال: ظننتُ أنه يُتكلَّم[٥] في شيء، الدنيا لا شيء، مَثَلُ من تَرَكَ الدنيا - عند أهل المعرفة - مَثَلُ من مَنَعَه كَلْبٌ عند باب المَلِكِ عن[٦] الدخول إليه، فألقى له[٧] لقمة شَغَلَه[٨] بها ودخل الباب، ووصل إلى الملك وأقبل عليه فنال القُرْبَ منه، أفترى[٩] أنه يرى لنفسه عند الملك يدًا بأن ألقى لكلبه لقمة في مقابلة ما ناله، فالشيطان كَلْبٌ على باب الله؛ يمنع الناس من الدخول عليه، والباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والإذن موجود، والشرط غير مفقود»[١٠].

---

(١) سقطت من (ص).

(٢) في (د): قالوا، وهو سبق قلم.

(٣) في (د): قال.

(٤) في (ص): «قال: فقبض».

(٥) في (ص): أنكم تتكلمون.

(٦) في (ص): من.

(٧) في (ص): إليه.

(٨) في (ص): فشغله.

(٩) ضبَّب عليها في (د)، وفي الطرة: في خـ: أترى.

(١٠) الإحياء: (ص١٥٨١).

[شهواتُ الدنيا]:

وكان[١] مِن الزهاد[٢] مَن الدنانيرُ والدراهم عنده بمنزلة البَعَرِ، وهي معنى الدنيا، فمن أهانها فقد أخذ بزِمَامِ الزُّهْدِ، وقد بيَّنَّا أن الزهد قَطْعُ حظوظ النفس كلها؛ لاعتقادك أن النفس بشهواتها[٣] حقيرة، وبطاعاتها[٤] عظيمة، وهذه كما قدَّمنا المنزلة العظمى[٥]؛ فإن الدنيا كلها محبوبة مشتهاة، لأغراض ملائمة ومخالفة، والمخالف يفيد الملائم ويُعِينُ عليه، وأصولها سبعة، وهي في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤][٦].

وهذا البَعْضُ يَدُلُّ على ما سواه، وأشدُّ ما يُهلك الناس على العموم من هذه السَّبعة الأحمران، وهما: الذهب والفضة، فمن اتَّقى هذه الشهوات فله خَيْرٌ من ذلك؛ وهو جنَّات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما تشتهيه الأَنْفُسُ وتَلَذُّ الأعين، وأزواج مُطَهَّرَةٌ؛ ليس فيهن[٧] دَنَسٌ ولا قَذَرٌ، ورضوانٌ من الله الذي هو أجلُّ من ذلك.

---

(١) قبله في (ف) و(ص): قد، وضرب عليها في (د).

(٢) في (ص): كان الزهري في الدنانير، وهو تصحيف.

(٣) في (ص): شهواتها.

(٤) في (ص): طاعاتها.

(٥) في (ص): وهذا كله غاية المنزلة.

(٦) في (ص): قوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ إلى آخر الآية.

(٧) في (ف) و(ص): فيها.

ثم ذَكَرَ في آية أخرى خمسة منها: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾ [الحديد:١٩]، فاللعبُ راحة النفس، واللهو آفَتُها؛ فإن الدنيا رُتْبَةٌ وُضِعَتْ لبلاء الأعمال في الحسن والقبح، وجُبِلَتِ القلوب على المفاخرة، وحُبِّبَ[١] إليها المكاثرة، وقد ذَكَرَها في آيَةٍ أخرى فقال باختصار أَوْعَبَ[٢] من هذا، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[٣] [العنكبوت:٦٤]، إذ ذلك لجميعها.

ثم من[٤] عَظِيمِ[٥] الفصاحة وسَعَةِ العِلْم رَدُّ الكل إلى واحد، فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٣٩]، فإن العبد مُتَرَدِّدٌ بين عَقْلٍ وشَهْوَةٍ ولَمَّتَيْنِ؛ من المَلَكِ لَمَّةٌ بالعقل، ومن الشيطان لَمَّةٌ بالشهوة، ومن الله التوفيق للمَلَكِ، والخذلان للشيطان، والعِلْمُ الأوَّل والقلم[٦] السَّابق قد نَفَذَ، والكلُّ يصير إلى ما يصيرُ إليه، وإذا اتَّبع العبد مُناه، واتخذ إلهه هواه، وانقاد لكل ما يتمنَّاه[٧]؛ فذلك هَلَكُهُ، وينبغي أن يجعل المؤمنُ بين عَيْنَيْه حديث النبي عليه السَّلام الصحيح[٨]: «الدنيا سِجْنُ المؤمن، وجَنَّةُ الكافر»[٩].

---

(١) في (ص): حببت. (٢) في (ص): أوضح.

(٣) في النسخ: «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو».

(٤) سقطت من (ص).

(٥) في (ص): تعظيم.

(٦) في (ص): العلم.

(٧) قوله: «وا تخذ إلهه هواه، وانقاد لكل ما يتمناه» سقط من (ص).

(٨) في (ص): في الصحيح.

(٩) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﵁: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، رقم: (٢٣٢٤-بشار).

حكاية[١]:

كان سَهْلٌ الصُّعلوكي[٢] الفقيه[٣] من أهل[٤] خراسان[٥]، وكان[٦] ممَّن جمع رئاسة الدين والدنيا، خرج عليه يومًا وهو في موكبه من مِسْخَنِ حمَّام يهوديٌّ في أَطْمَارٍ سُخْمٍ[٧] من دخانه، فقال له: «ألستم تَرْوُونَ عن نَبِيِّكُم: «أنَّ الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»؟ وأنا عبد كافر وترى حالي[٨]، وأنت مؤمن وترى حالك، فقال له على البديهة: إذا سِرْتَ[٩] غدًا إلى عذاب الله كانت هذه جنتك، وإذا سرتُ[١٠] أنا إلى نعيم الله ورضوانه كان هذا سِجْنِي»، فعجب الخلقُ من فقهه وبداهته، والحديثُ صحيحٌ جِدًّا.

---

(١) من هنا تبدأ النسخة (ك)، وهي السفر الثاني من سراج المريدين.

(٢) الإمام الفقيه، شيخ الشافعية، ومفتي نيسابور، سهل بن محمد العجلي الحَنَفِي -نَسَبًا-، أبو الطيب الصُّعلوكي، تـ ٤٠٤هـ، تفقَّه وتخرَّج على والده أبي سهل، وبلغ شأوًا رفيعًا في بلده، وناظر وأملى وحدَّث، ترجمته في: الأنساب: (٦٤/٨)، وتبيين كذب المفتري: (ص٢١١-٢١٤)، وطبقات الشَّافعية: (٣٩٣/٤-٤٠٤).

(٣) بعده في (ص): الحنفي، وضَرَبَ عليها في (د).

(٤) سقطت من (ص).

(٥) قوله: «من أهل خراسان» قُرِضَ موضعُها في (ك).

(٦) في (ك) و(د): كان.

(٧) في (د): مسخم.

(٨) في (د) - أيضًا -: ما بي.

(٩) في (ص): صرت.

(١٠) في (ص): صرت.

ومن الحديث الحسن: «الدنيا سِجْنُ المؤمن وسِنَتُه، فإذا فارق الدنيا فارق السِّجْنَ والسِّنَةَ»[١].

[حَقُّ الآدَمِيِّ من الدنيا]:

ولابن آدم أن يستوفي حقَّه كما قدَّمنا، ولا حساب عليه فيه، وليس له فيما سواه حق.

صحَّ[٢] عن عثمان أن النبي ﷺ قال: «ليس لابن آدم حَقٌّ في سوى هذه الخصال؛ بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْفُ الخبز والماء»[٣].

قال النَّضْرُ بن شُمَيْل: «يعني بالجِلْفِ: ليس معه إدام»[٤].

وصحَّ أن النبي قال: «ابن آدم؛ أن تَبْذُلَ الفضل خَيْرٌ لك، وأن تُمْسِكَه شَرٌّ لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تَعُولُ، واليدُ العليا خَيْرٌ من اليد السُّفْلَى»[٥].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (٤٨٧/١)، رقم: (٥٥٣)، ومن طريقه الإمام أحمد في المسند: (٤٤٢/١١)، رقم: (٦٨٥٥-شعيب)، وذكر السخاوي أن الحاكم صحَّحه، ينظر: المقاصد: (ص٢١٧)، وفي المسند: السَّنة: بفتح السين، وأثبتُّها كما وجدتها مضبوطة في النسخ.

(٢) في (د): وصحَّ.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: أبوابُ الزهد عن رسول الله ﷺ، بابٌ منه، رقم: (٢٣٤١-بشار)، وصحَّحه.

(٤) الجامع: (١٦٥/٤-بشار).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي أمامة رضي الله عنه: كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم: (١٠٣٦-عبد الباقي).

[مَثَلُ الدنيا في حديث رسول الله ﷺ]:

وقد ضرب النبيُّ مَثَلَ الدنيا في حديث بَدِيعٍ صحيح رتَّبناه في كتاب «قانون التأويل»[١]، بما نصُّه: فقال النبي ﷺ: «أيها الناس، والله ما أخشى عليكم إلا ما يُخْرِجُ الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: يا رسول الله، وما زهرة الدنيا؟ قال: بركات الأرض، فقالوا[٢] أو قال رجل: أياتي الخير بالشر؟ فسكت عنه رسول الله، قلنا: ما شأنك؟ تُكَلِّمُ رسول الله ولا يُكَلِّمُكَ، قال: ورأينا أنه يُنْزَلُ عليه، فأفاق فمسح عنه الرُّحَضَاءَ، وقال: أين السائل؟ وكأنَّه حَمِدَه، فقال: إنه لا يأتي الخير إلَّا بالخير، ثلاثًا، وإنَّ ما يُنبت الربيعُ يقتل حَبَطًا أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ، أكلتْ حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلتْ عين الشمس فثَلَطَتْ[٣] وبالت، ثم رتعتْ، وأن هذا المال خَضِرٌ حُلْوٌ، نِعْمَ صاحب المسلم هو؛ لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وأنه من يأخذه/ بغير حقه فهو كالذي يأكل ولا يشبع»[٤].

٢ [١/ب]

فضرب النبيُّ مثلًا لستة[٥]: الربيع، البهيمة الهالكة بالأكل، آكلة الخضر، الشمس، ثَلَطَتْ وبالت، عادت فأكلت؛ لستة: لصاحب[٦] المال،

---

(١) قانون التأويل: (ص٢٨٧-٢٨٩).

(٢) في (ك) و(ص): فقال.

(٣) الثَّلَطُ: الرجيع الرقيق، وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفِيَلة، النهاية لابن الأثير: (١/٢٢٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﵁: كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم: (١٠٥٢-عبد الباقي).

(٥) في (ص): بستة، وأشار إليها في (ك).

(٦) سقطت من (ك) و(ص).

الهالك بجَمْعِه وإيعابه، المجتزئ منه باليسير الكافي، نور الإسلام، أداء[١] الحق[٢]، عاد فاكتسب.

فانظروا - رحمكم الله - كيف يتحصَّل هذا المَثَلُ للمُعْتَبِرِينَ مع سلوك سبيل المهتدين، لكن بالإيجاز[٣] مع هذا الاستيفاء.

وذلك أن المال في لسان الشريعة خَيْرٌ محمود، ومعنى ممدوح، كما قال: «نعم صاحب المسلم هو» بعد ذلك، ومع أنه خَيْرٌ في القرآن، ونِعْمَ الصاحب في الحديث؛ فإنه مَخُوفُ العاقبة، لاحتماله النفع والضر، ووجود ذلك مُشَاهَدٌ[٤] فيه، والسَّائل في الحديث لكون الخير المرجو يأتي بالشر المَخُوفِ[٥]، سأل ذاهلًا عن انقسام حال المال وعن غلبة الشهوة باكتسابه وتَصَرُّفِ النفس فيه بأنواع لذَّاتها، فبيَّن لنا النبيُّ «أن الخير لا يأتي إلَّا بالخير» بالوحي المُنْزَلِ عليه، وأكدَّ ذلك ليقوى ثُبوته في القلب[٦]، ويتحقَّق أن ما صدر عن النبي كان عن عِلْمٍ أَسْمَعَه بيانَه بعد ذلك.

فوقع التَّمْثِيلُ في البيان بين المال والمُكْتَسِبِ[٧] له، وبين البهيمة ورَتْعِها في زهرة الربيع، وهو: **التقابل الأوَّل**.

---

(١) في (د): إذا

(٢) في المنشور من القانون (ص٢٨٨): إذا الحق، وهو تصحيف، صوابه ما أثبته، وكذلك هو في نسخة سليم آغا من القانون: (ق٣٦/ب).

(٣) في (ك): الإنجاز.

(٤) في (ص): مشاهدًا.

(٥) هنا تنتهي نسخة (ف).

(٦) في (د): قلب السائل.

(٧) في (ك): المنتسب.

وبين القَتْلِ حَبَطًا أو الإشراف على الموت حِسًّا، وبين الهلاك في الدين أو مقاربته حُكْمًا إن لم تتداركه بصيرة، وهو: **التقابل الثاني**.

وبين المقتصد على كَسْبِ المال بقَدْرِ الكفاية وبين البهيمة المجتزئة بالخَضِرِ، وهو: **التقابل الثالث**.

وبين الاهتداء بنور الشريعة في المال، وبين استقبال الماشية الشمس على طريق الاستمراء والاستراحة من الرَّتْعِ[١]، وهو: **التقابل الرابع**.

وبين الثَّلْطِ والبول اللذين كانا يعودان لو بَقَيَا على الماشية بالهَلَكَةِ، وبين أداء الحق، وهو: **التقابل الخامس**.

وبين العَوْدِ إلى الأكل بعد الاستراحة وإخراج الفضل، وبين العود إلى كسب المال بعد أداء الحق، وهو: **التقابل السَّادس**.

إلى آخر تمام الكلام في تحقيق التمثيل على التفصيل، بما هو مُوَضَّحٌ في «قانون التأويل[٢]»[٣]، فعرَّف فيها الدنيا ومقدارها، وكيفية الانتفاع بها، وآفتها ومثالها[٤]، ووجه الخلاص منها، وفائدة الانكفاف عنها.

٢ [٢/أ]

ويُروى/ عن مالك بن أنس أنه قال: «الزهد التقوى»، ولم أحفظه، ولعله أراد: تَرْكَ الشبهات؛ فإنه كان له تَوَسُّعٌ في المباحات.

---

(١) في (ص): المرتع.

(٢) في (ك) و(ص) و(د): القانون، ومرَّضها في (د).

(٣) قانون التأويل: (ص٢٨٩).

(٤) في (ك): ما لها، ومرَّضها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

[زُهَّادُ الصَّحابة]:

والزُّهْدُ هو حَالُ أبي بكر وعمر وأبي ذَرٍّ وأبي الدرداء وتَمِيمِ الدَّارِي، ومن ماثلهم، وما أكثر الزهَّاد في الصحابة ﷺ، وعبد الرحمن والزبير زاهدان، فلا تلتفت لرواية الجاهلين: «أنه يدخل الجنة حَبْوًا»[١]، ما يسبقه إليها أحد، والزبير لا يعادله بَشَرٌ، ولو تَتَبَّعْتُهم لك لرأيتَ أمرًا غريبًا يجهله الناس.

ولن يلحق أَحَدٌ في الزهد منزلة عثمان؛ فإنه زَهِدَ في نفسه فباعها لئلا تهراق[٢] لمسلم مِحْجَمَةُ دَمٍ، وحتى لا تنشأ الفتنة من قِبَله ولا في أيَّامه، ودفع الكل عنه، واستسلم لأمر الله سبحانه.

أحوالُ الزَّاهِدِ[٣]:

وهي سبعة[٤]:

الأوَّل: لباسُه؛ وقد تقدَّم في الحالة الأولى[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن عائشة ﵂: (٣٣٧/٤١)، رقم: (٢٤٨٤٢- شعيب)، والطبراني في أكبر معاجمه: (١٢٩/١)، رقم: (٢٦٤)، ومن طريقه أبو نُعَيم في معرفة الصحابة: (١٢٣/١)، رقم: (٤٨٦)، ومدار الحديث على عمارة بن زادان، ضعَّفه غير واحد، وقال الإمام أحمد: «هذا الحديث كذب منكر»، ينظر: الموضوعات لابن الجوزي: (١٣/٢).

(٢) في (ص): يهراق.

(٣) في (ص): الزهد.

(٤) في (د) - أيضًا -: سبع.

(٥) أي: قسم المقامات، وهو القسم الأوَّل من الكتاب.

الثانية: طعامه؛ وقد تقدَّم أيضًا بيانُه فيها[١].

الثالثة: هَدْيُه؛ وهو المقصود، فينبغي ألَّا يكون فِعْلُه وحاله[٢] بخلاف كلامه، إن أَمَرَ فلا يُكَذِّبُه لباسُه، ولا يعترض عليه أَكْلُه، بل تكون أحواله الثلاثة متعاضدة.

وقد نظر رافع بن خُدَيج إلى الأمير بالكوفة وهو يَعِظُ فقال: «انظروا إلى أميركم؛ يعظ الناس وعليه ثياب الفُسَّاقِ»[٣]، وكان عليه ثياب رِقَاقٌ.

ونُجَدِّدُ العهد عندكم والتوصية لكم بأن يكون المرء في لباسه ومطعمه ومَشْرَبِه على الحالة الوَسِطَةِ إن وَجَدَ الحلال، فإن لم يجده؛ فعلى الأقل حتَّى لو لم يجد إلَّا ثوبًا من وَرَقِ المَوْزِ أو سَعَفِ النَّخْلِ فليَسْتَتِرْ به.

وليس من الزهد تَرْكُ النكاح كما قدَّمنا، إلا أن يكون الرجل لا غَرَضَ له في النساء، ولا يَقْدِرُ على رِزْقِها من الحلال، أو يخاف الفتنة من قِبَلِها؛ فيكون تركُها أولى له.

صَحِبَ رجلٌ عامرَ بن عبد قَيْسٍ في سَفَرٍ، فلمَّا عرَّس القومُ أصلح من متاعه ثم دخل غَيْضَةً، قال: «فصلَّى وجلستُ خلفه، فلمَّا كان من آخر الليل أو في السَّحَرِ قال: اللَّهم إني سألتك ثلاثًا فأعطيتني ثِنْتَيْنِ[٤] ومنعتني واحدة، اللَّهم فأعطينيها حتى أعبدك كما أريد، فلمَّا بَرَقَ الفَجْرُ/ التفتَ فرآني فقال: أنتَ منذ الليلة تراعيني؟ وشدَّ عليَّ لسانه[٥]، قلت: لَتُخْبِرَنِّي

٢ [٢/ب]

---

(١) في القسم الأوَّل من الكتاب.

(٢) في (د) و(ك) و(ص): قوله، وضبَّب عليها في (ص).

(٣) قوت القلوب: (١/٤٦٨).

(٤) في (د): اثنتين.

(٥) سقطت من (ك) و(ص).

بهذه الثلاث أو لأخبرنَّ بحالك، فأخذ عليَّ العهد، ثم قال: سألتُ ربي أن يُذهب عن قلبي حب النساء ففَعَلَ، وألَّا أخشى غَيْرَه ففَعَلَ، وأن يُذهب عَنِّي النوم حتى أعبده الليل والنهار فمَنَعَنِيهَا»[١].

وقال عامر: «وجدتُ الدنيا أربع خصال؛ المال، والنساء، والمطعم، والنوم، فأمَّا المال فلا حاجة لي فيه، وأما النساء فلا أبالي؛ رأيتُ امرأة أو رأيت جِدَارًا، وأمَّا الطعام والنوم فلم أجد منهما بُدًّا، وأيمُ الله لأُضِرَّنَّ بهما»[٢].

فكان إذا جاء الليل جعله نهارًا[٣]، وإذا جاء النهارُ صام ونام.

والذي عندي ما قلتُ لكم: إن النبي شَرِبَ الماء البارد والحُلْوَ، وكان يُعجبه ويستهديه[٤]، ويأكل ما[٥] وَجَدَ، ويصبر إذا فَقَدَ[٦]، وليس بنا مَعْدِلٌ عن سُنَّتِهِ في الحلال[٧].

الرابعة[٨]: مسكنه؛ وأفضلُه جَبَلٌ أو موضع خالي في هذا الزمان، أو قَعْرُ بيته إن أمكنه، حتى يدخل عليه فيه مَلَكُ الموت، والله يُعِيذُ من دُخُولِ

---

(١) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٧١).

(٢) الزهد للإمام أحمد: (ص٢٧٤).

(٣) قوله: «جعله نهارًا» سقط من (ص).

(٤) في (ص): يستلذ به.

(٥) في (د) - أيضًا -: إذا.

(٦) في (ص): افتقر.

(٧) تقدَّم ذِكْرُ ذلك في القسم الأوَّل من الكتاب، وهو قسم المقامات.

(٨) في (د): والرابعة.

ظالم عليه، وقد قال النبيُّ لمن قال له: «يُدخل عليَّ في بيتي»؟ قال: «كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل»[١].

[فتنةُ الحَرَّةِ]:

ولمَّا كان في فتنة الحَرَّةِ وخَلَعَ أهلُ المدينة يَزِيدَ[٢] بفُضُولهم؛ خرج عبد الله بن عمر عنهم في جماعة، وبقي أبو سعيد الخُدْرِي مُسْتَسْلِمًا لقضاء الله، فلمَّا أحاطت الجيوش بالمدينة وقُتِلَتِ الخَلْقُ؛ دخل أبو سعيد الخدري في غَارٍ في ذلك اليوم، فدخل عليه رَجُلٌ[٣] ثم خرج، فقال لرجل من أهل الشام: «أَدُلُّكَ على رجل تَقْتُلُه؟ فلمَّا انتهى الشامي إلى باب الغار قال لأبي سعيد - وفي عُنُقِ أبي سعيد السَّيْفُ -: اخرج إليَّ، قال: لا، وإن تدخل عليَّ أقتلك، فدخل الشَّامي عليه، فوضع أبو سعيد السَّيْفَ، وقال: بُؤْ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين، فقال أبو سعيد الخدري: أنتَ، قال: نعم، قال: فاستغفر[٤] لي، قال: غفر الله لك»[٥].

---

(١) هو بألفاظ قريبة منه في المسند للإمام أحمد، أخرجه من حديث خالد بن عُرْفُطة رضي الله عنه: (١٧٧/٣٧)، رقم: (٢٢٤٩٩-شعيب)، ولفظه: «فإن استطعت أن تكون عبد الله المقتول لا القاتل فافعل»، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه: (٦٠/٤)، رقم: (٣٦٢٩)، ولفظه فيه: «فإن أدركتك فكن عبد الله المقتول»، وينظر: البدر المنير: (٨/٩)، وتلخيص الحبير: (١٥٧/٤).

(٢) في (ص): يزيد بن معاوية.

(٣) بعده في (ك): ثم رجل، وضرب عليها في (د).

(٤) في (ص): استغفر.

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر: (٣٩٤/٢٠).

[حكاية]:

وقد كان بالصخرة المقدَّسة شيخ صالح معتكف، مُلَازِمٌ عُمْرَه لها؛ ليلًا ونهارًا، شاهدتُ هَدْيَه، وعبدتُ الله بُرْهَةً معه، وكان قد حَفَرَ قبرًا في الطُّورِ بإزاء مسجد عمر بن الخطاب بالسَّاهرة، فكان يخرج إليه كل ٢ خميس/ ويضطجع فيه، ويقول: «هذا يا نفسي بيتُك، هذا مأواك، هذه [٣/أ] دارُك، ما ادَّخرت لها؟ ما أعددت فيها؟ وإليها عن قَرِيبٍ المَصِيرُ، والأَمَدُ للمقام[١] فيها طويل»، ويبكي حتى تكاد نَفْسُه تذهب، ثم يعود إلى الصخرة المقدَّسة معتكفه[٢]، فقدَّر الله أن يقتله[٣] الرُّومُ على باب قُبَّةِ الصخرة؛ شهيدًا في جملة شهداء المسجد الأقصى، ولم يدفن فيه، صدق الله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤] [لقمان:٣٤].

[تَتِمَّةُ الحديث في أحوال الزاهد]:

فإن لم يَتَّفِقْ فدارٌ يبتاعها أو يَبْتَنِيها[٥]، ولا بأس أن يَبْتَنِيها[٦] ببناء يَثْبُتُ؛ لئلَّا يحتاج في كل وقت إلى رَمِّها فيكون شُغْلًا، ولا يتطاول فيها بجَوْدَةِ صِفَةٍ ولا بارتفاع، إلَّا أن يخاف اللصوص؛ فليرفع حتى يأمن، ولو شاء ربُّك لمَنَعَ الإمامُ بنِيَّتِه وعَدْلِه اللصوص[٧]، ولكن لم يفعلوا؛ فاحتاج الناس إلى التحصين.

---

(١) في (ص): أمد المقام.

(٢) في (ص): ثم يعود إلى معتكفه بالصخرة المقدسة.

(٣) في (ص) و(د): تقتله.

(٤) في (ك): والله عليم خبير.

(٥) في (ص) و(د): يبنيها. (٦) في (ص) و(د): يبنيها.

(٧) في (ص) و(ك) و(د): اللص، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من الطرة.

وليس في البُنْيَانِ حديث صحيح إلَّا حديث المطاولة[١]، أَمَا إنَّ[٢] النبي تُوُفِّيَ ولم يضع لَبِنَةً على لَبِنَةٍ، وإنَّما كان عَرِيشًا كعَرِيشِ موسى.

الخامسة: صَبْرُه على الحاجة إن عرضت به[٣]، أو نزلت به جائحة أو فاقة؛ لأنه[٤] قد بيَّنَّا أنه لا بد من معرفة المرء بربِّه وبنفسه، وبما عنده، وبما يحتاج أن يصحبه ويتزوَّده؛ وهو العمل الصالح، حتى لا يظهر شيء من ذلك عليه، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يَحْسِبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾[٥] [البقرة:٢٧٢].

السِّمِيَّاءُ[٦] التي يُعْرَفُونَ بها رِضَاهُم بحُكْمِ المولى.

وقيل: السِّيماءُ: التَّجَمُّلُ[٧]، كما قال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج:٥]، في أحد[٨] الأقوال.

وقيل: مجانبة أهل الدنيا.

وقيل: أن يُؤْثِرَ على نفسه؛ حتى يتوهَّم المُعطي له أن الذي أعطاه غَنِيٌّ[٩].

---

(١) يقصد حديث جبريل، وفيه: «وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْمُ في البنيان»، أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السَّاعة، رقم: (٥٠-طوق).

(٢) سقطت من (ك).

(٣) سقطت من (ك) و(ص).

(٤) في (ك) و(ص): لأنا، ومرَّضها في (د).

(٥) في (ك) و(ص): يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

(٦) قبله في (ك) و(ص): هي، وضرب عليها في (د).

(٧) في (ص): التحمل.

(٨) في (ك): الأحد.

(٩) الكشف والبيان: (١/٢٧٧).

وقيل: هو ألَّا يدَّخر خَوْفَ[١] غَدٍ.

وقيل: أن لا يسأل إلَّا الله؛ كما قال العبد الصالح: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

المعنى: أنا محتاج إلى رِزْقِي الذي كتبته لي، فإن كان فأَوْصِلْه إليَّ، وارفع حاجتي به.

وقيل: هو الذي يتعرَّض ولا يُصَرِّحُ بالسؤال، كما تقدَّم.

السَّادسة: قد بيَّنَّا أنه لا يُناقض الزُّهْدَ قَبُولُ الخير من[٢] الدنيا إذا جاء، فقد كان الزهَّاد يقبلون عطاء الملوك، ومنهم من يَرُدُّه؛ وذلك إذا لم يخافوا أن يكون ثمنًا لدِينِهم/ كما تقدَّم، فإن صرَّح بالسؤال فليصدُق عن حاجته. [٣/ب]

سمعتُ بجامع الخَلِيفَةِ بمدينة السَّلام رجلًا يقول: «أيُّها الناس؛ تروحون إلى الجمعة في كسوتها، وليس لها عندي شارة مستجدَّة، فكساه أبو طاهر النَّرنيني[٣] أثوابًا[٤] للجمعة، فخرج فيها[٥] للثَّانية»[٦].

---

(١) في (د) - أيضًا -: جور.

(٢) في (د) - أيضًا -: في.

(٣) في (ص): النرسي، وفي (د): البرسيي، وفي العارضة (٣/١١٠): المرسي، وفي جامع القرطبي (٤/٣٨٠): البرسني، ولم أعرفه حتى يمكنني أن أضبط اسمه، فالله أعلم به.

(٤) في (ص) و(ك): أحد التُّنَّاء، وأصلحها في (ص): أجدَّ الثياب، وفي جامع القرطبي نقلًا عن ابن العربي (٤/٣٨٠-التركي): أخذ الثناء، وفي أحكام القرآن لابن العربي (١/٢٤٠): لأخذ الثناء بها، وكلاهما تصحيف، يقال: هو من تُنَّاء تلك الكُورة، أي: أصله منها وفاضل من فضلائها، تاج العروس: (١/١٦١).

(٥) في (د) - أيضًا -: بها.

(٦) ينظر: القبس: (٣/١١٩٠)، والعارضة: (٣/١١٠).

وسمعتُهم يقولون: «اشتهيتُ كذا، اشتهيتُ كذا[١]، اشتهيتُ جِذَابَةً[٢]»[٣].

والقَدْرُ الكافي[٤] منها إذا كان مُتْقِنًا بدينار؛ فيبدي التصريح بالحاجة، فمن أعطى عليها أُجِرَ، ومن أخذها لم يأثم، فإن كَذَبَ أو أَوْهَمَ في السؤال أنه يحتاج شيئًا وهو يَجِدُه[٥] فقد أَثِمَ، وإذا صرَّح بالسؤال فيه؛ إن كانت حاجة تعيَّن كشفُها، قال النبي ﷺ: «رُدُّوا السَّائل ولو بظِلْفٍ مُحْرَقٍ»[٦]، وإن كانت شهوة لم يلزم ذلك؛ وإن كانت فيه مَثُوبَةٌ.

وحرَّم بعضُ الصوفية السؤال، قال: «وهو تَشْنِيعٌ من العبد على المولى»[٧].

[نَقْدُ قول الصوفية: السؤال تشنيع من العبد على المولى]

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي رضي الله عنه: وهذا جَهْلٌ عظيم، ومُتاخمة للمعتزلة في حَمْلِ أفعال الله على أفعال العباد، ولقد أخبرنا الله أنَّ

---

(١) قوله: «اشتهيت كذا» سقط من (د).

(٢) الجذب: الشحمة التي تكون في رأس النخلة؛ يُكشط عنها الليف فتؤكل، فلعلها هي، وغريب أن تشتهى من قبل السؤَّال، وكذلك وردت في القبس -نسخة نور عثمانية-: (ق١٧٦/ب)، ينظر: تاج العروس: (١٤٣/٢).

(٣) ينظر: القبس: (١١٩٠/٣).

(٤) سقطت من (ك) و(ص).

(٥) في (ك) و(ص): غيره.

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه عن أم بُجَيْدٍ رضي الله عنها: أبواب الزكاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حق السائل، رقم: (٦٦٥-بشار).

(٧) الإحياء: (ص١٥٦٤).

من عباده فقيرًا وغنيًّا، وأمرنا بأن نَعُودَ على الفقراء، وذلك من حُكْمِه وحِكْمَتِه، فأيُّ تشنيع في أن يُخْبِرَ عن حاله التي تختصُّ به[١]؟ وقد أعلمنا الله بها في الجملة، فهذا من ذلك التفصيل.

قالوا: «وفيها إذلالُ المرء نفسه»[٢].

قلنا: وأيُّ ذُلٍّ في أن يُحِيلَك مولاك بنعمة أعطاها لك على[٣] عبد آخَرَ أخيك بحَقٍّ[٤] هو له عنده، الذُّلُّ على المسؤول لا على السَّائل؛ فإنه خازنُك، إن أعطاك ما أُمِرَ به أُجِرَ، وإن تردَّد أو تكرَّه أَثِمَ.

قالوا: «وفيها إيذاء للمسؤول؛ لأنه إن سَمَحَ شَقَّ عليه مفارقة ماله، وإن بخل تصوَّر بصورة مذمومة»[٥].

قلنا لهم: شَقَّ الله عليهم، ولِمَ يبخلون بما آتاهم الله من فَضْلِهِ؟ أيحسبونه خيرًا لهم؟ بل هو شرٌّ لهم.

ورَوَوْا في ذلك حديثًا عن النبي: «مسألة الناس من الفواحش»[٦].

قلنا لهم: من أعظم الفواحش وأكبر الكبائر وأَشَدِّ الموبقات روايةُ هذا الحديث.

---

(١) في (د): تختص بها.

(٢) الإحياء: (ص١٥٦٤).

(٣) في (د) - أيضًا -: يد، وفي (ص): على يد.

(٤) في (د): يحق.

(٥) الإحياء: (ص١٥٦٤).

(٦) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «لا أصل له»، ينظر: الإحياء: (ص١٥٦٤)، هامش رقم (١).

وأمَّا تحريمُ السؤال للغني فلا خلاف فيه في الجملة، وإن اختلفوا في تفصيله، والذي يكشف القناع أن يُصَرِّحَ بسؤاله، إلَّا أن السلطانَ يسأله الغني والفقير لحقوقهم عنده، فالسؤال اليوم ذِكْرَى، حتى إذا مُنِعَ صَبَرَ[1] وأدَّى الذي عليه، وسأل الله الذي له.

٢ [٤/أ] وقد لَبِسَ النبيُّ ثوبًا وهو محتاج إليه؛ فسأله إيَّاه رجلٌ[2]، فأعطاه له،/ فلِيمَ على ذلك فقال: «أردتُ أن تكون[3] كفني»[4]، فهذا رجلٌ لم يسأل لغَرَضِ الحاجة، وإنَّما سأل لغرض البركة والتَّحَصُّنِ بثَوْبٍ لَبِسَه النبيُّ.

وقد ذَكَرَتِ الصوفيةُ حكايةً جرت: «أنَّ شَقِيقًا[5] قَدِمَ على إبراهيم بن أدهم من خراسان، فقال له: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم؛ إن أُعطوا شكروا، وإن مُنِعُوا صبروا، قال له: كذا[6] تركتُ كلاب بَلْخ، قال له شقيق: فكيف الفقراء يا أبا إسحاق عندك[7]؟ قال: الذين إن مُنعوا شكروا، وإن أُعطوا آثَرُوا، فقبَّل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ»[8].

وكلاهما درجتان شريفتان؛ الأولى حالة العُبَّاد، والثانية حالة الزُّهَّاد.

---

(١) في (ك): صبره.

(٢) في (ص): رجل إيَّاه.

(٣) في (د): يكون.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن سهل ﷺ: كتاب الجنائز، باب من استعد الكفن في زمن النبي ﷺ فلم ينكر عليه، رقم: (١٢٧٧-طوق).

(٥) في (ص): شقيقًا البلخي.

(٦) في (ص) و(د): هكذا.

(٧) سقطت من (ك) و(ص).

(٨) الإحياء: (ص١٥٧٠).

السَّابعة: إذا كان عنده ما يكفيه فلا يسأل، وأقلُّه: قُوتُ يوم، وأكثُره: مسكن، وملبس، وخادم، وقوت شهر، وبين الحالتين منازلُ اختلف الناس فيها، والصحيحُ أنَّ السؤال مع ذلك كله جائز؛ بالكشف عن الحقيقة إذا وجد مظنة رجاء، وتحقَّق بفضل[1] عطاء.

[أحاديثُ المسألة الصحيحة]:

وليس في الباب حديثٌ صحيح إلَّا اثنا عشر حديثًا:

الأوَّل: حديث قَبِيصة: «إن المسألة لا تحل إلَّا لأحد ثلاثة؛ رجل تحمَّل حَمَالَةً، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يُمْسِك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحَلَّتْ له المسألة حتى يصيب قِوَامًا من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجَا من قومه: أصابتْ فلانًا فاقةٌ، فحلَّت له المسألة، حتى يصيب سَدَادًا من عيش، وما سوى ذلك سُحْتٌ»[2].

[الثاني]: وقال ابن عمر: قال رسول الله: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس على وجهه مُزْعَةُ لحم»[3].

[الثالث]: وعن أبي هريرة: قال رسول الله: «من سأل الناس أموالهم تَكَثُّرًا فإنما يسأل جَمْرًا، فليستكثر أو ليستقل»[4].

---

(١) في (ك) و(ص): مفصل.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، رقم: (١٠٤٤-عبد الباقي).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم: (١٠٤٠-عبد الباقي).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم: (١٠٤١-عبد الباقي).

[الرابع]: وعن معاوية: قال رسول الله: «لا يسألني أحد منكم شيئًا فتُخْرِجُه له مسألته وأنا له[١] كَارِهٌ فيُبارَكُ له فيه»[٢].

[الخامس]: وعن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرٌ له من أن يأتي رجلًا فسأله[٣]؛ أعطاه أو منعه»[٤].

[السَّادس]: وعن ثوبان: قال النبي: «من يضمن لي واحدة أضمن له الجنة؛ لا يسأل الناس شيئًا، فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا»[٥]، وكان مَوْلَى رسول الله.

٢ [٤/ب]

[السَّابع]: وعنه:/ أنه قال ﷺ: «ليس المسكين الطوَّاف؛ الذي تَرُدُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي لا يجد غِنًى يُغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه، ولا يسألُ الناس شيئًا»[٦].

---

(١) سقطت من (ص).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم: (١٠٣٨-عبد الباقي).

(٣) في (ص) و(د): فيسأله.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب كراهة مسألة الناس، رقم: (١٠٤٢-عبد الباقي).

(٥) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة، رقم: (١٦٤٣-شعيب).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له فيتصدق عليه، رقم: (١٠٣٩-عبد الباقي).

وفي أخرى: «إنَّما المسكين الذي يتعفَّف، اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [البقرة:٢٧٢]»[١].

[الثامن]: وقال أبو سعيد: «إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم؛ حتى نفد ما عنده، ثم قال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبَّر يُصَبِّرْهُ الله، وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاء هو خير وأوسع من الصبر»[٢].

فهذه الصِّحَاحُ كلُّها في الباب.

[التاسع]: وروى الترمذي وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «من سأل وله ما يُغنيه جاءت خُمُوشًا أو كُدُوحًا في وجهه يوم القيامة، قيل: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: خمسون درهمًا، أو حسابها من الذهب»[٣].

[العاشر]: وروى النسائي عن عمرو بن شُعَيب عنه: «من سأل وله أربعون درهمًا فهو مُلْحِفٌ»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من رواية عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له فيتصدق عليه، رقم: (١٠٣٩-عبد الباقي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، رقم: (١٠٥٣-عبد الباقي).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الزكاة عن رسول الله ﷺ، باب من تحل له الزكاة، رقم: (٦٥٠-بشار)، وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة، وحد الغنى، رقم: (١٦٢٦-شعيب)، وأخرجه النسائي في الكبرى: كتاب الزكاة، حَدُّ الغنى؛ ما هو؟ رقم: (٢٣٨٤-شعيب).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب الزكاة، من الملحف؟ رقم: (٢٣٨٦-شعيب).

[**الحادي عشر**]: وروى مع أبي داود عنه: «من سأل وله أُوقِيَّة فقد أَلْحَفَ»[١]، وهي: الأربعون درهمًا.

[**الثاني عشر**]: وروى الثلاثة عن سَمُرَةَ: قال النبيُّ ﷺ: «المسألة كُدُوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء كدح، ومن شاء ترك، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان، أو شيئًا لا يَجِدُ منه بُدًّا»[٢].

[فوائدُ أحاديث المسألة]:

قال الإمام الحافظ[٣] ﷺ: فتَنَخَّلَ من صحيح الحديث خمسة معاني:

الأَوَّل: أن العِفَّةَ وتَرْكَ السؤال أفضل.

الثاني: أن السؤال جائز؛ حتى يَجِدَ سَدَادًا من عَوَزٍ غير مفسر.

الثالث: أن في الأحاديث الحِسان: «أن الأُوقِيَّةَ تمنع المسألة»، وذلك - والله أعلم - للواحد، فأمَّا ذو العيال فقد تَنْقُصُ عن كِسْوَتِهم ونَفَقَتِهم.

الرابع: أن المسألة تُؤَثِّرُ في جاه الرجل ومنزلته عند الله يوم القيامة.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الزكاة، باب من يعطى الصدقة، وحد الغنى، رقم: (١٦٢٧-شعيب)، وأخرجه النسائي في الكبرى: كتاب الزكاة، من الملحف؟ رقم: (٢٣٨٧-شعيب).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن عن سَمُرَةَ ﷺ: كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، رقم: (١٦٣٩-شعيب)، وأخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الزكاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في النهي عن المسألة، رقم: (٦٨١-بشار)، وأخرجه النسائي في الكبرى: كتاب الزكاة، مسألة الرجل ذا سلطان، رقم: (٢٣٩١-شعيب).

(٣) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

الخامس: أنها إن كانت باطلة عن غير حاجة فهي جَمْرُ جهنم، فليَسْتَكْثِرْ أو ليَسْتَقِلَّ، فإن[1] كان لا يَقْدِرُ على جُزْءٍ من ذلك ولا يحتمل، فلا شَيْءَ أحسن له من العِفَّةِ، فيَكْتَسِبُ صِفَةَ «المُتَوَكِّلِ».

* * * * *

(١) في (ص) و(ك): فإنه لا.

[المُتَوَكِّلُ]: وهو الاسمُ الثاني والثلاثون

وحقيقتُه: الذي اتَّخَذَ وكيلًا.

وهو في العربية[١]: عبارةٌ عن الذي وُكِلَتْ إليه الأمور وأُلْقِيَتْ إليه المقاليد[٢].

ولم يعلم تأويله أهل اللغة، ولا تفطَّن لحقيقته رؤساؤها[٣].

٢ [٥/أ]

والذي بيده جميعُ الأمور/ وله مقاليد السماوات والأرض هو[٤] الله، فهو الوَكِيلُ حقيقةً[٥]، قال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥].

وقال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٢].

وقال تعالى مُخْبِرًا عن المؤمنين ومُعَلِّمًا لهم التوحيد لرب العالمين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

فإذا اتخذه العبدُ وكيلًا وتحقَّق هذا الاسم له، وسلَّمه عَقْدًا وفعلًا فهو المُتَوَكِّلُ حقيقة؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٥].

---

(١) أي: الوكيل.

(٢) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٦٢/٢).

(٣) ينظر: كتاب الغريبين: (٢٠٣١/٦).

(٤) في (ك): وهو، وضرب على الواو في (د).

(٥) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٦٤/٢).

وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٥].

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:٢١٦-٢١٧].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨].

وقال ﷺ: «يدخلُ الجنة من أُمَّتِي سبعون ألفًا بغير حساب، وهم الذين لا يكتوون، ولا يتطيَّرون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام عُكَّاشَةُ بن مِحْصَنٍ فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم، ثم قام آخر، فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عُكَّاشَةُ»(١).

وصحَّ عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله قال: «من اكتوى أو استرقى فقد بَرِئَ من التوكل»(٢).

وصحَّ عن عمر بن الخطاب: أن النبي قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرُزقتم كما تُرزق الطير؛ تغدو خِمَاصًا وتروح بِطَانًا»(٣).

---

(١) تقدَّم تخريجُه في السِّفرِ الأوَّل.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الطب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية الرقية، رقم: (٢٠٥٥-بشار).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب في التوكل على الله، رقم: (٢٣٤٤-بشار).

وصحَّ عنه من طريق أنس: قال: «كان أخوان على عهد النبي ؛ فكان أحدهما يأتي النبي، والآخَر يحترف، فشكى المحترفُ أخاه إلى النبي، فقال له النبي: ولعلك تُرْزَقُ به»(١).

وليس وراء هذه الأحاديث في الباب شيء يُعَوَّلُ عليه، فهذه آياتُه وأحاديثُه الصِّحَاحُ التي يُعَوَّلُ عليها.

فمَدَحَ الله التَّوَكُّلَ وأَمَرَ به، وحقيقتُه كما قدَّمنا: اتخاذُ الوكيل، وهو الذي يَكْفِيكَ العمل، ويُبَلِّغُكَ الأمل، وإنَّما يكون ذلك بشرطين:

أحدهما: القدرة.

والثاني(٢): الصدق.

فإذا عَلِمْتَ صاحبَك قادرًا على ما تُلْقِي إليه، صادقًا فيما يَعِدُكَ به؛ اتخذته وكيلًا، واعتمدت عليه كَفِيلًا، ووثقته جميلًا.

والعبدُ خُلِقَ محتاجًا، ومولاه قادر، وقد وَعَدَه(٣) بالرزق والكفاية، وأَمَرَه بالطاعة والعبادة، فإذا تحقَّق قُدْرَتَه وعَلِمَ صِدْقَه اتخذه وَكِيلًا، ورَضِيَ به كفيلًا، وتَوَكَّفَ منه فِعْلًا جَمِيلًا، وعَكَفَ على بابه بخدمته وعبادته بُكْرَةً وأصيلًا.

[٥/ب] ٢ وبهذ المعنى/ قال المؤمنون حين غلبهم الكافرون واستولى عليهم الخوفُ من جهتهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وقيل(٤) لهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب في التوكل على الله، رقم: (٢٣٤٥-بشار).

(٢) في (ك): الثاني.

(٣) في (ك): وعد.

(٤) في (ص) و(ك): وقال.

وأخبرهم أنه يُحِبُّهم، وبالمحبة تَتَأَتَّى الآمال؛ فإنها تُزْعِجُ النفس إلى قضاء حاجة المحبوب، وبه قيل للنبي ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغْلَبُ[(١)]، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[(٢)] الذي عَمَّتْ رحمتُه كل شيء ووَسِعَتْ، وانتهت إلى المُوَحِّدِ والمُلْحِدِ وبلغت، فإن عَدَلَ عن هذا معه واتَّهمه ولم يَثِقْ بمَوْعُودِهِ؛ فجعل يطلبُ رِزْقَه من حيث لم[(٣)] يؤمر به، ويُضِيعُ عمله الذي أُمر به؛ فقد نَقَضَ توحيده، وعَدِمَ تسديده.

ولذلك قال العلماء - رحمة الله عليهم -: «إن الله قال لخَلْقِه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٨]، فوَكَلَهم في الثواب إلى العمل، وضمن لهم الرزق فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وأخبر أنه مُخْتَزَنٌ في السَّماء بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١]، وقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]؛ وأَقْسَمَ على ذلك بقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣]».

فقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: إخبارٌ منه سبحانه أنه لا يعطيه إلَّا على سعيه، وهو مُعْطِي الشيء[(٤)] في أصله، وواهبُ الإرادة في وصفه، والهادي إليه، والمتفضل به، والمُجازي عليه.

---

(١) قوله: «الذي لا يغلب» سقط من (ص)، وضرب عليه في (د).

(٢) [الشعراء:٢١٦].

(٣) في (ك): لم.

(٤) في (ك) و(د) و(ص): السعي، ومرَّضها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

[أقسامُ السَّاعين]:

والسَّاعُونَ سبعةُ أقسام:

الأوَّل: ساعٍ[١] للدنيا؛ فذلك الذي خَسِرَتْ صفقته[٢].

والثاني[٣]: سَاعٍ للآخرة؛ فذلك الذي شُكِرَ سَعْيُه، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ [الإسراء:١٨ - ١٩].

والثالث[٤]: سَاعٍ في تعجيل الجنة؛ فذلك الذي ربحت صفقته[٥].

الرابع: ساعٍ في قهر نفسه؛ وذلك الواصل إلى رضوان الله[٦].

الخامس: ساعٍ إلى الإرادة؛ وذلك الذي يتولَّى الله عونه[٧].

السَّادس: مُذْنِبٌ ساعٍ إلى التوبة؛ فذلك الذي يرجو القبول والمغفرة[٨].

السَّابع: ساعٍ إلى الله في كل نَفَس، فهو غير مطرود عن الله ولا مُحْتبَس[٩].

---

(١) في (ك): ساعي.

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٤٨٩).

(٣) في (ص) و(ك): الثاني.

(٤) في (د): الثالث.

(٥) لطائف الإشارات: (٣/٤٨٩).

(٦) لطائف الإشارات: (٣/٤٨٩).

(٧) لطائف الإشارات: (٣/٤٨٩).

(٨) لطائف الإشارات: (٣/٤٨٩).

(٨) لطائف الإشارات: (٣/٤٨٩).

[قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾]

٢ قال علماؤنا: «ما قال الله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]/ إلَّا ليُرِيحَ القلوب عن تَعَبِ[1] التقسيم والافتكار، ومجانبة الازدحام في طلب الرزق»[2]. [٦/أ]

وقد قال النبيُّ ﷺ: «إذا أُحِيلَ أحدُكم على مليءٍ فليَتْبَعْ»[3]، وقد أحالكم على نفسه، فمَنِ الجاهلُ الذي يجعل إلى سواه ثِقَةَ قلبه وأُنْسَ نفسه؟

قال المُحَقِّقُونَ: «وإذا كان الرِّزْقُ على الله فمن المحال طَلَبُه من غير الله، ثم إن الرزق الذي أحال عليه وأخبر أنه ضَمِنَه في السماء؛ وما كان في السماء لا يوجد في السوق، ولا في الطواف في المشرق والمغرب، ومن الحق على كل مؤمن أن يطلبه في مظانه، وأن يستخرجه من أماكنه ومكامنه، وإذا كان في السماء فلا يُنزله إلَّا الذي يرقى إلى[4] السماء؛ وهو الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعمل الصالح»[5].

نكتة:

قال علماؤنا: «لمَّا ضَمِنَ الله الرزق وأخبر أنه في السماء لم يُعْلِمْ بمقداره، ولا قال للناس: لكم ما يكفيكم، ولكم ما تشتهيه نفوسكم، بل

---

(١) في (ص) و(ك) و(د): طلب، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

(٢) لطائف الإشارات: (٢/١٢٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب المساقاة، باب تحريم مَطْلِ الغني، رقم: (١٥٦٤-عبد الباقي).

(٤) كأنه ضرب عليها في (د).

(٥) يقارن بما في لطائف الإشارات: (٣/٤٦٥).

تركه موكولًا إلى مشيئته، فمن شاء وسَّع رزقه، ومن شاء قتَرَه، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣١]، فلمَّا سمع المؤمنون ذلك أيقنوا بالعلم، واطمأنت نفوسهم بالحق؛ فسلَّموا للمولى حُكْمَه في عبيده، فالأغنياءُ سكنوا إلى المعيشة، وعكفوا على ما بأيديهم من المال، والفقراء قنعوا بقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾، فلم يتجاوزوه، وقالوا: أنت تكفينا أنت، حُكْمُك فينا ماض، وكلنا بك راض، وليس منَّا لما عندك من مُتَقَاضٍ»[1].

وقد بيَّن النبيُّ ذلك للأنصار حين عزَّ عليهم إعطاءُ النبي من الغنائم لسواهم وتركهم، وقالوا: «إذا كان الفَزَعُ دُعِينَا، فإذا كان العطاء نُسِينَا، فجمعهم النبي في قبة من أَدَمٍ، ثم قال: ما حديثٌ بلغني عنكم؟ فصَدَقُوه، فقال: أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والنَّعَمِ[2] وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده لمَا تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به، فقالوا: رضينا، رضينا»[3].

وبيَّن الحكمة في ذلك فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠]؛ استفهامٌ في معنى الأمر عند بعضهم[4]، وحقيقتُه[5] التثبيت.

---

(١) يقارن بما في لطائف الإشارات: (٣/٣٦٦-٣٦٧).

(٢) في (ص): البعير.

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٦٣١).

(٥) في (ك): حقيقة.

٢
[٦/ب] معناه: إن رَضِيتُمْ فُزْتُمْ،/ وإن اعترضتم لم تبلغوا آمَالَكم وهَلَكْتُمْ.

[قولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾]

وأمَّا قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ ففيه سبعة أقوال(١):

الأوَّل: في السَّحاب.

الثاني: قسمة رزقكم، يعني: مكتوبًا.

الثالث: من جُعِلَ ذلك إليه من الملائكة.

[**الرابع**]: وقيل: ما توعدون ابتداءً، المعنى: آت.

[**الخامس**]: وقيل: الخير والشر.

[**السَّادس**]: وقيل: الخير خاصة، وقيل: الشر خاصة.

[**السَّابع**]: وقيل: الجنة، وقيل: الجنة والنار.

فهذه سبعة أقوال كلها صحيح، إلَّا النار؛ فليست في السماء، وإنَّما هي في الهاوية، وإنَّما هو شيء تُقُوِّلَ على الضحَّاك(٢)، وهو رأي الفلاسفة، ولا قول أفسد منه.

والخَيْرُ في السماء(٣)، والشَّرُّ في السماء(٤)، والجَنَّةُ في السماء

---

(١) تنظر هذه الأقوال في: الكشف والبيان: (٩/١١٤-١١٥)، ولطائف الإشارات: (٣/٤٦٤-٤٦٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢١/٥٢٢-التركي).

(٣) قوله: «في السماء» سقط من (ك).

(٤) بعده في (ك) و(د): «لأن الملك ينزل بهما على العبد، وليس الشر منا ولا الخير منا مفعولين في السماء»، وضرب عليها في (د).

موجودةٌ ذاتًا؛ هي فوق السماوات، وفوقها عَرْشُ الرحمن، كما تقدَّم في الحديث الصحيح[١].

وسَمِعَ بعضُ العرب هذه الآية فقال: «من اللئيم الذي أَحْوَجَ الكريم إلى اليمين؟»[٢].

[نكتة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾]

وقد أَقْسَمَ الباري أنه حَقٌّ كما تنطقون، وخَصَّ النطق لأنَّ به طلبوه، وبه أنكروه، ولأنَّ النطق لا يتشكَّل في المِرْآةِ؛ لأن كلام الإنسان لا يتكلَّم به غيرُه، فكذلك رِزْقُه لا يأكلُه غيرُه[٣]، ولأنه لا تدخله استحالة.

وقيل: لأنه الخصِّيصة للإنسان من سائر الحيوان.

فيَنْزِلُ الرزقُ - من السماء - الهُدَى على قلوب الأولياء، وتنزل الطاعة على جوارح الأولياء، وينزل الصدق على ألسنة الأصفياء، وينزل النُّورُ على الصُّدُورِ، وينزل القوت[٤] على المتوكلين، وتُصَبُّ الدنيا على المفتونين، وينزل الحرمان على أهل الحرص، وينزل الفقر على الخاصَّة، وينزل الحرام على المطرودين، وينزل الكفر والجحود على الظالمين، وينزل المَكْرُ على المغترين، وينزل الذُّلُّ على المتكبرين، وينزل العِزُّ على المتواضعين، وهكذا إلى آخر صفات الآدَمِيِّينَ؛ قضاءٌ محتومٌ، ورِزْقٌ مقسومٌ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الكشف والبيان: (٩/١١٥).

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٤٦٥).

(٤) في (ك): القرب.

[مؤانسةُ رسول الله بالتوكُّل حين تعرضه لأذى المشركين]:

وقد آنَسَ الله رَسُولَه(١) بالتَّوَكُّلِ عن مَذَلَّةِ المشركين؛ حين طرحوا عليه النَّجَاسَةَ وهو سَاجِدٌ، وخَنَقُوهُ بثَوْبِهِ حتى كاد يَمُوتُ، بقوله له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾(٢)، أي: أنت(٣)، أنت(٤) عبده، فليست هذه مَذَلَّةً؛ لأنها تحت قدرة الإزالة.

وإذا سَكَتَ القادرُ على السَّبِّ عن الجواب(٥) فهو جَوَابٌ في عِزٍّ، وإذا(٦) عفا عن الانتصار مع القدرة فهو غاية الجاه والتَّمَكُّنِ(٧).

٢ [٧/أ]

ثم قال: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، معناه: أنه ما مَكَّنَ منك/ إلَّا رَحْمَةً لك، ورحمةُ الله تُدْرَكُ بالإذاية أكثر من العناية؛ لحكمة بالغة ليست من هذه العلوم الأربعة(٨).

---

(١) بعده في (ك) و(ص): «التأنيس من المذلة»، وضرب عليه في (د).

(٢) في النسخ: وتوكل.

(٣) قوله: «الرحيم، أي: أنت» سقط من (ك) و(ص).

(٤) في (ك) و(ص): وأنت.

(٥) في (ك): عن الجواب على السب، وفي (د) و(ص): على الجواب على السب، ومرَّضها في (ص)، والمثبت صحَّحه بطرته.

(٦) سقط من (ك) و(ص).

(٧) في (د): التمكين.

(٨) القَصْدُ هنا بالعلوم الأربعة حسب تقسيم الإمام ابن العربي -وهي على الوِلاء-: التوحيد، والناسخ والمنسوخ، والأحكام، والتذكير، فلعله يُلِيحُ إلى قسم آخر من علوم القرآن؛ وهو علم السياسة الشرعية، والله أعلم.

ثـم قـال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:٢١٧]، هـو رَأْيُ الإذايـة، ورَأْيُ الانتصاب للعبادة.

ثـم قـال: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨]، وهـي غايـة الطاعـة، وأَقْرَبُ ما يكون العَبْدُ من رَبِّه في سجوده.

وقيـل: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أي: بتقلبـك[١] فـي أصـلاب المُوَحِّدِينَ الطَّاهرين؛ من الأنبياء[٢] والمرسلين[٣].

المعنى: فَثِقْ به في العصمة، واعلم أنك في جنَّاتك بـين بَـلَاءٍ ونعمـة في[٤] رحمة[٥].

حالُ التفويض:

ثم قال له[٦]: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، معنـاه: فَوِّضِ الأمور إليَّ، وهو التَّخَلِّي عن التَّعَلُّقِ بالأسباب، كما تقـدَّم مـن قـول النبي للرجل: «قل: أسلمتُ لله وتخلَّيت»[٧]، وهي غاية الإيمـان والتوحيـد، وهو[٨]:

---

(١) في (د): تقلبك.

(٢) في (د): الأنبياء والمؤمنين.

(٣) لطائف الإشارات: (٢١/٣).

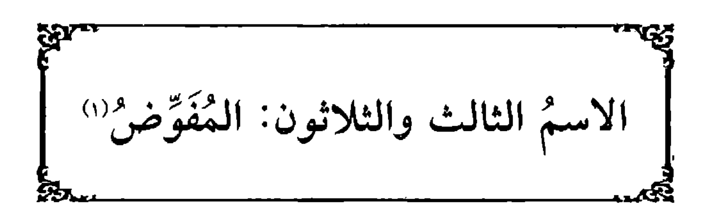
(٤) قوله: «الطاهرين؛ من الأنبياء والمرسلين، المعنى: فثق به فـي العـصمة، واعلـم أنك في جناتك بين بلاء ونعمة في» سقط من (ص).

(٥) فـي (ك) و(د): في حالتـك مـن بـلاء ونعمـاء فـي رحمـة، ومرَّضـها فـي (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

(٦) سقط من (ك).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) في (ص): المفوض، وهو، وسقط من (ك).



الاسمُ الثالث والثلاثون: المُفَوِّضُ[١]

أخبرني الطُّيُورِي وابنُ الأكفاني: عن الشيخ الصالح ابن سِكِّينَة[٢] عن بكر بن شاذان الواعظ عن جعفر بن محمد بن نُصَير[٣] عن محمد بن الحسن بن بكر الشيباني: نا محمد بن إسماعيل بن الحباب[٤] الحِمْيري[٥] عن أبيه[٦]: «فذكر محنة الشافعي، وأنه حُمِلَ إلى الرشيد مُقَيَّدًا، وأُحْضِرَ بين يديه، وأُجْلِسَ له بِشْرٌ المَرِيسِي، فسأله عن التوحيد فقال: لا تَتَّهِمْه ولا تَتَوَهَّمْه[٧]، فأُبْهِتَ بِشْرٌ».

---

(١) سقط من (ك).

(٢) في (ص): سُكَينة، وكذلك هي في فهرس ابن خير: (ص٣٧٥-بشار)، وهو تصحيف، وصوابه ما أثبت، وكذلك وَرَدَ في توضيح المشتبه: (١٢٨/٥)، وابن سِكِّينَة توفي عام ٤٦٩هـ، ترجمتُه في: سير النبلاء: (٣٤٦/١٨).

(٣) في فهرسة ابن خير (ص٣٧٥-بشار): نَصْر، وهو تصحيف، صوابه ما أثبت، وجعفر بن نُصَير هو الخُلْدِي تـ ٣٤٨هـ، ترجمتُه في تاريخ بغداد: (١٤٥/٨-١٥٢).

(٤) في فهرس ابن خير: الجبَّاب، وهو تصحيف، صوابه ما أثبت.

(٥) في فهرس ابن خير (٣٧٥-بشار): الحُمَيدي، وهو تصحيف، وورد كما أثبته في الجواهر والدرر: (١٢٥٩/٣).

(٦) هذا إسناد ابنُ العربي إلى كتاب «محنة الشافعي» لإسماعيل بن الحباب الحِمْيَرِي، يرويه عنه ابنُ خير في فهرسته (ص٣٧٥).

(٧) في (ك) و(ص): ألَّا تتوهمه، ولا تتهمه.

ولله دَرُّه[١]، فلقد جَمَعَ العِلْمَ بالله في كَلِمَتَيْنِ.

[حقيقةُ التفويض]:

وبناءُ «ف و ض» في العربية للإرسال من الضبط وحَلِّ الرَّبْطِ.

فإذا حَلَّ العبدُ نفسه عن رباط الأسباب وتعلَّق بمُسَبِّبِها فهو المُفَوِّضُ، وهو غاية التوكل، قال تعالى مُخْبِرًا عن العبد الصالح: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

ومن عَلِمَ أن الحادثات كلها حاصلة من الله، ولا يقدر على الإيجاد أحدٌ إلا هو، فإذا[٢] عَرَفَ هذا الأصل وتَحَقَّقَ هذا المعنى تبيَّن له أن مراده لا يحصل له إلَّا من قِبَلِ الخالق المُوَحَّدِ، وهو الله وحده، وهذا فَرْضٌ على كل أَحَدٍ عِلْمُه، وهو شرط الإيمان[٣]، ومن لم يعتقده كافر بالله، وهو معنى قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

[درجاتُ التفويض]:

٢ وما زاد على هذا القَدْرِ فهي درجات، حتى ينتهي إلى التخلي؛ فيَسْكُنُ قَلْبٌ لهذا الاعتقاد، وينزعج آخَرُ، والناسُ/ [٧/ب] في السُّكُونِ والانزعاج على درجات، ولكل دَرَجَةٍ من هذه الأقسام اسمٌ؛ من حيث الاشتقاق تارة، ومن حيث الاصطلاح أخرى[٤]، أُمَّهَاتُها سِتٌّ:

---

(١) في (ص): در الشافعي.

(٢) في (ك): إذا.

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٦٤٣).

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٣).

الدَّرَجَةُ الأولى: أن يكتفي المَرْءُ بما في يده[١]، فلا يطلب زيادة عليه؛ فيريح نفسه من تعلق الآمال، وبدنه من كَدِّ الطلب، واسم هذه الحالة القناعة[٢]، واسم المتلبس بها «القانع»، وهو من «الأسماء»، ووَرَدَ هذا اللفظ في الأحاديث الحِسَانِ، وليس له في الصحيح مورد، إلا أنه ثبت وصحَّ عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله قال: «قد أفلح من أسلم وكان رِزْقُه كِفَافًا وقَنَّعَهُ الله»[٣]، خرَّجه الترمذي وغيره.

وعن فَضالة بن عُبَيد نحوُه، وفيه: «وقَنَعَ»[٤]، وصحَّحه أيضًا.

الدرجة الثانية: أن يَسْكُنَ قلبُه إذا عَدِمَ الأسباب، فيكون مُتَوَكِّلًا بإرادته، واثقًا بوعده[٥].

الدرجة الثالثة: أن يطلب معاشه ويكون ساكن القلب، رابط الجأش، واثقًا بالوعد، وهو «المُتَوَكِّلُ»[٦]؛ كما قال النبيُّ: «لو توكَّلتم على الله حق توكله لرُزقتم[٧] كما تُرزَق الطير؛ تغدو خِمَاصًا، وتروح بِطَانًا»[٨]، فحَقَّقِ التوكل مع الغُدُوِّ في طلب الرزق والرواح.

---

(١) في (د) - أيضًا -: يديه.

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٣).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن عبد الله بن عمرو ﵄: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه، رقم: (٢٣٤٨-بشار).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاءفي الكفاف والصبر عليه، رقم: (٢٣٤٩-بشار).

(٥) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٤).

(٦) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٤).

(٧) في (ك) و(د): لرزقكم، وضعَّفها في (د).

(٨) تقدَّم تخريجه.

الدرجة الرابعة[١]: أن يُغْلِقَ على نفسه باب البيت، ويفتح بينه وبين الله باب السماء بالذِّكْرِ والعبادة، فذلك هو آخِرُ التفويض، وعليه كانت مريم - رضوانُ الله عليها وصلاتُه - .

وقد كان بعضُ الصالحين قيل له: «أرأيت لو أغلقتَ على نفسك باب بيتك؛ أكان الرزقُ يأتيك؟ قال: نعم، ولا بدَّ، ويدخل عليَّ[٢] من كُوَّةٍ في أعلاه، قيل له: فجَرِّبْ، قال: قد جرَّبته تسعة أشهر»[٣].

والتجربةُ بإجماع العلماء تَثْبُتُ بثلاث مرَّات.

الدرجة الخامسة: إن[٤] فَعَلَ ذلك فحُرِمَ؛ أن يستوي عنده المَنْعُ والعَطَاءُ[٥]، وصاحبُ هذه الدرجة يُسَمَّى «الراضي»[٦].

* * * * *

(١) ينظر: الإحياء: (ص١٦٢٨).

(٢) في (ك) و(د): عليك.

(٣) ينظر: القبس: (١١١٩/٣).

(٤) في (د): إذا، وما أثبتناه أشار إليه.

(٥) في (ك) و(د) و(ص): مع العطاء، ومرَّضها في (د)، والمُثبت صحَّحه بطرته.

(٦) لطائف الإشارات: (٦٤٤/٢).

الرَّاضِي[١]: وهو الاسمُ الرابع والثلاثون

وإذا وَجَدَ العبدُ بَرْدَ الرِّضَى فقد تعجَّل رضى الله في الدنيا، وذلك الذي أيَّده الله برُوحٍ منه، يُؤَيَّدُ[٢] بعَقْدٍ خالص وحالة حسنة، وليس بعد هذا مَنْزِلٌ يرتقي إليه في الدنيا، إلَّا أن علماء الصوفية[٣] يزعمون أن هنالك درجة سادسة، وهي:

٢ [٨/أ]

«استيلاءُ/ سلطان الحقيقة بما يأخذُ العبدَ عن جملته بالكُلِّيَّةِ، فتكون العبارة عن هذه الحالة الخمود والاستهلاك والفناء»[٤].

[نَقْدُ القُشَيري في قوله باستيلاء سلطان الحقيقة على العبد وذهوله بها]:

قال الإمام الحافظ ﷺ: وهذا لا يُتصوَّر عندنا في الآدَمِيَّةِ، ولا في الحياة الدنيوية، وإنَّما العبارات المعتادة المألوفة الممكنة هي أن يكون العبدُ كالطفل في المَهْدِ، لا شيء[٥] من قِبَله إلَّا[٦] أن يُرْضِعَه من هو في

---

(١) سقط من (د) و(ص) و(ك).

(٢) في (ك) و(د) و(ب): يريد.

(٣) هو قول أبي القاسم القُشَيري.

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٤).

(٥) في (د): ينشأ.

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): إلى.

حضانته[١]؛ فتزول نفسه عن الاستشراف، ويَفْرُغُ قلبُه عن تعب الانتظار، وإذا جرت المقادير عليه سَكَنَ.

وقد قالوا: «إذا وَثِقَ القلبُ بمجاري القِسْمَةِ لم يضرَّه الكَسْبُ، ولا قَدَحَ في تَوَكُّلِهِ»[٢].

وقد قالوا: «إنَّ المتوكلين العوام إذا أُعْطُوا شكروا، وإذا مُنِعُوا صبروا»[٣]، وقد تقدَّم ذَمُّ[٤] ذلك[٥]، «والخواص الذين إذا أُعْطُوا آثَرُوا، وإذا مُنِعُوا شكروا»[٦]، وقد تقدَّم مَدْحُه[٧].

ومن فَضْلِ الله أنه يَجُودُ على العبد تارةً بتيسير الأسباب من حيث لا يحتسب ولا يكتسب، ويَجُودُ على الأولياء من غير طَلَبٍ[٨].

التَّوَكُّلُ في الأسباب الأخروية:

ومن حكمة الله أنه جعل التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حَدٍّ[٩]، فأمَّا التوكل على الله في إصلاح أمور الآخرة فهو غامض على الأكثر، خَفِيٌّ على الأعظم.

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٥).

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٥).

(٣) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٥).

(٤) ضبَّب عليها في (د).

(٥) تقدَّم ذلك في اسم «الزاهد».

(٦) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٥).

(٧) تقدَّم ذلك في اسم «الزاهد».

(٨) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٦).

(٩) لطائف الإشارات: (٢/٦٤٦).

فمن «فوائد أبي سَعْدٍ[١] الشهيد[٢]» في شأن التوكل: «أمَّا الأسباب الدنيوية فالواجبُ أن يكون السُّكُونُ عند طلبها غالبًا، والحركة ضرورية، وأمَّا في أمر الآخرة وما يتعلَّق بالطاعات فالواجبُ البِدَار والجِد، والانكماش والخروج عن أوطان الكسل، وترك الجُنوح إلى الفشل، والذي يتصف بالتَّوَانِي في العبادات، ويتباكى في تلافي ما ضيَّعه من إرضاء الخصوم، والقيام بحق الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه يَتَوَكَّلُ على الله في أن يعفو عنه فهو مُتَمَنٍّ[٣] معلول الحال، مَمْكُورٌ مُستدرَج، بل الواجب أن يبذل جهده ويستفرغ وُسْعَه، ثم لا يعتمد على طاعته، بل يبرأُ لله من حوله وقوَّته، ويُعَوِّلُ بعد الاجتهاد في العمل على رحمته، ولا يخلو لحظة عن[٤] مخافته، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨ - ٥٩].

[٨/ب] يعني: صبروا/ على العمل، ودأبوا في الطاعة، وتوكَّلوا بعد ذلك كله[٥] على الله في القبول»[٦].

نَعَم؛

---

(١) في (ك) و(ص): سعيد.

(٢) سبق التعريف به في السفر الثاني.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): مُتَمَنِّي.

(٤) في (ك): عين.

(٥) سقط من (ك) و(ص).

(٦) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٦٤٦).

المُتَمَنِّي: وهو الاسمُ الخامس والثلاثون

قد يُحْمَدُ[1] في تعلق البال بصالح الأعمال، وأَكْرَمُ[2] الأسباب في نَيْلِ الآمال، وقد حصرتُ منها وُجُوهًا أُصُولًا لغيرها، وهي أحد عشر:

[ما يُحْمَدُ من التمني]:

الأوَّل: تَمَنِّي الشهادة في سبيل الله؛ ما لم يعارضها تَفْوِيتُ فَضْلٍ آخر بها[3]، لقول عمر: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، ووفاة ببلد رسولك»[4]، فكان يخاف من فوات الموت بدار[5] الهجرة؛ لقول النبي ﷺ: «ولكن البائس سعد بن خولة، يَرْثِي له رسولُ الله أن مات بمكَّة»[6].

---

(١) في (ك): نحمد.

(٢) في (ك): إكرام.

(٣) في (ك): آخرتها.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل المدينة، بابٌ، رقم: (١٨٩٠- طوق).

(٥) قوله: «الموت بدار» سقط من (ك) و(ص).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم: (١٦٢٨- عبد الباقي).

قال النبيُّ ﷺ: «وددت أني أُقتَل في سبيل الله ثم أُحيى، ثم أُقتَل ثم أُحيى، ثم أُقتَل ثم أُحيى، ثم أُقتَل[١]؛ ثلاثًا، يقول أبو هريرة: أشهد لله، ثلاثًا[٢]»[٣].

الثاني: تَمَنِّي الموت لفساد الدين.

الثالث: تَمَنِّي الاستدراك لما فات، كقول النبي: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سُقْتُ الهَدْيَ، ولجعلتها عُمْرَةً»[٤]؛ لما رأى في أصحابه من مَشَقَّتِهِم في خروجه عنهم بأن يكون وحده في حَجَّتِه قارنًا بين الحجة[٥] والعمرة، وقد أمرهم بفَسْخ الحج، وأن يكون كلهم متمتعًا إلا آحَادًا، منهم: علي[٦]، وأبو موسى؛ لعِلَلٍ بيَّنَّاها في «شرح الحديث».

الرابع[٧]: تَمَنِّي الخير المستقبل، منه قَوْلُ النبي: «لا حسد إلَّا في اثنتين؛ رجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها»[٨].

---

(١) قوله: «ثم أحيا ثم أقتل» سقط من (ك) و(ص).

(٢) في (ك) و(ص) و(د) و(ب): ويليها، ومرضها في (د).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التمني، باب ما جاء في التمني، ومن تَمَنَّى الشهادة، رقم: (٧٢٢٧-طوق).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ﵂: كتاب التمني، باب قول النبي ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت»، رقم: (٧٢٢٩-طوق).

(٥) في (د) و(ب): الحج.

(٦) في صحيح الجُعْفِي: «وجاء عَلِيٌّ من اليمن معه الهدي، فقال: أهللت بما أَهَلَّ به رسول الله ﷺ»، أخرجه من حديث جابر بن عبد الله ﵄: كتاب التمني، باب قول النبي ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت»، رقم: (٧٢٣٠-طوق).

(٧) في (د): والرابع.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﵁: كتاب التمني، باب تمني القرآن والعلم، رقم: (٧٢٣٢-طوق).

ونَحْوٌ منه قَوْلُه: «لو كان عندي أُحُدٌ ذَهَبًا لأحببتُ أن لا يَمُرَّ[١] عليَّ ثالث[٢] وعندي منه درهم، ليس شيء أرصده في دَيْنٍ عليَّ أجدُ من يَقْبَلُه»[٣]، وفيه تَمَنِّي زوال الدنيا إذا خاف مُنتزعًا.

الخامس: تَمَنِّي العصمة من الآفات الدنيوية بالأسباب، قالت عائشة: «أَرِقَ النبيُّ ليلة فقال: ليت رجلًا صالحًا[٤] من أصحابي يحرسني الليلة، إذ سمعنا صَوْتَ السلاح، قال النبي: من هذا؟ قال: سعد، جئت لأحرسك، فنام النبي حتى سمعتُ غَطِيطَه»[٥].

السَّادس: تَمَنِّي الاستكثار من الأعمال الصالحة والصبر عليها، قال النبي: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ووضوء»[٦]، وقال: «لولا أن أشق على أمتي لأخَّرت العشاء إلى نصف الليل»[٧]. /

٢ [٩/أ]

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): تمر.

(٢) في (د) و(ص) و(ب): ثالثة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﵁: كتاب التمني، باب تمني الخير، رقم: (٧٢٢٨-طوق).

(٤) سقطت من (ص)، وضبَّب عليها في (د).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ﵂: كتاب التمني، باب قوله ﷺ: «ليت كذا وكذا»، رقم: (٧٢٣١-طوق).

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﵁: أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في السواك، رقم: (٢٢-بشار).

(٧) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة ﵁: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في تأخير العشاء الآخرة، رقم: (١٦٧-بشار).

السَّابع: تَمَنِّي العمل الحسن إذا حالت دونه تَقِيَّةٌ، كقول النبي: «لولا حِدْثَانُ عهد قومك بالكُفْرِ[(١)] لهدمتُ البيت، ورَدَدْتُه على قواعد إبراهيم»[(٢)].

الثامن: أنه يجوز للمرء أن يتمنَّى من الخير في العمل الصالح[(٣)] أكثر ممَّا هو فيه، لقول النبي ﷺ: «لولا الهجرة لكنتُ امرَأً من الأنصار»[(٤)].

التاسع: تَمَنِّي الانتقام ممَّن يتعمَّق في الدين، ويزيد على الهَدْي العام المستقيم؛ لأن النبي ﷺ وَاصَلَ آخِرَ الشهر وواصل نَاسٌ، فبلغ النبيَّ فقال: «لو مُدَّ الشهر لواصلت وِصَالًا يدع المتعمقون تعمقهم، إني لست مثلكم، إني أَبِيتُ يُطعمني ربي ويسقيني[(٥)]»[(٦)].

العاشر: تَمَنِّي الزيادة في العلم، قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، وَدِدْنا لو صَبَرَ حتى يَقُصَّ الله علينا من أمرهما»[(٧)].

الحادي عشر: تَمَنِّي الموت قبل الهَرَمِ، كان النبي يستعيذُ أن يُرَدَّ إلى أرذل العُمُر[(٨)].

---

(١) في (ب): عهدك بالكفر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: كتاب التمني، باب ما يجوز من اللَّوْ، رقم: (٧٢٤٣-طوق).

(٣) مرَّضها في (د).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب التمني، باب ما يجوز من اللَّوْ، رقم: (٧٢٤٤-طوق).

(٥) في (ك) و(ب): يسقين.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب التمني، باب ما يجوز من اللَّوْ، رقم: (٧٢٤١-طوق).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) تقدَّم تخريجه.

قال الإمام الحافظ[١] رضي الله عنه: فهذه أصول التَّمَنِّي، وعليه تتركَّب فُرُوعُه، وهي كثيرة؛ ولكن اللبيب يحمل على كل أُمٍّ منها بِنْتَها، ويَرُدُّ إلى كل أصل منها فَرْعَه.

بيانُ مسايرة التوكل مع الأسباب:

وإذ قد تبيَّن أن التوكل لا ينافي مباشرة الأسباب؛ إذا تَحَقَّقَ العبدُ أنه مدفوع إليها بنوع من المقدار، وأنها مُسَخَّرَةٌ له بحِكْمَةٍ من التقدير، وأنَّ مُياسرَتها ومباشرتها لا ينافي[٢] حقيقة التوكل ولا حقَّه، فإنها خمسة أنواع:

النَّوع الأَوَّل: ألَّا يَتَكَلَّفَ عَمَلَ طعام ولا كَسْبَه، وإنما يثق بالفُتُوح، فقد بيَّنَّا فيما تقدَّم[٣] أنَّ هذا يَعْسُرُ في هذه البلاد[٤]، وأنَّ[٥] أهلها على درجة عظيمة من دناءة الهمة، ووفور الخسة، وأمَّا تلك البلاد التي شاهدنا؛ فإن عُلِمَ ذلك من العبد تقاطرت عليه الأرزاقُ حتَّى لا يَعْلَمَ من أين يأخذُها.

النوع الثاني[٦]: أن يخرج بغير زاد؛ إمَّا للسياحة، وإمَّا في الإرادة، وإمَّا لعبادة؛ من حج، أو صلة رَحِمٍ، أو صديق، أو عَدُوٍّ، ونحو ذلك، وقد قال الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ [البقرة:١٩٦]، وقد قدَّمنا الكلام عليه في اسم «الحاج»[٧]، وهو أَمْرٌ بالعموم للعموم والمصلحة[٨].

---

(١) في (ب): قال الإمام.

(٢) في (ك): تنافي.

(٣) في القسم الأول من الكتاب، مقام الحياة الدنيا.

(٤) أي: الأندلس.

(٥) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٦) ينظر: الإحياء: (ص١٦٢٧).

(٧) في السفر الثاني.

(٨) في (ك): للمصلحة.

[خروجُ الخضر مع موسى - عليهما السَّلام - بغير زاد]:

وعلى هذا ينبني خروج الخَضِرِ مع موسى بغير زَادٍ[(١)]، حتى ﴿أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ إِسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف:٧٦].

[٩/ب] وقد قيل: «إنَّما استطعما لأن الطعام كان فَرْضًا عليهم/ في شَرْعِهم»[(٢)].

وقيل: «لأن السؤال عند الحاجة جائز».

وقيل: «لأنه فَنِيَ الزاد».

وقيل: «لأنهما[(٣)] لم يَجِدَا ما يبتاعان، فبَاتَا جائعيْن، فلمَّا قام الخَضِرُ لإقامة الجدار قال له[(٤)]: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، إن كُنْتَ لا تبتغيه لأجلك فَابْغِهِ لأجلنا»[(٥)].

ومن الفوائد: «أن موسى في هذا السَّفَرِ كان سَفَرَ تأديب، فرُدَّ إلى تحمل المشقة، وحين آوى إلى ظل الصخرة وقال: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] ولم يطلب شيئًا كان محمولاً في تلك السَّفْرَةِ، وفي هذه[(٦)] مُتَحَمِّلًا»[(٧)].

---

(١) في (ك) و(ص): بغير زاد مع موسى.
(٢) لطائف الإشارات: (٢/٤١١).
(٣) في (ك) و(ص): لأنه.
(٤) ضبَّب عليها في (د)، ولم ترد في (ب).
(٥) لطائف الإشارات: (٢/٤١١).
(٦) في (د): هذا.
(٧) لطائف الإشارات: (٢/٤١١).

قال أهلُ الباطن في القرآن: «لمَّا كان موسى في المخاطبة مع الخضر في أمر السفينة وأمر الغلام مُحْتَسِبًا لغيره لم يفارقه الخضر، ولمَّا تكلم في حَظِّ نفسه في الثالثة فَارَقَهُ»[١].

قال الإمام الحافظ[٢] ﷺ: هذا تَكَلُّفٌ، بل قال النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا»[٣]، وكانت الثانية شَرْطًا، وأمَّا الثالثة فهي وفاءٌ بالشرط.

«وكان موسى يُحِبُّ صُحْبَةَ الخضر للاستزادة في العلم، وكان الخَضِرُ يريد مفارقته للانفراد بالله»[٤].

وقد قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، وددنا لو صبر حتى يقصَّ الله علينا من شأنهما»[٥].

وقد خرج النبيُّ إلى الطائف فرارًا[٦] عن[٧] مكة من قريش بغير زاد، وهاجر إلى المدينة بسُفْرَةٍ[٨]، وكان يخرج قبل المبعث إلى حِرَاء للخَلْوَة والتعبد بزَادِهِ.

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/٤١١).
(٢) في (ب): قال الإمام.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم: (٦٦٧٢-طوق).
(٤) لطائف الإشارات: (٢/٤١١).
(٥) تقدَّم تخريجه.
(٦) في (ك) و(ص) و(ب): فارًّا.
(٧) في (ك) و(ص) و(ب): من.
(٨) تقدَّم تخريجه.

[تتمة الحديث عن أنواع التوكل]:

النوع الثالث: أن يخرج بأسباب المحاولة للكسب والرزق؛ كالقِرْبَة والفأس والدَّلْوِ[١].

وقد كنتُ أسافر مع الأتراك في القِفَار فلا يحملون إلَّا القوس والقدَّاحة والسَّطيحة[٢]، فإذا أرادوا غذاءً رَمَوا طيرًا أو حيوانًا فلا يخطئونه، ثم قَدَحُوا نارًا وأجَّجُوا حطبًا، واشتووا وأكلوا حلالًا طِلْقًا.

ويجوزُ أن يخرج الرجل مُعَوِّلًا على الثمار الصحراوية، والحشائش المُغَذِّيَةِ، وقد يجوزُ له الخروج مُعَوِّلًا على صنعته، فهذا سَبَبٌ قَوِيٌّ.

النوع الرابع: طَلَبُ الرزق؛ وقد تقدَّم في المقام الأوَّل[٣] كَيْفِيَّتُه ووُجُوهُ كَسْبِهِ بما يُغْنِي عن إعادته، فإنَّ قَصْدَنا الاختصار.

وأحوجُ الخلق إلى الكسب المُعِيلُ، وهو:

النوع الخامس[٤]: /وقد قال الصِّدِّيقُ: «إن حِرْفَتِي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي، وسيأكل آلُ أبي بكر من هذا المال»[٥]. [٢/١٠أ]

يعني: باشتغاله بأمور المسلمين.

---

(١) بعده في (ك) و(ص) و(ب): «والشَّفرة والقدَّاحة والقوس، أو القوس والقدَّاحة والفأس، وأقلُّه: القوس، والدَّلْوُ، والقدَّاحة»، وضرب عليه في (د).

(٢) السطيحة: المزادة، تاج العروس: (٤٧٢/٦).

(٣) أي: مقام الحياة الدنيا.

(٤) ينظر: الإحياء: (ص١٦٣٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم: (٢٠٧٠-طوق).

وقد قال الله في حال المُعِيلِ أعظم بيان: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣١]، فجعل الصلاة مفتاح باب الرزق، بل مفتاح كل خير.

وقد قيل: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾: أي: لا نسألك أن تَرْزُقَ أحدًا[١].

يعني: أهلك فمن[٢] سواهم، بل[٣] نحن نرزقك وإيَّاهم، فعليك أَمْرَهم بالعبادة، وعلينا رِزْقُهم.

وقوله: ﴿وَاصْطَبِرْ﴾، معناه: تَكَلَّفِ الصبرَ وصَابِرْه، ولَازِمْه حتى تَغْلِبَه، ويصير عادةً سهلة.

ويُستحب للمُعِيلِ إذا عَدِمَ الرزق أن يجمع أهله فيصلي بهم ويدعو؛ فإنه يُفتَح له على كل حال بفضل الله.

قد[٤] قال وُهَيْبُ بن الورد: «لو كانت السماء نحاسًا، والأرض رصاصًا، واهتممتُ برزقي لظننتُ أني مُشْرِكٌ»[٥].

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: «وَدِدْتُ أن أهل البصرة في عِيَالِي، وأن حبَّة بدينار»[٦].

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/٤٨٩).

(٢) في (ص): ممن.

(٣) سقط من (ك).

(٤) في (ب): فقد، ومرَّضها في (د).

(٥) الإحياء: (ص١٦٣٤).

(٦) الإحياء: (ص١٦٣٤).

وهذا ممَّا لم أفهمه لقُصُورِ عِلْمِي عن عِلْمِه، فإن صحَّ فإنه إشارة إلى عُلُوِّ درجته في التوكل، والثقة بالله في وفائه بوعده وسَعَةِ خزائنه، ولكن بَقِيَّ عليَّ الغلاء[١]، ولا صبر للعامَّة معه.

[أَسْوِلَةٌ في التوكل وأجوبتها]:

فإن قال: «أَرْحَلُ لطَلَبِ رِزْقِي»، كان الجواب على قَدْرِ حاله؛

فإن كان من أهل العلم قلتَ له: الرزق في السماء، فأَنْزِلْهُ بمجاديحه[٢].

وإن كان من أهل العمل قلتَ له: اطلبه بمحاسن الأسباب وجائزاتها.

فإن قيل: فقد بيَّنتم أن التعلق بالأسباب الجالبة للنفع المقتضية للكسب المفيدة للرزق جائز، وأن ذلك لا ينافي التوكل، فماذا تقولون في الأسباب الرافعة للضر، هل يُناقِضُ مباشرتها حال التوكل؟

فإن قلتم: يناقض التعلق بها حق التوكل وحقيقته.

قلنا لكم: فما الفرق بينها وبين الأسباب الجالبة؟

وإن قلتم: لا يناقضها؟

قلنا لكم: فما معنى قول النبي: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب؛ هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون»، وقد تقدَّم من قول الله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:٩].

---

(١) في (ب): العلاء.

(٢) في (ص): بمجادحه.

ويَعْسُرُ[١] مقام التوكل؛ قال أبو سليمان الدَّارَانِي لأحمد بن أبي الحَوَارَى[٢]: «كل مقام وجدتُ/ لي فيه نصيبًا إلَّا مقام التوكل»[٣]. ٢ [١٠/ب]

قال علماؤنا: «الأسباب المتوقعة على قسمين: مقطوع بها، ومظنون»[٤].

وزاد بعضُهم[٥] قِسْمًا ثالثًا، وهو الموهوم.

قال: «فتَرْكُ الموهوم من شرط التوكل، وهي التي نِسْبَتُها إلى دَفْعِ الضرر نِسْبَةَ الكي والرقية؛ فإن الكي والرقية قد تُقْدِمُ [به] على المحذور دَفْعًا لما يُتَوَقَّعُ، وقد يُستعمَل بعد نزول المحذور للإزالة»[٦].

وقد وصف النبيُّ المتوكلين بتَرْكِ الكي والرقية والتطير، ولم يصفهم بأنهم إذا وصلوا إلى موضع بارد لم يَتَدَثَّرُوا[٧].

وأكلُ الثُّومِ في السَّفَرِ البارد هو من قَبِيل التعمق في الأسباب[٨].

والذي عندي في الباب أن التوكل بترك الأسباب جائز، واستعمالُها جائز، والأفضل تركها لمن قدر عليه.

---

(١) في (ص): يعتبر.

(٢) ينظر: تاج العروس: (١١/١٠٦).

(٣) الإحياء: (ص١٦٢٩).

(٤) الإحياء: (ص١٦٢٥).

(٥) هو الإمام أبو حامد الطوسي، ينظر: الإحياء: (ص١٦٢٥).

(٦) الإحياء: (ص١٦٣٩).

(٧) ينظر: الإحياء: (ص١٦٣٩).

(٨) الإحياء: (ص١٦٣٩).

والمدفوعُ ضَرَرُه[١] على ثلاثة أقسام:

ضرر آدَمِي ؛

وضرر حيوان ؛

وضرر جماد ؛

وهنالك قسم رابع ؛ وهو المرض.

فأمَّا ضررُ الآدمي فمشروعٌ دَفْعُه، ومشروعٌ طَلَبُ الأسباب له، وبعضُها يجب، وبعضها لا يجب.

فأمَّا الذي يجبُ ؛ فدَفْعُ ضرر الكفَّار، فقد أمر الله بأخذ الأسلحة، واستعداد ما يمكن من قوَّة، وقد حرز النبي ﷺ[٢] نفسه، وقد خرج ليلًا فارًّا[٣]، وقد قال الله لموسى[٤]: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾[٥] [الدخان:٢٢].

وأمَّا الذي لا يجبُ ؛ فإذا قَصَدَكَ الظالم للقتل فاحترس منه، واخْفِ نفسك عنه، واهرب ما أمكنك، فإن هجم عليك وافتتن[٦] وفتن، ودخل عليك بيتك ؛ فلا تبهش[٧] إليه بقصبة، وكن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل، وتوكَّل على الله فيه.

---

(١) في (ك): ضره.
(٢) قوله: «النبي ﷺ» لم يرد في (ك) و(ب).
(٣) في (ب): فارًّا موسى.
(٤) في (ب): له.
(٥) ينظر: الإحياء: (ص١٦٤٠).
(٦) في (ك): افتتن.
(٧) في (ب): ترهش.

وقد كان النبيُّ يأمر بدفع ضرر العين بالرُّقْيَةِ والاستعاذة، وبعد وقوعه باغتسال العائن وصَبِّ المغسول به[١] عليه[٢].

وقد قال يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧].

قال قتادةُ ومجاهدٌ وابنُ إسحاق: «كانوا قد أُوتوا صورة وجمالًا، فخشي عليهم أَنْفُسَ الناس»[٣].

خَشِيَ نَبِيُّ الله العَيْنَ على بَنِيهِ، وهذا من التوقِّي وترك التعرض والخروج عن الأسباب المتوقعة من ضرر الغير، ولكنه حذر عليهم، وأمرهم بالتحرز، وأخبرهم أن الحُكْمَ لله، وأنه بعد أَمْرِه لهم بالتحرز هو على الله في حِفْظِهِم مُتَوَكِّلٌ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُومِنُونَ﴾[٤] [التوبة:٥١].

٢ [١١/أ]

وأمَّا سائرُ الحيوان فادْفَعْهُم بالقتل/ والاحتراس؛ كالسَّبُع، والحيَّة، والعقرب، والفأر، والكلب العقور، وكل ما آذى[٥] من صغير أو كبير.

وأمَّا الجماد؛ فلا تَمُرَّ بجدار مائل، ولا تجلس إليه.

وقد قيل: «إن الجدار المائل كان الخَضِرُ يخاف من إذايته، فأراد هدمه؛ فخاف افتضاح الكنز فأقامه».

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) تفسير الطبري: (١٦/١٧٣-شاكر).

(٤) في (ك) و(د) و(ب): وعليه فليتوكل المومنون.

(٥) في (ب): كل أذًى.

وهذه دعوى.

أمَا إنه في غريب الحديث: «أن النبي كان إذا مَرَّ بطِرْبَالٍ[١] مائل أسرع المشي»[٢]، يقال: بالباء المعجمة بواحدة، والياء المعجمة باثنتين من تحتها.

وكذلك يدفع عن ماله في الأحوال كلها، ولكن الأفضل ألا يفدي ماله بنفسه، وإن كان قد أَذِنَ الله له[٣] في الدفع عن ماله بنفسه رخصة[٤]؛ لما علم من علاقة الأموال بالنفوس، وللصَّالحين في ذلك سيرة نذكرها إن شاء الله.

وأمَّا قِسْمُ المرض فتارةً يخافه، وتارةً يتوهَّمه؛ فإن توهَّمه فلا يجوز له[٥] أن ينظر له، وإن خافه بأن يُخَلِّطَ في طعامه وفي رياضته فذلك جائز له[٦]، والأفضلُ تركه، وأكثرُ ما تحدث الأمراض في الأطعمة والأشربة والرياضة من طريقين:

أحدهما: أن يأكل ويشرب ولا يذكر الله، أو يُسْرِف، أو يكون من غير وجهه.

[ثانيهما]: وفي الرياضة بأن يتصرَّف في غير طاعة، أو يتكلَّف ما لا يطيق منها، فذلك مكروه.

---

(١) الطربال: البناء المرتفع، غريب الحديث: (٢/٢٥٨).
(٢) أخرجه أبو عُبَيد في الغريب: (٢/٢٥٧).
(٣) سقطت من (ب) و(ك) و(ص).
(٤) في (د) - أيضًا -: رحمة.
(٥) سقط من (ص) و(د).
(٦) في (ك) و(ص) و(ب): له جائز.

قال النبيُّ ﷺ: «عليكم من الأعمال بما تُطِيقون، فإن الله لا يمل حتى تَمَلُّوا»[١].

وأمَّا إذا نَزَلَ المرضُ فالتَّطَبُّبُ أفضلُ لاستبقاء الصحة التي أَسْأَرَ[٢] المرض، وإعادة ما أذهب منها، فإن الطاعة لا تتم إلَّا بها، وقد بيَّنَّا أنواع الطب وأقسامه والأدوية وأنواعها، فلا وجه لإعادته.

ويجوزُ الابتداءُ بالرُّقْيَةِ من غير مرض للاحتراس من إذاية المؤذين، ومن حدوث الأمراض، كقوله: «من تصبَّح بسبع تمرات من عَجْوَةٍ لم يضرَّه ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحْرٌ»[٣]، وكقوله[٤]: «من نَزَلَ منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شَرِّ ما خَلَقَ لم يضرَّه شيء حتى يرتحل»[٥]، وكقوله: «من قال حين يصبح: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم - ثلاث مرات - لم يضرَّه شيء»[٦]، يرويه أبانُ بن عثمان عن عثمان عن النبي، قال: «وكان[٧] أبانُ

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) أسأر: أبقى، تاج العروس: (١١/٤٨٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة، رقم: (٢٠٤٧-عبد الباقي).

(٤) في (د) - أيضًا -: كذلك.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن خولة بنت حكيم السُّلَمية رضي الله عنها: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم: (٢٧٠٨-عبد الباقي).

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، رقم: (٣٣٨٨-بشار).

(٧) في (ك) و(ص): فكان.

٢
[١١/ب] أصابه طرف فالج، فكان[١] قد حدَّث بهذا الحديث،/ فنظر إليه رجل فقال: نسيتُ أن أقولها ذلك اليوم، لِيُنْفِذَ الله فيَّ قَدَرَه»[٢]، وذلك كثير جِدًّا، متنوع عَدًّا.

وقد تقدَّم رُقْيَةُ النبي لغيره ولنفسه[٣]، وأنه كان يمسح بدنه كل ليلة قبل أن يرقد، وتَرَقَّى في مرض موته[٤]، وكَوَى من[٥] المرض الحاصل، وقد نَهَى عن الدخول بأرض[٦] الوباء والتعرض لبلاء الله.

فإن قيل: فهل يجوز تَرْكُ التداوي للمريض؟

قلنا: ذلك جائز بأسباب:

أحدها: أن يكون المرض زَمَانَةً لا يرجو بُرْأَه.

الثاني: أن يترك التداوي رغبةً في ثواب المرض[٧] إذا وجد من نفسه قُوَّةً على الصبر على ذلك، وذلك عندي ما لم تبطل له طاعة.

الثالثة: يرجو الكفارة لذنوبه، كما ورد في الحديث[٨].

الرابع: أن يكون المرضُ يمنعه من معصية، أو يمنع منه ظالمًا، فيُؤْثِرُ تماديه ليكتفي بذلك ضُرًّا[٩] غيره.

---

(١) في (د): وكان.
(٢) هو الحديث السابق.
(٣) تقدَّم تخريجه.
(٤) تقدَّم تخريجه.
(٥) في (ب): في.
(٦) في (ص): في أرض.
(٧) في (ك): المريض.
(٨) سبق تخريجه.
(٩) في (ص): ضررًا.

الخامس: أن يستشعر بالمرض ذِكْرَ الله له، وأنه من الأولياء، فدوام الصحة مكروه، وفي ذلك آثار كثيرة.

فإن قيل: لأي شيء لم يترك النبيُّ التداوي وهو أفضل؟

قلنا: النبي لا تضره الأسباب؛ لعظيم منزلته في التوكل، وعَلَّمَ الخَلْقَ بفعله الآداب.

فإن قيل: فقد صحَّ عن النبي[١] أنه قال: «من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل»[٢].

قلنا: فيه وجهان[٣]:

أحدهما: أن ذلك منسوخ.

الثاني: أن يسكن إليها، وهو أحد التأويلات في قوله: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون»[٤]، أي: لا يسكنون إلى ذلك، ألا ترى إلى قوله: «ولا يتطيَّرون»، فإنه يشهد له.

كتمانُ المرض[٥]:

فإن قيل: أيُّ الحالين أفضل؛ كتمان المرض أو إظهاره؟

قلنا: الإخفاء أفضل لأنه أسلم، ويجوزُ إظهاره لوجوه:

---

(١) قوله: «عن النبي» سقط من (د) و(ص).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) ينظر: العارضة: (٢٨١/٧).

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) ينظر: الإحياء: (ص١٦٥٤).

الأوَّل: أن يتداوى.

الثاني: أن يستدعي الدعاء.

وفي الحديث الصحيح: «أن النبي قال لعائشة - إذ قالت: وارأساه -: بل أنا وارأساه، لقد هممت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد؛ أن يقول قائل أو يتمنَّى مُتَمَنٍّ»(١).

وهذا كلُّه من الرضا بالقضاء والاستسلام لأمر الله تعالى كما بيَّناه؛ ٢ إذا عَلِمَ أن الأمر كله لله، وأنه/ [١٢/أ] لا حول ولا قوة إلا بالله، وتحقَّق أنَّ كلَّ ما يحاوله من فِعْلٍ خَلْقُ الله، أو كل ما يتعلق به من سبب فهو صُنْعُ الله، أو كل ما يتأتَّى به من قدرة فهي لله، وأنه ما يتعاطى من ذلك فهو بأمر الله، فإن استفاد شيئًا فلم يستفده فإنه منه، إنَّما استفاده(٢) بأنه من خالقه ومُقَدِّرِه، ومُدَبِّرِه ومُيَسِّرِه، فإذن لا حول ولا قوة إلَّا بالله حقًّا، ولا إله إلَّا الله صِدْقًا، أي: لا خالق غيره، سبحان الله عن أن يكون معه خالق، ولا إله إلا الله، أي: هو المنفرد(٣) بالإيجاد، والله أكبر من كل موجود يُتحقَّق أو يُتوهَّم، ولا حول ولا قوة على تدبير أمر(٤) إلا بالله، وهي الباقيات الصالحات، وترتيبُها على حسب قولها، والعالمُ بها الواقفُ عندها هو «الرَّاضِي».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المرضى، باب قول المريض: إني وجع، رقم: (٥٦٦٦-طوق).

(٢) في (ك): استفاده.

(٣) في (ب): المتفرد.

(٤) سقطت من (ك) و(ص).

الحكايات في التوكل:

ذُكِرَ في «الطبقات» عن حُذَيفة المَرْعَشِي أنه خدم إبراهيم بن أدهم، ورأى منه عجبًا، قال: «بَقِينَا في طريق مكة أيَّامًا لم نجد طعامًا، ثم دخلنا الكوفة فآوَيْنَا إلى مسجد خراب، فنظر إليَّ إبراهيم وقال: يا حذيفة، أرى بك الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: عليَّ بدواة وقرطاس، فجئته فكتب فيه[1]: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكل معنى:

أنا حامد أنا ذاكر أنا شاكر ... أنا جائع أنا ظامئ[3] أنا عارِ

هي ستة وأنا الضمين لنصفها[2] ... فكن الضمين لنصفها[4] يا باري

مدحي لغيرك لَهْبُ نار خضتُها ... فأَجِرْ عُبَيْدك من دخول النارِ[5]

ثم دفع إليَّ الرقعة[6] وقال: اخرج، ولا تُعَلِّقْ قلبك بغير الله، وادفع لأوَّل من تلقى، فأوَّلُ من لقيتُ رجلًا راكبًا بَغْلَةً، فناولته الرقعة فأخذها[7] وبكى، وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: في المسجد الفلاني، فدفع إليَّ صُرَّةً فيها ست مائة دينار، ثم لقيتُ رجلًا آخر فقال: هذا

---

(١) سقطت من (ك) و(ص).

(٢) في (ب): بنصفها.

(٣) في (ص) و(د) و(ب): نائم.

(٤) في (ب): بنصفها.

(٥) من الكامل، وهي في أحسن ما سمعت: (ص٩٢) منسوبًا للخليع، والمستطرف: (ص١٥٨)، ورسالة القشيري: (ص٢٠٤).

(٦) في طرة بـ (د): الرخصة، وصحَّحها.

(٧) في (ك) و(ب): أخذ.

نصراني، فجئتُ إبراهيم فأخبرته القصة، فقال لا تمسها فإنه يجيء السَّاعة، فجاء النصراني وقبَّل رأس إبراهيم وأَسْلَمَ»[١].

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي[٢] رضي الله عنه: فهذه آدابُ أهل تلك الأقطار مع المُرِيدين والواصلين[٣]، وأمَّا أهل هذه البلاد - رَاجَعَ الله بهم - فلو وقعت الرقعة في يد فقيه لبَصَقَ عليها وطَرَحَها، ولو وقعت في يد ظالم - دع نصرانيًّا - لم يلتفت/ إليها؛ لدناءتهم. [١٢/ب]

حكاية:

كان مالكُ بن دينار لا يربط بابه إلَّا بحَبْلٍ، ويقول: «لولا الكلاب ما سددته».

وكما كان يتَّكل في صَرْفِ اللص عنه؛ أَلَا كان[٤] يتَّكل في صرف الكلب؟

ويُحتمل أن يكون وَثِقَ من ربه أن يمنعه من المعصية، ودخول الكلب ليس من هذا الباب.

حكاية:

رُوي أن الربيع بن خُثَيم كانت له فرس ابتاعها بعشرين ألفًا، فسُرِقَتْ وهو يصلي، فلم يقم إلى اللص حين رآه يَحُلُّ عِقَالَها، وقال لأصحابه: «هي صدقة عليه»[٥].

---

(١) رسالة القشيري: (ص٢٠٤-٢٠٥).

(٢) في (ب): قال الإمام الحافظ رحمه الله.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): فهذه آداب المريدين والواصلين مع أهل تلك الأقطار.

(٤) سقط من (ك) و(ب).

(٥) الإحياء: (ص١٦٤٣).

وفي غريب الحديث: «أن عائشة دعت على لص فقال: لا تُسَبِّخِي[١] عنه[٢]»[٣].

وقيل لبعض الصالحين: «ادع على من سرق متاعك وظلمك، فقال: ما ظلم إلَّا نفسه، أما يكفيه المسكينُ ظُلْمَه لنفسه حتى أزيده شرًّا»[٤].

حكاية[٥]:

أخبرنا ابن يوسف[٦] عن أبي ذَرٍّ عن الدارقطني قال: نا أبو محمد بن صاعد: نا[٧] الحُسَين بن الحسن المروزي: نا عبد الله بن المبارك: نا سفيان بن عُيَينة عن أبي سِنَانٍ قال: سمعتُ سعيد بن جُبَير يقول: «لُدِغْتُ فأمرتني أُمِّي أن أسترقي، فكرهتُ أن أعصيها، فناولتُ الرَّقَّاءَ يَدِي التي لم

---

(١) في (د): تجني، وضبَّب عليها، ولا تسبخي: أي: لا تخففي عنه بدعائك، كتاب الغريبين: (٣/٨٥٥).

(٢) في (د): عليه.

(٣) كتاب الغريبين: (٣/٨٥٥).

(٤) الإحياء: (ص١٦٤٤).

(٥) سقطت هذه الترجمة من (ص)، إلا قوله: «وهذه حالة لا تمكن إلَّا لصابر».

(٦) الفقيه العلَّامة المحدث، أحمد بن عبد القادر بن يوسف، أبو الحُسَين البغدادي، (٤١١-٤٩٢هـ)، لقي أبا ذَرٍّ الهَرَوِي، وأخذ عن أبي القاسم الحُرفي، ودخل بلاد المغرب، روى عنه ابنُ العربي كتابَ «معيشة النبي ﷺ وتَخَلِّيهم من الدنيا» من تصنيف الإمام أبي ذَرٍّ الهروي، وكُتُبَ ابن أبي الدنيا، وهي كثيرة، وكتاب «ياقوتة الصراط في غريب القرآن» لأبي عمر المُطَرِّز، ينظر: فهرس ابن خير: (ص٣٤٢)، وسير النبلاء: (١٩/١٦٣-١٦٤).

(٧) في (د): قال.

تُلْدَغْ»[١] - وأبو سنان ضِرَارُ بن مُرَّةَ الشيباني كوفي، روى عنه الثوري وشعبة، ولم نعلم أنه روى عنه ابن عُيَينة[٢] -، وهذه حَالَةٌ لا تُمْكِنُ إلَّا لصَابِرٍ[٣].

* * * * *

(١) الخبر من كتاب «معيشة النبي» لأبي ذر الهروي، ولا نعرف عن وجوده شيئًا، فهو من جملة التراث الذي طُوِي عنَّا خَبَرُه، والأَثَرُ في الإحياء: (ص١٦٠٣).
(٢) ذَكَرَ أبو الحجاج المِزِّي ابنَ عيينة في جملة من روى عن أبي سِنان، تهذيب الكمال: (١٣/٣٠٧).
(٣) في (ب): للصَّابر.

الصَّابِرُ[١]: وهو الاسمُ السَّادس والثلاثون

وهو وَصْفٌ كريم، وحَظٌّ لمن وُهِبَ له عظيم، وقد كَثُرَ ذِكْرُه في الشريعة قرآنًا وسنة، وجُعِلَ أَجْرُه موازيًا لأجر جميع العمل، فإن الله قال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثيٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ اَ۬لْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وقال في الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى اَ۬لصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١١].

يريد: غير معدود، وإنما هو جُزَافٌ، وبه يتمُّ للعبد بلوغُ الأمل في الدنيا، وهلاك العدو.

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ اَ۬لْحُسْنيٰ عَلَيٰ بَنِےٓ إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦ - ١٣٧].

وأخبر أن الله مع الصَّابرين، وماذا يرغبُ من كان الله معه في شيء بعده؟!

وأحاديثُ الصبر قليلة، أَمَا إنَّ الناس قد أكثروا منها؛ في الصحيح - واللفظ للموطأ -: «من يستعفف يُعِفه الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً[٢] هو خَيْرٌ وأَوْسَعُ من الصبر»[٣].

---

(١) سقط من (د) و(ك) و(ص).

(٢) سقطت من (ك).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب الجامع، ما جاء في التعفف في المسألة، (٢/٣٥٧)، رقم: (٢٨٠٤-المجلس العلمي الأعلى).

ومَرَّ النبي ﷺ على امرأة تبكي على قبر، فقال لها النبي: «اتق الله
٢ واصبري، قالت له: إنك لم تُصَبْ بمصيبتي، فلمَّا مرَّ قيل لها: إنه النبي،
[١٣/أ] فجاءت بابه فلم تجد عليه بوَّابين، / فقالت له: لم أعرفك يا رسول الله،
فقال: إنَّ الصبر عند الصدمة الأولى»[١].

فرأى صلى الله عليه أنها لو صبرت في حين المصيبة لحازت أجر الصابرين، وإذْ فاتها ذلك فلو صبرت حين موعظته لها لكان لها أجرٌ أقل من ذلك، فلما رَدَّت الوعظ وأرادت بعد ذلك استدراك ما فاتها قال لها: «قد فاتتك الخصلة الكبرى؛ وهي الصبر عند الصدمة الأولى في أوَّل المصيبة».

وقد أخبرنا محمد بن الأسعد الصوفي[٢]: أخبرنا محمد بن فَتُّوح قال: [أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، قال:][٣] قرأتُ في كتاب أبي الفتح بن مسرور البلخي[٤]: حدَّثنا أبو القاسم بن شِبْلُونَ[٥] الحافظ: أخبرنا أحمد بن يحيى بن الشامة: حدَّثني أبي قال: حدثنا خالي إبراهيم بن قاسم بن هلال: حدَّثني فُطَيس السَّبَائِي قال: سمعت مالك بن أنس رضي الله عنه[٦] في قول الله: ﴿ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، قال: «يُثْبَتُ[٧] عليه حتى الأنين في مرضه»[٨].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب الجنائز، بابٌ في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، رقم: (٩٢٦-عبد الباقي).
(٢) هو أبو بكر محمد بن طَرخان التركي، سبق التعريف به.
(٣) زيادة من الجذوة: (ص٣٠٥).
(٤) في (د): البرخي.
(٥) في الجذوة (ص٣٠٣): سهلون، وهو الصواب.
(٦) قوله: «رضي الله عنه» لم يرد في (ك) و(ص) و(ب).
(٧) في (ك): يثيب، وفي (د) - أيضًا -: يكتب.
(٨) جذوة المقتبس: (ص٣٠٦).

قال الإمام الحافظ[١]: وكأنه رأى هذا مُعَارِضًا للصبر، وهي درجة عظيمة؛ لأنه لا يمكن تَرْكُ الأنين لكل قلب، وقد قال النبي: «وارأساه»[٢]، والكلام أقوى من الأنين، فالله أعلم[٣].

وحديثُ «الصبر نصف الإيمان»[٤] ضعيف جدًّا، فلا تشغلوا به بالًا، بل الإيمان هو الصبر كله؛ لأن الشريعة على قسمين: مأمور، ومزجور، ولا يطاقُ الامتثال ولا الانكفاف إلا بالصبر، فإن حقيقته[٥]: فِعْلُ ما تكرهه النفس من اعتقاد أو عمل، بدلًا ممَّا تؤثره وتهواه[٦].

والنَّفْسُ مائلة إلى الراحة، حريصة على ارتكاب الشهوة، وأوامرُ الشرع ونواهيه مخالفة لهواها، فلم يَصِلْ عبد إلى ذلك إلَّا بالصبر، والشَّهَوَاتُ والرَّاحَاتُ تكثرُ؛ فإذا كسر شهوته صبر، وإذا آثَرَ التعب على راحته صبر، وإذا كانت الشهوة في الفَرْجِ فقضاها كما أَذِنَ له الشرع أُجِرَ، وإن تعلَّقت بما لم يأذن فيه الشرع فتركها كان على جُزْءٍ من الصبر، يقال له:

---

(١) في (ب): قال الإمام رحمه الله، وفي (ك): قال أبي ﷺ.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) قوله: «في الصحيح - واللفظ للموطأ-: من يستعفف.. والله أعلم» سقط من (ص).

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن مسعود ﷺ: (٣٠٣/١٥)، والقُضاعي في مسنده: (١٢٦/١)، قال أبو علي النيسابوري: «هذا حديث منكر»، لسان الميزان: (١١٣/٧).

(٥) في لطائف الإشارات (٢٧٢/٣): «الصبر حَبْسُ النفس على ما تكرهه»، وينظر: قوت القلوب: (٥٤٣/٢).

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): يؤثره ويهواه.

عفة، وهو[1] أَخَصُّه، وكذلك يقال: عفيف الفم واليد واللسان؛ إذا لم يُقَابِـلْ به شَهْوَةً عَرَضَتْ لـه، صَـدَمَها أمرٌ أو نهـيٌ، كمـا يقـال فـي احتمـال مَكْـرُوهِ الحوادث النازلة بالعبد: شجاعة، فهي في العُرْفِ مخصوصة بالحرب، وهي في الحقيقة عبارة عن ثُبُوتِ القلب عند حلول النوائب، وإن تعلَّقـت الـشهوةُ بالتَّشَفِّي والانتقام فعارضها كان «حليمًا».

* * * * *

(١) في (ك): هذا.

الحَلِيمُ(١): وهو الاسمُ السَّابع والثلاثون

إذا تَرَكَه مع القدرة عليه، وذلك بالحقيقة ليس إلَّا لله(٢)، فالله وحده هو الحليمُ حقًّا؛ لأنه يؤخر العقوبة مع القدرة/ على الاستعجال.

٢ [١٣/ب]

وبهذا دخل الصَّبْرُ في جميع خصال الإيمان، فكل من مشى على طريقه فهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [الزمر:١١]، وكل من مال إلى الشهوات هم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٥]، وهنالك من تُنازعه شهوته وتَرُدُّه عقيدته، فهو أبدًا في حرب ونزاع، وهي حالة محمودة، والأوَّلُ أشرف منزلة.

[درجاتُ الصبر]:

ودرجاتُ الصبر أعظمُها تَرْكُ التَّشَفِّي والانتقام عند الغضب(٣)؛ ألا ترى إلى ثناء الله على إبراهيم به حين قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا(٤)﴾ [هود:٧٣]، يعني: طَفِقَ يجادلنا في قوم لُوطٍ، وذلك قَوْلُه: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت:٣٢]، فغَلَّبَ إبراهيمُ تَرْكَ الانتقام لما(٥)

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (د) - أيضًا -: الله.

(٣) وهي الدرجة الأولى.

(٤) قوله: «يجادلنا» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٥) في (ك) و(ص): بما.

يَحِقّ[١] لِلُوطٍ[٢] من الإكرام، إلى أن قيل له: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت:٣٢].

قال علماؤنا: «وهذا يدل على أنَّ للباري أَنْ يعذب البريء؛ ألا ترى إلى إبراهيم مع وفارة علمه كيف[٣] جعل يدفع عنه مخافة أن يفعل الباري به[٤] ما له أن يفعل، فطلب من الله فضله لا عدله، وكرمه لا حقه»[٥].

وقيل له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ[٦]﴾ [هود:٧٥]، إنَّ العذاب قد نزل، والحُكْمَ قد نفذ، والقَوْلَ قد وجب، والكلمة قد حقَّت[٧].

ويليها: تَرْكُ المناهي[٨].

ويليها: تَرْكُ الشهوات[٩]، والاقتصار على الحاجة؛ وهو الزهد.

حالةُ العَبْدِ:

وكُلُّ ما يكون فيه الآدمي في الدنيا لا يخلو من أن يُوَافِقَ هواه أو يخالفه، أو يكون في طاعة أو في[١٠] غير طاعة؛ من مباح أو معصية، وكلُّ

---

(١) في (س) و(ص): لحق.

(٢) في (ص) و(ك): لوط.

(٣) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) سقطت من (ك).

(٥) لطائف الإشارات: (٣/٩٦).

(٦) قوله: «عن هذا» سقط من (ك) و(ب).

(٧) لطائف الإشارات: (٢/١٤٨).

(٨) وهي الدرجة الثانية من درجات الصبر.

(٩) وهي الدرجة الثالثة من درجات الصبر.

(١٠) لم ترد في (د) و(ص) و(ب)

ما يرتبط به الصبر؛ فإنه يصبر على فعل الطاعة كما تقدَّم، ويصبر على ألَّا يراها ويعتد بها، ويصبر على ألَّا يذكرها، ويصبر عن المعاصي، ويصبر على ألَّا يعتد بوَرَعِه، ويصبر عن[1] المباحات؛ وهو الزهد، ويصبر عن الشبهات[2] وهو «الوَرَعُ»[3].

* * * * *

(١) في (د): على، عن.

(٢) في (د): الشهوات، الشبهات.

(٣) وهي الدرجة الرابعة من درجات الصبر.

الوَرَعُ[١]: وهو الاسمُ الثامن والثلاثون

ويَدْخُلُ في الأقوال والأفعال، فكلُّ فِعْلٍ يتردد بين النهي والأمر ويتعارضان فيه فليتركه، وكلُّ قَوْلٍ يتردد بين النفع لغيره والضرر فليسكت عنه.

الدرجة الخامسة:

أن يصبر على الأذى، وقد أمر اللهُ رسولَه بذلك في مواضع كثيرة من كتابه، وأمر المسلمين بذلك في قوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦]، وأخبر عن الأمم الماضية بمِثْلِه في قولهم[٢]: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٥]، وقال النبي عليه السَّلام حين انتُهك عِرْضُه الكريم/ السَّلِيم: «يرحم الله موسى؛ لقد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر»[٣].

[١٤/أ]

ولمَا جُبِلت عليه القلوبُ من حب الانتقام أُذِنَ في الاقتصاص، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

---

(١) سقط من (د) و(ص) و(ك).

(٢) في (د): قوله، قولهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم: (٦١٠٠-طوق).

وقد جمعه بعضهم في ثلاثة أنواع، فقال: «صبر على فرائض الله، وصبر عن[١] محارم الله، وصبر على المصائب في ذات الله»[٢].

قال النبي في دعائه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تَحُولُ به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهَوِّنُ به علينا مصائب الدنيا»[٣]، وهذا بيان أن العلم بالمصيبة وطريقها يُهَوِّنُها.

ولا يخرج عن[٤] الصبر[٥] بحُزْنِ القلب ولا بدَمْعِ العين، قال النبي ﷺ: «إن الله لا يُعَذِّبُ بحُزْنِ القلب ولا بدمع العين، ولكنه يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم»[٦]، يريد[٧] بالقول الذي يصدر منه، فلا يكون إلَّا خيرًا.

قال النبي ﷺ: «ليس منَّا من ضرب الخدود، وشَقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[٨].

---

(١) في (ك): على.

(٢) الإحياء: (ص١٤١٢).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٣٥٠٢-بشار).

(٤) في (ص): إلى.

(٥) في (ص) و(د): المعصية، ومرَّضها في (د).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض، رقم: (١٣٠٤-طوق).

(٧) مرَّضها في (د)، وفوقها: ولا، ولم أتبين معناها.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم: (١٠٣-عبد الباقي).

وقال: «ليس منَّا من سلقَ وخرقَ وحلقَ»[(١)].

وممَّا يُفعل ببغداد وبالأندلس إذا مات الميت أن يُغَيِّرُوا هيأتهم بلباس البياض؛ إذ من زيهم ببغداد وبالأندلس لباس السواد.

وقد قال النبي ﷺ في موت الزوج لأم سلمة: «قل: اللهم أَجِرْنِي في مصيبتي، وأعقبني منها عُقْبَى حسنة»[(٢)].

ومرَّ - كما تقدَّم - بامرأة تبكي على قبر، فقال لها: «اتق الله واصبري، فقالت له: إنك لم تُصب بمصيبتي، ثم قيل لها: هو رسول الله، فجاءت إليه فلم تجد عنده بوَّابين، فقالت له: إني لم أعلم بك يا رسول الله، فقال: إنَّما الصبر عند الصدمة الأولى»[(٣)].

وفي الصحيح: «أن أم سُلَيم توفي ابنها، وكان زوجها غائبًا، فجاء فقال: كيف الصبي؟ قالت: هَدَأَ[(٤)] نَفَسُه، فأكل ووطئ بعد أن تصنَّعت له، ثم أعلمته، فغدا إلى رسول الله فأعلمه، فقال: اللهم بارك لهم في ليلتهم»[(٥)]، انتهى الحديث الصحيح.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم: (١٠٤- عبد الباقي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المريض والميت، رقم: (٩١٩ -عبد الباقي).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (د) و(ك): هذا.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجنائز، باب من لم يُظْهِرْ حُزْنَه عند المصيبة، رقم: (١٣٠١-طوق).

ولمَّا مات إبراهيمُ ابنُه ومات ابنُ ابنته فاضت عيناه، فقيل له: «وما هذا؟ فقال: هي رحمة، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)].

وقال الله تعالى - مُخْبِرًا عن يعقوب -: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨].

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر الجميل؛ الذي لا شكوى معه[(٢)]»[(٣)].

وقال الله تعالى لعباده المؤمنين: ﴿اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

فالصبرُ فيما تنفرد به، والمصابرةُ فيما ينازعك العدو عليه، والرِّبَاطُ التزامُ ما عقدت عليه من الصبر[(٤)].

٢ [١٤/ب]

وقد قيل:/ «الصَّبْرُ أوَّلًا، ثم التَّصَبُّرُ، ثم المُصَابَرَةُ، ثم الاصطبار»[(٥)].

والذي عندي أنه كله واحد، له أوَّل وآخِر.

وقيل: «اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وصابروا عن[(٦)] الهوى والشهوات، واقطعوا المُنَى والعلاقات، ورابطوا بالاستقامة في جميع الحالات»[(٧)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم: (٩٢٣-عبد الباقي).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): فصبر جميل، قال: الذي لا شكوى فيه، وقوله: «قال: الذي لا شكوى فيه» ضرب عليه في (د).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره عن حبان بن أبي جبلة مرسلًا: (٥٨٤/١٥).

(٤) لطائف الإشارات: (٣٠٩/١).

(٥) لطائف الإشارات: (٣٠٩/١).

(٦) في (ك): على.

(٧) لطائف الإشارات: (٣٠٩/١).

وقيل: «اصبروا بنفوسكم، وصابروا بقلوبكم، ورابطوا بجوارحكم».

ويقال: «اصبروا عن ملاحظة الثواب، وصابروا على الدنو والزُّلْفَةِ من الله، ورابطوا على باب العدو[١]، واتقوا الله في مغازيه[٢] حتى تفلحوا».

المعنى: تظفروا.

وقال علماؤنا: «إن قوله: ﴿وَصَابِرُواْ﴾، أي: خُذُوا الصبر شيئًا بعد شيء».

قال النبي ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برِفْقٍ، فإن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظَهْرًا أبقى، ولن يشادَّ أَحَدٌ هذا الدين إلَّا غلبه»[٣].

المعنى في ذلك: أنك لا تقدر أن تأخذ من الطاعات إلَّا الأقل، أَمَا إن الذي يلزمك ألَّا تترك شيئًا من المعاصي إلَّا تَجْتَنِبه.

قال النبي ﷺ مُبَيِّنًا لهذا المعنى: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[٤].

وما من حيوان إلَّا رَكَّبَ الله فيه الصبر، حتى إنَّ صَبْرَ البهائم ممَّا خلقه الله فيهم[٥] حكمة وآية.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): العزة.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): معارفه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده مختصرًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (٢٠/٣٤٦)، رقم: (١٣٠٥٢-شعيب)، وأخرجه القُضاعي في مسنده من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (٢/٣٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم: (٧٢٨٨-طوق).

(٥) في (د): فيهم، فيها.

وقد أنكر بعضُ[١] أشياخنا صَبْرَ البهائم واستبعده؛ لمَّا رآه ينبني على غير[٢] معارف.

وهذا ضَعِيفٌ من قوله مع قوته في العلم؛ فإن العلم المتعلق بمنفعة المعاش ومضرته[٣] موجود عند البهائم، بل عندها من المعاني[٤] في تدبير المعاش ما لا يُدْرِكُه الآدَمِي، والذي يدلُّك على ما عندها من ذلك أمران عظيمان:

أحدهما: المشاهدة؛ لتصرفها في فجورها وتقواها.

الثاني: أن النبي ﷺ قد أخبر عنها بأنها ذات رحمة وحنان، قال النبي ﷺ: «إن الله خلق مائة رحمة، وأعطى الخلق منها واحدة، فبها تَرْفَعُ البهيمة حافرها عن ولدها»[٥]، هذا في الصحيح.

وفي الحَسَنِ: «أن طائرًا أَخَذَتْ أَفْرُخَه[٦] الصحابةُ في بعض الأسفار، فجاءت الأم فلم تجدهم، ورأتهم بأيدي الآخذين لهم، فجَعَلَتْ تُرَفْرِفُ عليهم، حتى أمر النبيُّ بصرفهم إليها، ثم قال: أترون رُحْمَ هذه بأولادها؟ فالله أرحمُ بعباده منها»[٧].

---

(١) هو أبو حامد الطوسي، الإحياء: (ص١٤٠١).
(٢) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).
(٣) بعده في جميع النسخ: والترجيح إذا تعارضت، وضرب عليها في (د).
(٤) في (ب): المعارف.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزءًا، رقم: (٦٠٠٠-طوق).
(٦) في (د): أفراخه، وفي (ص): أن الصحابة أخذت أفرخ طائر.
(٧) أخرجه بنحوه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم: (٢٦٧٥-شعيب).

وإذا كان فيها الرحمة والرقة ففيها الصَّبْرُ، وقد ذكرنا من ذلك جُزْءًا غريبًا في[1] كتاب[2] «ترتيب الرحلة»، حصَّلناه بنواحي كربلاء.

استطراد:

٢ [١٥/أ]

غلا بعضُ الناس/ فقال: «إن الصبر حظُّ القاصرين، والدرجة العليا الشكر؛ فإن المصيبة إذا نزلت فهي في التحقيق[3] نِعْمَةٌ من الله تُوجِبُ الشكر».

قال الإمام الحافظ ﷺ: وهذا لازم في نفسه، لكن ليس بملزم للخلق، وإنَّما هي درجة إلى الحق، فإذا رأى أن الباري قد أخذ منه ما أعطاه شكره على ما أبقاه، نعم؛ وعلى ما أخذ، فإنه ما أخذه إلَّا ليعطيه أفضل منه، فهو موضع الشكر العظيم، وهو:

* * * * *

(١) سقطت من (ص).

(٢) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٣) في (د): التحقق.

الاسمُ التاسع والثلاثون: الشَّاكِرُ[١]

أَمَا إنه قد ينفردُ الصَّبْرُ عن الشكر في فوات الطاعة للعبد، فهو مَوْضِعُ صَبْرٍ وليس بموضع شُكْرٍ، ولعظيم هذه الرتبة أخبر الله عنها بالقلة فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]؛ ولذلك صار الصبر والشكر قَرِينَيْنِ، بل أخوين، وهو سبب المزيد؛ قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٩].

ولبعض البلغاء حكمة[٢] بديعة؛ قال في خطبة: «معلوم أن الله قضى للنعم إذا حُصِّنَتْ بالشكر أن يستدني منها القصي، ويستأنس النافر الوحشي، وإذا قُرِنَتْ بالكفر أن يرحل منها القاطن، وتستوحش المعاطن»[٣].

يقول الله في القرآن المجيد: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

ومن «فوائد أبي سَعْدٍ الشهيد»: «إن الله أَعْلَمَ أَنَّكم إن شكرتم إنعامه زادكم إكرامه، وإن كفرتم أَحَلَّ بكم امتحانه، وأنزل بكم فراقه وهجرانه»[٤].

---

(١) في (ب): الشاكر، وهو الاسم التاسع والثلاثون، وسقط من (ص).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): في كلمة، ومرَّضها في (د).

(٣) الذخيرة لابن بسَّام: (٦٣٨/٢/٤).

(٤) ينظر: لطائف الإشارات: (٢٤١/٢).

وقيل: المعنى: «إن عرفتم قَدْرَ أفضالي لأزيدنكم من نوالي، وأُشهدكم جمالي، وأُعَرِّفكم جلالي»[(١)].

وقيل: «لئن شكرتم بإدامة العبادة لأزيدنكم فوق الإرادة»[(٢)].

وقيل: «لئن شكرتم مِنْحَتِي للُطْفِي لأزيدنكم العلم بوَصْفِي[(٣)]»[(٤)].

وقيل: «لئن شكرتم حاضر نِعَمِي لأزيدنكم غائب كَرَمِي»[(٥)].

وقيل: «لئن شكرتم ما خوَّلتكم من عطائي لأزيدنكم ما وعدتكم من لقائي»[(٦)].

وقيل: «لئن كفرتم ما منحتكم من السرائر لأَسْلُبَنَّكم ما ألبستكم من الظواهر»[(٧)].

وقيل: «لئن كفرتم بدعوتى[(٨)] استحقاقها لأسلبنَّكم حلاوة مذاقها، ولئن كفرتم أنتم ومن في الأرض جميعًا فإن الله لغني حميد»[(٩)].

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/٢٤١).

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٢٤١).

(٣) قوله: «وقيل: لئن شكرتم بإدامة العبادة لأزيدنكم فوق الإرادة. وقيل: «لئن شكرتم مِنْحَتِي للُطْفِي لأزيدنكم العلم بوَصْفِي» سقط من (ص).

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٢٤١).

(٥) لطائف الإشارات: (٢/٢٤١).

(٦) لطائف الإشارات: (٢/٢٤١).

(٧) لطائف الإشارات: (٢/٢٤١).

(٨) في (ك) و(ص) و(ب): بدعوى.

(٩) لطائف الإشارات: (٢/٢٤١).

وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «عبادي؛ لو أن أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم،/ اجتمعوا على أتقى قلب رجل ما زاد ذلك في مُلكي، عبادي؛ لو أن أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، اجتمعوا على أفجر قلب رجل ما نقص ذلك من مُلْكِي»[1]. ٢ [١٥/ب]

حقيقة الشكر:

ولا نُطَوِّلُ عليكم في بيان معنى الشكر؛ فإنه أقربُ شيء في العلم، وهو تصريف النعمة في الطاعة، فإذا أَنْعَمَ الباري على العبد نِعْمَةً فصرفها في طاعته فقد شَكَرَها، وإن صرفها في معاصيه فقد كَفَرَها.

وليس الشُّكْرُ بمجرد[2] القول باللسان، بل إنه منه وعُنوانه، وعلامته ودليلٌ عليه، وقد كان النبيُّ يدأب في العبادة، ويواظب على الطاعة، وينبذ الدنيا زهادةً، حتى ضعف بدنه، وحَطَمَهُ السِّنُّ[3]، وتفطَّرت قدماه، فقيل له: «تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر! فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»[4].

معناه: أَصْرِفُ نِعَمَ رَبِّي في طاعته[5].

وقد أثنى الله على نُوحٍ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]؛ فإنه لَبِثَ في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يُضْرَبُ، حتَّى يُتْرَكَ باسم

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): مجرد.

(٣) في (ك): الناس، البأس، ورمز لهما بـ: معًا، وفي (ص): البأس، وفي (ب): الناس.

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) في (ك): طاعاته.

المَيِّتِ، فلا يَرْدَعُه ذلك عن القيام بأمر ربه، وتبليغ رسالاته، وما شكا ذلك قط، ولا تَضَجَّرَ[1] منه، وبهذا كان الصَّبْرُ أخَا الشكر، فلمَّا قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]؛ حينئذ دعَا عليهم، واعتدَّ بعد ذلك دعوته تقصيرًا لعظيم[2] عبادته، حتى اعتذر بها عن سؤال الشفاعة، فيقول للخلق يوم القيامة: «إني دعوتُ على قومي»[3]، إشارة إلى أنه فاته إذ أعلمه الله ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾؛ أن يَكِلَهُم إلى الله حتى يَنْفُذَ فيهم حُكْمُه، ويبقى هو مُلَازِمَ رَسْمِه.

وقد قال قَوْمٌ في حقيقة الشكور: «إنه الذي يشكر على الشكر»[4].

ولأجل هذا قال قوم: «إنه لا يطاق».

وأنشدوا فيه لمحمود الورَّاق:

إذا كان شُكْرِي نِعْمَةَ الله نِعْمَةً ... عليَّ له في مثلها يجبُ الشُّكْرُ
فكيف أؤدي حقَّ ما هو مُنْعَمٌ[5] ... وإن طالت الأيام واتَّصل العُمْرُ[6]

وذَكَرَ الأبيات، وبهذا بَطَلَ مَذْهَبُ القدرية في قولهم: «إن شكر المنعم واجب بالعقل»، فإنَّ العقل يُعْطِي أنه لا آخِرَ للشكر، وبالشَّرْعِ عرفنا أن الفرض يسقط بالقَدْرِ المستطاع، والقول المُرَاعَى المُرَاعِي.

---

(١) في (ك): يضجر.
(٢) فوقها في (د) كلمة لم أتبينها، ولم يصححها الناسخ.
(٣) تقدَّم تخريجه.
(٤) لطائف الإشارات: (٢/٣٣٥).
(٥) في (د) و(ب): مُنعِم.
(٦) من الطويل، وهي لمحمود الوراق في أحسن ما سمعت للثعالبي: (ص٧)، وزهر الآداب: (١/١٣٨)، وفيها: فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله.

وقيل: «الشكور هو الذي يصرف ماله في الصدقة، وبدنه في الطاعة، ولسانه في الذِّكْرِ، وقلبه في الفِكْرِ»[١].

ولذلك أثنى/ الله على إبراهيم فقال: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل:١٢١]؛ لأنه بَذَلَ مَالَه للضِّيفَانِ، وبَدَنَه للنيران، وقلبه للرحمن؛ فاتخذه الله خليلًا، واصطفاه دون الخلق وليًّا، وكان به - أبدًا - حَفِيًّا، ووهب له إسحاق ويعقوب ومن ذريته، وجعل الكُلَّ نَبِيًّا. [١٦/أ]

[الوصاةُ بالأحاديث الصحيحة]:

والآياتُ في الشكر كثيرة، والأحاديث قليلة، فلا تلتفتوا إليها، فإنَّ مَثَلَ من يطلب العلم بالحديث الضعيف والباطل كمن يصلي بطهارة الماء المُتَغَيِّرِ والنَّجِسِ، فلا يطلب الحق إلَّا بالحق، ولا يعضد الصحيح إلا بالصحيح.

[استعمالُ نعم الله في المكروهات كفران لها]:

وقد وردت زيادةٌ للصُّوفِيَّةِ في هذا الباب حسنة، حيث قالت: «إن استعمال نِعَمِ الله في المكروهات كُفْرَانٌ لها»، بل في تَرْكِ الأدب، ألا ترى إلى عثمان كيف لم يَمَسَّ ذَكَرَه بيَمِينِه منذ[٢] بايع بها رسول الله[٣]، فرأى أن اتصال يده بيد رسول الله نعمة، ورأى من شُكْرِها ألَّا يستعمل يده في محظور ولا مكروه ولا في ترك أدب، ورأى أن ذلك العضو مَحَلٌّ أقذار من

---

(١) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٣٣٥).

(٢) في (ك): مذ.

(٣) يشير إلى حديث: «فوالله ما تغنَّيت ولا تمنَّيت، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله»، أخرجه الطبراني في أكبر معاجمه: (٥/١٩٣).

وجه، وشهوات من آخر، فطهَّره[١] عن محل الأقذار، وقدَّسه عن مظانِّ الشهوات لمَّا باشر به أكرم الجوارح في أشرف القُربات.

قال الإمام الحافظ[٢] ﷺ: فتَفَطَّنَ[٣] لدَقِيقَةٍ[٤] عظيمة جازاه الله بها؛ وهي أن جعل يد رسول الله بدل يده[٥] يوم الحُدَيبية حين بايع الناسُ على الموت، وغاب عثمانُ فضرب رسولُ الله ﷺ بإِحْدَى يديه على الأخرى[٦] بيده على الأخرى، وبايع بهما، وقال: «هذه يد عثمان»[٧]، وناهيك بهذا[٨] مرتبة.

وقد حَقَّقَ الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

أي: ليكون كُلُّهم لكُلِّي.

---

(١) في (د) - أيضًا -: فطهر يده، وفي (ص): فطهَّر يمينه.

(٢) في (ب): قال الإمام ابن العربي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): فتفطنتُ، وما أثبتناه أشار إليه في (ك).

(٤) في (د): رقيقة.

(٥) بعده في (ك) و(ص) و(ب): فقال، وضرب عليها في (د).

(٦) قوله: «فضرب رسول الله ﷺ بإِحْدَى يده على الأخرى» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر ﷺ: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي ﷺ، رقم: (٣٦٩٨-طوق).

(٨) في (د) - أيضًا -: بها، وفي (ص): بهذه.

وقد يتفق أن يجتمع المكروه[١] والمحظور وترك الأدب في قضية واحدة، مثل أن يأخذ المصحف ويده ملطوخة بالنجاسة مُحْدِثًا بيساره، أو كمن[٢] يبيع حُرًّا وقت النداء يوم الجمعة، فهذه حرمات متروكة، وظلمات بعضها فوق بعض مركومة، وكفران على كفران؛ ربَّما أدَّى إلى سَلْبِ الإيمان، فلا يزال العبد يُلَابِسُ المعاصي ويستهين بارتكابها ويستسهل مواقعها[٣] حتى تُوقِعَه[٤] في سَلْبِ الإيمان.

ولاقتحام الخلق المعاصي تارة، والمكروهات أخرى، ونبذ الآداب ثالثًا[٥] قال إبليس:/ ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦]. ٢ [١٦/ب]

درجاتُ الشَّاكرين:

والنَّاسُ في الشُّكرِ درجات:

الأولى[٦]: الملائكة؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون.

[الثانية]: ويليهم الأنبياء، وقد اختُلف في فَضْلِ بعضهم على بعض، وأفضلُ الأنبياء مرتبة في الشكر مُحَمَّدٌ ﷺ.

[الثالثة]: ويليهم العلماء، وهم الذين يخشون الله ولا يخالفون ما علموه من أمره وشَرْعِه.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): المحظور والمكروه.

(٢) في (ك) و(ب): وكان، وضرب عليها في (د).

(٣) في (د): بمواقعها.

(٤) في (د): تواقعه، وسقطت من (ص).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): ثالثة.

(٦) في (د): الأول.

وينقسم النَّاسُ بعد ذلك إلى أنواع شتى، شُكْرُ كل أحد[١] على مقداره وحاله في قِسْمِ النعمة التي أُوتِيَها.

أنواعُ النعم:

فإنَّ نِعَمَ الله أنواعٌ، ولا يُحْصَرُ[٢] تفاصيلها، أمَا إنَّها ربَّما عُلِمَتْ على التبعيض، فيقال: النعمة نعمتان:

نعمةُ دنيا.

ونعمةُ آخرة.

فنعمة[٣] الدنيا العافية، ونعمة الآخرة النجاة من العذاب.

وتنقسمُ من وجه آخر إلى نعمتين:

خاصة.

وعامَّة.

فالخاصَّة: ما كانت في حق المرء وحده.

والعامَّة: ما تناولها[٤] مع غيره.

فإذا كانت خاصَّةً حَمِدَ الله على ما خصَّه به.

وقالت طائفة من الصوفية: «إنَّ ذلك ذنب».

---

(١) في (د) - أيضًا -: واحد.

(٢) في (ص): تُحصر.

(٣) في (د) و(ك): فالنعمة.

(٤) في (ب): تناولته.

قال سَرِيٌّ: «أنا منذ ثلاثين سنة في الاستغفار؛ لقولي: الحمد لله مرة؛ إذ وقع حريق ببغداد، فاستقبلني رجل فقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فأنا أستغفر الله من ذلك لأنِّي رأيتُ لنفسي خيرًا ممَّا للمسلمين»(١).

قال ابن العربي(٢): وهذا تغلغل في حالة سمحت فيه الشريعة، كان النبي ﷺ إذا آوى ويقول لمن آوى إلى فراشه: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوَانَا، وكَم مَن لا كَافِيَ له ولا مُؤْوِيَ»(٣).

أَمَا إِنَّه ينبغي أن يكون مُتَحَزِّنًا على ما فَاتَ من فَاتَهُ ذلك، فيجمع بين نهاية التدقيق(٤) وغاية الشكر، والله أعلم.

وتنقسم من وجه(٥) آخر إلى نعمة في البدن ونعمة في المال، وربما زاد بعضهم فيه نِعْمَةَ العِرْضِ، وهو صحيح؛ فإنَّ الله تعالى نوَّعها على لسان رسوله(٦) ثلاثة، فقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام؛ كحُرْمَةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»(٧).

---

(١) رسالة القُشَيري: (ص٤٥).

(٢) في (ب): قال الإمام رحمه الله.

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (ب): التنافس.

(٥) قوله: «آخر إلى نعمتين خاصة وعامة.. وتنقسم من وجه» سقط من (ص).

(٦) في (ك) و(ب) و(ص): نبيه.

(٧) تقدَّم تخريجه.

[قولُـــه تعـــالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾]

ويحصرُ لك ضَبْطَ نَشْرِها أنَّ كل موجود فيك أو لك أو لغيرك تعود إليك منفعته أو لغيرك فإنها من فِعْلِ الله، فكلُّ موجود له يجب عليك الشُّكْرُ فيه، ويجمع ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمان: ١ - ٧]. / ٢ [١٧/أ]

قال الإمام الحافظ[١] رضي الله عنه: فبيَّن أنه سبحانه برحمته علَّم القرآن؛ رَحِمَهم وعصمهم عن الشِّرْكِ، وأكرمهم، وأَوْعَزَ إليهم[٢] بكلمة التقوى، وألزمهم وعرَّفهم كلامه، وأنزل عليهم كتابه، وعلَّمهم آياته[٣].

وفائدتُه: «أنَّ الله انفرد بتعليم الخَلْقِ القرآنَ[٤]، وجَرَتْ سُنَّتُه سبحانه أنه إذا أعطى نبيًّا شيئًا أعطى أمته منه، وأشركهم معه فيه، فلمَّا قال له[٥]: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٢]؛ قال لنا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾»[٦].

---

(١) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.
(٢) في طرة بـ (ك) بغير خط الناسخ: أمرهم.
(٣) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).
(٤) في (د): القرآن الخلق.
(٥) سقط من (د).
(٦) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٢).

ويقال: «علَّم الله آدم الأسماء كلها، ثم أَمَرَهُ بعَرْضِها على الملائكة، فقال: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة:٣٢]، وعلَّم المسلمين القرآن»[١].

وقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[٢]، «والمصلي يناجي ربه»[٣]، فقال لآدم: «اذكر ما عَلَّمْتُك للملائكة، وقال لنا: ناجني يا عبدي بما عَلَّمتك»[٤].

قال بَعْضُهم: «قد يُلَاطَفُ أولادُ الخَدَمِ بما لا يُصْنَعُ مع آبائهم»[٥].

وقد قال أهلُ التفسير: «إن الله علَّم الأرواح القرآن قبل تركيبها في الأجسام بلا واسطة، والصِّبْيَانُ إنَّما يتعلمون القرآن في حال صغرهم قبل أن يسمعوا كلامًا[٦] سواه»[٧].

وفي هذا مُتَعَلَّقٌ لأهل المغرب في ابتدائهم الصبيان بتعليم القرآن، لو صحَّ.

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه عن عبادة بن الصامت ﷺ: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، رقم: (٢٤٧-بشار).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الصلاة، العمل في القراءة، (١/١٥٩)، رقم: (٢١٥-المجلس العلمي الأعلى).

(٤) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

(٥) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

(٦) في (ك) و(ب): كلام.

(٧) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

ويقال: «برحمته علَّمهم القرآن، لا بقراءة القرآن وَصَلُوا إلى رحمته، فَضْلُه سَبَقَ عَمَلَهم[١]»[٢].

ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، الإنسان هاهنا جِنْسُ الخلق، علَّمهم البيان ففَضَّلَهُمْ به على[٣] جميع الحيوان، وعلَّمهم ألسنتهم التي يتخاطبون بها، والبيانُ العِلْمُ، وقد شرحنا ذلك في «كُتُبِ الأصول»[٤].

وقيل: «هذا رَدٌّ على أهل مكة حين قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، فقال الله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، الآيات»[٥].

وقيل: «الإنسانُ: آدم»[٦].

وقيل: «البيانُ الذي خُصَّ به الإنسان الاعتبارُ؛ حتى عَلِمُوا كيف يخاطبون أمثالهم وأشكالهم، وأمَّا أهلُ الإيمان والمعرفة فعَلَّمَهُمْ كيف يخاطبون مولاهم»[٧].

وبيانُ العِبَرِ[٨] يختلف[٩]:

---

(١) في (د): عليهم.

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): عن.

(٤) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

(٥) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

(٦) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

(٧) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٣).

(٨) في (ك): الغير، وطُمِسَ موضعُها في (د) و(ب).

(٩) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٥٠٤).

فبيانٌ بلسان ؛

وبيانٌ بقلب ؛

وبيانٌ بنَفْسٍ ؛

وبيانٌ بدَمْعٍ ؛

وبيانٌ بلَحْظٍ ؛

وبيانٌ بإشارة ؛

وفي كل واحد أَثَرٌ ونَظَرٌ، بيانُه في موضعه لا نُطَوِّلُ به هاهُنا.

ومن نِعَمِه أن جعل الشمس والقمر/ بحُسْبَان، حتى ينتهي إلى تَكْوِيرِ الشَّمْسِ وخَسْفِ القمر. [١٧/ب]

ونجومُ السماء وشَجَرُ الأرض يسجدُ[1] في أَصَحِّ الأقوال.

ورَفْعُ السماء بغير عَمَدٍ[2].

ووَضْعُ الميزان.

قيل: هو الشَّاهِينُ ؛ ليعتبر الناسُ الإنصاف[3].

وقيل: الميزانُ: العَدْلُ[4].

وأمرهم ألَّا يَطْغَوا فيه، وذلك بأن يحفظوا العَدْلَ في جميع الأمور ؛ في حقوق الله سبحانه، وفي حقوق الآدَمِيِّينَ ؛ بتَرْكِ الحَيْفِ، ومجاوزة الحَدِّ

---

(١) في (ص): تسجد.

(٢) في (د): أمرهم.

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٤).

(٤) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٤).

في كل شيء، فيُعْتَبَرُ في الأعمال الإخلاص، وفي الأقوال الصدق، وفي الأنفاس التحقيق ومساواة الظاهر للباطن، وترك المداهنة والخداع والمكر، ودقائق الشرك وخفايا النفاق، وعوارض الخيانات وسوء الأخلاق[١].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: بالمكيال الذي تَكْتَالُ يَجِبُ[٢] أن يُكتال لك[٣]، واشرب ممَّا[٤] تَسْقِي، وانتظر أن تُعامَل بما تُعامِل، فكما تَدِينُ تُدان[٥].

قال الإمام الحافظ[٦] رضي الله عنه: فهذا كله يقتضي أن تُرَاعِيَ أمر الله في كل حالة وعمل، فإن الكل منه، وهو الآمِرُ بالعَدْلِ فيه، والعَدْلُ أن تَرُدَّ نعمته في خِدْمَتِهِ، وألَّا تخرج فيها[٧] عن شِرْعَتِهِ، فمن لَبِسَ الحرير أو أكل الكثير أو وطئ الأجنبية[٨] فقد أَخْسَرَ الميزان، وعَدَلَ عن العَدْلِ.

وقد قال النبي ﷺ في المال: «نِعْمَ صاحب المسلم؛ ما أطعم منه المسكين وابنَ السبيل»[٩].

وكذلك إذا أنفق شبابه في عبادة الله، وأفنى عمره في طاعة الله.

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٥).

(٢) في (ص) و(ب): تحب.

(٣) في (ص): بالمكيال الذي تُحب أن يكتال لك به.

(٤) في (ك): بما.

(٥) لطائف الإشارات: (٣/٥٠٥).

(٦) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي رضي الله عنه.

(٧) في (ك): فيه.

(٨) في (ك) و(ص) و(ب): الأجنبي، وأشار إليه في (د).

(٩) سبق تخريجه.

وكما قال النبي في المال: «إنه نعم صاحب المسلم»[1]، فكذلك يكون الفقر؛ نِعْمَ صاحب المسلم، ما قَصَّرَ به أملَه، وحَسَّنَ عمله، وأتبعه رِضَى الله وشكره، ولا يعتقدُ أنه في حال فقره أقل منه في حال غناه، هذا نبيُّنا كان يُؤذى ويُضرب ويُهان ويُجلى، ثم ملَّكه الله النواصي، وأباح له الصَّيَاصِي، وجمع على محبته قلوب الدَّاني والقاصي، ولم تكن نعمة الله عليه في إحدى الحالتين بأقلَّ من الأخرى.

فإن قيل: وكيف يكون المالُ نعمة وهو زينة الحياة الدنيا؟

قلنا: هو معونة على الطاعة، وفتنة في الشهوة، وكذلك الولد؛ هو سبيلٌ إلى الخيرات وفتنة، وكذلك صحة البدن، فإذا سَلِمَتْ عن الغوائل كانت نعمة، وإذا اقترنت بها آفة كانت نقمة، ولكثرة آفة المال رُغِبَ عنه، ولأنَّ صحة البدن أَصْلٌ في الطاعات رُغِبَ فيها، فالحاجةُ إليها آكَدُ من الحاجة/ إلى المال والولد. ٢ [١٨/أ]

وكلُّ ما فيك وفي الأرض نِعْمَةٌ من الله عليك، تزداد بالشكر في متعلقات إرادتك الدينية، وتذهب بالكفران في متعلقات[2] إرادتك الشهوانية، كما قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:١٩]، وقال في مقابلة ذلك: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٢١]، لتسلم النِّعَمُ ظاهرُها وباطنُها من الإثم ظاهرِه وباطنِه[3]، فيتطهَّر الظاهرُ من دَرَنِ[4] الظاهر، ويتطهَّر الباطن من دَرَنِ[5] الباطن.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في طرة بـ (د): متعلق، وصححَّها.

(٣) في (ك) و(ب): ظاهرة وباطنة.

(٤) في (ك): دون.

(٥) في (ك): دون.

[فائدةُ الشكر]:

ومن أعظم[١] نعمة لله[٢] على الخلق تسخيرُ الملائكة لهم في الرزق؛ من ابتداء أحواله، إلى أن يكون لك غذاءٌ في فمك ملائمًا لشهواتك، وبهذا كله تُستجلب فائدة الشكر، وهي المزيد، قال الله في القرآن المجيد: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٩].

فإن قيل: فما وجه الزيادة؟

قلنا: قد ذَكَرْنَا فيما تقدَّم ألفاظًا وَعْظِيَّةً فيها حقائق علمية، لا يتفطَّن لها إلَّا الحاذق.

وأمَّا أهلُ الفقه فقد قالوا في ذلك أقوالًا أربعة[٣]:

الأوَّل: أنَّ قوله: ﴿لَأَزِيدَنَّكُم﴾ مُطْلَقٌ قَيَّدَهُ قَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨]، فإنه فعَّال لما يريد، كما قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

الثاني: أنَّ هذا مخصوص بقَوْمٍ دون قَوْمٍ.

الثالث: أن[٤] معناه: لأزيدنكم إلَّا أن تَعْصُوا، ولا يتفق لهم إلَّا أن يَعْصُوا.

الرابع: إذا لم يظهر المزيد على صاحب النعمة عَلِمْنَا أنَّه لم يشكر.

---

(١) في (ص): أعم.

(٢) في (ك): الله.

(٣) لم أهتد إل معرفتها بعد بحث ونظر في كتب التفسير، والله أعلم.

(٤) مرَّضها في (د).

وهذا أقواها في النظر، وإن كان الكُلُّ مُحتملًا، وبعضُه أقوى من بعض.

[آفةُ الشكر]:

وليَحْذَرِ العبدُ آفَةَ الشُّكْرِ، وهي من وجهين:

أحدهما: الغفلة عنه باسْتِدْرَارِ النِّعَمِ.

الثاني: اعتقادُ استحقاقها.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩]، وقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١ - ٢]، فإنَّك إذا كنت لله كان الله لك، وإذا اشتغلت بالله نَظَرَ لك الله فيما اشتغلت عنه به[1]، ولا تغترُّوا بسلامة أوقاتكم، ولا بتمادي نعمكم؛ عن أن تُقبلوا على عبادة ربكم، وتَرْقُبُوا آجالكم، وتتأهَّبُوا لما بين أيديكم، ولا تركنوا إلى العَطَنِ في مَبَارِكِ التسويف، وديار التخلف والتَّخْلِيف.

وقد قال الجاهلُ في نِعَمِ الله إذا ذُكِرَتْ[2] عنده واستمرت عليه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، ذَكَرَ حَظَّ[3] نفسه ونسي ربَّه، واعتقد أنه أُوتِيَ ما يستوجب، وحصل ما عنده بحق،/ وخرج على قومه في شَارَتِه العظيمة، وهيئته العجيبة، فلمَّا عاينوه انقسموا بالمقدار إلى نوعين:

٢ [١٨/ب]

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٥٩١).

(٢) في (ك) و(ب): كثرت.

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): لَحَظَ، ومرَّضها في (د).

أحدهما: من كُتب له سوء الدار؛ فقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:٧٩]، فتمنَّوا مثل حاله، وكان جامعًا مُحْتَجِنًا، وقد ذمَّ النبيُّ هذا، وأخبر عن سوء مآله، كما تقدَّم بيانُنا له عنه بقوله فيه.

وقال أهل الصَّحْوِ عن سُكْرِ[1] الدنيا، الناظرون بعين البصيرة إليها، العالمون بسوء عاقبة قارون فيها، مُؤَجَّلًا وإن[2] أُمْهِلَ مُعَجَّلًا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص:٨٠]، فلمَّا نزلت به العقوبة نَدِمُوا، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص: ٨٢].

يعني: منَّ الله علينا بفَقْدِ حال قارون.

وقد يُقَصِّرُ العبدُ في الشكر؛ لأنَّه يرى غيره أكثر نعمة منه، وينبغي له أن يتأمَّل وجهين:

أحدهما: ما آتاه الله ممَّا لا يستحقه عليه من نِعَمِه عنده، وأنه لم يقم بَعْدُ بشُكْرِها، ولا يغتر بذلك الذي ربَّما كانت له[3] إِمْلَاءً.

ولِيَنْظُرْ - **في الوجه الثاني** - إلى من دونه من أهل الفقر والزَّمَانَةِ والكفر بالله والجُحُودِ له، وليَمُرَّ على المقبرة؛ فإنه ربَّما يظهر إليه أن مَيِّتًا فيها يَوَدُّ أن يكون في مثل حاله، فإذا كان من الممكن ذلك فليَعْلَمْ أنه على نعمة.

---

(١) في (ك): شكر.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): إن.

(٣) سقط من (ك).

وقد يَجْهَلُ وَجْهَ النِّعْمَةِ في البلاء فلا يَشْكُرُ؟

قلنا: البلاء والنعمة اسمان غريبان[١]؛ فإنَّ البلاء منه ما هو نعمة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُومِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَناً﴾ [الأنفال:١٧].

قال علماؤنا: معناه: «يُعطيهم المِنَحَ ليظهر شكرهم، وقد يُعطيهم المحن ليظهر صبرهم، فالبلاءُ الحسن تحقيق الشُّكْرِ في المنحة، وتحقيق الصَّبْرِ في المحنة»[٢].

وقال المحققون: «كل ما يفعل الباري حَسَنٌ، فإنَّ له أن يفعله».

وقالت الصوفية: «حَسُنَ البلاءُ لأنه منه، وطاب البلاءُ لأنه فيه»[٣].

وقَوْلُ المحققين أصحُّ عندي، وأجرى على الأصول.

وقيل: «البلاء الحسن ما لا دعوى فيه إن كانت منحة، وما لا شكوى فيه[٤] إن كانت محنة»[٥].

وقيل: «بلاءُ كل أحد على قدر حاله ومقامه، فأصفاهم وَلَاءً أقواهم بَلَاءً»[٦].

قال النبي ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل»[٧].

---

(١) في (ك) و(ص): عربيان.

(٢) لطائف الإشارات: (٦١١/١).

(٣) لطائف الإشارات: (٦١١/١).

(٤) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).

(٥) لطائف الإشارات: (٦١١/١).

(٦) لطائف الإشارات: (٦١١/١).

(٧) تقدَّم تخريجه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] [الأنفال:١٧]، هذا تسلية لقوم، وتهديد لآخرين[2].

المعنى: أن الله يسمع قولكم في المسرَّة، وأنينكم في المضرَّة، فيحملُ البلاءَ عن من يراه، ويُديمه على ما يراه.

٢

وقد مَنَعَ الله رسولَه ﷺ من[3]/ الشَّكْوَى حين اشتدَّ عليه الكَرْبُ والبلاء، فقال له[4]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧ - ٩٨].

[١٩/أ]

وأَمَرَه بالصبر فقال: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه:١٢٨].

ولم يأذن له في أكثر من العبادة، وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:١ - ٣].

قيل له: لعلك تقتل نفسك غمًّا إذ لم يؤمنوا، ما عليك منهم، لست بمسيطر عليهم، إنَّما أنت مُذَكِّرٌ[5].

---

(١) في النسخ: ﴿وأن الله سميع عليم﴾.
(٢) لطائف الإشارات: (٦١١/١).
(٣) في (د): عن، من.
(٤) سقط من (د) و(ب) و(ص).
(٥) ينظر: لطائف الإشارات: (٦/٣).

وقيل: إنه سُلِّيَ حين كان يريد أن يَرْمِيَ نفسه من الجبال غمًّا.

والأوَّل أصح؛ لأنه إنما كان يَهُمُّ بطرح نفسه من الجبل حين أبطأ عنه جبريل عليه السَّلام شوقًا إليه، وأَسَفًا على انقطاع الوحي عنه(١).

ومنه أيضًا ما يكون نقمة، وكذلك النعمة قد تكون استدراجًا، ولذلك اختلف الناس؛ هل لله على الكافر نعمة أم لا؟

وإذا أردتَ بلاءً مطلقًا فهو معاندة الله، وإذا أردت النعمة المطلقة فهي طاعة الله، وأعظم بلائه المطلق الكفر، وأعظم نعمه المطلقة الإيمان، ولا يُتصوَّر شُكْرٌ في الكفر ولا صَبْرٌ.

وللمعاصي درجات يطول تَعْدَادُها، ولكن إذا نظرنا في مصائب الدين فلا صبر فيها ولا شكر، أمَا إنه لا صبر فيها؛ فلأجل أنه بَلِيَّةٌ على العبد من قِبَله، يلزمه الخروج عنها بالتوبة، وأمَّا شُكْرُ الله عليها فمحال؛ لأنَّها تُورِثُه(٢) العذاب والبُعْدَ من الله.

وأمَّا مصائب الدنيا فتلك التي يُتصوَّر فيها الصبر كما تقدَّم، وللشكر فيها(٣) وجوه:

الأول: على أن لم تكن أعظم ممَّا هي.

---

(١) حديثُ هَمٍّ رسول الله بالتردي من شواهق الجبال حديثٌ أخرجه البخاري عن الزهري بلاغًا: كتاب التعبير، رقم: (٦٩٨٢-طوق)، وهو حديث لا يصح لانقطاعه، ينظر: فتح الباري: (١٢/٣٥٩).

(٢) في (ب): تورث.

(٣) في (ك) و(ب): فيه.

الثاني: على[1] أنها[2] إن[3] لم تَكُنْ في دِينِه فكم ترى ممَّن أُصيب بدينه.

الثالث: أنه يرى أنه تخفيف من ذنوبه أو حَطٌّ، إذ قد ثبت في الحديث الصحيح - كما قدَّمنا - أن المصائب تحطُّ الذنوب.

الرابع: أنه يرى أن ثوابها أفضل منها، فهذه نعمة عظيمة؛ حيث أُخِذَ منه فأُعطي أفضل، وقد تقدَّم بيانُه.

ولا خلاف بين العلماء أن الصبر على المصيبة أهونُ من الشُّكْرِ على النعمة، قال عبد الرحمن بن عوف[4]: «ابتُلينا بالضَّرَّاءِ فصبرنا، وابتُلينا بالسَّرَّاءِ فلم نصبر»[5].

ومن جَمَعَ الصَّبْرَ والشُّكْرَ فهُوَ «الحَامِدُ».

* * * * *

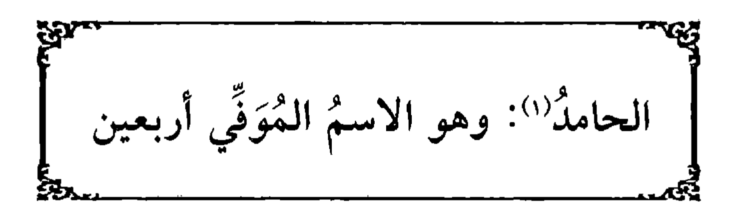
(١) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٢) في (ص): إنما.

(٣) سقط من (د).

(٤) قوله: «عبد الرحمن بن عوف» سقط من (ك) و(ب) و(ص).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٤٦٤-بشار).



الحامدُ[١]: وهو الاسمُ المُوَفِّي أربعين

وليس فيه[٢] حديث يُعَوَّلُ عليه، والحديثُ الذي يقال فيه: «الحمَّادون[٣] لله»[٤] لا أصل له./ ٢ [١٩/ب]

ولكن من جَمَعَ بين الوجهين فأثنى وشَكَر[٥]، وأطاع وتواضع[٦] عند النعمة وصَبَر، ولم يضجر عند البلاء؛ فهُوَ «الحامد»، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من دَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وجَهْدِ البلاء، وشماتة الأعداء، كما كان يستعيذ من فتنة الغنى والفقر، وفتنة المحيا والممات، ويأمر بسؤال الله العفوِ والعافيةِ، ويتردَّد في أحواله بين خوف نقمة ربه[٧] ورجاء مغفرته، وهما: «الرجاء» و«الخوف[٨]».

---

(١) سقط من (د) و(ك) و(ص).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): فيهم.

(٣) في (ب): الحامدون، وأشار إليه في (د).

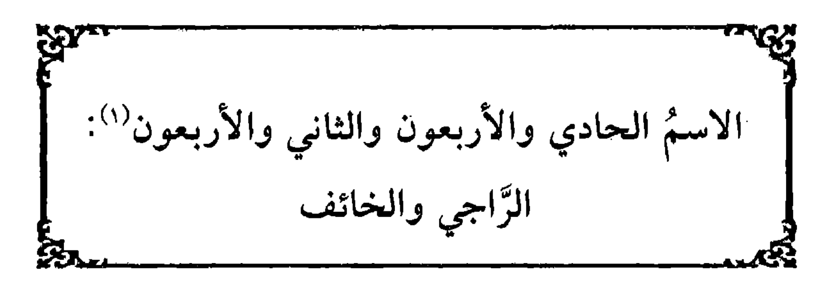
(٤) أخرجه الطبراني في أكبر معاجمه من حديث عمران بن حُصَين رضي الله عنه: (١٢٥/١٨)، رقم: (٢٥٤)، وفي الإسناد من لم أقف لهم على أثر.

(٥) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٦) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٧) ضبَّب عليها في (د).

(٨) قوله: «الرجاء والخوف» سقط من (د) و(ك) و(ص).



الاسمُ الحادي والأربعون والثاني والأربعون[١]: الرَّاجي والخائف

وهما متعارضان؛

فالرجاء معناه[٢]: غلبة ظن بلوغ الأمل على القلب.

والخوف: غلبة ظن وصول المكروه.

فأما ترتيبُ ذلك وتنزيلُه في الدنيا وأسبابها فمعلومٌ عند كثير من الناس، وأما في باب الآخرة فقد خَفِيَ على[٣] الخلق حتى لم[٤] يُدْرِكْهُ أكثرُهم، وإنما انفرد بمعرفته أهلُ السُّنَّةِ؛ فإنَّ الناس في مقامهما[٥] على ثلاث فِرَقٍ:

فرقة قالت: «لا خوف مع لا إله إلا الله»[٦].

---

(١) في (ك): الاسم التاسع والثلاثون والمُوَفِّي أربعين، وفي (ب): الراجي والخائف: وهما الاسم الحادي والثاني والأربعون، وفي (ص): الاسم الحادي والأربعون والاسم الثاني والأربعون.

(٢) في (ك) و(ب) و(ص): معنًى.

(٣) في (ك): عن.

(٤) في (د): في خـ: لا.

(٥) في (د): مقاميهما.

(٦) هو قول المرجئة، ينظر: قوت القلوب: (٢/٦٦٣).

وفرقة قالت: «لا رجاء مع مواقعة ذنب واحد من الكبائر»[١]، وهي التي ردَّ عليها أبو عُبَيد[٢].

وفرقة ثالثة توسَّطت، وقالت: «لا خوف مع الانكفاف عن المزجور والامتثال للمأمور، ولا رجاء مع الكفر بالله».

وإذا تحصَّلت الشهادتان وواقع العبدُ مع ذلك الذنوب فهو على رجاء من المغفرة وخوف من العقوبة، فلينظر لنفسه في الارتقاء عن هذه المنزلة إلى مقام التائبين حتى يحصل من الناجين.

وقال فريقٌ - بعد أن يتوب أو يكون مطيعًا لم يَعْصِ -: لا ينبغي له أن يفارق الفَرَقَ[٣] على الهلكة؛ فإنه لا يعلم هل وفَّى بما عاهد عليه الله؟ وهل امتثل ما أمر به وهل تَحْسُنُ[٤] خاتمته؟

وهذه كلها مخاوف لا يقع فيها الأَمْنُ إلَّا عند الوفاء[٥]، فيكون أيضًا على هذه المنازل الشريفة راجيًا في رحمة الله خائفًا لعقاب الله عز وجل.

حالُ الأنبياء في الخوف:

حتى إنَّ الأنبياء يخافون الله مع أنه أمَّنهم وعرَّفهم منازلهم، وأخبرهم بحُسْنِ الخاتمة لهم، وقد اختلف الناسُ في جهة خوفهم مع الثقة بأَمْنِهم

---

(١) وهو قول القدرية، ينظر: الإيمان لأبي عبيد: (ص١٠١)، وقوت القلوب: (٦٦٣/٢).

(٢) في (د) و (ك) و(ب) و(ص): ورد عليها الوعيد، ومرَّضها في (د).

(٣) الفَرَقُ: الخوف.

(٤) في (د): وهو يُحسن.

(٥) في (ك) و(ب) و(ص): الوفاة.

بصِدْقِ الوعد ووُجُوبِهِ من الله لهم، ولم يأت أحدٌ بشيء، وقد بيَّنَّاه في «كتاب المُشْكِلَيْنِ».

أحسنُه وأحقُّه قَوْلُ الأستاذ الإسفرايني[١]، إِذْ قيل له: «ممَّا[٢] كان يخاف النبي وقد أَمِنَ العذاب؟ قال: من العتاب، وهو أَشَدُّ على الأحباب». ٢

ويظهر هذا من حديث الشفاعة[٣]؛ فإنَّ الأنبياء إنَّما ذكروا/ الحياءَ من أمور أَتَوْهَا لا تُوجب عقابًا، فالله أعلم؛ لعلهم خافوا عليها عتابًا. [٢٠/أ]

وقد رُويت عن النبي وسائر الأنبياء أحاديثُ في خوفهم من الله لا يَحِلُّ لمسلم أن ينظر فيها، مَلَأَ المتزهِّدون منها كُتُبَهم لجهلهم بالطرائق[٤].

وقد رُوي عن عائشة أنها قالت: «كان النبيُّ إذا رأى مَخِيلَةً في السماء أقبل وأدبر، فإذا مطرتْ سُرِّيَ عنه، قالت: فقلتُ له، فقال: وما أدري؟ لعله كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٣]»[٥]، وهو حديث حسن في الباب، صحيح من اللُّباب، يفتح في المعرفة سبيلًا قد بيَّنَّاها في موضعها.

فإن قيل: فالعشرةُ من الصحابة ومن شهد له النبيُّ بالجنة من سواهم ممَّ كانوا يخافون؟ وعلى مَ كانوا يبكون؟ ويخرج من كلامهم أنهم كانوا بما هم عليه فَزِعِينَ.

---

(١) في (ك) و(ب): الإسفراني.

(٢) في (ك) و(ب): ممَّ.

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) ينظر: قوت القلوب: (٦٥٩/٢)، والإحياء: (ص١٥٣١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: ﴿وهو الذي أرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته﴾، رقم: (٣٢٠٥-طوق).

أجاب بعضُهم بأنهم كانوا يخافون على الخاتمة.

وهذا باطلٌ في بعضهم؛ ممَّن قال له النبي: «رَأَيْتُكَ في الجنة في منزلك، وأنت بها[١] رفيقي، ومنزلُك فيها عال»[٢]، ونحو ذلك.

والصَّحِيحُ عندي ما قال في ذلك المتأخرون: من أنه ضَمِنَ لهم ذلك[٣] بشرط استغفارهم وبقائهم إلى الخاتمة على حالهم، فكانوا راهبين على فوات الشرط، أو يخافون على التقصير عن المنزلة بما كان من أمرهم بعد النبي ﷺ[٤].

وقد روى البخاري أنَّ أبا بُرْدَةَ بن أبي موسى قال: «قال لي عبد الله بن عمر: هل تدري ما قال أبي لأبيك؟ قال: لا، قال: فإن أبي قال لأبيك: يا أبا موسى، هل يَسُرُّكَ إسلامُنا مع رسول الله ﷺ وهجرتنا معه وجهادنا معه وعملنا كله معه بَرَدَ[٥] لنا[٦]، وأنَّ كلَّ عمل عملناه بعده نجونا منه كِفَافًا؛ رأسًا برأس؟ فقال أبي: لا، والله، قد جاهدنا بعد رسول الله وصلَّينا وصُمنا وعملنا خيرًا كثيرًا، وأسلم على أيدينا بَشَرٌ كثير، وإنِّي لأرجو[٧] ذلك، قال أبي: لكنِّي أنا - والذي نَفْسُ عمر بيده - لوددتُ أنَّ

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): بها.

(٢) وردت أحاديث كثيرة فيمن شهد له رسول الله بالجنة، تنظر في أبواب المناقب من الصحيحين والسنن.

(٣) بعده في (ك) و(ص): كله، وضرب عليها في (د).

(٤) ينظر: أعلام الحديث: (١٦٥٦/٣).

(٥) بَرَدَ: خلص.

(٦) قوله: «برد لنا» سقط من (ص).

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): وإنا لنرجو.

ذلك بَرَدَ لنا، وأنَّ كل شيء عملناه بعده نجونا منه كِفَافًا؛ رأسًا برأس، فقلت: إن أباك - والله - خَيْرٌ من أبي»[١]، ولستُ أعلم حديثًا صحيحًا وَرَدَ فيه لفظُ الرجاء غير هذا.

[٢٠/ب] أَمَا إِنَّ المعاني في الرجاء والخوف الواردة/ في الأخبار كثيرة، وفي الأحاديث الحسان أخبارٌ كثيرة جدًّا فيها ذِكْرُ الرجاء، وأطنب المصنفون في ذلك بما لا أصل له؛ فلا تُعَوِّلُوا عليه، فأمَّا الآيات؛ فذِكْرُ الرجاء والخوف فيها كثير[٢].

[حالُ الملائكة في الخوف]:

وأمَّا حالُ الملائكة في الخوف فعلى منزلة عظيمة، قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فأخبر الله سبحانه أنهم يخافون ويُشفقون على أنفسهم من خشيته وليس لهم ذنب، وهذه الآية من أصول أهل[٣] السنة في أن لله أن يُعَذِّبَ البريء من الذنب، ولولا ذلك ما خافته الملائكة؛ لعِلْمِها بأنه لا يُعَذِّبُ إلَّا من أذنب[٤].

ثم قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩]، وقد عَلِمَ أنه لا يقولونه، ولكنه علم أن لو كان كيف يكون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، رقم: (٣٩١٥-طوق).
(٢) في (ك): كثيرة.
(٣) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).
(٤) ينظر: لطائف الإشارات: (٤٩٩/٢).

حُكْمُه، والله سبحانه يعلم ما يكون كيف يكون، ويعلم ما لا يكون ممَّا يجوز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون.

ومِثْلُه قَوْلُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، وهو لم يشكَّ ولم يسأل، ولا يشكُّ ولا يسأل، ولكن الباري علم ما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وذلك كُلُّه تأديب للعبد[١] وتحذير له.

وقد روى أحمد في «الزهد» عن النبي: «أن جبريل نزل عليه وهو يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما جَفَّتْ لي عَيْنٌ مُذْ خَلَقَ الله النار مخافة أن أعصيه فيعذبني بها»[٢].

وهذا الأصلُ صحيح على مذهب أهل السنة؛ فإن العصمة عندنا إنَّما هي بيد الله، هو خالق القدرة على الطاعة، فإذا لم يخلقها وخلق ضدها للعبد - وهي القدرة على المعصية - عصى، وقد بيَّنَّا ذلك في «كُتب التوحيد».

[حالُ المؤمنين في الخوف والرجاء]:

وبقي النَّظَرُ في حال المؤمنين في الخوف والرجاء كما قلنا، وتَرَدُّدُهم بين المقامين يُسَمَّى رجاءً، وقد قال بعضهم: «إنه تَمَنٍّ»[٣]، وجعل الرجاء في وجود الأعمال الصالحة، واجتناب المعاصي للخلاص، مع ما هنالك من خَوْفِ الطوارئ، وإذا كان عَمَلٌ سَيِّئ[٤] لم يكن رجاء، ولكنه إن تعلَّق

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): للغير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد بنحوه مرسلًا: (ص٣٦).

(٣) الإحياء: (ص١٤٨٩).

(٤) في (د): على شيء، وفي (ك): عمل في شيء.

له أَمَلٌ بالمغفرة مع المعاصي فهو مُغْتَرٌّ أحمق، ففي الحديث الحَسَنِ: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أَتْبَعَ نفسه هواها وتمنَّى على الله»[١]/.

٢ [٢١/أ]

والذي أعتقده أن الرجاء[٢] إذا كان معه الإيمان فرجاء المغفرة للذنوب أنه رجاء حقيقة، وفي مقابلته خَوْفٌ لاستيفاء العقاب حقيقة.

[درجاتُ الرجاء والخوف]:

وللرجاء درجات، وللخوف درجات، فأعلى درجاته ملازمة الأمر بالامتثال، والمحافظة على الحدود بالاجتناب، وأدناها التزام التوحيد، وألَّا يسجد لغير الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:٢١٩]، فهؤلاء في رَوْحِ الرجاء يقينًا، وقال أيضًا: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة:١٠٣]، فحقَّق الرجاء لمن عمل عملًا صالحًا، وأضاف إليه عملًا سَيِّئًا.

قال بعضهم: «العمل الصالح: التوبة»[٣].

ولو كان كذلك لم يؤخر العمل السيئ في الذِّكْرِ، ولا قال في آخر الآية: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾، فإنَّ معناه عسى الله أن يُيَسِّرَ لهم التوبة، وإنَّما هو خبر عن قوم أطاعوا وعصوا، فأخبر أن الزَّلَّةَ لا تُحبط ثواب الطاعة، ولو أحبطته لم يكن العملُ صالحًا[٤].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) في (د): في خـ: الرجل.

(٣) لطائف الإشارات: (٢/٥٩).

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٥٩).

ونَظِيـــرُ الأوَّل قولُـــه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩].

قال قَوْمٌ: معناه: «قاموا بحق الأمر والنهي، فصَحَّ لهم منزلة الرجاء».

وقال آخرون: «إنه لم يستوف لهم كل عمل، ولكنه اقتصر على التلاوة والصلاة والزكاة، فيكون معها الرجاء؛ وإن وقع بعد ذلك تقصير».

وقال جماعة من العلماء: «أَشَدُّ آية في كتاب الله قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٧٠]».

وقيل: «إن هؤلاء الذين يرجون التجارة هم الرجال الذين يُسَبِّحُونَ في المساجد بالغُدُوِّ والآصال، و﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]، و﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾».

وهذا يَقِينٌ، ولكن ما ذكرناه مظنونٌ مَرْجُوٌّ في درجة من الرجاء كما بيَّنَّاه.

ومن الأحاديث الصِّحَاحِ في معنى الرجاء حديثُ أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جُزْءًا، وأنزل في الأرض جُزْءًا واحدًا، فمن ذلك/ الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرسُ حافرها عن ولدها خشية أن تُصِيبَه»[2]. ٢ [٢١/ب]

(١) [النور:٣٦].

(٢) تقدَّم تخريجه.

فلو يعلم الكافر بكُلِّ الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكُلِّ الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار، وقد تقدَّم حديثُ «الرجل الذي لم يبتئر[١] خيرًا قط، وأمر بإحراق بَنِيه له[٢]، وتفريقه في البر والبحر، وأن الله أعاده خلقًا سَوِيًّا، وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك، فما تلافاه غيرُها»[٣].

وصحَّ عن أنس بن مالك أنه قال: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشَّعَرِ، كنَّا نعدُّها على عهد النبي من المُوبِقات»[٤].

ومن أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد: «أنا أعصي؛ فإن المغفرة معي عُدَّة»، وقد ذَمَّ الله المُقْدِم على هذه الصفة فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩]، ركنوا إلى عاجل الدنيا، وجعلوا نصيبهم من الآخرة المُنَى، وقالوا بحُكْمِهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[٥].

ومن علامات الاستدراج ركوبُ الزَّلَّةِ في حال المُهْلَةِ[٦].

---

(١) في (ص): يفعل.

(٢) في (د): في خـ: نفسه.

(٣) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب ما يُتَّقَى من محقرات الذنوب، رقم: (٦٤٩٢-طوق).

(٥) لطائف الإشارات: (١/٥٨٣).

(٦) لطائف الإشارات: (١/٥٨٣).

أَمَا إنَّ العبد إذا واقع الذنب غَفْلَةً بشهوة ثم تذكر بعد ذلك العقوبة فقال: رب اغفر لي؛ نادمًا، قال الله: «عَلِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، أُشْهِدُكُمْ أني قد غَفَرْتُ له»[١].

وقد قال الله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٠]، ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وهو ضِدُّ الرجاء، فنهى عنه ليكتسب الرجاء بدلًا منه، والمعنى: لا تُبعِد ذلك ولا تَيأس منه إذا طَلَبْتَه بأسبابه.

وقد روى المُفَسِّرُونَ: «أن الآية نزلت في قَوْمٍ من أهل مكة أرادوا الإسلام ففزِعُوا ممَّا أَتَوا من الذنوب؛ من قَتْلٍ وزِنًا، فنزلت الآية، وأَرْسَلَ بها إليهم»[٢].

والذي صحَّ من ظاهر الآية أنَّ الله قال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، فأضافهم إليه، فإن كان ما قال المفسرون صحيحًا فإضافتهم إليه بسبب ما اعتقدوا من الإسلام وأنابوا إليه، لكنهم خافوا ألَّا يُقبَل منهم، وإن لم يكن ذلك صحيحًا فالآيَةُ فِينَا، فإنَّا أسرفنا على أنفسنا، واكتسبنا ذنوبنا، واقترفنا خَطَايَا[٣]، ونسينا وأخطأنا،/ فلمَّا جزعنا من الرد وخِفْنَا؛ قيل لنا: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وأنيبوا إليه، أي: ارجعوا إليه بالكُلِّيَّةِ، فقد كنتم معه بالحسنة، وبِنْتُمْ عنه بالسيئة، فارجعوا إليه بالكلية، وأَتْبِعُوا ما أَتَيْتُمْ بالندم.

٢ [٢٢/أ]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، رقم: (٧٥٠٧-طوق).

(٢) تفسير الطبري: (٢٠/٢٢٦-التركي).

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): خطايانا.

قال علماؤنا: «والفَرْقُ بين الإنابة والتوبة أنَّ الإنابة رُجُوعُ مُسْتَحْيٍ ممَّا اقترف، والتوبةُ[١] رُجُوعُ خائفٍ ممَّا اجترم»[٢].

﴿وَأَسْلِمُوا۟﴾؛ أي: أَخْلِصُوا له بعد الإنابة، وكُونُوا على أسباب السلامة، واجتنبوا ورطات الهلكة؛ من قبل أن ينزل عليكم العذاب بغتةً في الدنيا أو بالموت.

ومن «فوائد أبي سَعْدٍ الشهيد»: «إنَّ قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾: مَدْحٌ، وقوله: ﴿أَسْرَفُوا۟﴾: ذَمٌّ، فلمَّا قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾؛ طمع المطيعون في النداء، ونَكَسَ العاصون رؤوسهم، فلمَّا قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ انتعشت قلوب العصاة ورفعوا رؤوسهم، ثم أكد القصة بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ لأنَّ الذنب لا يعود إلَّا على صاحبه، ولا يؤذي به إلَّا نفسه، والله غَنِيٌّ عن الطاعة، مقدَّس عنها وعن المعصية، وزاد الأمر فضلًا فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾، وهذه الألف واللَّام لاستغراق الجنس، ثم أكَّد الحال تأكيدًا على تأكيد بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾»[٣].

وقد قال الله مُخْبِرًا عن قَوْمٍ دَرَجُوا على الوفاء، ولزموا حال الصفاء، وقاموا بحَقِّ الاستيفاء، وبذلوا أنفسهم لله تعالى واستمرُّوا على الطريق، وطالبوا قلوبهم بالتحقيق، وأخذوها[٤] في سبيل التضييق، وحاسبوها بالتدقيق، فما زاغوا عن طريق الجَهْدِ، ورَاعَوا حقوق العهد، وسَلَّمُوا

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): التائب.

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٢٨٨).

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٢٨٧).

(٤) في (د): في خـ: أمرُّوها.

تسليمًا، ولم يُوهِنهم[١] خوفٌ، ولا أضعفتهم مصيبة، ولا استكانوا لحادثة[٢]، ولا فتَرُوا في عبادة، ولا أَيِسُوا[٣] عن طاعة بعادة، وجادوا بأنفسهم في سبيل الله، وصانوا بمُهَجِهم[٤] رسول الله، فما كان قولُهم بعد ذلك كُلِّه[٥] إلَّا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧].

فيا **معشر المريدين**: بأي لسان نقولها نحن، وأتينا الغُدَرَ[٦]، وشربنا الكَدَرَ، وقصَّرنا، وعَقَلْنا عن حقوق الله نفوسَنا وأموالَنا، وعُجْنا عن الطريق، وأرسلنا أنفسنا وقلوبنا، فجارت عن سَنَنِ التحقيق، واستلهى قُلُوبَنا/ الهوى، ومشينا جادِّين في سبيل الرَّدَى[٧]، وجئنا الطاعة بالهُوَيْنى، واكتفينا في طلب النجاة بالمُنَى[٨]، وأهملنا أحوالنا فلم نراعها، وأنفسنا فلم[٩] نحاسبها، ومِلْنا إلى الراحة واغتنمناها، ولم نراع العهد الذي علينا، ولم نطلب السَّلامة كما أُمرنا، وأَوْهَننا الطمعُ فضلًا عن الخوف، وعَجَّزَتْنَا المصائب، وأهانتنا الحوادث، وأذلَّتنا الأطماع، وفَتَرْنا في العبادات،

٢ [٢٢/ب]

---

(١) في (ك) و(ص): يهنهم.

(٢) في (ك) و(ص): حادث.

(٣) في (ك): أنسوا.

(٤) في (ك): بمهجتهم.

(٥) ضبَّب عليها في (د).

(٦) في (د) و (ك) و(ب): القذر.

(٧) في (ك) و(ب) و(د): الهوى، ومرَّضها في (د)، وفي (ص): الونى.

(٨) قوله: «واكتفينا في طلب النجاة بالمنى» سقط من (د) و(ك) و(ب).

(٩) قوله: «نراعها، وأنفسنا فلم» سقط من (ك) و(د) و(ب).

وأَنِسْنَا بالعادات، وبخلنا بأنفسنا عن المُشْتَرَى الهَيِّنِ الفاني بالثمن الغالي الباقي، وما وَقَيْنا أدياننا بأموالنا فضلًا عن نفوسنا، فيا لَلَّه ويا للمسلمين من هذا الحادث العظيم، الذي ليس له فرج إلا بالإقلاع والاستغفار، فلتتكلَّفوا ذلك بألسنتكم إن لم تَصْفُ عليه قلوبكم، والزموه[1] ظاهرًا؛ فإنَّ باب[2] الله مع الملازمة سيفتح؛ بانتظام الباطن به، وإخلاص النية معه، فيتَّصِلُ القَبُولُ إن شاء الله.

[أسبابُ الرجاء والخوف]:

وليس لأسباب الرجاء والخوف حَصْرٌ، وإنما هي تيسيرات يُوقِعُها الله في القلوب بحسب ما يختار لها من المنازل، ولكن مرجعها إلى الآيات والأخبار، حتى كان بعضُ العُبَّادِ يقول: «إن أرجى آية في كتاب الله آيةُ الدَّيْنِ؛ فإن الدنيا حقيرة، والدَّيْنُ[3] فيها أحقرُ من النقد، وقد أنزل الله فيها أطول آية في القرآن، فالذي حفظ أقل الدنيا بالاحتياط بمصلحة عباده في الدنيا يحفظ أدنى عباده بأعظم وسائله؛ وهي شهادةُ الحق في الآخرة».

وكذلك في جانب الخوف عَاقَبَ الكفار بأقصر آية في القرآن، وهي قوله: ﴿ذُقۡ﴾ [الدخان:٤٦]، فأهانه بالعذاب، وأظهر التشفي عليه بالانتقام، وثَرَّبَ[4] عليه بالكلام، وعرَّفه ما انتهى إليه من سوء المقام، وهذا غاية العذاب.

---

(١) في (ك): والتزموه.

(٢) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٣) في (ك): الذين.

(٤) ثرَّب: وبَّخه ولامه وعيَّره بذنبه، تاج العروس: (٢/٨٣).

ومن أسباب الرجاء أنَّ الله قال في الملائكة أنهم يستغفرون لمن في الأرض مع ذنوبهم، كما يستغفرون لهم مع طاعتهم؛ في قوله مُخْبِرًا عنهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر:٦]، ولولا مغفرتُه ورحمتُه[١] لما رَزَقَ من يَكْفُرُ به لحظة.

وقال المفسرون: «إنَّهم في هذه الآية يستغفرون للعاصين»[٢].

وليس كذلك؛ فإنَّ الله أخبر أنهم في هذه الآية[٣] إنَّما يستغفرون[٤] للذين تابوا.

وقال[٥] قَوْمٌ في قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٣]: «إنَّها منسوخة بالآية التي في «غافر»».

٢ [٢٣/أ]

وقد بيَّنَّا في كتاب «الناسخ والمنسوخ»[٦]/ بطلانَ ذلك، وحقَّقنا أنه عُمُومٌ في «عٓسٓقٓ»[٧] خصَّه ما في «غافر»، وبيَّن أنهم يستغفرون للمؤمنين ممَّن في الأرض، فإنما تستغفر الملائكة للعاصين من المؤمنين لا للكافرين؛ لأنها قد عَلِمَتْ أن الله لا يغفر لكل كافر.

---

(١) في (ك) و(ب) و(ص): بوجه.

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٢٩٧).

(٣) سقطت من (ك).

(٤) قوله: «للعاصين، وليس كذلك، فإنَّ الله أخبر أنهم في هذه الآية(٤) إنَّما يستغفرون» سقط من (ص).

(٥) في (ك) و(ب) و(ص): كما قال، وضرب على «كما» في (د).

(٦) الناسخ والمنسوخ: (٢/٣٥١).

(٧) في (ص): ﴿حم عسق﴾.

ويحتمل أن تكون الملائكة تسأل المغفرة للكُفَّارِ بالتوفيق لمُبَاشَرَةِ[١] سبب المغفرة، وهو الإيمان، كما رُوي أن نبيًّا كان قومه جرحوه فيقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢]، ولكن ليس ذلك في شَرْعِنَا.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٧]، ولولا ظلمهم وذنوبهم ما كان غَفَّارًا، ولولا كونُه غَفَّارًا ما أذنبوا، وهو الأَصْلُ والأَوْلَى.

ومغفرتُه للكفَّار بإمهاله، وللمؤمن بإفضاله، فكلٌّ أحد نالته مغفرته ورحمته، ولكنَّها مكتوبة على الإطلاق ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، يعني: الشرك؛ فلا يسجدون لغيري، وكل من لم يُصَلِّ فهو سَاجِدٌ لغير الله بفِعْلِه.

وقال: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، بيانًا أن حقوق الآدميين لا يغفرها إلَّا برضاهم.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، المعنى: لا يَرَوْنَ فِعْلًا إلَّا لنا، ومن زَعَمَ أنَّ مع الله فاعلًا فهو كافر[٣].

والذين يتبعون الرسول النبي الأمي؛ هو مُنَبَّأٌ من الله، رَفِيعٌ عنده، مأمورٌ بالإبلاغ إلى الخلق، وكم من نبي لم يُرْسَلْ فجَمَعَ الله له الفَضِيلتين؛ فَضْلَ الرسالة، وفَضْلَ النبوة، وزاده فضيلةً أن جعله أُمِّيًّا، ومع ذلك عَلَّمَه ما لا يقدر عليه[٤] الكاتب النِّحْرِيرُ، ولا العالم الماهر، أستغفر الله؛ بل أَلْفُ أَلْفٍ أو أزيد، إلى ما أوصله الله إليه من المعارف.

---

(١) في (د): مياسرة.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) في (ص): فقد كفر.

(٤) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

ثُمَّ قال بعضُ العلماء: «فلمَّا أراد أن يكتب بعد تمام النعمة وتَقَرُّرِ المعجزة كَتَبَ»[١].

وهو مذهب بعض التابعين[٢].

ومن فضائله التي[٣] يتعلق بها الرجاءُ أنه لا يُخْزِيهِ الله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم:٨]، وهي من آيات الرجاء؛ فإن الله أمَّن رَسُولَه من الخِزْيِ؛ وهو الاستحياء والمذلة، وهو أكرم الخلق وسَيِّدُهم.

قال أبو جعفر محمد بن علي[٤]: «يا أهل العراق؛ أنتم تزعمون أن أرجى آيةٍ في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[٥]، ونحنُ نرى أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]، فيا معشر المريدين؛ / فهل يرضى مُحَمَّدٌ أبدًا وأَحَدٌ ممَّن صدَّقه في النار؟»[٦]. ٢ [٢٣/ب]

---

(١) ينظر: تحقيق المذهب لأبي الوليد الباجي: (ص١٩٨)، والعارضة: (٨/١٤٦-١٤٧).

(٢) وممن شُهِرَ عنه القول بذلك التابعي الجليل عون بن عبد الله بن عتبة، قال: «ما مات النبيُّ ﷺ حتى قرأ وكتب»، حلية الأولياء: (٤/٢٦٥)، ويأتي مزيد بيان له في آخر السفر الرابع، اسم «الغريب».

(٣) في (ك): الذي.

(٤) الإمام الحافظ، والحجة الناسك، محمد بن علي بن الحُسَين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، رضي الله عنه وعن آبائه، ترجمته في: سير النبلاء: (٤/٤٠١-٤٠٩).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾.

(٦) قوت القلوب: (٢/٥٨٧).

ثُمَّ بفَضْلِ الله وبرحمته قد أَمَّنَ المؤمنين من الخِزْيِ أيضًا في أحد القولين في الآية، المعنى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ﷺ، ولا يخزي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، ﴿نُورُهُمْ﴾ الذي اهتدوا به في الدنيا ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ كُتُبُهم.

وقيل: «بأيمانهم نور»[1].

وهو الأظهر.

كان النبي يقول في دعائه بالليل: «اللهم اجعل في قلبي نُورًا، وفي نفسي نورًا، وفي صدري نورًا، وفي لساني نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي شَعَرِي نورًا، وفي بَشَرِي نورًا، وفي مُخِّي نورًا، وفي عَظْمِي نورًا، وفي لَحْمِي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفي قبري نورًا، وعند لقائك نورًا، وعلى الصراط نورًا، واجعل لي نورًا، واجعلني نورًا، وأعطني نورًا، وأَعْظِمْ لي نورًا، وارزقني نورًا»، فهذه خمسة وعشرون نُورًا، منها في «صحيح مسلم»[2] سبع عشرة دعوة، والباقي من[3] «الحِسَانِ»[4].

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٦٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: (٧٦٣-عبد الباقي).

(٣) في (ب): في، وأشار إليها في (د).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب منه، رقم: (٣٤١٩-بشار).

فالمؤمنون يضرعون إلى الله في أن يُتَمِّمَ نُورَهم حتى يصلوا به إلى الجنة ؛ إذ نُورُ المنافق يُطْفِئُه حَرُّ النار عند الصراط لضعفه ، ونُورُ المؤمن لقوَّته لا يؤثر فيه ريحُ نَارٍ[(١)] ، ولا يطفئه إعصار .

ومن أخبار الرجاء العظيمة قَوْلُه ﷺ: «لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[(٢)] ، ويعارضه في الخوف الحديث الصحيح مثله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خَرْدَلٍ من كِبْرٍ»[(٣)] ، وهو مُشْكِلٌ ، قد بيَّنَّاه في موضعه .

نُكْتَتُه وجهان:

أحدهما: أن مَعْنَى[(٤)] «لا يدخل النار مَن في قلبه[(٥)] مثقالُ ذرَّة من إيمان» ؛ أي: لا يَتَغَشَّاه وإن دخل صاحبُه النار ، فإنما يكون في ضَحْضَاحِها ؛ فإن الله قد أخبر عن أهل النار الذين يدخلونها بأنها تتغشَّاهم في قوله لهم: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٥] .

الثاني: أن يكون معناه: أنه لا ترى[(٦)] النارُ قلبًا[(٧)] فيه هذا القَدْر ، ولا تأكله ولا تُسَلَّطُ[(٨)] عليه ، كما أنَّ الله حرَّم أعضاء السجود على النار ؛ فكذلك حرَّم قَلْبَ الإيمان على النار .

---

(١) في (د): النار .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ: كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر ، رقم: (٩١-عبد الباقي) .

(٣) هو حديث ابن مسعود السَّابق .

(٤) في (ص) و (ك) و(ب): معناه .

(٥) قوله: «من في قلبه» سقط من (ك) .

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): يرى .

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): قلب .

(٨) في (ك) و(ب): تتسلط .

وقال بعضهم: معناه: «لا يدخلون[١] النار دخول خلود».

والأوَّلان أقوى.

وأمَّا الجنة فلا يدخلها مثقالُ ذرَّة من كِبْرٍ[٢].

وقد قال بعضهم: «إن الحديث على ظاهره، وأنه لا يدخل الجنة من في قلبه[٣] مثقال ذَرَّةٍ من كِبْرٍ؛ لأنه يُطَهَّرُ إن غُفِرَ له أو عُذِّبَ؛ فلا يدخل الجنة شيءٌ من ذلك، كما أنه لا يُخَلَّدُ في النار مع مثقال ذرَّة من إيمان أبدًا». / ٢ [٢٤/أ]

وذَكَرَ النبيُّ ﷺ الوَجْهَيْنِ لتردُّد العبد بين حالتين؛ الخوف والرجاء، حتى يكون برجائه راغبًا[٤] في العمل، وبخوفه[٥] كافًّا عن الذنوب، باكيًا على ما فَرَطَ من التقصير.

وقد قال بَعْضُ المتعبدين: «إن البكاء والرقة التي تَعْرُو عند سماع القرآن فيبكي وإن كان خوفًا فإنه قاصر؛ لأنه بسَبَبٍ عارض، فإذا زال[٦] السَّبَبُ عاد القلبُ إلى ما كان فيه من التَّلَهِّي»[٧].

---

(١) في (ك): يدخلوا، وفي (ب): يدخل.

(٢) في (ك) و(د) و(ب): كفر، وضبَّب عليها في (د).

(٣) قوله: «من في قلبه» سقط من (ك) و(ب) و(ص)، وفي (ص): الجنة مع مثقال.

(٤) في (ص) و(ك): غائبًا.

(٥) في (ك) و(ص): لخوفه.

(٦) في (ك): نال.

(٧) هذا قَوْلُ أبي حامد، وهو في إحيائه: (ص١٥٠٥).

وإلى هذا المعنى أشار الحَكِيمُ بقوله:

نُـراعُ إذَا الجنائزُ أقبلتنا[١] ... ونلهو حين تذهب[٢] مُدبرات

كرَوْعَةِ ثَلَّةٍ لمغارِ ذِيبٍ ... فلمَّا غاب عادت رَاتِعات[٣]

قال الإمام الحافظ[٤] رضي الله عنه: وهذا قَوْلٌ صحيح، ولكنه جعل الخوف المذكور قاصرًا، وكلامه فيه قاصر، وتحقيق القول فيه: إنَّ الله مَدَحَ هذا القَدْرَ من الخوف في هذا الوقت بهذا السبب فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٥]، وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]، وقال: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٨]، فتارةً يبكي من عرفان الحق الذي فاته فيما قبلُ، وتارةً يزداد خشوعًا إلى ما كان عليه.

فإذا استقرَّت هذه الحالة فلا يخلو أن يرجع إلى غفلة أو يرجع إلى معصية، فإن رجع إلى غفلة لم يضرَّه ذلك، والدليلُ عليه حديث حنظلة المتقدِّم، قال فيه: «قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، قال: وما ذلك؟ قلت:

---

(١) في (ص): قابلتنا.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): تعرض.

(٣) من الوافر، وهي لعُروة بن أذينة في البيان والتبيُّن: (٣/٢٠١)، والحيوان: (٦/٥٠٧)، وفي ملحق ديوانه: (ص٣٠٩)، وفيها في البيت الأوَّل:
ويُحْزِننا بكاء الباكيات.

(٤) في (ك): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ب): قال الإمام أبو بكر بن العربي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

يا رسول الله، نكون عندك تُذَكِّرُنا بالنار والجنة كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا[١] الأزواج والأولاد والضَّيعات فنسينا كثيرًا، فقال رسول الله: والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي وفي[٢] الذِّكْرِ لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكم وفي طُرُقِكم، ولكن يا حنظلة؛ ساعة وساعة»[٣].

وإن رجع إلى معصية فهو ممَّن خَلَطَ عملًا صالحًا وآخر سَيِّئًا، ومن[٤] اقتحم الشهوة ولام النفس فهو خائفٌ من وجه، مُسَوِّفٌ من آخر، فهذا هو الرجاء القاصر.

كما أن الكامل فيه هو الذي يتخلَّى عن الشهوات خوفًا من التقصير والإملاء والتدريج[٥] إلى الشُّبهات، ويكفُّ عن السيِّئات[٦] خوفًا من الوقوع في المحرَّمات، ويَفِرُّ عن[٧] المحرَّمات/ خوفًا من العقوبات وسوء الخاتمة، فهو بهذه الآخِرَةِ «عَفِيفٌ» أو «مُتَّقِي»، وبالتي قبلها «وَرِعٌ»، وبالتي قبلها «زَاهِدٌ»، فإن تخلَّى عمَّا هو سوى الله خوفًا من تَقْصِيرٍ في حق الله فهو «صِدِّيقٌ»، وقد مضى بيانُه في موضعه؛ فإنَّ هذه الأسماء تتداخلُ من وجوه[٨].

٢ [٢٤/ب]

---

(١) في (د): غافسنا.

(٢) في (ك) و(ب): في.

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (ك) و(ص): وممَّن.

(٥) في (ك): الترع، ومرَّضها، وفي الطرة: التذرع، وصحَّحها، وهي التي في (ب)، وفي (ص): النزع، وفي (د): في خـ: النزوع.

(٦) في (ك) و(ب): الشبهات.

(٧) في (د): عن، من.

(٨) ينظر: الإحياء: (ص١٥٠٤).

[الخوف من سوء الخاتمة]:

وأعظمُ المخاوف سُوءُ الخاتمة، وله سببان:

أحدهما: الوَلَعُ[١] بالدنيا وأهلها.

والثاني: المثابرة على المعاصي، والخير عادة، والشر لجاجة.

وأشدُّ حديث في الخوف قَوْلُ النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»[٢].

وقد قاتل رجلٌ مع النبي وأبلى بلاءً عظيمًا، فقال النبي ﷺ: «هو في النار، فكان آخرُ أمره بعد اجتهاده أن أثخنته الجراحات؛ فوضع ذُبَابَ[٣] السَّيْفِ بين ثَدْيَيْهِ، وتحامل عليه فمات، فأُخبر النبيُّ ﷺ فقال: أَشهد أَنِّي رسول الله»[٤].

ولذلك كانت الصحابة تتمنَّى أن تكون دَاجِنًا يُذبح، أو شجرة تُعْضَدُ[٥]؛ لأنه غائب[٦] عن الخلق دِيوَانُهم، فالمرءُ لا يدري في أي ديوان ثَبَتَ اسمه؛ أفي ديوان السعادة أم في ديوان الشقاوة؟

---

(١) في (د) - أيضًا -: الوَلُوع.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، رقم: (٢٦٤٣-عبد الباقي).

(٣) ذُباب السَّيْفِ: حَدُّه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم: (٤٢٠٢-طوق).

(٥) ذكر ذلك الإمام أحمد في الزهد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ص٢٠٦).

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): غاب.

فأَوْجَبَ هذا خوفًا لا أَمْنَ معه إلَّا باطِّلاع حال[١] الخاتمة على المآل[٢]؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «فَرَغَ ربُّكم؛ اعملُوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له، أمَّا من كان من أهل السعادة فيُيَسَّرُ[٣] لعمل أهل السعادة»[٤]، فجعل العمل الصالح علامةً في الأغلب والأكثر، وبهذا يقع الأُنْسُ.

ومن أعظم المخاوف أيضًا سوء الحساب، وهو أن يَبْدُوَ له من الله ما لم يكن يحتسب؛ من انكشاف ما يظنُّه طاعةً معصيةً، أو مناقشة الحساب، وهو دون هذا وإن كان عظيمًا، فإنَّ وراءه العذاب؛ لقوله في الحديث الصحيح: «من نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ»[٥].

قال الإمام الحافظ[٦] رضي الله عنه: وإنَّ الله لا يهدي إلَّا خائفًا لله، قال تعالى في «ألواح موسى»: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وقال في كتابنا: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١]، وبذلك وصَّى كلَّ أمَّة، وكما أنه لا يهتدي إلَّا مُتَّقي؛ كذلك لا يتذكَّر إلَّا خائف.

قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، أي: لا ينتفع بالذكرى إلَّا من يخشى، وهو «العَالِمُ»، كما قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، فإذا زال العِلْمُ استوى عنده الحق والباطل فلم ينتفع بشيء.

---

(١) في (ب): على.

(٢) في (ك) و(ب) و(ص): الحال.

(٣) في (ك) و(ب): فسيُيَسَّرُ.

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ب): قال الإمام.

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار[١] والظُّلَمُ[٢]/ ٢

قال الإمام الحافظ[٣] رضي الله عنه: وقد بيَّنَّا أنَّ الخوف والرجاء مقامان، وهما [٢٥/أ] أخوان، ربطهما الله في كتابه ارتباطهما في صفاته، فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، وقال: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ١ - ٢]؛ فهذان للرجاء، ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾؛ فهذا للخوف، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾؛ إن كان المرادُ به القدرة رجع إلى الخوف، وإن كان المرادُ به الفضل رجع إلى الرجاء، فكان الرجاء في هذه الآية أغلب من الخوف.

وقد اختلف الناسُ في أيِّ الحالين أفضل، وأي الحالتين[٤] أَوْلَى أن يكون عليها العبد، وأطالوا في ذلك النَّفَس، وما حَلُّوا عُقْدَةَ الحَبَس، وقد بيَّنَّاه في موضعه.

الحاصلُ من لُبابه هاهنا أن نقول: إنَّا قد قرَّرنا في مواضع من «أَمَالِينَا» شروط القول في التفضيل، ولا سيما في رسالة «تفصيل التفضيل بين التكبير والتهليل»[٥]، وإذا قلت أيهما أفضل: الخبز أو الماء أو العسل أو

---

(١) في (د): الأضواء، الأنوار.

(٢) من البسيط، وهو للمتنبي من قصيدة يعاتب فيها سيف الدولة، ديوانه: (١٠٠٩/٢).

(٣) في (ص): قال الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ب): قال الإمام.

(٤) في (ك) و(ص): الحالين.

(٥) ينظر: القبس: (١٠٨٥/٣).

الخل؟ لم يستقم إلَّا مع تقسيم وتنويع، واختلاف حال ومَحَلٍّ، وسبب وفائدة، وقد يتعذَّر[١] التفضيل مع ذلك كله[٢].

ولكن نَرُدُّ[٣] السؤال عن هذه الصورة إلى عبارة أخرى، فنقول[٤]: العبدُ المؤمن إلى أيِّ الحالين هو أحوج؛ أن يغلب على قلبه الرجاء، أو يغلب على قلبه الخوف؟

قلنا له: أمَّا في حال المُهَلِ واستقبال الأَمَلِ فهو إلى الخوف أحوج، حتى يَكُفَّ عن[٥] غَرْبِهِ، ويُصلح من قلبه، ويُقبل على الله بحُبِّه، ويُجافي عن مضجعه بجَنبه[٦]، ويعلم تقصيره في حق مولاه بلُبِّه، ويتحقَّق أنه على شَكٍّ في تقريبه له وقُرْبِهِ، وعلى جهالة من مآل أمره وعُقْبِهِ، فإذا أحسَّ بالمنيَّة فأَحْوَجُ ما هو إلى الرجاء؛ وإنْ[٧] كان الغالب على فِعْلِه الحَسَنُ، ففي الحديث الحَسَنِ[٨] الصحيح[٩]: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا مع عبدي إذا ذكرني»[١٠].

---

(١) في طُرة بـ (د): يتعدد.

(٢) ينظر: الإحياء: (ص١٥١٣).

(٣) في (د): ترد.

(٤) في (د): فيقول.

(٥) في (ك) و(ب): من.

(٦) في (د): لجنبه.

(٧) في (ك) و(ص): إن.

(٨) سقط من (ك) و(ب).

(٩) سقط من (ص).

(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم: (٢٦٧٥-عبد الباقي).

قال العلماء: «ذلك عند الإحساس بالموت».

فإن قيل: فقد ثبت في الصحيح: أن الله قال: «إن رحمتي تغلب غضبي»[١]، وفي لفظ آخر: «إنَّ رحمتي سبقت غضبي»[٢]، فاقتضى هذا غَلَبَةَ الرجاء.

قلنا: لا شكَّ أنَّ الرحمة أضعاف الغضب، وهي غالبتُه، ولكن بَعْثُ النار من كل ألف تِسْعُ مائة وتسعةٌ وتسعون للنار، / وواحدٌ للجنة[٣]. ٢ [٢٥/ب]

فيا **معشر المريدين**: ليَرْجِعْ كلُّ واحد منكم إلى نفسه فينظر في مَآلِه من حاله، حتى يرى أنَّ الخوف عليه أغلبُ للتقصير الكثير، إنَّما يكون الرجاء أغلب لأصحاب مُحَمَّدٍ ﷺ، والسَّلَفِ الأوَّل الكريم.

قال الإمام الحافظ[٤] رضي الله عنه: أَمَا إِنَّ مِن أعظم أخبار الرجاء قولُه ﷺ في الصحيح: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»[٥]، بَيْدَ أنَّ أكثر الناس لم يفهمه.

وحقيقتُه: أن العبد إذا أطاع الله وظنَّ به[٦] أنه لا يُضِيعُ أجر من أحسن عملًا فهو عند ظنه، وكذلك إذا دعاه وظنَّ أنه مُجِيبُه فهو عند ظنه به[٧]،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه من رواية المغيرة: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، رقم: (٢٧٥١-عبد الباقي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه من رواية ابن عُيينة: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، رقم: (٢٧٥١-عبد الباقي).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (ب): قال ابن العربي، وفي (ك): قال أبي.

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) سقطت من (ك).

(٧) سقط من (ك).

وإذا استجار به وظنَّ أنه يُجِيرُه فهو عند ظنه، وإذا عصاه وظنَّ أنه يغفر له فهو مغرور، وكذلك إذا دعاه ومَطْعَمُه حرام، ومشربُه حرام، وملبسُه حرام، فأنَّى يُستجاب له[1]؟ كما جاء في الحديث الصحيح.

فإذا ظنَّ الإجابة فهو مغرور، وكذلك إذا استجار به وهو يَهْتِكُ حريمه، فكيف يرجو إجارته؟

بَيْدَ أنه ينبغي له أن يقول: «يا من بيده ملكوت كل شيء، وهو يُجير ولا يُجار عليه، استجرتُ بك من شَرِّ نفسي، وشر كل دابة رَبِّي[2] آخذٌ بناصيتها، فأَجِرْنِي»، فربَّما أُجِيبَ[3]، والله أعلم.

ومن أغرب ما حَصَّلْتُ في رحلتي ما أخبرني به القاضي أبو الحسن علي بن الحُسَين الخِلَعِي الزاهد[4]، قال: أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج يحيى الإشبيلي[5] - مُحَدِّثٌ مكثر -، قال: أخبرنا أبو

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم: (١٠١٥-عبد الباقي).

(٢) في (د): ربي، أنت.

(٣) في (د): أجير، ومرَّضه.

(٤) الإمام الفقيه، الحافظ الحُجَّة، علي بن الحُسَين الخِلَعِي، أبو الحسن القَرَافي، (٤٠٥-٤٩٢هـ)، كان معتزلًا بالقرافة، وكان مقصد الناس لعُلُوِّ إسناده وروايته، قال فيه ابنُ العربي: «شيخ معتزل في القرافة، له عُلُوٌّ في الرواية، وعنده فوائد»، أخذ عنه من أهل الأندلس أبو علي بن سُكَّرَة، وأبو عبد الله بن فُتُّوح، وكان ابنُ العربي ربَّما يقرأ في حضرته ما يريد الخِلَعِي إسماعه، ينظر: معجم السَّفَر: (ص٣٨١)، وسير النبلاء: (١٩/٧٤-٧٩)، وطبقات الشَّافعية للتَّاج: (٥/٢٥٣-٢٥٥).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى يعني الإشبيلي، وضرب في (د) على «بن» و«يعني».

الطيِّب محمد بن جعفر بن دُرَان[١] غُنْدَر: أخبرنا إسماعيل بن علي بن علي الشافعي: أخبرنا محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفي: أخبرنا أبو نُوَاس الحسن بن هانئ: أخبرنا حمَّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدكم حتى يُحْسِنَ الظن بالله عز وجل، فإن حُسْنَ الظن بالله ثَمَنُ الجنة»[٢].

وقد قال مَكْحُولٌ[٣] في ذلك نكتة بديعة: «من عبد الله بالخوف فهو حَرُورِيٌّ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو مُحِبٌّ»[٤].

فأمَّا قوله: «من عبد الله بالخوف فهو حَرُوري»؛ فهو[٥] إشارة إلى أنه يعتقد إنفاذ الوعيد.

وقوله[٦]: «من عبده بالرجاء فهو مرجئ[٧]»؛ إشارةٌ إلى أنه يرى أن المؤمن لا تضره معصية.

---

(١) في (د): ذران.

(٢) أخرجه بهذا الإسناد أبو عبد الله بن فَتُّوح في جذوة المقتبس: (ص١٦٠)، وإنما استغربه ابن العربي لأن في الإسناد أبا نواس الشَّاعر، واستغرابه له يَدُلُّ على ضعفه عنده، لتفرد أبي نواس بهذه الزيادة في آخر الحديث، وليس مثله من يُقبَل منه ذلك، والله أعلم.

(٣) في (ك): محكول.

(٤) الإحياء: (ص١٥١٥).

(٥) سقطت من (د) و(ب) و(ص).

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): و.

(٧) قوله: «فهو مرجئ» سقط من (ك) و(ب) و(ص).

وقوله[١]: «ومن عبده بالمحبة [فهو زنديق]»؛ يشير إلى أنه ليس بين الذاتين مناسبة ولا متعلق لذة حتى[٢] يعبده لها، وإنما هو عبد وسَيِّدٌ، وكامل وناقص، ومُقَدَّسٌ وذو آفات.

ومن عَبَدَه بالكُلِّ فهو مُوَحِّدٌ صحيح، وعلى ذِكْرِه «المُحِبُّ».

* * * * *

(١) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٢) في (ص): متى.

المُحِبُّ[١]: وهو الاسم الثالث[٢] والأربعون

٢
[٢٦/أ]

فإنَّ الله تعالى قد ذَكَرَها/ في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

وأوَّلُ ما أُلْقِي إليكم منها[٣] - معشر المريدين - أنَّ الشرع لم يَرِدْ إلَّا بلفظ المحبة خاصَّة، وأَدْخَلَ فيها من لا يدري الشَّوق والعشق، ولم يَرِدْ بهما شَرْعٌ؛ لا في الصحيح ولا في السَّقيم، فلا تلتفتوا إليها، ولا تذكروها بألسنتكم حكايةً لها.

قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٦].

وفي الصحيح ذُكِرَ حُبُّ الله في أحاديث كثيرة، قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورَسُولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما»[٤].

وقال الله مُؤَكِّدًا لذلك ومُبَيِّنًا له أو أَخَذَهُ النبي ﷺ منه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ك) و(د): الحادي.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): فيها.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم: (١٦-طوق).

ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤].

وقد قال رجل للنبي: «متى السَّاعة؟ قال: وما أعددتَ لها؟ قال: ما أعددتُ لها من كبير شيء أَحْمَدُ عليه نفسي، إلَّا أنِّي أُحِبُّ الله ورسوله، قال: المرء مع من أحب، قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام أشد من فرحهم بهذه الكلمة»(١).

وكان أَنَسٌ يقول: «إنِّي أحبُّ الله ورسوله، وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهما»(٢).

[حقيقة المحبة]:

وحقيقةُ المحبة هي المَيْلُ بالطبع إلى المُوافق المُلائم للنفس، فخَلَقَ الله الحواسَّ رَبِيئَةً للعبد(٣)، وطليعةً على المحسوسات، تُلْقِيها إلى قلبه فتميل(٤) إلى كل ما يُوافق منها، وتنفر عن كل ما يُخالف(٥).

ومنازل الملائم والمخالف كثيرة، وكل أحد يعلمها جملة وتفصيلًا، فلا فائدة لتَعْدَادِها في هذه الاستضاءة، ولكنْ هاهنا نكتةٌ حسنةٌ لم أر أحدًا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه، رقم: (٣٦٨٨-طوق).

(٢) هو حديث أنس السَّابق.

(٣) في (ص): للعبد ربيئة للعبد، وصحَّحها.

(٤) في (ك) و(ب): فيميل.

(٥) ينظر: الإحياء: (ص١٦٥٩).

ذكرها؛ وهي أنَّ الملائم للنفس قد يكون[١] بوساطة الحواس، وقد تكون بغير وساطة[٢]، وإذا كان كيف ما كان فإنَّما يعود إلى النفس كله مع الجوارح كالجوارح[٣]، فإنَّها مفردة عنها، لا لذة لها ولا نعيم إلا عند الفلاسفة[٤].

وكلُّ أحد إنما يُحِبُّ نفسه، ولا يتصور أن يحب أحد غيره؛ فإن تعلَّق بقلبك لحب غيرك أَثَرٌ فإنَّ ذلك عائد إليك؛ تَوَهُّمًا أو تحقيقًا.

[أجناسُ المحبة عند الصوفية]:

٢ [٢٦/ب]

وقد/ عَدَّدَتِ الصُّوفية[٥] للحب أسبابًا خمسة، منها:

حُبُّ الإنسان نفسه؛

وحب من أحسن إليه؛

وحب من لم يُحسن إليه[٦] إذا كان محسنًا؛

وحب الجمال؛

وحب المناسبة؛ وهي المشابهة بين الرُّوحَيْنِ[٧]، أو الخَلْقين، أو كلاهما.

---

(١) في (ك): تكون.

(٢) في (ك) و(ب): واسطة.

(٣) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).

(٤) ينظر: الإحياء: (ص١٦٥٩).

(٥) الإحياء: (ص١٦٦٠-١٦٦٣).

(٦) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٧) في (ك) و(د): الزوجين.

[نَقْضُ ما ذهب إليه أبو حامد في أجناس المحبة]:

ونحن لا نشتغل بتفصيل إبطال ذلك، وإنَّما ندَّعي ونُثْبِتُ أنَّ الإنسان لا يحب إلَّا نفسه، والإحسانُ والحُسْنُ[١] والجمالُ والمشابهةُ كلها إليه عائدة؛ بما يَتَوَهَّمُ من ملائم وموافق فيها أو يَتَحَقَّقُ.

فأمَّا محبة النبي والملائكة[٢]؛ فلِمَا وَصَلَ على أيديهم من النفع، وما وجب لهم بذلك من الحق الذي لا يُدانى، وكذلك خلفاؤه[٣]، على قَدْرِ الخالف والخلافة، وقد أنقذ الله برسوله الخلق من النار، فأيُّ شيء يوازي هذا من المخلوقات والأفعال؟

وأمَّا محبة الله؛ فزعمت الصوفية[٤] أنَّ أسباب المحبة الخمسة هي موجودة في الله، حتى المناسبة، وهو قَوْلٌ تكاد الدفاتر تتمزَّق منه، وتُفَضُّ الأفواه، وتموت القلوب من الاحتلاط[٥] لسماع[٦] هذا الاختلاط الذي ينفيه العقل والشرع.

النَّسَبُ[٧] والسَّبَبُ مُحَالَانِ على الله؛ فلا يقال في ذات الباري مناسبة ولا تسبيب، نعم؛ من أفعاله النَّسب والسبب، كسائر الأفعال كلها، والمحبة هي الإرادة أو نَوْعٌ منها، ومن المحال أن تتعلَّق المحبة بذات

---

(١) في (ص) و(ك) و(ب): المحسن.
(٢) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): المَلَك، وضبَّب عليها في (د).
(٣) في (ك) و(ص): خلفاؤهم، وفي (ب): خلفاؤهما.
(٤) هو قول أبي حامد، الإحياء: (ص١٦٦٤).
(٥) في (ك) و(د): الاختلاط، والاحتلاط: الغضب، تاج العروس: (١٩/٢٠٩).
(٦) في (ك): بسماع.
(٧) في (ك) و(ص) و(ب): ومقلوبه، وضرب عليه في (د).

البـاري أو الإرادة، إنمـا يـصح[1] أن يتعلـق بذاتـه العِلْـمُ والرؤيـة والـسَّماع، وهي الإدراكات التي لا تؤثر في المُدْرَكِ.

فأمَّا الإرادة والقدرة والمحبة فمُحَالٌ أن يتعلق شيء منها أو من أمثالها بذاته أو صفاته، وقد حلَّاها بَعْضُهم[2] بأنها مناسبة في الـصفات؛ التـي هـي القدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام، وهذا مـن أعظـم الأوهـام، ألم تَرَوْا إلى عِلْمِ ابن عباس فيما رُوي عنه أنه قال: «ليس في الدنيا ممَّا فـي الجنة إلَّا الأسـماء»[3]، هـذا وهـي مخلوقـة محـصورة، ولا مناسـبة بينهمـا، فكيف أن يكون بين العبد وبين ربه مناسبة في القَدْرِ الذي وقعـت المـشاركة فيه بإذنه في الأسماء؟

٢

[٢٧/أ] لقـد أسـقط هـذا القائـلُ[4]/نَفْسَه مـن الجَـوْزَاءِ إلـى المَعْـزَاءِ[5]، وأي مناسبة في الأسماء؟ أين السماء من كل شيء أَظَلَّـكَ فهـو سـماء؟ هيهـات؛ ما جعل الله هذه الأُنْمُوذَجَاتِ من الأسـماء فِينَـا إلَّا لنعرفـه بنـا ونُفَرِّقَـه مِنَّـا، الباري عالم، والعبد عالم[6]، ولكن أين؟ ومن أين؟ وكيف لنا به؟ مـا عِلْـمُ الأوَّلين والآخرين من عِلْمِ الباري إلَّا كنقطة من بَحْرٍ[7]، وما يصح من نـسبة

---

(١) في (ب): يصلح.

(٢) ينظر: الإحياء: (ص١٦٧٠).

(٣) تفسير الطبري: (١/٣٩٦-شاكر).

(٤) هو أبو حامد الطوسي.

(٥) المَعْزَاءُ: المكان الكثير الحصى الصُّلب، تاج العروس: (١٥/٣٣٧).

(٦) قوله: «والعبد عالم» سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٧) في (ب) و(ك) و(ص) و(د): بحور، ومرَّضـها فـي (د)، والمثبـت مـن طرتـه، وصحَّحها.

المحصور إلى ما ليس بمحصور؟ وأين البَقَّةُ من العرش؟ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ وكل ذرة في السماوات والأرض والعرش كاتبة: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٦]، وقد علمتم أن الباري موجود، وأنتم موجودون، وأيُّ نسبة بين المَوْجُودِين؟

الباري قادر، وآيَةُ قدرته مخلوقاته وما أعظمها! وما أيسر دليلها! وهو أنَّه[١] لو كان من في السماوات والأرض يجتمعون على بَقَّةٍ ما خلقوها، فدَعْ ما وراءها، نعم؛ ولا عَلِمُوا حُكْمَها[٢]، فخَلِّ[٣] سواها[٤].

وقد ضرب الله مثلًا للعباد من عظيم قُدْرَتِه، أنه يجعل يوم القيامة السماوات على إصبع، والأرضين على أصبع؛ وفي الصحيح: «جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله فقال: يا محمد، إنَّا نجد أنَّ الله تعالى يجعل السماوات على إصبع[٥]، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا المَلِك - وفي رواية: فيَهُزُّهن[٦] -، ثم يقول: أنا المَلِكُ، فضحك النبي حتى بدت

---

(١) في (ص): هوانه.

(٢) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): حكمتها، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته، ورمز لها بـ: خـ.

(٣) في (ص): فدع.

(٤) في (ص): سواءها.

(٥) قوله: «الأرضين على أصبع؛ وفي الصحيح: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله فقال: يا محمد، إنَّا نجد أنَّ الله تعالى يجعل السماوات على إصبع» سقط من (ص).

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): فيهزهزهن.

نواجذه، تصديقًا لقول الحَبْرِ، ثم قرأ رسول الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٤]»[١].

وهذا أَحْقَرُ عنده من تصريف حبَّة خردل في كَفِّكَ، ولكن لا يمكن ضَرْبُ المثل لك إلَّا كذلك، ولا تَضِيقُ قدرته على أن يخلق أمثال هذا العَالَم، نعم؛ ولا أكمل منه، خلافًا للصوفية[٢] الذين يقولون: «لا أكمل من هذا»، وهو نَحْوٌ[٣] فلسفي لا يُساوي سماعه، وقد بيَّنَّاه في «المشكلين».

وهو الجليل الجميل[٤]، وجماله وجلاله تَنَزُّهُه عن النقائص والآفات، وتَقَدُّسُه عن صفات المُحْدَثات، وهذا الجمال هو الكمال عن النقائص، فإذا نَزَّهْتَه فقل: هو الذي لا مِثْلَ له، ولا تقل: لا ضِدَّ له؛ لأنَّ الضِّدَّيْنِ/ [٢٧/ب] إنَّما يتضادَّان على المَحَلِّ، ولا يُتَصَوَّرُ وجود الباري في مَحَلٍّ مع المُحْدَثِ، فلا يتصور التضاد.

فإذا قلت: لا ضِدَّ له؛ أَوْهَمْتَ أنه إذا حَلَّ بمَحَلٍّ لم يَقُمْ به غيرُه، بل هو الصمد الذي لا يتجزَّأ، ولا يتعدَّد، ولا يتقلَّص، ولا يتمدَّد، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا يخرج عن حُكْمِه أَحَدٌ، ولا يُوجَدُ من دونه مُلْتَحَدٌ، القادر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، رقم: (٤٨١١-طوق).

(٢) يقصد به شيخه الإمام أبا حامد، وقد استوفى الرد على مقالته تلك في كتاب الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٣٩٤-٣٩٧).

(٣) في (ك) و(ب): بَحْرٌ.

(٤) في (د) و(ص): الجميل الجليل.

الذي لا يَقِفُ عليه أَمْرٌ إلى حد، المريد الذي لا يتوقف ما يريده ولا يرتد، أعناق الجبابرة تحت بطشه وسَطْوَتِه، والسماوات والأرضون في قبضته، أَوَّلٌ لا أوَّلَ له، آخِرٌ لا آخِرَ له، القيُّوم الذي قام بنفسه، وقام كل شيء به، الله خالق كل شيء، الحي المفيد حياة كل حي، الموجود بعد كل شيء، له العزة والجبروت، والمُلْكُ والملكوت، لا يستطيعه أَحَدٌ بوصف، وكيف وسَيِّدُ الأوَّلين والآخرين قد اعترف في ذلك بالتقصير[١]؟ وقال: «لا أُحصي ثَناءً عليك، أنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك»[٢]، وقد نَظَمْتُ هذا المعنى فقلتُ:

ما لي بوصف إله الخلق[٣] من قِبَلِ — جلَّت معاليه عن قَوْلي وعن عَمَلِي
لا حَمْدَ إلَّا الذي قد جاء عنه لهُ — فَرْدٌ عن المِثْلِ معلوم على المَثَلِ
يا أيُّها المتعاطي وَصْفَه صَلَفًا — مَهْلًا فقد خُلِقَ الإنسان من عَجَلِ
سَلْنِي عن الدِّينِ والدنيا أُجِبْكَ وعن — محامد الله رَبِّ الناس لا تَسَلِ
فإنَّها عَظُمَتْ عن قَدْرِنا شَرَفًا — فليس في دَرْكِها حَظٌّ من الأَمَلِ
هذا النبي وقد أُوتِي جوامعَه — من الكلام بلا عِيٍّ ولا خَطَلِ
قد قال: لا أُحْسِنُ الإخبار عنه ولا — أُحْصِي ثناءً عليه آخِرَ الأَجَلِ
وأنت إن كُنْتَ تبغي وَصْفَه فلقد — رَكِبْتَ في الأَمْرِ ظَهْرَ الحادث الجَلَلِ
وقد وجدتُ مكان القول ذا سَعَةٍ — فإن وجدتَ لسانًا قائلًا فَقُلِ
ما كلَّف الله نفسًا فوق طاقتها — ولا يُقابَل حَوْلُ الله بالحِيَلِ[٤]

---

(١) قارن بما في الإحياء: (ص١٦٦٨-١٦٦٩).

(٢) سَلَفَ تخريجُه.

(٣) في (ك) و(ص): الإله الحق.

(٤) الأبيات من بحر البَسِيطِ.

نكتة:

والذي يَدُلُّكَ على صحة المقدمة التي رتَّبناها أوَّلًا ؛ أنَّ لَذَّةَ اللَّمْسِ والطَّعْمِ والذَّوْقِ[١] والسَّمْعِ في الألحان معلوم محسوس، فالآدَمِيُّ يَجِدُ[٢] ذلك كلَّه لما له[٣] فيه من حاصل اللذة.

٢ وفوق المحسوسات أو تحتها أو معها لَذَّةُ القهر والاستيلاء، والقدرة التي يكون بها الاستعلاء، ولذة الفرح/ والثناء، وحَبْرَةُ العِلْمِ والاطلاع على كل ما خَفِيَ؛ موجودةٌ في النفس غير محسوسة، وقلنا لكم باشتراكهما. [٢٨/أ]

وقد[٤] يظهر أن لذة القدرة والعلم والفرح والثناء والقهر إنَّما يجدها المرء لما فيها من تَأَتِّي أمل الأكل والوطء؛ حتى لا يكون فيه[٥] معارضة، وقد يظهر أن هذه اللذات وإن كانت تعود بمنفعة على البدن والنفس في أَصْلَي اللذات وهي الأكل والوطء؛ فإنَّ[٦] لها في نفسها لذة موجودة وإن لم تتعلَّق بما يعود إلى الجوارح، ألا ترى أنَّ للناس فَرَحًا إِذْ[٧] فاتهم الاستيلاءُ على نَيْلِ السماء أن يكون لهم عليها بالعِلْمِ نوعٌ من الاستيلاء؛ فيقولون: إنَّ فيها أفلاكًا، وكذا وكذا نَجْمًا، ومدارُها على وجه كذا، أو النَّجْمُ الفلاني أعلاها، وفلان تحته، والقمر آخِرُها، فيفرحون بالدعوى إذ فاتهم

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): وبعض، وضرب عليها في (د).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): يحب، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

(٣) سقط من (د) و(ب) و(ص).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): قد.

(٥) في (ك) و(ص): فيها، وفي (ب): فيهما.

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): إنها.

(٧) في (د): إذا.

الاستيلاءُ، وقد بيَّنَّا في كتاب «العواصم من القواصم»[١] تحقيق ذلك كله وطريق النظر فيه، فمن أراده فلينظر هنالك فيه.

وتعدَّى قَوْمٌ فقالوا: «إن ترتيبها يدلُّ على ما يكون في غَدٍ»[٢]، ويتحلَّون بأنَّ الله عَلَّمَهُمْ هذا ودلَّهم عليه، والله قد كذَّبهم فيه برهانًا، وكذَّبهم فيه عيانًا، قال تعالى مُتَمَدِّحًا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال مُتَكَبِّرًا مُتَجَبِّرًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان:٣٣]، فمن قال: «إنه يشاركه في ذلك أَحَدٌ»؛ فأَشْرِكْ بين السَّيْفِ وبين عُنُقِه بِنِصْفَيْنِ.

ولا يمتنع أنِ تكون اللذَّة التي تدخل على القلب تتعدَّى إلى الجوارح بسراية[٣]، كما تتعدَّى اللذة التي تدخل على الجوارح إلى القلب بسراية[٤]، وأنَّ الخلق المؤمنين يرون الله في القيامة؛ فيكون ذلك أفضل نَعِيمٍ عندهم.

قال علماؤنا: «يَقْرُنُ الله برؤيته فَنًّا من الرَّوْح والسرور لم يُعهد مثله، ولا يُقْرَنُ بلذة رؤية محبوب ولا جميل، ولا مَلِكٍ قاهر محسن، ولا بشيء من لَذَّاتِ الدنيا ولو اجتمعوا».

وما يُحكى عن الصوفية في إحالتهم بمحبتهم على الله لِذَاتِه فأكثر تلك الحكايات مصنوعات[٥]، أو لهم فيها تأويلات وأغراض، لو كانت

---

(١) العواصم: (ص١٣٣-١٣٤).

(٢) ينظر: العواصم من القواصم: (ص١٧٣).

(٣) في (د): بسراية.

(٤) في (د): بسراتة.

(٥) في (ص): مصوغات.

للسَّلَفِ لدَلُّونا عليها[١] ونظرنا فيها، ولكنَّنا قد أغنانا الله عنها بسيرة السَّلَفِ الصَّالح قبلهم،/ والآياتُ التي تلوناها عليكم والأخبارُ التي سردناها لكم يكفيكم في تَكَسُّبِ الاسم والتعلق به. ٢ [٢٨/ب]

[محبة الله عند السَّلف الصالح]:

ومَحَبَّةُ الله عند السَّلَفِ هي محبة أوليائه وأفعاله وحدوده، وإن كان ذَكَرَ نفسه مع الأولياء فتأكيدًا[٢] في الثناء، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة:٣٥]، والحِرَابَةُ لا تَصِحُّ على الله منَّا، وكذلك لا يصح أن تتعلق به إرادتنا.

[محبة المؤمنين لله]:

والكفَّار يحبون أصنامهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة:١٦٤]، وقد بيَّنَّا في «الأنوار[٣]» معنى الآية؛ بما لُبابه في ستة أوجه:

الأوَّل: أنَّ الكفار ينحتون[٤] الأصنام بأيديهم، ثم يَذِلُّونَ لها ويخضعون[٥] ويعبدون[٦]، فالله أحقُّ بالعبادة؛ الذي خلقنا ابتداءً، وأفاض علينا ابتلاءً.

---

(١) في (د) و(ص): إليه.

(٢) في (ب): فتأكيد.

(٣) في (ص): الإقرار، وضبَّب عليها.

(٤) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): يتخذون، وضبَّب عليها في (د)، والمُثبت صحَّحه بطرته.

(٥) في (ص) و (ك) و(ب) و(د): لها، وضرب عليها في (د).

(٦) في (ص): يعبدونها.

الثـاني: أنَّ حـب الكفـار للأصـنام حُـبٌّ هَـوًى منـشأه الجهـل، وحـبُّ المؤمنين[١] لله حبٌّ هُدًى، اقتضاه الشرع وأكَّده العقل[٢].

الثالث: أن حبَّ الأصنام تقليد، وهذا الحب من المؤمنين لله بالـدليل والبرهان.

الرابع: أن الكفار يعبدون من رَأَوْا، والمؤمنون يعبـدون مـن لـم يَـرَوْا، وذلك أغربُ[٣] وأبلغ[٤].

الخامس: أنَّ الله أحب المؤمنين أوَّلًا؛ فلذلك أحبُّوه[٥].

السَّادس: أنَّ محبة الكفار محبة الجِنْسِ للجنس، وهـذا معلـوم جِبِلَّـةً، ومحبـة المـؤمنين لله ليـست مَحَبَّـةَ مجانـسة ولا مناسـبة، فهـي أعـزُّ وأكـرم، وأحقُّ وأعظم[٦].

[محبة الله للمؤمنين]:

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أَعْظَمُ آيـة، وأَوْكَدُ عِلْمٍ.

قال علماؤنـا وغيـرهم: المعنـى: «إن كنـتم تحبـون الله بالعِلَّـةِ فـإنَّ الله يحبكم من غير عِلَّةٍ»[٧].

---

(١) في (ص) و (ك) و(ب): المؤمن.

(٢) لطائف الإشارات: (١/١٤٥).

(٣) في (ك) و(ب): أعرف.

(٤) لطائف الإشارات: (١/١٤٥).

(٥) لطائف الإشارات: (١/١٤٥).

(٦) لطائف الإشارات: (١/١٤٥).

(٧) لطائف الإشارات: (١/٢٣٥).

فإذا[١] وجد العَبْدُ حلاوة الطاعة في نفسه نشأت المحبة، وآثَرَ الله على كل شيء؛ حتى على نفسه.

ومَحَبَّةُ الله للعبد إحسانُه إليه ولُطْفُه به بعد إرادة ذلك له، وهي المحبة الأولى حقيقة، وقد تكون محبةُ الله له مَدْحَه[٢] له وثناءَه[٣] عليه، وقد بيَّنَّا حقيقة ذلك في كتاب «الأمد الأقصى»[٤]، والحمد لله[٥].

قال بعضهم: «وقد ظَهَرَتْ هاهنا منزلتان لكَرِيمَيْنِ، قال إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٨]، وقال الله لمُحَمَّدٍ: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهاهنا قَطَعَ أطماعَ[٦] الكافَّة أن تسلم لأَحَدٍ نَفْسٌ إلَّا ومقتداهم مُحَمَّدٌ، وإمامُهم سَيِّدُ الأوَّلين والآخرين أحمدُ»[٧].

٢ [٢٩/أ]

قال في «فوائد الشَّهِيدِ»[٨]: «هذه آية عظيمة؛ فإنَّه/ أخبر أن المحبة ليست باجتلاب طاعة معلولة، ولا تتجرد[٩] عن آفة، فإنه قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فلم يجعل من شرط المحبة الخُلُوصَ عن الذنوب، بل أخبر أنَّها تكون مع الذنوب، وأن المحبة تُسقطها، وبيَّن أن المحبة تُوجب الغفران»[١٠].

---

(١) في (ك) و(ص): وإذا.

(٢) في (د): مدحة.

(٣) في (ك): ثناؤه.

(٤) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٦٨/٢).

(٥) قوله: «والحمد لله» سقط من (ك) و(ب) و(ص).

(٦) في (ص): الأطماع.

(٧) لطائف الإشارات: (٢٣٥/١).

(٨) أي: فوائد أبي سعد الزنجاني.

(٩) في (ب): بتجرد.

(١٠) لطائف الإشارات: (٢٣٦/١).

وهـذه الآيـة خَيْرٌ للعبـاد مـن ألـف آيـة كمـا جـاء فـي الحـديث فـي السُّبُحَاتِ[١].

[بشارات وإشارات]:

وفي قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٦]؛ بشاراتٌ وإشاراتٌ:

الأوَّل: أنَّ من لم يَرْتَدَّ فإنَّ الله يُحِبُّه[٢].

الثانية: أنَّ من كان مؤمنًا يجب أن يكون لله محبًّا، فمن لم يحبَّ ربَّه فليس بصحيح الإيمان[٣].

الثالثة: أنَّ هذه الآية وما قبلها اقتضت جواز محبَّة الله للعبد ومحبَّة العبد لله[٤]، ومَحَبَّةُ الله للعبد إمَّا أن تكون بمعنى الرحمة عليه، أو الإحسان إليه، أو المدح له - كما تقدَّم - والثناء عليه، أو إرادتِه[٥] لتقريبه وإدنائه[٦].

وفرَّق بعضهم بين الرحمة والمحبة؛ فقال: «المحبة إرادته لإنعام مخصوص، والرحمة إرادته لكل إنعام»[٧].

---

(١) في (ك): المُسبحات.

(٢) لطائف الإشارات: (١/٤٣١).

(٣) لطائف الإشارات: (١/٤٣١).

(٤) قوله: «ومحبة العبد لله» سقط من (ص) و(د).

(٥) في (د): وإرادته.

(٦) لطائف الإشارات: (١/٤٣١).

(٧) لطائف الإشارات: (١/٤٣١).

والمعنيان متقاربان، وإرادة الله واحدة؛ تختلف أسماؤها باختلاف متعلقاتها[١].

وأمَّا محبة العبد لله فهي معنًى يجده في نفسه، يحمله ذلك المعنى على طاعته، وهو - والله أعلم - نُورٌ تكمل به معرفته، وتُقَوِّي عقيدتَه.

ويقال: «المحبة نتيجة الهِمَّةِ، فمن كانت همتُه أعلى كانت محبته أقوى»[٢].

وقال الله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ والله لولا أنه أحبهم ما أحبُّوه أبدًا.

ثم وصفهم فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٦]، يبذلون المُهَجَ في المحبوب من غير كراهة، ويُهلكون الأنفس في الذب عن المحبوب من غير إدْهان[٣]، يجاهدون في سبيل الله بأداء الطاعة بجوارحهم، وبقطع الآمال عن قلوبهم، وبجُؤَارهم[٤] في إهلاك أعداء الله وأعدائهم، ولا يخافون لومة لائم[٥].

المعنى: أن عقائدهم قد خلصت فلا يلتفتون إلى حظ أحد، ولا يراعون جَانِبَ غَيْرٍ من هُمْ له، وبه، ومنه، وهذه صفة المُحِبِّينَ.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾[٦]؛ وليس هذا تخييرًا في إيثار الحُظُوضِ[٧] على الحقوق، ولكنه تحذير وتهديد، ومرور

---

(١) لطائف الإشارات: (٤٣٢/١).
(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٤٣٢/١).
(٣) في (د): إدمان.
(٤) في طرة بـ (د): الظاهر: بجدهم.
(٥) لطائف الإشارات: (٤٣٢/١).
(٦) في (د): ﴿قل ان كان آباؤكم أو ابناؤكم﴾.
(٧) في (ص) و (ك) و(ب): الحظوظ.

الأيـام، ودوام الإعـلام[١]، والمواظبـة علـى الأعمـال؛ تُخْـرِجُ الـدَّفِينَ[٢]، وتُظْهِرُ الأحوال[٣].

شِعْرٌ[٤]:

سـوف تـرى إذا انجلـى الغبـارُ أفـرسٌ تحتــك أم حمــارُ[٥]

٢ ونـبَّهم علـى علامـة المحبـة بقَطْـعِ العلاقـات، ومفارقـة العـادات، [٢٩/ب] وهجـران/ القرابـات، ونبـذ الـشهوات، والرجـوع إلـى الله فـي دوام الحالات[٦].

ومن أمثال العُبَّادِ: «من نَفَقَتْ سوق دينه كسدت سوق حظوظه، ومـا لم تَخْلُ منك مساهلُ[٧] الشهوات لم تُعْمَرْ بك مساجدُ الطاعات»[٨].

ولا يَعْمُـرُ مـواطن الطاعـات إلَّا مـن خـرَّب ديـار الراحـات؛ فالزاهـد يعمرهـا بتخريـب دار علاقتـه، والمُوَحِّـدُ بتخريـب وَطَـنِ تَمَنِّيـه، والعـارف

---

(١) فـي (ص) و (ك) و(ب) و(د): الأعـوام، وضـبَّب عليهـا فـي (د)، والمثبـت صحَّحه بطرته.

(٢) في (ب): الرقيق، أو: الدقيق.

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/١٨).

(٤) سقطت من (ص) و(ب) و(د).

(٥) من الرجز، وهو لابن المعتـز في التمثيـل والمحاضـرة: (ص٣٤٥) منسوبًا لـه، وأنشده أبو القاسم القشيري في لطائفه: (٢/١٨).

(٦) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/١٨).

(٧) في (ص): مشاهد، وفي طرة بـ (د): الظاهر: مسالك، وأيضًا: مزايل.

(٨) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/١٨).

بتخريب مكان لحظاته[١] وسكناته، والمحب بتخريب كل ما ليس لله فيه وجه يُقصد، ولكل أحد من الخلق رُتبة[٢].

ولمَّا ذُكِرُوا مع غيرهم قال قائلهم:

لا تَعْرِضَنَّ لِذِكْرِنا في ذِكْرِهم　　ليس الصحيح إذا مشى كالمُقْعَدِ[٣]

مزيدُ بيان:

ولمَّا أخبر الله تعالى بأنَّ الذين آمنوا أَشَدُّ حُبًّا لله، يعني: من الكفار لأصنامهم، على الوجه الذي تقدَّم بيانُه، فالمؤمنون أيضًا يتفاوتون[٤] في محبة الله ومحبة رسوله على مراتب، فأكثرهم له محبة أعظمهم له طاعة؛ فإنَّ من يحبك لا يعصيك، ولا يراك حيث نهاك، وقد قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده ونفسه والناس أجمعين، قال له عمر بن الخطاب[٥]: لأنت أحبُّ إليَّ من الكل إلَّا من نفسي، قال له: لا تؤمن حتى أكون أحب إليك من نفسك، قال له: فأنت أحب إليَّ من نفسي، قال له: فالآن يا عمر»[٦].

[محبة المرء للغير ووُجُوهُها]:

ومَحَبَّةُ المرء لغيره تكون بأربعة وجوه:

---

(١) في (د): لحاظته.

(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/١٤).

(٣) من الكامل، وهو في لطائف الإشارات: (٢/١٤)، وحلية الأولياء: (٨/٢٦٦).

(٤) في (د): متفاوتون.

(٥) قوله: «ابن الخطاب» سقط من (ك).

(٦) تقدَّم تخريجه.

الأَوَّل: بإرادة الخير له من كل وجه.

الثاني: يذكره بالخير في كل حال.

الثالث: بمواساته.

الرابع: بإيثاره له على نفسه.

فأمَّا الوجهان الأَوَّلان ففرضان على الإطلاق.

وأمَّا المواساة ففَرْضٌ على الوجه الذي بيَّناه في المقام الأَوَّل من هذا الكتاب(١).

وأمَّا إيثارُه له على نفسه فلا يلزم ذلك إلَّا في حق النبي، فلا يلزم أن تؤثر غيرك على نفسك، أما إنَّه إن فعلتَ ذلك كان من مناقبك وأَجَلِّ حسناتك.

والإيثارُ في مكارم الأخلاق ومراتب الحسنات أَصْلٌ معلوم، قال الله سبحانه مُثْنِيًا على الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وأمَّا إيثارُ الله على النفس(٢) فغيرُ لازم في حقه؛ لأنه إذا خاف العبدُ على ماله أو نفسه فكان فِداؤه بالكفر جاز أن يَتَلَفَّظَ به بلسانه، ولا يعتقده بقلبه،/ [٣٠/أ] وكذلك في عِرضِ النبي صان الله قَدْرَه، وهذه رحمة من الله ورُخْصَةٌ.

وإنَّما كانت تلك الفُروض مع الرفاهية والاختيار، دون الضرورة والإكراه.

---

(١) أي: مقام الحياة الدنيا من السِّفْرِ الأوَّل.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): النفس على الله.

[صِلَةُ المحبة بالمعرفة]:

ومع أنَّ المحبة تنقسم على هذه الوجوه؛ فإنَّها تقوى وتضعف بحسب قوة المعرفة وضعفها، ألا ترى كيف كانت معرفة عمر على درجة لا يُحِبُّ النبيَّ فيها أكثر من نفسه، ثم عرَّفه بالواجب، فلمَّا انتهى إليه انتهت قوة المعرفة، وكانت معرفة أبي بكر بالله أكثر منه، وقد تبيَّن ذلك في أفعالهما؛ فإنَّ أبا بكر جاء بماله كله إلى النبي فقَبِلَهُ منه[١]، وترك أبو بكر نَفْسَه وأهلَه تحت حُكْمِ الله ورِزْقِهِ، وجاء عمر بنصف ماله وقال: «تركت لأهلي نصفه الآخَر»[٢]، وجاء كعب وأبو لبابة بجميع مَالَيْهما فلم يُقْبَلْ منهما[٣]؛ لأنهما جَاءَا به في حال خوف، وتحت تَقِيَّةٍ من ذنب، وجاء أبو بكر وعمر مُتَبَرِّعَيْنِ ابتداءً مع صلاح الحال مع الله والإقبال عليهما، فعلم النبيُّ من أبي لبابة وكعب أنهما إذا عَدِمَا أموالهما لم تكن قلوبهما من الصَّفاء والصبر، والثقة بالموعود والسكون إلى الضَّمَانِ؛ كما كانت بوجود المال، فأخذ الثُّلُثَ تطهيرًا لهما، وأبقى الثُّلُثَيْنِ بأيديهما تَثْبِيتًا لهما.

[درجاتُ المعرفة]:

وإذا ثبت هذا فدرجاتُ المعرفة بالله لا حَصْرَ لها، فقد بلغ النبيُّ من المعرفة ما بلغ، ومع ذلك قيل له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤]، ولهذا كان الخَلْقُ بعده في درجة القصور في المعرفة، وقُصُورُهم بوجهين من حالين:

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) تقدَّم تخريجه.

أَمَّا **الوجه الأَوَّل** - وهو الأصل -: فإنَّ الله لا يُحاط به علمًا، ولم يخلق البشر على ذلك النصاب، ولا بلَّغهم تلك الرتبة.

وأَمَّا **الوجه الثاني**: فإنَّ المقدار الذي شَرَعَ للخلق منهاجه من معرفته عليه حُجُبٌ كثيرة، أصلها حب الدنيا، وضرورة الآدَمِي إلى الحاجة منها؛ فإن الضرورة إلى الحاجة قاطع عن المعرفة الكاملة، والحبُّ للدنيا ربَّما قَطَعَ عن جميعها أو معظمها، وبقدر إعراض الناس عن الدنيا يكون علمهم بالله تعالى.

[نَقْضُ كلام أبي حامد في معرفة الله]:

وقد وَهِمَ في هذا الفصل أبو حامد الغزالي وهمًا كبيرًا على قَدْرِه، فقال: «إنَّ السبب في خفاء الله عن أكثر الخلق ظهوره وجلاؤه؛ فإنه ليس في الملكوت ذرَّة إلا وهي دليل عليه وشاهدة به، ولما كثُر ذلك وعظُم وظهر غَلَبَ[1] العقولَ وبهرها، كما يعتري البصير مع ضوء الشمس، وكما أنه يضعف بصرُه عن نور الشمس كذلك تَضْعُفُ بصائرُ/ الخلق عن إدراك معرفة الله»[2].

٢ [٣٠/ب]

وقال: «هذا معنى قوله: حِجَابُه النُّورُ».

وذَكَرَ كلامًا ضعيفًا بيَّنَّاه في كتاب «الأمد الأقصى»[3]، لم أَرَ ذِكْرَه لكم لوجهين:

---

(١) في (د): غلف.

(٢) الإحياء: (ص١٦٨٦-١٦٨٧).

(٣) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٩٩/١-٥٠٣).

أحدهما: بشاعته.

والثاني: فساده.

وهذا كلام لا معنى له؛ لأن الله قد كَلَّفَنا عِلْمَه كما بيَّنَّاه[١] من قبل، ونَصَبَ عليه أدلته، وما ذكره من التمثيل بنور الشمس لا معنى له؛ لأنَّ نور البصر هو الذي يضعفُ عن نُورٍ أقوى منه في الإدراك.

وأمَّا المعرفةُ بالله أو بغيره فليس في ذلك نُورٌ إلَّا على طريق التمثيل، فلا جَرَمَ لضعف أبصارنا لا نرى الملائكة ولا الجن، فضلًا عن الله سبحانه، فإذا خلق لنا رؤيته رأيناه، وبخَلْقِه الرؤيةَ يرتفعُ الحجاب الذي ذكر؛ وهو النور، لأنها تكون أقوى منه، وقد خلق لنا العلم لنا[٢] به، فليس يصح أن يُحْمَلَ أحدُهما على الآخَرِ ولا يُنَظَّرَ[٣] به.

وبيانُ محبة الله للعبد مُحَصَّلَةٌ عند العلماء، مذكورة في القرآن والسنة، وقد ذكرنا وَجْهَ تعلقها بنا وشَرْحَ وصولها إلينا بإنعامه علينا، وإذا أحبَّ الله عبدًا أَوْصَلَ فائدة أَصْلِ المحبة إليه، وهي: الإرادة بمتعلقاتها من الإحسان والإنعام.

قال النبي ﷺ: «قال الله: لا يزال العبدُ يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها»[٤].

---

(١) في (د): بيَّنَّا.
(٢) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).
(٣) في (د) و(ص): ينطر، ورمز لها في (د) بـ: ن، أي: بيان، تصحيحًا لها.
(٤) سَلَفَ تخريجه.

المعنى فيه: أنه يُيَسِّرُ الطاعات على الجوارح، فلا تظهر فيها معصية، وهذا[1] أجلُّ أنواع المحبة.

[نَقْضُ دعوى محبوبية اليهود والنصارى لله تعالى]:

وقد وردت آيةٌ عظمى[2] للخلق فيها أكرم بشرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، وهذا يدل على أنَّ الحبيب لا يُعَذَّبُ بذنبه إذا كان له إحسانٌ إلى ربه.

وحقيقةُ الآية على التفصيل والتأصيل في «التوحيد» و«التذكير» خمسةُ أوجه:

الأَوَّل: أنَّ البُنُوَّةَ تقتضي المجانسة، والله مُنَزَّهٌ عنها[3].

الثاني: أنَّ المحبة بين المتجانسين تقتضي المخالطة[4] والمؤانسة والمجاورة، وهو تعالى مُقَدَّسٌ عن ذلك[5].

الثالث: أنَّ المُحْدَثَ لا يصحُّ أن يكون بعضًا للمُحْدِثِ؛ لأنَّ المُحْدِثَ لا بعض له، والأَحَدِيَّةُ واجبة لله، والعَدَدِيَّةُ محالٌ على الله، فإذا

---

(١) في (د) و(ك) و(ص) و(ب): هذه، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٢) في (د): في خـ: عظيمة.

(٣) لطائف الإشارات: (١/٤٤١).

(٤) في (ك) و(ب) و(ص) و(د): الاختلاط، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرتها.

(٥) لطائف الإشارات: (١/٤٤١).

لم يكن له عدد لم يَجُزْ أن يكون له وَلَدٌ، فإذا لم يكن له وَلَدٌ على الوجه الذي اعتقدوه[١] لم يكن بينهم وبينه محبة[٢].

٢ [٣١/أ]

الرَّابع[٣]:/ الأمانُ من العذاب للمحبوب من الذنوب[٤].

الخامس: أنَّ هذا ينبني على قولهم: «إنهم أبناء الله، وإنه يعذبهم أيَّامًا معدودة»؛ فتناقض[٥] قولهم.

فإن قيل: إن النصارى اليوم يقولون: إنَّ أحدًا منَّا لم يقل: «إنهم أبناء الله».

قلنا: هذا ما لا ينفعكم اليوم، لو كان أهلُ ذلك العصر لم يَقُولُوهُ ما وجدوا على النبي مَطْعَنًا أعظم من هذا، ولَتَعَلَّقُوا به وصرَّحوا بذِكْرِه، وساعدهم على ذلك المشركون من قومه، فلمَّا سلَّموا تسليمًا دلَّ ذلك على صِدْقِ القول وصِحَّةِ الحُجَّةِ.

[علاماتُ المحبة]:

وللمحبة علاماتٌ كما بيَّناه، وهي من الله العِصْمَةُ عن المعاصي أو بعضها، فيكون[٦] له كل المحبة أو جُزْءٌ منها.

---

(١) في (ك): اعتقدوا.

(٢) لطائف الإشارات: (١/٤٤١).

(٣) لطائف الإشارات: (١/٤٤١).

(٤) في (ك) و(ب) و(ص): بالذنوب.

(٥) في (ك): فيناقض.

(٦) في (ك): تكون.

وعلامةُ محبة العبد طاعة الله، فإذا أحبَّ الله العبدَ خلَقَ له قُدْرَةَ الطاعة فأطاعه، وإذا خَلَقَ له قُدْرَةَ المعصية عصاه، وإذا لم يخلق له قدرة على شيء من ذلك لم يأت به، وبعَدَمِ خَلْقِ قدرة الطاعة[١] عَصَاهُ، وبعدم خَلْقِ قدرة المعصية[٢] له يدل على أنَّه راضٍ عنه.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

فأخبر تعالى أنهم[٣] رضي عنهم حين أحبَّهم، فيسَّر لهم البيعة على الموت، أو على أن لا يَفِرُّوا عن النبي ﷺ، وعَلِمَ ما طرأ على قلوبهم من الاضطراب والتشكك[٤] حين قال لهم النبي: إنكم تدخلون المسجد الحرام؛ ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾؛ فلمَّا صُدُّوا اضطربوا وشَكُّوا، وتَوَقَّفَ عمر وجاء النبيَّ، فقال له: «لم أخبرك أنك تدخله العام، وجاء إلى أبي بكر فقال له: ما هذا؟ وقال له أبو بكر: لم يقل النبي ﷺ: إنَّ ذلك يكون[٥] العام، وإنه كائن ولا بدَّ»[٦]، فرجع عمر إلى التثبيت[٧] وغيره

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): المعصية، ومرَّضها في (د)، والمثبت من الطرة، ولم يُصَحِّحها أو يُشِرْ إلى كونها من نسخة أخرى.

(٢) قوله: «عصاه، وبعدم خَلْقِ قدرة المعصية» سقط من (د) و(ك) و(ب).

(٣) في (ك) و(ص): أنه، وأشار إليها في (د).

(٤) في (ك) و(ب) و(ص): التشكيك.

(٥) في (د): يكون ذلك.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث المسور بن مخرمة ﷺ: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم: (٢٧٣٢-طوق).

(٧) في (ص): التثبت.

من الأعمال، فذلك قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[١].

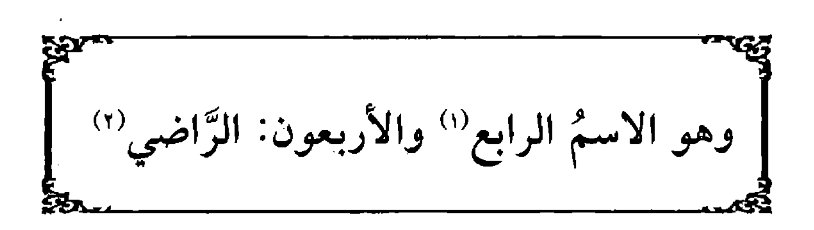
وهذه علامة الرضى؛ فإنَّ القَلْبَ إذا اضطرب، والشَّكَّ إذا تطرَّق، وكان الله للعبد مُحِبًّا وعنه راضيًا ساق إليه أسباب الثبات؛ إمَّا بخَلْقِ[٢] العِلْمِ له ابتداءً من غير تعليم من غيره، كما فعل بأبي بكر، وإمَّا بتعليم الغير له وتنبيهه عليه، كما فعل بعُمَرَ مع النبي وأبي بكر، فلا يضره بعد ذلك ما طرأ على قلبه من طَيْفِ الشيطان، وذلك هو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، فَرَضِيَ عنهم أوَّلًا، فلمَّا سكنت قلوبهم بتَثْبِيتِه رَضُوا عنه[٣]./ ٢ [٣١/ب]

* * * * *

(١) لطائف الإشارات: (٣/٤٢٦-٤٢٧).

(٢) في (ك): يخلق.

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٤٢٧).



وفي الحديث الصحيح: «إنَّ الباري يقول: يا أهل الجنة، فيقولون: لبَّيْك ربنا وسَعْدَيْك، فيقول: وهل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أُعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا ربَّنا، وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[٣]، وذلك تفسير قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

[حقيقةُ الراضي]:

وقد يُفَسَّرُ اسمُ «الراضي» بالذي[٤] قَطَعَ الأمل ووقف حيثُ ما وقف به في الدنيا، وفي الآخرة: هو الذي حَسِرَ[٥] أملُه، ولم يبق له متطلَّع إليه بكثرة ما وصل إليه.

---

(١) في (ك): الثاني.

(٢) سقط من (ك) و(ص)، ولم ترد هذه الترجمة في (ب).

(٣) سَلَفَ تخريجه.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): وهو الذي، وضرب على «هو» في (د).

(٥) في (د) و(ب): خسر، ومرَّضها في (د)، وفي الطرة: حسن، وصحَّحها، وفي (ص): جسر.

وقد يقف الأملُ بأهل الدنيا علىٰ أغراض ولأسباب، فيقول: رضيتُ، أي: وقفت، ويكون حُكم ذلك حُكم سببه[١]؛ إمَّا عن قناعة، وإمَّا عن حصول أمل، وإمَّا عن عِلْمٍ بتعذُّره، وإمَّا عن تَقِيَّةٍ في[٢] طلبه.

وقد أخبر الله عمَّن أنكر الآخرة وقَنِعَ بالدنيا فقال[٣]: ﴿وَرَضُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس:٧]، أي: لم يَبْقَ لهم في سواها أَمَلٌ.

[الراضون من الأنبياء والصحابة]:

وقليل من يقف به أملُه على ما يكره عن ما يحب، منهم: أيُّوبُ؛ فإنه أَصْلُ الرضى بالقضاء، ومنهم جماعة لا تُحصى، من أَجَلِّهم سعدُ بن أبي وقَّاص؛ كان مُجَابَ الدعوة بدعوة النبي له في ذلك، قال عبد الله بن السائب: «أتيته[٤] وأنا غلام، فتقدَّمت إليه فعرفني، وقال: أنتَ قارئ مكة؟ قلت: نعم، ورأيتُ الناس يُهرعون إليه، ويسألونه أن يدعو لهم، فقلتُ: هلَّا دعوتَ لنفسك؛ فردَّ الله عليك بَصَرَك[٥]؟ فتبسَّم وقال: يا بُني، قضاءُ الله عندي أحسنُ من بَصَرِي»[٦].

وكان عمرانُ بن حُصَين استسقى بطنُه، فبقي مُلْقًى على ظهره ثلاثين سنة، وقد ثُقِبَ له في سرير من جريد[٧]، فكان عليه موضعٌ لقضاء حاجته، فدخل عليه مُطَرِّفُ بن الشِّخِّيرِ[٨] وأخوه العلاء؛ فجعل يبكي لما يرى من

---

(١) في (د): وسببه.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): من.

(٣) سقط من (ك) و(ب) و(ص).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): فأتيته.

(٥) في (ص): هلَّا دعوت لنفسك أن يرد الله تعالى عليك بصرك.

(٦) قوت القلوب: (١٠١٩/٢).

(٧) في (د): جرير.

(٨) في (د): الشخراء.

حاله، فقال له[١]: «ممَّ تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحال العظيمة، قال: لا تبك، فإنَّ أحبَّه إلى الله أحبُّه إليَّ، ثم قال: أُحَدِّثُكَ حديثًا لعل الله ينفعك به، واكتم عليَّ حتى أموت، إنَّ الملائكة تزورني فآنسُ بهم[٢] وتُسَلِّمُ عليَّ»[٣].

٢ [٣٢/أ] قال في رواية: «ثم اكتوى فلم تُسَلِّمْ عليه»، وقال في رواية[٤]: / «اكتوينا فما أفلحن ولا أنجحن، قال: ثم تركتُ الكيَّ فرجع السَّلام»[٥]، يعني: تِيبَ عليه منه.

[هل يناقضُ الدعاء بإزالة البلاء الرضى بالقضاء؟]

فإن قيل: فهل يناقضُ الدعاءُ في إزالة البلاء الرِّضى بالقضاء؟

قلنا: نعم، يناقضه؛ ولكنه جائز، فإن كان راضيًا فليصبر عليه ولا يسأل كَشْفَه، وإن كان لا يريده فليسأل، فإنَّ ذلك مَأْذُونٌ له فيه، وهو الأرفق بالخَلْقِ، والأَلْيَقُ بهم.

وإذا فَهِمْتُمْ معنى المحبة ومتعلَّقاتها وشرف معناها وفضل خِصِّيصتها فعليكم أن تحفظوا أمرها من جميع جهاتها، وتُراعوا شروطها، وتقوموا بأسبابها، وتُراعوا بعد حصولها دوامها، فيكون بذلك وَصْفُ «الرَّعْيِ» لكم حاصلًا.

---

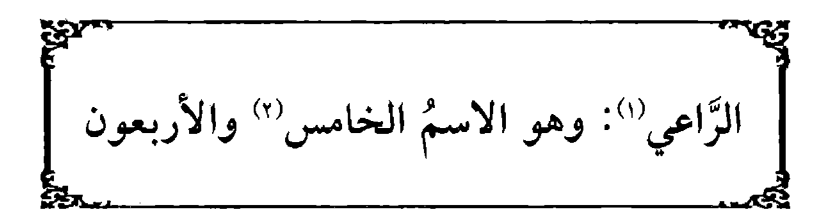
(١) سقط من (ك) و(ب) و(ص).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): بها.

(٣) سَلَفَ تخريجه، وينظر: قوت القلوب: (١٠١٨/٢).

(٤) قوله: «في رواية» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٥) سلف تخريجه.



الرَّاعي[١]: وهو الاسمُ الخامس[٢] والأربعون

قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

وقال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رَعِيَّتِه»[٣]، وذَكَرَ الحديث الصحيح.

وقد جمع النبيُّ وجوه[٤] الرعاية والأمانة أخذًا بأطرافها على الخلق، فكان رَاعِيَ غنم؛ قال البخاري: قال رسول الله: «ما بعث الله من نبي إلَّا رَاعِيَ غنم، قال له أصحابه: وأنت؟ قال: وأنا رَعَيْتُها لأهل مكة بالقراريط»[٥].

ثم كان رَاعِيَ جميع الخَلِيقَةِ.

[أنواعُ الأمانات]:

والأمانةُ - وإن كانت على قسمين - أمانةُ الخلق، وأمانة الإله الحق؛ فإنها ترجع إلى الله كلها، ولها أحوال[٦]:

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ك): الثالث، وفي (ب): الرابع.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: كتاب العتق، باب العبد راعٍ في مال سيده، رقم: (٢٥٥٨-طوق).

(٤) في (ك): وحده.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم: (٢٢٦١-طوق).

(٦) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): محال، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته، وصحَّحها.

الأَوَّل: جوارحهم.

الثانية: قلوبهم.

الثالثة: الأمر والنهي.

الرابعة: إقرارُهم عند استخراجهم من ظَهْرِ آدم بالتوحيد.

الخامسة: محبة الله التي أودعها قلوبهم.

السَّادسة: الشهادة.

وهـذه متداخلـة، وقـد بيَّنَّـا تفـصيلها فـي تفـسير قولـه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[1] [الأحزاب:٧٢]، وحقَّقنـا أنَّهـا الواجبـات؛ أصـولها وفروعهـا، والشرائع؛ جملتها وتفصيلها[2].

[حقيقةُ الرعاية]:

والرعايةُ: هي الحفظ، ومَرْجُوعُ ذلـك إلـى صيانة المعـاني والـذوات عن المكروهات، ومنه رعاية[3] الغنم؛ وهو حفظهـا عـن الآفـات، وذلـك لا يمكن إلَّا بدوام المعرفة والنظر إليها دائمًا، وقد بيَّنه العَرَبِيُّ بقوله:

رأيتـك ترعـاني بعَـيْنٍ بـصيرةٍ   وتبعـثُ حُرَّاسًـا علـيَّ ونَـاظِرَا[4]/

وبكثـرة آفـات الـنفس وعـوارض الطاعـات وخـواطر الوسـاوس يفتقـرُ العبد إلى مراعاة أحواله؛ فإن الغفلة عنهـا والاسترسـال يُوقِـعُ فـي التقـصير،

---

(١) ينظر: أحكام القرآن: (١٥٨٩/٣-١٥٩٠).

(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (١٧٣/٣).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): رِعْيَةُ.

(٤) من الطويل، وهو للنابغة الذُّبْيَاني من قصيدة له في النعمـان، ديوانـه: (ص١١٦- الطاهر ابن عاشور).

ويُخْرِجُ إلى التعمد، لا سيما وعليك رقيبٌ يَرْعَى أحوالك، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[1] [الأحزاب:٥٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، وقال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

والرِّقْبَةُ هي المراعاة بعينها، فأخبر سبحانه أنه رقيب على كل شيء، ثم أخبر أنه رقيب علينا، وهذا صحيح.

[رِقْبَةُ الله تعالى]:

والرَّقِيبُ في اللغة هو المُرَاعِي المنتظر لما يطرأ من أحوال المرقوب، فالباري تعالى رقيب على العرش والسماوات والأرض والمخلوقات بأجمعها، ولولا مراعاته للكل لما ثبت منها شيء على صفته، ولا بقي لحظة على حالته، وهو سبحانه مُرَاعٍ لنا؛ يَتَرَقَّبُ أحوالنا بإدامتنا وإدامة أوصافنا وأفعالنا وأحوالنا، شيئًا شيئًا، دقيقة دقيقة، وجليلة جليلة، وليس في المخلوقات ولا في ملكوت الأرضين والسماوات شيء إلَّا وهو مُرَاعٍ له[2]، رقيب عليه، بنسبة معلومة، وقَدْرٍ معلوم، موصول أو مقطوع، موجود أو معدوم، هو شَهِيدٌ على الكل، يَعُدُّ السُّكون والحركة، والخطرات واللحظات، وهو أقرب إلينا من حَبْلِ الوريد، لَا قُرْبَ مسافة؛ فإنه محال على الله، ولكنْ قُرْبُ عِلْمٍ وكرامة، وتحصيل وحفظ، وإحصاء وضبط، رَوْحٌ وأُنْسٌ للمحبين، وهيبة وخوف للمراقبين، وتهديد للعاصين[3].

---

(١) في النسخ: «إن الله كان على كل شيء رقيبًا».

(٢) في (ك): لها.

(٣) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٤٧-٤٩).

وفي صحيح الحديث - كما قدَّمنا - أن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

وفيه - أيضًا -: «أنَّ الصحابة يومًا في سَفَرٍ رفعوا أصواتهم إلى الله، فقال النبي ﷺ: إنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّما تدعون سميعًا قريبًا، إنه بينكم وبين رؤوس رحالكم»[٢].

[نَفْيُ الجهة عن الله تعالى]:

فهذا الإله المُقَدَّسُ الذي استوى على العرش؛ هو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، وهو الذي ينزلُ إلى السماء الدنيا كلَّ ليلة، وهو الذي يكون مع كل مُتَنَاجِيَيْنِ، وهو الذي يكون بين العبد وبين رَأْسِ رَحْلِه، وهذا يردُّ[٣] أهلَ الغباوة على بطلان[٤] ما يريدون أن يُثْبِتُوا من جِهَةٍ لله أو مقدار؛ فإنَّ الذي يكون على العرش لو كان مُقَدَّرًا لاستحال أن يكون في السماء، لأنَّها أقلُّ من العرش. واستحال أن يكون بين المرء ورَحْلِه؛/ فإنه أقل من شِبْرٍ، وليس بعد هذا البيان من الشرع لمن خالفه إلَّا العذابُ والهوان.

٢ [٣٣/أ]

[مراقبةُ الملكين للعبد]:

ومع أنه محيط بكل شيء، رقيب على كل أحد[٥]؛ فإنَّه قد خص العَبْدَ بأن جَعَلَ عليه رَقِيبَيْنِ:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، رقم: (٦٣٨٤-طوق).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): يدل.

(٤) في (د): في خـ: عن ما يريدون.

(٥) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): أمر، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته، وقال: في خـ.

أحدهما: عن يمينه.

والآخر: عن شماله.

وهذا هو نصُّ القرآن في المَلَكَيْنِ، وليس في صفة حالهما وقُعُودِهما شيء يُعَوَّلُ على تفسيره؛ فإنه لم يصح عن النبي في ذلك كلمة، فلا تلتفتوا إلى ما في «كتب التفسير»[١]، ولا إلى ما في «كتب الزهد» من ذلك.

ومن مُمْكِنِ ما قالوا: «إن الملائكة التي تكتب الحسنات كلَّ يوم يكونون غير الذين كانوا بالأمس، وصاحب السيئات هو بعينه؛ ليكثُر شهود الخير، ويقل شهود الشر، سَتْرًا من الله على العبد»[٢].

ولو صحَّ هذا لكان جميلًا، وسِتْرُ الله على العبد أعظمُ.

وإذا[٣] كان كما قلنا: لكل قلب خاطر، وعلى كل عمل آفة، وفي كُل حال[٤] رقيب؛ وجبت المراعاة كما قلنا في المواظبة على الطاعة والمحاسبة على المعصية، كما بيَّنَّاه في «قِسْمِ الصَّبْرِ[٥]».

فعليك المرابطة لقلبك وعملك بذلك كله، والمصابرة عليه، والمحاسبة فيه، وقد قال أهلُ العبادة: «إن أعضاءك السبعة - العين والأُذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل -؛ السبعةُ أبوابُ جهنَّم[٦]، محفوفة

---

(١) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٤٥١).

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٤٥١).

(٣) في (ك) و(ب) و(د): لما، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته، وفي (ص): لو.

(٤) سقط من (ك).

(٥) بعده في (ك) و(ص) و(ب): عليهما، وضرب عليها في (د).

(٦) بعدها في (ك) و(ص) و(ب): السبعة، وضرب عليها في (د).

بالشهوات»[١]، فاسددها عن نفسك، أو اسلكها لها، وسَهِّلْ سبيل الخلاص منها؛ فإنك على مَهْوَاةٍ فيها، وربَّما زَلَلْتَ فسقطت، فأيُّ لعًا لك؟

وأشدُّها اللسان؛ فإنه رطب مُسْتَرْسِلٌ، فلا يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم إلَّا حصائدُ ألسنتهم، وإذا واظبت عليها بالمراقبة[٢] ولَازَمْتَها بالتذكرة أوشك أن يكفَّ عنك شرُّها أو يَقِلَّ.

وأنفعُه لك أن تشغلها بالأوراد، وتُرَتِّبَ عليها الطاعات، ولا تهملها ساعة، فإنَّها إن شَرَدَتْ عنك أنَّى لك بأخذها؟

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٤].

أي: هل[٣] يعدل من لا يعلم ممَّا يفعله العبدُ شيئًا؟

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

أي: ليس بيَدِ أَحَدٍ من المخلوقين نجاتُكم، وهذا زَجْرٌ للكافرين، وهيبة للمؤمنين، فاحفظ - أيها العبدُ - من يحفظك، وراقب من يكلؤك، واخش من يراك، واعلم أنَّ ما يأتيك[٤] من/ الخيرات من نَوْعَي النفع والضر[٥] فإنَّه ممَّن تولَّاك، فيجبُ[٦] عليك دوام الاعتكاف ببابه، وإيقاف القلوب على محبته، وهو سبحانه وإن كان رتَّب على ظاهرك من يرعاه، فإنَّ

٢ [٣٣/ب]

(١) ينظر: قانون التأويل: (ص٢٣٨)، وأصله في الإحياء: (ص١٧٦٧).
(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): المرابطة، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.
(٣) قوله: «أي: هل» سقط من (ك) و(ص) و(ب).
(٤) في (ك) و(ص) و(ب): نابك، وضرب عليها في (د).
(٥) في (ك) و(ص) و(ب): الدفع.
(٦) في (د): يحب.

باطنك ليس لأحد سواه، هو الذي يتولَّاه وعليه المعوَّل، فانظر ما أنت فيه تفعل.

وقد استوفى هذا بعضُ الحكماء فقال:

إذا ما خَلَوْتَ الدهر يومًا فلا تَقُلْ خَلَوْتُ ولكن قُلْ عليَّ رقيبُ

ولا تحسبن الله يغفلُ ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

ألم تر أنَّ اليوم أسرعُ ذاهبٍ وأنَّ غدًا للنَّاظرين قريبُ

لَهَوْنَا - لعَمْرُ الله - حتى تتابعتْ ذنوبٌ على آثارهن ذنوبُ[١]

[أنواعُ المراعاة]:

ومن المراعاة مراعاةُ الأوقات، فإنَّ العمر ثلاثُ ساعات:

التي مضت عنك فلا تنجبر؛

والتي تنتظرُ فلا تعلم أتدركها أم لا[٢]؟

والتي أنت فيها؛ فاحفظها واجعل فيها وِرْدًا، واعمرها بطاعة تربح تلك السَّاعة يوم السَّاعة.

وإن لم يكن له من اليقين والعلم والفراغ ذلك فليجعل زمانه قِسْمَيْنِ:

بعضُه لما لا بدَّ له من دنياه؛

وجلُّه لأخراه؛

---

(١) من الطويل، وهي للحسن بن عمرو الإباضي، ورُوِيت لغيره، وهي في الحماسة البصرية: (٢/٤٧)، وينظر: شعر الخوارج: (ص٢٣٤)، وأخلاق الوزيرين: (ص٣٧٤)، ومعجم الأدباء: (٢/٥٤٧)، وديوان أبي نُواس: (ص٦١٥).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): إن أدركتها.

فيكون على هذا الوجه كله للآخرة.

وقد قال الله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]؛ أَمَرَ كلَّ أحد أن يسعى[١] في دنياه لآخرته[٢]، ولا ينس حظَّه من دنياه التي لا تتمُّ له إلَّا به أخراهُ.

قال علماؤنا: «ليس النصيبُ من الدنيا جَمْعَها ولا مَنْعَها، إنما النصيب من الدنيا أن يكون له منها فائدة، وذلك ما لا يُعْقِبُ في الدنيا[٣] نَدَمًا، ولا يُوجِبُ في الآخرة عُقُوبَةً»[٤].

وقيل: «النصيب من الدنيا ما يحمل على طاعة الله بالنفس، وعلى معرفته بالقلب، وعلى خدمته بالجوارح، وعلى ذِكْرِه باللسان»[٥].

والأوَّل أقوى.

وأنواعُ المراعات[٦] - كما قدَّمنا - بأنواع الحدود، ويجمعه رَعْيُ حق الله، ورعي حق المؤمنين، ورعي حق الذمة، ويرجع ذلك إلى رَعْيِ حَقِّ[٧] المؤمنين، والكلُّ يرجع إلى رَعْيِ حق الله.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): يبتغي، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرتها.

(٢) في (ك) و(ب): آخرته، وفي (ص): آخرته في دنياه.

(٣) قوله: «في الدنيا» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) لطائف الإشارات: (٨١/٣).

(٥) لطائف الإشارات: (٨١/٣).

(٦) في (ص): المراعاة.

(٧) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

والمراعـاة كلهـا إنمـا تكـون بالاعتقـاد والأفعـال لا بـالأقوال ؛ فـإنَّ المنـافقين يراعـون الأقـوال دون الاعتقـاد والأفعـال ، ولـذلك تـضاعفت عقوبتهم ؛ فكانوا في الدَّرَكِ الأسفل من النار.

٢ [٣٤/أ] ومن/ المراعاة رَعْيُ الأعمال في نفسها ؛ بتقديم المُهِمِّ منها فالمهم ، وأُصُولُها أن تبدأ بصلاح العقيدة قبل صلاح الأقوال ، وخُلوص النية قبل مباشرة الأعمال ، وبتطهير القلب من الدناءات قبل النظر في اكتساب المَكْرُمَاتِ.

ومراعاة الأحوال أوكد ؛ فإن الموت لا تعلم متى يقدم عليك ، أليلًا أم نهارًا؟ شابًّا أم كهلًا أم شيخًا؟ بغتة أم إنذارًا؟ نائمًا أو[1] يقظانَ ، كم يوم طلعتْ فيه شمسُه بأرواح[2] السَّعادة غربت على خلاف الإرادة.

وأشدُّ المراقبة سُرُورٌ يُخاف زواله.

أشـدُّ الغـم كَـوْنٌ فـي سـرور   تـيقَّن عنـه صـاحبُهُ انتقـالَا
أرى الـدنيا علـى مـن كـان فيهـا   صُـرُوفًا لا تُـديم عليـه حـالَا[3]

أنشدنا[4] شيخُنا أبو الحُسَين[5] أحمد بن عبد القادر[6] بن يوسف الصُّوفِي:

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): أم.
(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): بأوج ، وضبَّب عليها في (د) ، والمثبت من طرته.
(٣) من الوافر ، وهي للمتنبي في ديوانه ؛ بتقديم البيت الثاني: (٨٨٩/٢).
(٤) في (ك) و(ص) و(ب): وأنشدني.
(٥) في (د) و(ص) و(ك): الحسن ، وهو تصحيف.
(٦) ضرب في (د) على قوله: «أحمد ابن» ، ولا معنى لفِعْلِه هذا.

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري وآخرُ يرعى ناظري ولساني[1]

تَقَيَّدَتْ في «ترتيب الرحلة»، ورويتُها من طريق أخرى:

كأنَّ رقيبًا منك يرعى خواطري وآخرُ يرعى ناظري ولساني
فما أبصرتْ عيناىَ غيرَك منظرًا من الناس إلَّا قلتُ قد رَمَقَانِي
ولا عرضتْ في عارضِ الفِكْرِ خطرةٌ لغيرك إلَّا عرَّجا بعِنَانِي
ولا بدرتْ مني لغيرك لفظةٌ بذِكْرَاه إلَّا قلتُ قد سَمِعَانِي[2]
تمكَّن من قلبي جلالُك إنَّني أراك على كل الجهات تَرَانِي[3]

والواجبُ على العبد أن يكون مراعيًا كلَّ حين، خائفًا يترقَّب كلَّ وقت[4] كلَّ هداية من الله وخير.

وهذه الترجمة عظيمة عامَّة، يمكن أن تدخل تحتها أبوابُ الشريعة كلها، ولذلك قالوا: «إن المراعاة هي دوامُ العلم دون غفلة، وبقاءُ الذِّكْرِ دون طُرُوِّ[5] سَهْوٍ».

وبهذه المحافظات كلها يُدْعَى بـ«الوَلِيِّ».

---

(١) تخريجه في الذي يليه.

(٢) قوله: «تقيَّدت في ترتيب الرحلة.. سمعاني» سقط من (ص).

(٣) من الطويل، وهي للبحتري في ملحق ديوانه: (٥/٢٦٨٢)، والأوَّل نسبه القاضي الجرجاني في الوساطة (ص١٧٧) لمحمد بن داود.

(٤) بعده في (ك) و(ب): وحين ويترقَّب، وضرب عليها في (د)، وفي (ص): راجيًا يرتقب.

(٥) في (ب): طروء.

الوَلِيُّ[١]: وهو الاسمُ السَّادس[٢] والأربعون

وهي خَصْلَةٌ[٣] شريفة، ومقام كريم، واسمٌ من أسماء الله عظيم، وقد بيَّنَّاه في كتاب «الأمد الأقصى»[٤] بأبدع وجوه البيان، ممَّا هدانا الله إليه، والحق بَيِّنٌ، وعلى العلماء هَيِّنٌ، وعن الشُّبَهِ صَيِّنٌ.

٢

وهو عبارةٌ عن القريب من الله، المُتَوَالِي/ عليه فضلُه وإحسانُه بإدامة العصمة وتيسير الطاعة وهبة النُّصرة. [٣٤/ب]

ومن قام بأمر الله تولَّى الله أموره؛ فلم يَدَعْ شيئًا من أحواله، ولا وَكَله إلى أشكاله، ولم يُخْلِه من أفضاله، فإن حَرَمَه شيئًا رَزَقَه الرضى بأفعاله، ورَوْحُ الرضى على الإسرار أجلُّ عطايَا الجبَّار.

فالله وَلِيٌّ: فعيل بمعنى فاعل.

والعبد وَلِيٌّ: فعيل بمعنى مفعول.

وهو - أيضًا -: مَن توالت طاعتُه لمَّا اتصلت عصمتُه، فيرجع إلى الأولى[٥]، فيكون محفوظًا في جميع أحواله من أشد المحن؛ وهي ارتكابُ المعاصي، منصورًا في جميع أفعاله[٦].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الرابع، وفي (ب): الخامس.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): خُطَّة.

(٤) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/١٤٦-١٥٠).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): الأول.

(٦) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/١٠٤).

قال بعضهم: «النبي معصوم، والولي محفوظ؛ فالنبي لا يأتي بذنب، والولي إن أتى رَاجَعَ في الحال»[١].

وفي «مسند الحارث»: عن عُبَيد بن عُمَير عن أبيه: «كنتُ مع النبي في حجة الوداع، فسمعته يقول: ألا إنَّ أولياء الله هم المصلون»[٢].

وذلك يرجع إلى القُرْبِ؛ فإنَّ المصلي يناجي ربه، وأقربُ ما يكون فيها إذا سجد[٣].

وقد وَلِعَ[٤] الناسُ باسم «الولي» وجعلوه تابعًا للنبي، وكل أحد من المؤمنين وَلِيٌّ على مقدار[٥] طاعته، وكيف ما كان فلا تجتمع الولاية والعداوة؛ فإنَّ العداوة تكون بسبب الكفر، والولاية تكون بسبب الإيمان، ومتى ما حصل مع العبد الإيمان فليس بعَدُوٍّ لله ولو عصى، وقد بيَّن الله ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧]، كما قال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/١٠٥).

(٢) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار: (٢/٣٥٢)، رقم: (٨٩٨-شعيب)، وفيه عبد الحميد بن سِنان، وقال البخاري في أحاديثه عن عُبَيد بن عُمَير: «في حديثه نظر»، يستضعفه جدًّا، ضعفاء العُقَيلي: (٣/٨٠١).

(٣) قوله: «وفي مسند الحارث: عن عُبَيد بن عُمَير عن أبيه: كنتُ مع النبي في حجة الوداع فسمعته يقول: ألا إنَّ أولياء الله هم المصلون، وذلك يرجع إلى القُرب؛ فإنَّ المصلي يناجي ربه، وأقربُ ما يكون فيها إذا سجد» سقط من (ص).

(٤) في (ص): أُولع.

(٥) في (ص): قَدْر.

وأمَّا العاصون فهو الذي يتوب عليهم ويَحْلُمُ عنهم ويُرَاجِعُ بهم، فهُمْ[1] على دَرَجِ شَرَفِ الولاية أو دَرَكِ هلاك العداوة، والكتابُ قد سُطِّرَ، والقضاءُ قد نَفَذَ، والأمرُ قد أُبْرِمَ، والعبدُ بين الطمع والرجاء، فإمَّا هُلْكٌ، وإمَّا نجاةٌ[2].

وقد صار هذا الاسمُ في عُرْفِ المتكلمين من علمائنا والصوفية عبارةً عمَّن توالت عليه نِعَمُ الله بالعصمة، حتى تولَّاه الله بالحُرمة، فكلُّ ما أراد كان، وجميعُ ما دعا أجابه الله فيه، فهو وَلِيٌّ لله، والله وَلِيٌّ له.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فهو قريبٌ منهم بالهداية والعصمة، وهم قريبٌ منه بالعبادة والطاعة.

ولمَّا قال/: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، نوَّر قلوبهم [٣٥/أ] بالإيمان، وجوارحهم بالطاعة، ولم يكونوا في سابق عِلْمِه في الظلمات، وإنَّما كانوا في نُورِه، ولكنه غشيتهم عَجَاجَةُ[3] الاشتراك في الاشتباك في الدنيا، ثم تداركتهم النعمة السَّابقة في الحالة العُليا، كما أنَّ النور السَّاطع بالبيان بالأدلة أدرك الكفَّار، ولكن استولى عليهم سابقُ الظلمة في القَدَرِ الأوَّلي، فساقهم إلى الهَلَكَةِ.

ومن غريب هذا الاسم أنه يُثْبَتُ به ويُنْفَى، ويُوجَبُ ويُسْلَبُ، تقول: تَوَلَّيْتُ فلانًا؛ إذا تقاربتُ منه، وتولَّيتُ عن فلان؛ إذا تباعدتُ عنه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة:٥٣]، وقال في الكفَّار:

---

(١) في (ب): فهو.

(٢) في (ص) و(ب): هَلَكَ.. نَجَا.

(٣) العجاجة: الغُبار، تاج العروس: (٦/٩٠).

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الأنفال:٤٠]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[١] [الحديد:٢٣]، وقد يحتمل أن يكون معناه: فإن تَوَلَّوْا[٢] غير الله فاعلموا أنه هو الغني، وكذلك قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾[٣]، يكون معناه: فإن تولَّوا غيركم فالله مولاكم أنتم[٤]، وإن تولَّوهم فيكونون مثلهم[٥]، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، أي: مَن[٦] افتخر بهم واستنصَر وانخرطَ في سِلْكِهم وعَدَّ نفسَه في جملتهم ودَانَ بمحبتهم؛ كان حُكْمُه في الدنيا والآخرة حُكْمَهم.

ومن صِفَةِ الولي عند الصوفية العُزْلَةُ عن الناس، والمجانبةُ للعالَم، وهذا لفساد[٧] الخلق، وإلَّا فإذا كان الناسُ كلهم أولياءَ الله كانت الخُلطة بينهم للتعاون على البر والتقوى أولى، وقد قال النبي ﷺ: «أَغْبَطُ أوليائي بي مؤمن خفيفُ الحاذِ، ذو حَظٍّ من صلاة وصيام، أحسنَ عبادة ربه، وكان عيشُه كِفَافًا، قَلَّتْ بَوَاكِيه، وقَلَّ تُرَاثُه»[٨].

فلمَّا فسد الزمانُ صار عندهم من أوصاف الولي[٩] «السَّائحُ».

---

(١) في (د): ﴿هو الغني الحميد﴾.
(٢) في طرة بـ (ص): صوابه: ومن يتولَّ.
(٣) في (د) و(ص) و(ك): فإن تولوا.
(٤) في (ك): أنتم وهم.
(٥) في (ك) و(ب) و(ص): فتكونون مثلهم.
(٦) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).
(٧) في (ك): بفساد.
(٨) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الأوَّل.
(٩) في (ب): الولي عندهم.

السَّائِحُ[١]: وهو الاسمُ السَّابعُ[٢] والأربعون

قال الله تعالى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢].

وليس له في السُّنَّةِ حديثٌ بحال يُعَوَّلُ عليه[٣]، إلَّا أنَّ القاسم أبا عبد الرحمن روى عن أبي أُمامةَ أن رجلًا قال: «يا رسول الله، ائذن لي في السِّيَاحَةِ، قال النبي ﷺ: إن سياحة أمتي في الجهاد في سبيل الله»[٤]، خرَّجه أبو داود وغيرُه[٥].

وإنَّ[٦] المفسرين رَوَوا أنَّ النبي قال: «السَّائحون: الصائمون»[٧].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الخامس، وفي (ب): السادس.

(٣) في (ب): يعول عليه بحال.

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد، باب في النهي عن السياحة، رقم: (٢٤٨٦-شعيب).

(٥) قوله: «يُعَوَّلُ عليه، إلَّا أنَّ القاسم أبا عبد الرحمن روى عن أبي أمامة أن رجلًا قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، قال النبي ﷺ: إن سياحة أمتي في الجهاد في سبيل الله، خرَّجه أبو داود وغيرُه» سقط من (ك) و(ص).

(٦) في (ك) و(ص): إلَّا أن.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره عن عُبَيد بن عُمَير مرسلًا: (١٤/٥٠٢-شاكر)، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة ﵁؛ مرة موقوفًا، ومرة مرفوعًا: (١٤/٥٠٣-شاكر)، وكلامُ ابن العربي بعده يُفِيدُ أن الحديث عنده لا يَصِحُّ رَفْعُه.

٢
[٣٥/ب] وإنَّما المشهورُ عن ابن مسعود/ وأبي هريرة وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وأبي عبد الرحمن السُّلَمِي وعُبَيد بن عُمَير؛ أنه الصِّيَامُ[١].

والذي أوجب ذلك منهم نكتة، وهي أنَّ «سَاحَ» في اللغة: سال وجرى إلى غير غاية معروفة، ومنه: ساح الماء؛ وهو سَيَلَانُه على وجه الأرض[٢].

وكان فيمن سبق من الأمم يخرج الرجل بوجهه مُتَرَهِّبًا، أي: خائفًا متفردًا[٣] على[٤] الخلق، معتزلًا مستسلمًا لله، لا يتزوَّد ولا يدَّخر، مُتَوَكِّلًا حتى يَضْوَى هُزْلًا، فلما جاء الإسلام بنَفْي[٥] هذه الرهبانية وإثبات النكاح والخُلْطَةِ والائتلاف والصُّحبة زالت تلك الحالة، ثمَّ لمَّا[٦] مدح الله السَّائحين مع ما أبطل من هذه الصفة في الأُمَمِ الماضين ردَّها العلماءُ إلى حالة مشروعة في الإسلام تُنَاسِبُ تلك الحالة، وهي الصيام؛ لأنها حالة فيها تَرْكُ الطعام والشراب وتقليل الكلام[٧]، وإن اعتكف فتكون[٨] سياحة عالية ظاهرة، فلذلك عبَّروا عن السَّائحين بالصَّائمين.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (١٤/٥٠٣-٥٠٥-شاكر).
(٢) ينظر: غريب الحديث لابن سلام: (١/١٩٩-٢٠٠).
(٣) في (ك) و(ب) و(ص): منفردًا.
(٤) في (ك) و(ب) و(ص): عن، وأشار إليها في (د).
(٥) في (د): ونفى.
(٦) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).
(٧) ينظر: غريب الحديث لابن سلَّام: (٣/٣٣١)، وتفسير الطبري: (١٤/٥٠٥-شاكر).
(٨) في (ك): فيكون.

قال الإمام الحافظ[١] رضي الله عنه: وعندي أن المراد به[٢] مَدْحُ السَّائحين في آخِرِ الزمان؛ عند فساد الخلق، وغلبة الحرام على الرزق، واضطرام نار الفتنة، فتكون للسياحة[٣] حينئذ دِينًا وسُنَّةً، ويشهدُ لهذا الذي اخترناه في تأويل الآية الأحاديثُ الصحيحة الدالة على الاعتزال والفرار من الخلق عند فساد الزمان، وقد تقدَّم ذِكْرُ بعضها في أشراط الساعة[٤]، والإشارةُ إليها تغني؛ لظهور الأمر عن استيفاء القول فيها.

وقد فسد اليوم الأصنافُ كلهم، وأشدُّهم فسادًا الأمراءُ والفقهاءُ، وهم الذين تصلح بهم الأحوال، وتُنال بصلاحهم الآمال، ويَطَّرِدُ باستقامتهم الإقبال، ومع تغير هؤلاء لا بقاء ولا حال، فالهجرةَ الهجرةَ، والفِرَارَ الفِرَارَ.

والذي يَعْضُدُ الاشتقاق الأوَّل ويشهد له قَوْلُه: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:٢]، أي: سيروا حيث شئتم، واذهبوا أين ما اخترتم وأحببتم.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنَّ السَّيَاحَ هو الذهاب في الأرض على طريق الاعتبار»[٥].

---

(١) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ب): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٢) سقطت من (ك).

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): السياحة.

(٤) أي: في القسم الأول من الكتاب، وهو قسم المقامات.

(٥) لطائف الإشارات: (٢/٦٧).

وقالت الصوفية: «السَّائحون بقلوبهم بالتفكر في آفاق السماء وأقطار الأرض، والاستدلال بتغيرهما[١] على مُنشئهما، والتحقق[٢] بالحكمة التي في آياتهما[٣]»[٤]./ ٢ [٣٦/أ]

وهذا من أشبه أقوالهم وأصحِّها.

وبهذا يَرَوْنَ أنَّ الله أبقى اسم «السَّائح» من حال الأُمَم، وأسقط اسم «الراهب»، فلا رهبانية في الإسلام؛ اسمًا ولا دِينًا، ولكن معناها من الرَّهَبِ والمخافة ما ثبَّته في قلوب المؤمنين، ولا تراهم أبدًا إلَّا وَجِلِينَ؛ أساؤوا أو أحسنوا، على ما تقدَّم في اسم «الرجاء» و«الخوف».

وقد سألتْ عائشةُ رسول الله عن قول الله: «﴿وَالذِينَ يُوتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ اَنَّهُمُۥٓ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [التوبة:٦١]؛ أهُم الذين يشربون ويزنون؟ قال لها[٥]: لا؛ ولكنهم الذين يُصَلُّونَ ويتصدَّقون، ويخافون ألَّا يُقبَل منهم»[٦].

وقد بيَّنا هذه الآية في كتاب «الأحكام»[٧] بيانًا بديعًا، ورتَّبنا فيها القول ترتيبًا عجيبًا[٨]، وحقَّقنا أنه لو كان الحديثُ صحيحًا لما خَفِيَ على

---

(١) في (ص): بتغيرها.

(٢) في (د): التحقيق.

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): آياتها.

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٦٧).

(٥) سقطت من (د).

(٦) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب التفسير عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المومنون، رقم: (٣١٧٥-بشار).

(٧) أحكام القرآن: (٣/١٣١٧-١٣١٨).

(٨) سقط من (ك) و(ب) و(ص).

عائشة أنَّ الآية لم تَرِدْ في العصاة؛ لأنه قال سبحانه: ﴿يُوتُونَ﴾، وهو من أَفعل، وبابه الإعطاء، وذلك في الطاعات والخير، وما سألتْ عنه عائشةُ بابُه الإتيانُ إلى الشيء، والمجيءُ إليه أو بِهِ، فكانت الآية تكون على ذلك النَّسَقِ: «يأتون ما أَتوا»، بقَصْرِ الهمزة، وهذا ما لا يخفى، والله أعلم.

وكذلك رُفِعَ عنَّا اسمُ «القَسِّ»، وإن كان من باب التتبع للمعارف والتحصيل لها، وقد قال النبي: «رأيتُ القَسَّ في الجنة»[1]، يعني: ورقة، ولكن سقط من ألسنة شريعتنا؛ فلا هو في كتابنا، ولا في سُنَّتِنا، ولا على ألسنة الصحابة منَّا.

أَمَا إنَّه بَقِيَ فينا من ذلك اسمان:

* * * * *

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي ميسرة مرسلًا: كتاب المغازي، ما جاء في مبعث النبي ﷺ، رقم: (٣٧٥٥٢-الرشد).

الربَّانِي[١]: وهو الاسم الثامن[٢] والأربعون
الحَبْرُ[٣]: وهو الاسم التاسع[٤] والأربعون

وقد ثنَّى الله بهما أو ثَلَّثَ على مرتبة النبوة، فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة:٤٤].

قال علماؤنا: «الربَّانيُّون[٥]: هُم العلماء الحُكماء البُصَرَاءُ بسياسة الناس وتدبير مصالحهم، والأحبار: هُم العلماء»[٦].

قال السُّدِّيُّ: «والمرادُ بذلك هنا[٧] في هذه الآية أبناءُ صُورِيَّا[٨]، وكان أحدُهما حَبْرًا، والآخر ربَّانيًّا[٩]، لم يُسلما، لكنهما أَعْطَيَا للنبي ﷺ العَهْدَ على ألَّا يسأل شيئًا من التوراة إلَّا صدَّقاه فيه»[١٠].

---

(١) سقط من (ك).
(٢) في (ب): السابع.
(٣) سقط من (ك).
(٤) في (ب): الثامن.
(٥) سقط من (ك) و(ب) و(ص).
(٦) تفسير الطبري: (١٠/٣٤١-شاكر).
(٧) في (ك) و(ب) و(ص): هاهنا، وضرب على «ها» في (د).
(٨) في (ص): صوريَاء.
(٩) في (ك) و(ب) و(ص) و(د): رَبِّي، وضعَّفه في (د)، والمثبت من طرته.
(١٠) تفسير الطبري: (١٠/٣٤٢-شاكر).

وقيل: «الربانيُّون: الولاة، والأحبارُ: العلماء»[١].

قال الطبري: «وتخصيص السُّدِّيِّ لابْنَي صُورِيًّا ضعيف، والآيـةُ عامَّة في كل رَبَّانِي وحَبْرٍ»[٢]./ ٢ [٣٦/ب]

قال الإمام الحافظ[٣] رضي الله عنه: فأمَّا الربَّاني فهو الذي يُرَبِّي الناس بصغار العلم قبل كباره، يقال: ربَّ وربَّى[٤]، إذا ناقل الشيء في درجات نُمُوِّه[٥] بما يصلح له؛ حتى يبلغ إلى غايته أو مقصوده.

والله رَبُّ الخَلْقِ بهذا المعنى، على أحد التأويلات؛ فإنه يُثَبِّتُهم[٦]، ويُهيئ لهم أسباب الدوام، ويُيَسِّرُ لهم وجوه الغذاء.

وقولنا: رَبَّان؛ هو فعلان مِن رَبَّ وربَّى، والرَّبَّاني راجع إلى قولك: ربٌّ، أو إلى قولك: ربَّانُ، ولم يُسْمَعْ[٧]، ولكن القياس يقتضيه[٨].

قال ابن عباس: «هو العالم الذي يُرَبِّي الناس بصغار العلم قبل كِباره»[٩].

---

(١) تفسير الطبري: (١٠/٣٤٣-شاكر).
(٢) تفسير الطبري: (١٠/٣٤٢-شاكر).
(٣) في (ب): قال الإمام، وفي(ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.
(٤) في (ص): ربٌّ ورَبِيٌّ.
(٥) في (ص): نبوه.
(٦) في (ك) و(ب) و(ص): يبقيهم، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.
(٧) ينظر: تاج العروس: (٢/٤٦١).
(٨) ينظر: تفسير الطبري: (٦/٥٤٣-شاكر).
(٩) ذكره البخاري مُعَلَّقًا: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، (١/٢٥-طوق).

وهو الذي يقول لهم ما يصلح بهم، وما تبلغه أفهامهم، ويُقَدِّمُ الأوَّل على الآخِر[١]، حتى ينتهي إلى المقصود بالمعلوم[٢]، ولا يقلب الحال فيُعَلِّمُه الآخِرَ قبل الأوَّل، ويجعل عليه الأغلوطات - وهي: صعاب المسائل -، ويقصد تعجيزه، أو يعدل به عن الطريق، ومن ذلك ما لا ينبغي أن يفعله العالم بتِلْمَاذِه[٣]، ولا الأب بابنه، مثل ما يفعله الناس اليوم؛ فإنهم يُعلمون في البداية المسائل، ويتركون كتاب الله وحديث رسوله، جهلًا بالحق، وعُدُولًا عن الطريق، وربما - وهو الأكثر - يتمادى بهم الحال بهذا البائس فيموت وقد أفنى عمره في غير عِلْمٍ؛ لأنَّ الذي اشتغل به لم يعلمه على وجهه، ولا قرأه على شَرْطِه[٤]، ولا أتاه من بابه.

وأمَّا الحَبْرُ؛ فيقال: بكسر الحاء وفتحها.

قالوا: «وإنَّما سُمِّيَ كَعْبٌ الحَبْرَ لأجل كُتُبِه، وبذلك سُمِّيَ الأحبار».

[إنشادٌ]:

وقد أنشدني أَبِي[٥] عن أحمد بن الحُسَين[٦] بن حي عن عبد الملك

---

(١) في (ك) و(ب) و(ص) و(د): الأوَّل، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٢) في (د): العلوم.

(٣) في (ص): بتلميذه.

(٤) في (ك) و(ب) و(ص) و(د): بشرطه، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٥) هو الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد ابن العربي المعافري، تـ ٤٩٣هـ، تقدَّم التعريف به.

(٦) في (ك) و(ص): الحسن.

ابن[١] الجَزِيري[٢] «قصيدة الآداب والسُّنَّةِ»[٣]، ليس لها نظير، كتبها إلى بَنِيه وهو في سِجْنِ السلطان[٤]، أبياتًا في ذلك، منها:

واعلم بأنَّ العلم أرفعُ رتبةٍ ... وأجلُّ مكتسب وأسنى مَفْخَرِ
والعالمُ المَدْعُوُّ حَبْرًا إنَّما ... سمَّاه باسم الحَبْرِ حَمْلُ المِحْبَرِ
فاسْلُكْ سبيل المقتنين له تَسُدْ ... إنَّ السيادة تُقتنى بالدَّفْتَرِ
تَسْمُو إلى ذي العلم أبصارُ الورى ... وتغضُّ[٦] عن ذي الجهل لا بل تَزْدَرِي
وبضُمَّرِ الأقلام يبلغ أهلها ... ما ليس يبلغ بالجياد الضُّمَّرِ
والعِلْمُ ليس بنافع أربابَه[٥] ... ما لم يُفِدْ عملًا وحُسْنَ تَبَصُّرِ[٧]

---

(١) بعده في (ك) و(ب) و(ص): أحمد، وضرب عليها في (د)، وهو الصواب.

(٢) الوزير الكاتب، أبو مروان عبد الملك بن إدريس، عُرِفَ بابن الجَزِيري، ترجمته في: جذوة المقتبس: (ص٤٠٤-٤٠٦)، والصلة: (١/٤٥٢-٤٥٣).

(٣) هي القصيدة الرائية للوزير الكاتب أبي مروان عبد الملك بن إدريس ابن الجزيري، قال ابن خير (الفهرسة: ص٥٠٣-٥٠٤): «حدَّثني بها شيخنا القاضي أبو بكر محمد ابن العربي رحمه الله، عن أبيه رحمه الله، عن ذي الوزارتين صاحب المظالم؛ أبي عمر بن حَيٍّ المذكور، عن قائلها أبي مروان الجزيري رحمه الله.. قال القاضي أبو بكر بن العربي شيخنا رحمه الله: وأخبرني بها الشيخ أبو بكر محمد بن طَرخان وأبو عامر بن سعدون، قالا: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحُمَيدي، قال: أنشدنا أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان القرشي عن الكاتب أبي أحمد عبد العزيز بن عبد الملك بن إدريس الجزيري رحمه الله، عن أبيه قائلها رحمه الله».

(٤) يقصد به: الملك المظفر بن الملك المنصور ابن أبي عامر.

(٥) في (د): أربابه، أهله.

(٦) في (د) - أيضًا -: تزيغ.

(٧) من الكامل، لابن الجَزِيري، من قصيدته العصماء التي مطلعها:

[معاني الحَبْرِ]:

وأَصْلُ «ح ب ر»: التحسينُ في العربية، قال أبو موسى الأشعري للنبي: «لو أعلم أنك تسمعني لحبَّرته لك تحبيرًا»[١]، وهو التَّزْيِينُ له.

وفي معنى تسميتهم أحبارًا سبعةُ أوجه[٢]:

٢ [٣٧/أ]

الأوَّل: أنَّهم/ حسَّنوا قلوبهم بالمعرفة[٣].

الثاني: أنَّهم زيَّنوا[٤] ألسنتهم بالصدق.

الثالث: أنَّهم حسَّنوا جوارحهم بالطاعة.

الرابع: أنَّهم حسَّنوا أخلاقهم مع الخَلْقِ.

= ألوى بعزم تجلدي وتصبري ... نأي الأحبة واعتياد تذكري

وبعضها في جذوة المقتبس: (ص٤٠٥)، وفي إعتاب الكُتَّاب لابن الأبَّار: (ص١٩٢)، وفي يتيمة الدهر: (١٠٢/٢)، وفي القصيدة المنشورة مفردة، تحقيق هلال ناجي: (ص٥٤).

وبعده في (ص): ممَّا زاد ابنُ عبد البر بيتان:

فاعمل بعلمك تُؤتِ نفسك حظَّها ... لا تَرْضَ بالتضييع حَظَّ المُخْسِرِ

سيَّان عندي عِلْمُ من لم يستفد ... عَمَلًا به وصلاةُ من لم يَطْهُرِ

وصحَّحها، ولم ترد في النسخ الأخرى، ولم أطمئن لهذه الزيادة، فلم أثبتها.

(١) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الثاني.

(٢) في (ص): وسمي العلماء بالله تعالى بالأحبار لمعان سبعة، وفي (ك): وهم الذين له سبعة أوجه، وفي (ب): وهم الذين له.

(٣) يُشْبِهُ أن يكون هذا الوجه الذي ذكره ابن العربي وسائر الوجوه التي تليه مما أفاده من كتاب «لطائف الإشارات» لأبي القاسم القُشَيري، ولكني لم أجده في موضعه من تفسيره المنشور، والله أعلم.

(٤) في (ك) و(ص): ربَّوا.

الخامس: أنَّهم حسَّنوا التبليغ إليهم.

السَّادس: أنَّهم حسَّنوا أفعالهم فلم تخرج عن حدود الأمر والنهي، لم يُقَصِّرُوا في الواجبات، ولم يُخِلُّوا بالمندوبات، ولم يبق عليهم حَقٌّ إلَّا قاموا به؛ إن كان لله فمن غير تقصير، وإن كان للخلق فمن غير تأخير.

السَّابع: أنهم استداموا فيما به استقاموا.

وعبَّر عن ذلك في «فوائد الشهيد»[١] فقال: «كان لهم توفيق بدوام، فلا جَرَمَ جُوزُوا في الآخرة بنعيم من غير انصرام».

وقد بيَّنَّا فيما تقدَّم من اسم «المُحْسِنِ»[٢] الذي يرجع إليه ما فيه كفاية.

[تفسيرُ ابن عباس ﵄]:

وكان السَّلَفُ يقولون في ابن عباس: «إنه البَحْرُ الحَبْرُ»؛ لعظيم عِلْمِه بكتاب الله، وحُسْنِ تفسيره له؛ حين دعا له رسول الله في عِلْم كتاب الله، ولو كان إليه طريق صحيحة ما خَفِي علينا من القرآن شيء، ولكن امتلأت الطُّرُقُ إليه وإلى قتادة، وهما عالما القرآن سَعْدَانًا[٣] وقتادة[٤]، ففاتت من ذلك الإرادة، وعند الله العِوَضُ من ذلك وزيادة.

---

(١) الشهيد هو أبو سعد الزنجاني، سبق التعريف به.

(٢) في السفر الثاني.

(٣) السعدان: نبت في سهول الأرض، من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبًا، تاج العروس: (٢٠٠/٨)، والقتادة: واحدة القتاد، شجر صلب ذو شوك، تاج العروس: (٥/٩)، وأراد ابن العربي من ذكر السعدان وقتادة أن فيما رُوي عن ابن عباس وقتادة ما تعرف منه وتنكر، فمنه صحيح معافى طيب، ومنه ما يكون سقيمًا تالفًا، فوجب الحذر.

(٤) في (د): قتاذة.

[الأحبارُ بالحقيقة هم علماء المسلمين]:

قال الإمام الحافظ[١] رضي الله عنه: وهذه الصفة وإن كانوا قد سَمَوا بها؛ فقد أَخَذَتْها بفَضْلِ الله من أيديهم هذه الأُمَّةُ، فنحن الأحبارُ حقيقةً؛ فإنَّا بتوفيق الله لنا ونِعْمَتِه علينا رَبَّيْنا هذا الدِّينَ وحفظناه، وحسَّنَّاه وبيَّنَّاه، وفرَّعناه ورتَّبنا قوانينه؛ خَلَفًا عن سَلَفٍ، واسْتَثْرَنا من علوم كتابنا، واستَنْجَثْنَا[٢] من حديث رسولنا، واستنبطنا من قواعد شريعتنا، وفرَّعنا من أصولنا[٣]؛ ما ملأ الأرض بهجة، وشهد لنا بذلك أصدق الخلق لهجة، إذ قال: «لا تزال طائفة من أمتي منصورة ظاهرة على من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، وأهلُ الكتاب قد[٤] ذهب من أيديهم دِينُهم، واسْتُحفظوه فلم يحفظوه، فلا عِلْمَ عندهم، ولا دِينَ لديهم، ولا حُكْمَ لهم، ولا قَانُونَ عندهم، بل ضَلُّوا حيارى، وأقاموا سُكارى، لا يهدون ولا يعدلون، ولم يدخلوا في قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]، على أنَّه خُصُوصٌ/ كان فيهم[٥]، وأُوتِينَاهُ نحن عُمُومًا يبقى إلى يوم القيامة[٦].

٢
[٣٧/ب]

---

(١) في (ك) و(ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ب): قال الإمام أبو بكر بن العربي.

(٢) في (ك): استنحثنا، وفي (د): استجثنا، والاستنجاث: الاستخراج، تاج العروس: (٥/٣٧١).

(٣) في (ك) و(ص): أصولها.

(٤) سقط من (ك) و(ص).

(٥) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).

(٦) سقطت من (د).

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٢].

فنحن كلنا: عُدُولٌ، شهداءُ، هُدَاةٌ، دُعَاةٌ، أَئِمَّةٌ، فهذه خمسةُ أسماء شرَّفنا الله بها، ومَنَحَنَا إيَّاها، وأعطاها بفَضْلِه لنا.

* * * * *

[العَدْلُ: وهو الاسم المُوَفِّي خمسين]

فأمَّا[١] «العَدْلُ» منَّا: فهو الذي جرى على الطريقة، ولزم الحقيقة، ولم يَجُرْ عن[٢] السبيل؛ لا بتصريح ولا بتأويل[٣].

وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

وقال تعالى[٤]: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٩]، ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٨].

وقال المشؤوم ذو الخُوَيْصِرَةِ[٥] للنبي ﷺ: «اعدل، فقال له النبي ﷺ: لقد خبتَ وخسرتَ[٦] إن لم أعدل»[٧].

---

(١) في (ك) و(ص): أما.

(٢) في (ص): على، ومرَّضها.

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٣١٤)، و(١/٥١١).

(٤) قوله: «قال تعالى» لم يرد في (ك) و(د) و(ب).

(٥) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٦) في (د): خسرت وخبت.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم: (١٠٦٣-عبد الباقي).

[الشَّاهد: وهو الاسم الحادي والخمسون]

وأمَّا «الشَّاهِدُ»؛ فإنَّا - كما قدَّمنا - نحن شُهداء الرُّسُلِ على الخلق بالتبليغ.

وفي الحديث: «أن النبي ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فأثنَوا عليها خيرًا، فقال: وجبت، ومُرَّ بأخرى فأثنَوا عليها شرًّا، فقال: وجبت، فقيل له: ما وجبت يا رسول الله؟ قال: أثنيتم على الأولى[١] خيرًا فوجبت لها الجنة، وأثنيتم على الثانية شرًّا فوجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[٢].

نكتة[٣]:

ولا يكون هذا إلَّا من الأخيار[٤]، لا من العامَّة الحُشوة؛ فإنه كما لا يقبل القاضي إلَّا العدول في الحقوق، كذلك لا يقبل الله في مثل هذا إلَّا الأبرار، إلَّا أن تكون الكَافَّةُ تنطق بذلك؛ فيأتي من باب الخبر المتواتر الذي هو أقوى من الشهادة.

وأوجهُ الشهادة كثيرة، وأشدُّها أن يشهد الإنسان على نفسه في الدنيا؛ بأن يجري على لسانه من القول ما يسترسل به فيجب له، والذي لا خير فيه ولا خير منه قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

---

(١) في (د): الأول.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كتاب الجنائز، باب فيمن يُثنى عليه خير أو شر من الموتى، رقم: (٩٤٩-عبد الباقي).

(٣) سقطت من (د) و(ص) و(ب).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): الأحبار.

وحقيقةُ[1] الشهادة: العِلْمُ، فنحن العلماء - وقد تقدَّم بيانه - شَهِدْنَا لله سبحانه بأنه واحد، وللنبي ﷺ بأنَّه صادق، وشهدنا للسَّلف الصالح من الصحابة بأنهم ما ضَلُّوا عن الدليل، ولا عاجوا عن السبيل، ومن لم يشهد بذلك فهو من أهل الضلال والتضليل، وقد بيَّنَّا حالهم في كتاب «العواصم من القواصم»[2]، وسيأتي تمامُه إن شاء الله.

* * * * *

(١) في (د): حقيقة.

(٢) العواصم: (ص٣٥٢-٣٥٥).

[الهادي: وهو الاسم الثاني والخمسون]

وأمَّا «الهادي» منَّا: فهو الذي يميل بالناس إلى الحق[1].

وهو وارد في كتاب الله على ثمانية معاني[2]، بيانُها في «كتاب المشكلين» في حق الله سبحانه، والهَادِي/ من الخَلْقِ هَادٍ ببعضها. [٣٨/أ]

وإنَّما كان الخَلْقُ هُدَاةً - وأوَّلهم الرُّسُلُ - نِيَابَةً عن الله تعالى وخِلَافَةً، والخَلْقُ نُوَّابٌ عن الرُّسُلِ.

وفي الحديث الصحيح: «أن النبي ﷺ جمع الأنصار فقال لهم - في حديث بَلَغَهُ عنهم -: ألم يكن أمركم شَتِيتًا فجمعه الله بي؟ ألم تكونوا خائفين فأمَّنكم الله بي؟ ألم تكونوا ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله بي؟ وهم يقولون في ذلك كله: الله ورسوله أعلمُ[3] وأَمَنُّ»[4].

ومن معاني الهُدَى البيانُ؛ وقد بيَّن الله لرسوله، وبيَّن رسولُه لنا، وبيَّنَّا نحن للعامَّة؛ بما أتانا الله من فَضْلِ العلم، ورَفَعَنا به على غيرنا درجة، وخصَّنا بمنزلة الشهادات فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨]؛ حسب ما بيَّنَّاه في اسم «العالم».

---

(١) ينظر: لطائف الإشارات: (٧٣/٣).

(٢) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٤٥٣-٤٥٤).

(٣) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) سلف تخريجه.

وقد قال النبي ﷺ[١] لعَلِيٍّ وغيره: «لأَنْ يَهْدِيَ الله بك رجلًا واحدًا أحب إليك من حُمُرِ النَّعَمِ»[٢]، يعني: ولو تصدَّقت بها؛ فإن هداية الرجل بك دائمة، فلَكَ أجرُ ما عمل، وأجرُ النَّعَمِ ذاهبٌ، على الوجوه التي[٣] بيَّنَّاها في «شرح الحديث».

* * * * *

(١) في (ك): صلى الله عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ك): الذي.

[الدَّاعِي: وهو الاسم الثالث والخمسون]

والهادي «داعي»؛ لأنه يُنادي إلى الله، ويُبَيِّنُ دين الله، وبيانُه له دعاء، وعملُه به دعاء.

والهِدَايَةُ بالفعل من العالِم أعظمُ من الهداية بالقول، وهو «الهَدْيُ»[(١)]، بإسكان الدَّال؛ ولذلك قال علماؤنا[(٢)]: «إنَّ الهَدْيَ - بإسكان الدال - في العبد أشرف من الهُدى - بفتح الدال مقصورًا -».

وباجتماع الهُدى والهَدي يكون «إمامًا».

* * * * *

---

(١) يأتي تفسيرُه في السِّفْرِ الرابع.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): العلماء.

[الإمامُ: وهو الاسم الرابع والخمسون]

ولمَّا كان المرءُ يطلب ما بين يديه وأَمَامَه، وكان مفتقرًا إلى تبصرة يمشي إليها وعَلَمٍ يقصده؛ سُمِّيَ كل ما يَدُلُّه على ما يتوجَّه إليه «إمامًا».

فالإمامُ من يقتدي به ويَهْتَدِي[1]، ويروح على قوله وعمله ويَغْتَدِي، وما يعتبر به أيضًا ويزدجر فيَكُفُّ ويتأخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:٧٩]، أي: بطريق واضح في بيان عقوبة من فَعَلَ فِعْلَهم.

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١]، فيها خمسةُ أقوال:

الأوَّل[2]: بِنَبِيِّهم[3].

الثَّاني: بكَتْبِ أعمالهم[4].

الثَّالث[5]: بكتاب الله المنزل عليهم[6].

---

(١) في (ب) و(ص): تهتدي.

(٢) تفسير الطبري: (١٥/٦-التركي).

(٣) في (د): بنيتهم.

(٤) تفسير الطبري: (١٥/٧-التركي).

(٥) تفسير الطبري: (١٥/٨-التركي).

(٦) سقط من (د) و(ص).

الرَّابع[١]: بمن يقتدي بهم كلُّ أحد في زمانه[٢].

الخامس: بأمهاتهم[٣].

قال بعضهم: إلَّا آدم؛ فإنه يُدعى بكنيته: يا أبا محمد، وذلك شَرَفٌ لعيسى[٤].

وقيل: للحسن/ والحُسَيْن[٥]. ٢ [٣٨/ب]

وقيل[٦]: سَتْرٌ على أولاد العُهَّرِ[٧].

قال الإمام الحافظ[٨] ﷺ: وهذا كله ممكن، بَيْدَ أنَّه نقصهم[٩] أن يقولوا: يوم ندعو كل أناس بمعبودهم، كما[١٠] جاء في الحديث الصحيح: «أنَّه[١١] يُنادى يوم القيامة: لتَتْبَعْ كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد

---

(١) بعده في (ك) و(ص) و(ب): بإمامهم، وضرب عليه في (د).

(٢) تفسير الطبري: (١٥/٨-التركي).

(٣) الكشف والبيان: (٦/١١٦).

(٤) الكشف والبيان: (٦/١١٦).

(٥) الكشف والبيان: (٦/١١٦).

(٦) الكشف والبيان: (٦/١١٦).

(٧) في (ب): العُهر، وفي (ص) و(ك): العَهْر.

(٨) وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، و(ب): قال الإمام ابن العربي.

(٩) في (د): بعضهم.

(١٠) في (د): ما، ومرَّضها.

(١١) قوله: «نقصهم أن يقولوا: يوم ندعو كل أناس بمعبودهم، كما جاء في الحديث الصحيح: أنَّه»، سقط من (ك) و(ص).

الشمسَ الشمس، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمر، ويتبع من كان يعبد الأوثانَ الأوثان، ويتبع من كان يعبد الطواغيتَ الطواغيت»[١].

وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ولا شك، إلَّا أنها أحوال، والدعاء فيها صحيح في أوقاتها بصفاتها.

وفيهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَيِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١]، وجعلهم هاهنا أئمة لـتَلَفِهم لا لـشرفهم، قدَّمهم في الخِزْيِ والهوان على كل أمة، ولكن لم يُرْشِدوا إلَّا إلى الضلال، ولم يَدُلُّوا الخلق إلَّا على المحال، وما خلصوا إلى حسن[٢] الحال، وما ذاقوا إلَّا الخزي والنَّكال.

وقال الله سبحانه في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، فأَخْبَر أنهم يتبعونه بالأمر لأنه كان إمامَهم، فرُبِطُوا به وكانوا معه، وانتهَوا إلى ما انتهى إليه، فكان ذلك أصلًا في كل باغي[٣] ضلالة، وإمام كُفْرٍ أو بِدْعَةٍ.

وروى النوَّاس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا على كَنَفَي الصراط، دَارٌ[٤] لها أبواب مُفَتَّحَةٌ، على الأبواب سُورٌ، وداعٍ يدعو على رأس الصراط، وداعٍ يدعو فوقه، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ

---

(١) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الأوَّل.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): وما حصلوا إلَّا على سوء الحال، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته، وفيها: في: خـ.

(٣) في (ص): داعي.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): داران، وضرب على الألف والنون في (د).

﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]، والأبوابُ على كَنَفَي الصراط حُدُودُ الله، فلا يقعُ أحدٌ في حدود الله حتى يكشف الستر، والذي يدعو من فوقه واعظُ ربِّه»[١]، حديثٌ حسنٌ.

وقال[٢] ابن مسعود[٣] في حديث: «فتوسَّد رسولُ الله ﷺ فَخِذِي فرَقَدَ، وكان إذا رَقَدَ نَفَخَ، فبيْنا أنا قاعد ورسول الله متوسد فَخِذِي؛ إذا أنا[٤] برجال عليهم ثياب بياض، والله أعلم ما بهم من الجمال، فانتهَوا إليَّ، فجلس طائفة منهم عند رأس رسول الله، وطائفة عند رجليه، ثم قالوا بينهم: ما رأينا عبدًا قط أُوتِيَ مثل ما أُوتي هذا النبي، إنَّ عينيه تنامان وقلبه يقظان، اضربوا له مثلًا؛ مَثَلُ سَيِّدٍ بنى قصرًا ثم جعل مأدبة[٥]، فدُعي[٦] النَّاس إلى طعامه وشرابه، فمن أجابه أكل من طعامه وشرب من شرابه، ومن لم يُجِبْه عاقبه أو قال: عذَّبه، ثم ارتفعوا، واستيقظ رسولُ الله ﷺ عند ذلك وقال: سمعتَ ما قال هؤلاء؟/ وهل تدري من هم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هم الملائكة، فتدري ما المثل الذي ضربوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: المثل الذي ضربوه: الرحمن بنى الجنة ودعا إليها عباده، فمن أجابه دخل الجنة، ومن لم يجبه عاقبه أو عذَّبه»[٧].

٢ [٣٩/أ]

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مَثَل الله لعباده، رقم: (٢٨٥٩-بشار).

(٢) في (ك) و(ب): فقال.

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): عبد الله بن مسعود، وضرب على قوله: «عبد الله» في (د).

(٤) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).

(٥) في (د) و(ص): مائدة.

(٦) في (ك) و(ب) و(ص): فدعا.

(٧) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مثل الله لعباده، رقم: (٢٨٦١-بشار).

وقال النبي ﷺ: «ما من داعٍ يدعو إلى هُدًى إلَّا كان له من الأجر مثل أجور من اتَّبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١].

وقال النبي ﷺ: «من سَنَّ سُنَّةً حسنة في الإسلام كان له أجرُها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن سنَّ سُنَّةً سيئة في الإسلام كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا»[٢].

وقد تتعارض الدعوتان بحُكم الله السَّابق، كما قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيَ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١]؛ والدعاءُ إلى السَّبَبِ دعاءٌ إلى المسبب، والعملُ بالعلة رضًى بالحُكم، ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ يريد: أجعل معه شريكًا من غير دليل، ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر:٤٢]؛ الذي لا يؤثر في ملكه عِنَادُكم[٣]، ولا يَعْظُمُ عنده أن يغفر لكم، لقد وَجَبَ وحَقَّ ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ من عبادة غيره؛ ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [غافر:٤٣]، يعني: ليس له حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا إرادة[٤]، ولا نفع، ولا ضُر، وقد علمنا صِدْقَنا وكَذِبَكم، يقول من دَلَّتِ المعجزة على صدقه: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ بلاغًا: كتاب القرآن، العمل في الدعاء، (١/٢٦٧)، رقم: (٥٨٤-المجلس العلمي الأعلى).
(٢) تقدَّم تخريجه.
(٣) في (د) و(ب): عندكم.
(٤) قوله: «ولا إرادة» سقط من (د).

﴿لَكُمْ﴾[١] إذا وجب العذاب عليكم، ولو شاء ربنا لكانت الدعوة واحدة، والحجة خالصة من الشُّبْهَةِ، ولكن هذا كله مقتضى الحكمة.

قال الإمام الحافظ[٢] ﷺ: وهذا الدعاء كله والهداية لا تكون الإجابةُ فيها والقبول إلَّا بلُطْفِ الله وتيسيره، وخَلْقِ ذلك لمن يخلقه له، وتَفَضُّلٍ[٣] عليه به، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف:١٧]، وقال: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:٧١]، وقال: ﴿إِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧].

[الهُدَى هدى الله]:

فبيَّن بقوله: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾، أنَّ كل داع وهادٍ وإن بذل الجهد فيما فُرِضَ عليه من التبليغ؛ فإنَّ الهدى هو مِلْكٌ لله وخَلْقٌ له، يختص برحمته من يشاء[٤] بالنبوة، ويختص بالإيمان، ويختص بالعلم، ويختص بالعصمة، ويختص بالعمل الصالح، ويختص بالخَلْقِ الحَسَنِ،/ ويختص بالأخلاق الحِسَانِ، ويختص بالعافية، ويختص بالرزق، ويختص بإصلاح السريرة، وكذلك إلى ما لا يُحصى من الخيرات؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لاَ يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٣]، بيَّن أنَّ المعبود هو القادر على تَوْفِيقِ المدعو وهدايته، وإذا لم يهب التوفيقَ فدعاؤك وسكوتك سواء.

٢ [٣٩/ب]

---

(١) في النسخ: وستذكرون.

(٢) في (ب): قال الإمام رحمه الله، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): يتفضل.

(٤) في (ك) و(ب) و(ص): يختص، وضرب عليها في (د).

[فَرْضُ الدعوة]:

وما سبق من القَدَرِ لا يدفع عن الدَّاعي فَرْضَ الدعوة ؛ لتقوم الحجة ، وتظهر الحكمة ، ويخلق مالك الملوك[١] الإنابة والإيابة[٢].

وقد بيَّن العلة فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩] ، يعني: لم يخلق فيها العلم بصحة قول الداعي ، غلبت عليها هواجسُ الهوى ، وتردَّدت ما بين خواطر الشيطان ، وأعينُهم في غشاوة عن الآيات ، وسمعُهم وإن كان يُدْرِكُ الأصوات فقد حُجِبَ عن المعاني ؛ المعقولات منه والمفهومات ، ولذلك قال: ﴿وَتَرَيهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨] ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَّسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾[٣] [يونس:٤٢] ، ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾ في عدم الرشاد ، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٤] [الفرقان:٤٤] ؛ لأنهم لم يُنْهَوا[٥] ولا أُمِروا ولا زُجِروا ، وكل ما زاد في تصرُّفه زاد في تخلُّفه ، ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٦] [الحج:٤٤].

[التوفيقُ للقبول]:

وقد يَهْدِي الله بالتوفيق للنظر في الأدلة ثم لا يخلق القَبُولَ ، فإذا خلق القبول مع صحة النظر بلغ العبد المأمول ، وإلَّا فيكون قد رأى ولم يعتبر ،

---

(١) ضبَّب عليها في (ص) ، وفي الطرة: القلوب.
(٢) في (ك): الإباية ، وفي (ب): أو الإيابة.
(٣) في النسخ: يستمع.
(٤) في النسخ: بل أضل.
(٥) في (ك): يَقْبلوا.
(٦) في (د): وإنها لا تعمى الابصار.

أو اعتبر ولم يقبل، ودُعِيَ فأعرض، وذُكِّرَ فلم يَذْكُرْ، والمدار والمعوَّل على ما يخلق في القلب من البصر والسمع؛ فإنَّ العين والأذن إذا حصَّلتا وألقتا إلى القلب ما ألقتا ولم يقبل ذلك؛ صارت العينُ كأنَّها لم تبصر، والأذن كأنها لم تسمع؛ إذا[1] لم يظهر لما ألقتاه[2] فائدة.

قال الإمام الحافظ[3] ﷺ: ولو اجتهد العبدُ غايةَ الاجتهاد ليبلغ من ذلك المراد ولم يكن فيما سبق له نصيبٌ من الكتاب بالرشاد؛ ضُرِبَ بينه وبينه أَسْدَادٌ، ولم ينفع الدعاء، ألا ترى كيف قيل لسيِّد الأولياء: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، هذا[4] وهو ﷺ، كما قال الله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:٧٤]؛ صراط الله، وله شرف النبوة، ومرتبة الرسالة، وحال الخُلَّة، والمقام المحمود، والحوض المورود، ولكنك لا تهدي من أحببت؛ لأنَّ هذا[5] من خصائص الربوبية، وإمالةُ القلب من الباطل إلى الحق/ أو صَرْفُها بالعكس من خصائص القدرة الإلَهية، فلا يكون ذلك لأَحَدٍ من البَشَرِيَّةِ[6].

٢ [٤٠/أ]

وصَرْفُ الباري عن ذلك بأسباب يَكْثُرُ تَعْدَادُها من أحكامه وأفعاله، ليست من غرض «التذكير»، وإنَّما هي من «قسم التوحيد»، ففيه يُنظر إن شاء الله.

---

(١) في (ك): إذ.
(٢) في (ك) و(ص) و(ب): ألقتا.
(٣) في (ب): قال الإمام ابن العربي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.
(٤) سقط من (ك) و(ب).
(٥) في (د) - أيضًا -: الهداية.
(٦) ينظر: لطائف الإشارات: (٧٣/٣).

[كيفيةُ دعاء الناس]:

وقد عَلَّمَ النبيُّ ﷺ كيفية الدعاء في الابتداء وما يترتب عليه إلى الانتهاء، يُفهم منه ويُستدل به عليه، قال لمعاذ[١] حين بعثه إلى اليمن: «إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، فإن هم أجابوك[٢] لذلك فأَعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أجابوك[٣] لذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم، فإن هم أجابوك[٤] لذلك فخُذْهَا منهم، وتَوَقَّ كَرَائِمَ أموالهم»[٥].

وروى بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْبِ أنَّ النبي ﷺ[٦] كان إذا بعث أميرًا أو سَرِيَّةً أو جيشًا أوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «اغزُوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كَفَرَ بالله[٧]، اغزوا؛ ولا تغدروا[٨]، ولا تغلوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): ابن جبل، وضرب عليها في (د).

(٢) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): أطاعوك، ومرَّضها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

(٣) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): أطاعوك، ومرَّضها في (د).

(٤) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): أطاعوك، ومرَّضها في (د).

(٥) سَلَفَ تخريجه.

(٦) قوله: «أنَّ النبي ﷺ» لم يرد في (ك) و(ص) و(ب).

(٧) في (ك) و(د) و(ص) و(ب): كفر بالله، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٨) في (د): تعذروا.

فادعُهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال؛ فأيَّتَهُمْ[١] ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، وادعهم إلى الهجرة»[٢]، وقد نُسِخَ الدعاءُ إلى الهجرة، وذَكَرَ الحديث.

وإذا اجتمعت فيه هذه الخصال كان «خليفةً».

* * * * *

(١) في (ك) و(د) و(ص): فأيَّتهن، ومرَّضها في (د).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، رقم: (١٧٣١-عبد الباقي).

الخليفة[١]: وهو الاسمُ الخامس[٢] والخمسون

ومعناه في اللغة: من يقوم مقام الشيء[٣] وينوب منابه[٤].

والعظيمُ الذي لا مِثْلَ له، ولا يجوز عليه العدم، ولا يغيب عن[٥] شيء؛ سخَّر من سخَّر[٦] لما سخَّر، ثم أنعم عليه بأن سمَّاه «خليفة»؛ فقال للملائكة مُخْبِرًا عن آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٢٩]، ولم يُعلمهم بما خلق من شيء؛ على كثرة مخلوقاته وأوَّلها وآخرها، حتى أراد خَلْقَ آدم؛ فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، تشريفًا لآدم وتخصيصًا، ولِمَا رَتَّبَ عليه من الأمر والنهي، والثواب والعقاب، فلذا[٧] أنشأَ منه[٨] الذرية[٩].

وقد تباين الناسُ في تأويل هذه الآية على أقوال؛ أُمَّهَاتها ثلاثة:

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).
(٢) في (ك): الثاني، وفي (ص): المُوَفِّي خمسين، وفي (ب): التاسع والأربعون.
(٣) في طرة بـ (ك): النبي.
(٤) ينظر: القبس: (١١٥٩/٣)، والعارضة: (١٣٢/٩).
(٥) كذا في جميع النسخ، وصوابه: عنه.
(٦) في (ك): سحر من سحر، وفوقهما: بيان، تنبيهًا على صحتهما.
(٧) في (ك) و(ص) و(ب): في الذي.
(٨) في (ك) و(ص) و(ب): من، وضرب عليها في (د).
(٩) ينظر: لطائف الإشارات: (٧٤/١-٧٥).

الأوَّل: أنه وذريته خَلَفَ خَلَفًا آخَر قبله(١).

٢ [٤٠/ب]

الثاني: أنه أراد قومًا/ يخلفُ بعضُهم بعضًا(٢)، يعني: ذرية آدم.

الثالث: من يخلفني في الحُكم بين(٣) خَلْقِي، وهو آدمُ ومن قام مقامه من وَلَدِه، وهو اختيار ابن مسعود(٤).

وقد قال الله: ﴿يَـٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص:٢٥]، وفيه ثلاثة أقوال:

الأوَّل: مَلِكًا(٥).

الثاني: خَلَفًا من الجبَّارين.

الثالث(٦): خليفة الماضي(٧).

والمختارُ(٨): خليفةً لي، كما تقدَّم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠].

---

(١) تفسير الطبري: (١/٤٤٩-شاكر).

(٢) تفسير الطبري: (١/٤٥١-شاكر).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): بيني وبين.

(٤) تفسير الطبري: (١/٥٥٢-شاكر).

(٥) تفسير الطبري: (٢٠/٧٧-التركي).

(٦) لطائف الإشارات: (٣/٢٥٢).

(٧) سقط من (ص).

(٨) قوله: «خليفة الماضي، والمختار» سقط من (ك).

وأنَّه لمَّا توفي رسول الله ولم يَسْتَخْلِفِ؛ اسْتَخْلَفَ المسلمون أبا بكر، فكان خليفةَ رسول الله الأدنى منه وإليه، والأعلى به ومعه، فصار مَن بعده وإن كان خليفة فبواسطة؛ إمَّا محفوظة، وإمَّا مخفوضة[1].

وقد قال الله تعالى مُخْبِرًا عن موسى: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف:١٤٢]، أي: قُمْ مقامي فيهم بعدي.

وقال عليٌّ للنبي صلوات الله عليه: «أَتُخَلِّفُنِي مع النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي»[2].

وكُلُّ خليفة «حاكم».

* * * * *

(١) في (ص): محفوضة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم: (٤٤١٦- طوق).

الحاكم[١]: وهو الاسمُ السَّادِسُ[٢] والخمسون

نِيَابَةً عن أحكم الحاكمين.

«فَاصِلٌ»؛ نيابةً عن خير الفاصلين.

* * * * *

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ك): الخامس، وفي(ص): الحادي، وفي (ب):المُوَفِّي خمسين.

الفاصل[١]: وهو الاسم السَّابعُ[٢] والخمسون[٣]

«قاضي»؛ نِيَابَةً عن الذي يقضي بين الخلق بحُكْمِه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل:٨٠].

* * * * *

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ص): الثاني، وسقط من (ك).

(٣) في (ب): الفاصل: وهو الاسم الحادي والخمسون: نيابة عن خير الفاصلين.

القاضي[١]: وهو الاسم الثامنُ[٢] والخمسون[٣]

ويحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

وحُكْمُ الله تعالى[٤] على معنيين:

أحدهما: ما هُم الخلق عليه من الطاعة والمعصية.

والمعنى الثاني: ما شرعه لعباده وأمرهم بامتثاله؛ فنَفَذَ[٥] ممَّا أمر ما شاء، ونفذ الكل بالمشيئة الأوَّلية، والحكمة العدلية.

فإذا خَلَّى العباد والمعاصي، ووَفَّقَ أهل الطاعة للعبادات[٦]؛ فهو حُكْمٌ.

وإذا انتقم من العاصين فهو حُكْمٌ[٧].

وإذا أمهلهم فهو حُكْمٌ.

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ك): السادس، وفي (ص): الثالث.

(٣) في (ب): القاضي: وهو الاسم الثاني والخمسون: نيابة عن الذي يقضي بين الخلق بحكمه وهو العزيز العليم، ويحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

(٤) بعده في (ك) و(ب): هو، وضرب عليه في (د).

(٥) في (د): فينفذ.

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): والعبادات.

(٧) في (ك): وإذا أمهلهم فهو حكم، وإذا انتقم من العاصين فهو حكم.

وإذا سلَّطهم على أهل الطاعات بالذنوب فهو حُكم.

وإذا أنزل البلاء دون واسطة أو بواسطة الإغواء[١] فهو حُكم كله.

فِعْلٌ عَدْلٌ، بِقَوْلٍ فَصْلٍ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٨]، وما شيء منها باطل.

٢ المعنى: بل كلُّ ذلك فِعْلٌ منه، له أن يفعله، وهو حقيقة الحق، ومن فَعَلَ ما ليس له[٢] أن يفعله فهو الباطل، وذلك يُتصور في غير حَقِّ[٣] الإله/ [٤١/أ] سبحانه، وكلُّ هذه الأحكام خَيْرٌ وفَصْلٌ، فبذلك صار خير الفاصلين، حسب ما بيَّنَّاه في كتاب «الأمد الأقصى في معرفة الأسماء الحسنى»[٤].

قال النبي ﷺ: «القضاة ثلاثة؛ قاضيان في النار، وقاض في الجنة، رجل قضى بغير الحق وهو يعلم[٥] فذلك في النار، وقاض قضى لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى[٦] بالحق فهو في الجنة»[٧].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): الأعداء.

(٢) في (ك) و(ب) و(ص): «وهذا هو معنى قوله: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾، وقوله: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾، ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا﴾، بل كل لك فعل منه ما له» وضرب عليها في (د)، والمثبت صحَّحه بطُرَّته.

(٣) في (د): حق غير.

(٤) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٢٤٩-٢٥١).

(٥) في (ك) و(ب) و(ص): فعَلِمَ.

(٦) سقطت من (ك) و(ب) و(ص).

(٧) أخرجه الترمذي في جامعه عن بُرَيدة ﷺ: أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء عن رسول الله في القاضي، رقم: (١٣٢٢م-بشار).

وقد بيَّنَّا[١] معناه في كتاب «الأمد الأقصى»[٢].

والنبيُّ ﷺ قاضي القضاة، قد قيل له: «اقض بيننا بكتاب الله»[٣]، وقد قال هو: «من قضيتُ له بشيء[٤] من حق أخيه فلا يأخذه»[٥].

والقضاء في اللغة هو الفراغ، وكأنه أَكْمَلَ ما كان بينهما[٦] وتمَّمه، ويتصرَّف على وجوه كثيرة بيَّنَّاها في «المشكلين»، ولا يكون القاضي إلَّا «فقيهًا»، وهو العالم بمواقع الأحكام في عُرْفِ الشريعة.

في الصحيح: أنَّ ابن عباس قيل له: «إن معاوية يُوتِرُ بواحدة، قال: دعه؛ فإنه فقيه»[٧].

وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهُدى والحكمة كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا؛ فكانت منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس؛ فشربوا وسُقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة؛ إنما هي قِيعان؛ لا تمسك ماء

---

(١) أي: معنى القاضي.

(٢) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٢٤٣-٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما: كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، رقم: (٦٨٢٧-طوق).

(٤) في (د): شيء.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها: كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم: (٢٦٨٠-طوق).

(٦) أي: بين المتخاصمَين.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر معاوية رضي الله عنه، رقم: (٣٧٦٥-طوق).

ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَلُ من فقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هُدَى الله الذي أُرْسِلْتُ به»[١].

وقال ثعلب: «يُقال: فقِه الرجل -بكسر العين[٢]- إذا فهم، وفقُه -بضمها- صار فقيهًا -يعني: أَحْكَمَ معرفة مواقع الأحكام-، وفقَه -بفتحها- إذا سبق غيره إلى الفهم[٣]»[٤]، وهو:

* * * * *

---

(١) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الثاني.

(٢) ضبَّب عليها في (د)، وفي الطرة: القاف، وصحَّحها.

(٣) قوله: «وفقَه -بفتحها- إذا سبق غيره إلى الفهم» سقط من (ك) و(د) و(ب).

(٤) ينظر: الفقيه والمتفقه: (ص١٤٦).

الاسمُ التَّاسع[1] والخمسون: الفقيه[2]

ولم يكن هذا الاسمُ في المتقدمين موضوعًا، وإنَّما صارت خُطَّةً عند المتأخرين، وضعوها في غير موضعها.

وقد فسَّر النبي ﷺ الفِقْهَ في المَثَلِ المتقدِّم الذي بيَّنَّاه، فكُلُّ من كان به فهو «الفقيه»، ومن تعدَّى عليه واصطلح[3] في وَضْعِه في غير موضعه ووَصَفَ به غير/ أَهْلِه؛ فيكونُ ذلك كسائر التعبيرات[4] التي حدثتْ في الشَّريعة. ٢ [٤١/ب]

وقد كان بعضُ أشياخي - وهو محمد بن الوليد[5] - لا يكتبُ إلى أَحَدٍ فقيهًا، وكان منهم من يكتبُ[6] ويتأوَّل فيه التفاؤل له، ورجاء أن يكون كذلك في آخِرِ أمره، ولنِيَّتِه التي اعتقدها الآن بطَلَبِه[7].

---

(١) في (ك): السَّابع، وفي (ص): الرابع.

(٢) سقط من (ك) و(ص)، وفي (ب): الفقيه: وهو الاسم الثالث والخمسون.

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): أو اصطلح.

(٤) في (ب): التغييرات، وفي (ص): التغيرات.

(٥) هو أبو بكر الطرطوشي، سبق التعريف به.

(٦) في (ك) و(ص): يكتبه.

(٧) في (ك) و(د): مغلطة، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته، وفي (ص): مُغَلِّظَة.

[مَغْلَطَةٌ]:

وظنَّ بعضُ الناس أن حافظ الفِروع فقيه، وليس بفقيه ولا حافظ؛ لأنَّ حِفْظَها ليس بفِقْهٍ في دين الله، ولا في العربية المطلقة، وإنَّما الفقيه من فَهِمَ ما قال الله وما قاله[1] رسولُه، لا ما قال من لم يلزم اتِّبَاعُه، وقد بيَّنَّا في كتاب «العواصم»[2] السَّبَبَ الذي أوجب اقتصار الناس على استظهار المسائل، ومقصودُهم به في الأكثر أَكْلُ الدنيا، والمُغْتَرُّ[3] من اعتقد أنها فِقْهٌ.

[التمكنُ في الدين شَرْطُ التمكن من الدنيا]:

وجهلوا طريق الدين والدنيا[4]؛ أمَّا طريق الدين فمَهْيَعٌ، وأمَّا الطريقُ المُوصِلُ إلى الدنيا المُمكِن فيها فهو التَّمَكُّنُ في الدِّين، وبحسب تمكنه من الدين يكون تمكنه من الدنيا، وقد بيَّن الله ذلك في كتابه الكريم بقوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٨]، وإقامتُها نَصْبُها أمامهم بين أعينهم، ينظرون إليها، ويَمْتَثِلُون ما فيها.

قال لهم: ولو فعلتم ذلك لمُطِرَتْ سماؤكم، وأَنْبَتَتْ أرضكم.

وفي قَوْلٍ: لكثرت الخيراتُ لديكم، وامتلأت من الدنيا أيديكم، كما يقال: «فلان في الخير من قَرْنِه إلى قَدَمِه».

---

(١) في (ك) و(ب) و(ص): قال.

(٢) العواصم: (ص٣٦٥-٣٦٧).

(٣) في (ك) و(ب): وللمغتر اعتقاد، في (ص): وللمعتز له اعتقاد.

(٤) في (ك) و(ب) و(ص): الدنيا والدين.

فأخبر أن نَيْلَ الخير كله في الدنيا إنَّما هو بإقامة الحق والعمل بالطاعة.

ثم قال لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [المائدة:٦٨]، المعنى: «ليس انتعاشكم ومعاشكم ولا مقداركم في الدنيا والعُقْبَى ولا منزلتكم في حال من الأحوال إلَّا بمراعاة الدين وإقامة الحق»(١).

وقد قال أهلُ التفسير: «إنَّ الذي كان أُوتِيَ موسى وِقْر سبعين بعيرًا من الكُتُبِ».

ونحن أُوتِينَا القرآن، وقد علمتم قَدْرَه، وبينهما ما بين السماء والأرض، وإن كان كُلٌّ من عند الله، ولكنه جَعَلَ لكُتُبِه منازل كما جَعَلَ لأنبيائه.

وكلامُه/ صفةٌ واحدة، ليس بمخلوق، كسائر صفاته العُلَى؛ من عِلْمِه وقدرته وإرادته، وسمعه وبصره(٢)، سبحانه وتعالى عمَّا يقول المبطلون عُلُوًّا كبيرًا(٣). [٢/٤٢أ]

ولكنَّهم أخطؤوا الطريق، وطلبوا الفقه في غير القرآن والحديث، وفُتِحَتْ عليهم الدنيا فاعتقدوها مِنْحَةً، وهي مِحْنَةٌ، ونسأل الله المعافاة من الذي قال لقوم: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥ - ٥٦].

---

(١) لطائف الإشارات: (٤٣٩/١).

(٢) بعده في (ك) و(ب) و(ص): وكلامه، وضرب عليها في (د).

(٣) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٢١٥-٢١٦).

الحافظُ[١]: وهو الاسمُ المُوَفِّي سِتِّينَ[٢]

ولا[٣] يكون حافظًا[٤] إلَّا من حَفِظَ حَدِيثَ رسول الله ﷺ وأصحابه فيه، وبمِثْلِه يحفظُ الله دينَه، اللَّذَيْنِ لو ضاعا منَّا لهلكنا، فأمَّا أقوال الناس فلا يبلغ[٥] هذه المرتبة وإن كان لها منزلة، ولا يكون لصاحبها هذه الاسمية.

[هل يقال: حفظتُ القرآن؟]

وقد اختلف الناس هل يقال: حفظتُ القرآن أم لا؟

فمنهم من منعه؛ لأنه أَمْرٌ أخبر الله أنه انفرد به، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

ومنهم من قال: إن ذلك جائز؛ لأنه يعود إلى حِفْظِه له في نفسه وقلبه من النسيان، لا أنَّه يحفظُه في أصله ويضبطُه[٦] عن[٧] التغيير والتبديل على مرور الأزمان.

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ص): الخامس والخمسون، وفي(ب): الرابع والخمسون، في(ك): الثامن والخمسون.

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): كما لا، وضرب على «كما» في (د).

(٤) في (د): ولا يكون حافظًا، وهو الاسم المُوَفِّي ستين.

(٥) في (ك) و(ب) و(ص): تبلغ.

(٦) في (ك) و(ب) و(ص): ضبطه.

(٧) في (ك) و(ب) و(ص): من.

وهـذا الاسـمُ جـرى فـي ألـسنة المُحَـدِّثِينَ بالاصـطلاح، كمـا جـرى «الفقيه» في ألسنة أصحاب الفروع بالاصطلاح.

وقد قال النبي ﷺ لرجـل: «مـا معـك مـن القـرآن؟ قـال: سـورة كـذا وسـورة كـذا، قـال لـه: أتقـرأهن[١] عـن ظهـر قلـب؟»[٢]، ولـم يقـل لـه: أتحفظهـن[٣]؟ فلـذلك قـال علماؤنـا: يقـال: اسـتظهرت القـرآن، ولا يقـال: حفظته؛ لأنها كلمـة لـم تَجْرِ علـى لـسان الرسـول مـع أنهـا عربيـة، وكـانوا يقولون: جَمَعَ فلان القرآن، ولا يقولون: حَفِظَه.

وفـي الحـديث الـصحيح: «جَمَـعَ القـرآن علـى عهـد رسـول الله ﷺ أربعةٌ؛ أُبَي، وزيد»[٤]، وذَكَرَ الحديث.

أَمَا إِنَّه نشأ هاهنا اسمٌ غريبٌ:

* * * * *

---

(١) في (ك) و(ص): تقرأهن، وفي (ب): أما تقرأهن.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر قلب، رقم: (٥٠٣٠-طوق).

(٣) في (ك) و(ب) و(ص): تحفظهن.

(٤) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الأول.

المُفْتِي: وهو الاسمُ الحادي والستُّون[١]

وهو من أسماء الله المشتقة من أفعاله، قال في كتابه العزيز: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾[٢] [النساء:١٧٥]، في موضعين[٣].

والفُتْيَا في العربية: عبارةٌ عن جواب السائل.

وفي الحديث الصحيح عن عائشة حين سُحِرَ النبي ﷺ؛ فقال: «يا عائشة، أشعرت/ أنَّ الله أفتاني فيما استفتيتُه فيه، أتاني مَلَكان؛ فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رِجْلي»[٤]، وذَكَرَ الحديث. [٤٢/ب] ٢

فيصحُّ اليوم لمن جاءه سائل فسأله عن مسألة من دِينه أن يقال فيما يخبره به: إنَّها فُتْيَا، ويقال فيه: إنَّه يُفْتِي، ولا يكون ما يُخْبِرُهُ به فِقْهًا، ولا يقال فيه: إنَّه «فقيه»؛ لأنَّ السائل إنَّما يسأله عن مذهب رجل معيَّن قد اعتقد إمامته والتزم تقليده، فإذا سأله عن اعتقاده كان ما يُخْبِرُهُ به فِقْهًا، وكان هو بذلك الإخبار - إذا صدر عن اجتهاده[٥] من أهله في مَحَلِّه - «فقيهًا».

---

(١) في (ك): التاسع والخمسون، وفي (ب): الخامس والخمسون، وفي (ص): السادس والخمسون.

(٢) في النسخ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾.

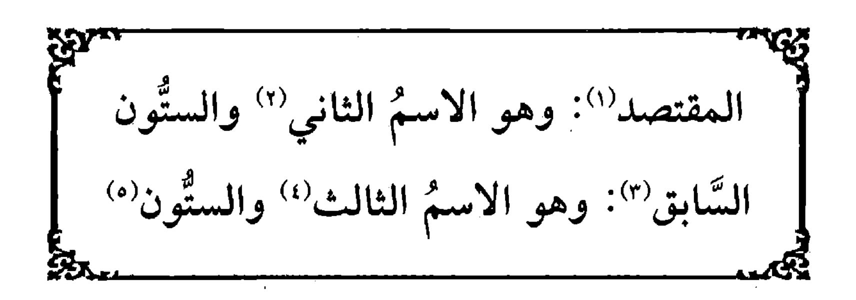
(٣) الموضع الأخر: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء:١٢٧].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الطب، باب السحر، رقم: (٥٧٦٣-طوق).

(٥) في (ك) و(ص): اجتهاد.

ولمَّــا قــال الله سـبحانه فــي بنــي إسـرائيل: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة:٦٨]، نشأ عنه اسمان مرتبطان، ذَكَرَهما الله في «سورة فاطر» في قولـه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢].

* * * * *



المقتصد[١]: وهو الاسمُ الثاني[٢] والستُّون السَّابق[٣]: وهو الاسمُ الثالث[٤] والستُّون[٥]

وقد كنَّا بالغنا في إيضاح معناهما واختلاف الناس فيهما في «مجالس أنوار الفجر»، بما قد حصَّله من حصَّله، وعند الله - إن شاء - أَجْرُه بفضله ورحمته.

والآن؛ فالإشارة فيه مُحَرَّرَةً أنَّ المفسرين اضطربوا فيها[٦] اضطرابًا كثيرًا، ونقلوا فيها أقوالًا عائرة، ونسبوها إلى أمة متقدمة وأخبار سابقة، ملؤوا منها القراطيس، وما قَرْطَسُوا منها غرضًا[٧].

والمتحصل:

أنَّ الظالم لنفسه: العاصي.

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ب): السَّادس والخمسون.

(٣) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٤) في (ب): السَّابع والخمسون.

(٥) في (ك): وهما الاسم الموفي الستين والحادي والستين، وفي (ص): وهما الاسم السَّابع والخمسون والثامن والخمسون، وضرب على «هما» في (د).

(٦) في (د): فيهما.

(٧) تنظر هذه الأقوال على كثرتها في: لطائف الإشارات: (٢٠٥/٣).

والمقتصد: الذي سار على قَصْدِ السبيل، ولم يضع النعمة في غير موضعها؛ بأن يستعمل ماله أو بدنه أو قلبه أو لسانه في غير طاعة الله.

والسَّابق[١] على قَصْدِ السبيل على قسمين؛ مسرع ومتباطئ، فالمسرع هو الذي يسبق إلى المحل ويحصل على المراد.

فهذه الثلاثة أصناف ممَّن[٢] اصطفى الله.

والاصطفاءُ هو افتعال من الصَّفاء، وهو إزالة الكدورات، فيزيلها على الإطلاق في الاعتقاد والقول والعمل للأنبياء، فيصفو ظاهرهم وباطنهم، وفي كُلِّهم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران:٣٣]، و﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٦]، فهذا غاية الصفاء، وأَوَّلُ الصفاء التخليص من كُدورة الكفر بخَلْقِ الإيمان في القلوب، فإن كان هنالك/ رَيْنٌ[٣] بالغفلة أو كدورة بالمعصية؛ لا يذهب نور الإيمان، ولا تخلَق بُرْدَتُه، ولا يتكدَّر صفاء التوحيد، وإن تكدَّرت جوانبه واخْلَوْلَقَتْ حَوَاشِيهِ. ٢ [٤٣/أ]

فأورث الله كتابَه الذي هو القرآن أو سائر الكتب -وإنَّها لفي القرآن- عبادَه المصطفين من العباد، وهم أمة مُحَمَّدٍ ﷺ، فلقد اصطفى نبيَّها ﷺ على الأنبياء، ولقد اصطفاها بحُرْمَتِه على سائر الأمم، حتى خَطَّطَها[٤] بالشهادة، وأمضى الحُكْمَ بقولها على سائر الأمم.

---

(١) في (ك) و(ب) و(ص): السائر.

(٢) في (ك) و(ب) و(ص): من.

(٣) في (ك) و(ب): عين، وفي (ص): غين.

(٤) في (ص): خصَّصها.

ومنهم ظالم لنفسه، وهو العاصي في الأعمال، وعَقْدُه سالم، ولا يصح أن يكون المنافق ولا الجاحد ولا الشاكَّ، قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء:١٠٩].

فقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءاً﴾؛ يعني: الكفر، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾؛ يعني: المعصية، ولا يصح قَوْلُ الناس: إن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: ابتداء كلام، أَمَا إِنَّه ابتداءُ كلام في العربية، ولكنه مرتبط بما قبله، والضمير في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ راجع إلى ما[1] تقدَّم ضرورة، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، وفيهم وقع التقسيم، ومن لم يَفْهَمْ هذا فليس من أهل العلم ولا التعليم، وفي هذه الآية بدائعُ كنَّا ذكرناها في «الأنوار»، منها:

[الأولى]: أن الميراث يكون بوجهين؛ بسَبَبٍ ونَسَبٍ، ولا نَسَبَ هاهنا، فلم يبق إلَّا السَّبب، وهو الإيمان[2].

قال أهلُ الزهد: «والميراث يُستحَق بوجهين؛ بالفرض والتعصيب، ويُبدأ بذوي الفروض لأنهم أضعف سببًا، كذلك بُدئ هاهنا بالظالم لنفسه، وقُدِّم على السَّابق وهو دونه، والتقدُّم في الذِّكْرِ لا يقتضي التقدُّم[3] في الرتبة، ولذلك نظائر كثيرة»[4].

---

(١) في (ك) و(ب) و(ص): من.

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٤).

(٣) في (ك) و(ص): التقديم.

(٤) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٤).

الثانية: قَرَنَ بقوله: «الظالم» ذِكْرَ نفسه إِذْلَالًا، وقال في السَّابق: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إِجْلَالًا، وقد يقال بفضل الله: يا ظالم لنفسه ارفع رأسك، ويا سابق لا تَطُلْ، فما كان لك فبإذن الله[١].

الثالثة: أنَّ العزيز إذا رأى ظالمًا قصمه، والكريم إذا رأى مظلومًا نصره[٢]، والعاصي في حَدِّ المظلومين، وإنَّما يكون الظالم عندهم من ظَلَمَ غيره وكَفَرَ[٣] بالله، فإن المعرفة أعظم من العبادة، ولذلك جازت النيابة في العبادة ولم تَجُزِ النيابة في المعرفة./ ٢ [٤٣/ب]

الرابعة: أنَّ الظالم من كثرت زلَّاته، والمقتصد من استوت حالاته، والسَّابق من زادت حسناته[٤].

الخامسة: قال أهل الزهد: «الظالم لنفسه من ترك الزلة، والمقتصد من ترك الغفلة، والسابق من ترك العلاقة»[٥]، يعني: فلم يرتبط من الدنيا بشيء، ولا مَدَّ عينيه منها إلى عَيْنٍ.

السَّادسة: «الظالم تارك الحرام، المقتصدُ تارك الشبهة، السَّابق تارك الفضل الزائد على الحاجة»[٦].

السَّابعة: قالوا: «للظالم المغفرة، وللمقتصد الرحمة، وللسَّابق المحبة»[٧]، والكلُّ يدخل الجنة وتتفاوت درجاتهم.

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٥).
(٢) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٥).
(٣) في (ك) و(ب) و(ص): أو كفر.
(٤) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٥).
(٥) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٥).
(٦) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٥).
(٧) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٥).

الثامنة: قال بعضهم: «الظالم طالب الدنيا، والمقتصد طالب العُقْبَى، والسَّابق طالب المولى»[١]، وكثير من الخلق قالوا: لا تُحَبُّ[٢] الجنة إلَّا لرؤية الله عزَّ وجلَّ، وعبَّر عن هذا بَعْضُهم في:

المنزلة التاسعة: فقال: «الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسَّابق طالب المناجاة»[٣]، وإلى الذي قبله تعودُ:

العاشرة: من «فوائد الشَّهِيدِ»: «إنَّ الظالم آمِنٌ من العقوبة، والمقتصد حائز[٤] المثوبة[٥]، والسَّابق فائز بالقُرْبَة»[٦].

قال الإمام الحافظ[٧] ﷺ: إن كان أراد بالعقوبة الخلود فصَدَقَ، وأمَّا غير ذلك فلا يصح؛ لأنه رَأْيُ المرجئة، وقد بيَّنَّا فساده في غير موضع.

الحادية عشرة: قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢]، وأيُّ فَضْلٍ - يا معشر المريدين - أعظمُ من مَوْلًى ذَكَرَ برحمته الظالم مع السَّابق[٨]، وكل ذلك برحمته لا باستحقاق، أمَّا الظالم فحَقِيقٌ بالعقوبة، وأمَّا المقتصد فيا لَيْتَها كانت سَلَامَةً، وأمَّا السَّابق فغيرُ آمِنٍ من المَلَامَةِ؛ لما عسى أن يكون ممَّا لم يَحْتَسِبْه.

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٦).

(٢) في (ك) و(د) و(ص): تجب.

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٦).

(٤) في (د): جائر.

(٥) في (ك) و(ص) و(د): بالتوبة، وضبَّب عليها في (د).

(٦) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٦).

(٧) في (ب): قال الإمام أبو بكر، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٨) لطائف الإشارات: (٣/٢٠٦).

يُحَقِّقُ ذلك كله قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر:٣٦]، فبيَّن حال الكفَّار؛ بعد حال الظالم والمقتصد والسَّابق، فدلَّ[1] على أنَّ الظالم لنفسه لا يكون منافقًا، ولا جاحدًا، ولا مُرْتَابًا؛ لأن كل هؤلاء كافر، وهذا بَيِّنٌ، والله أعلم.

السَّابق:

وقد بيَّن الله حالَ السَّابقين مُفْرَدِينَ، فقال: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٢]، بعد أن قدَّم عليهم غيرهم، كما قلنا: إنَّ ذلك لا يُصَيِّرُ في المرتبة،/ ولا يُوجِبُ عليهم سَبْقَ المنزلة، ووجوهُ السَّبْقِ لا تُحصى في الشريعة، جُمْلَتُها: التقدُّم بكل عمل، قبل كل أمل، اغتنامًا للمُهَلِ، فمنها: ٢ [٤٤/أ]

الأوَّل: السَّبْقُ بالإيمان، فهم السَّابقون إلى الجنان، ومُحَمَّدٌ أوَّلُ المسلمين، وأوَّلُ من يدخل الجنة؛ قال ﷺ: «آتي الجنة فآخُذُ بحلقة الباب فأُقَعْقِعُ، فيقول الخازن: من؟ فأقول: مُحَمَّدٌ، فيقول: بك أُمِرْتُ، أن لا أفتح لأَحَدٍ قبلك»[2].

الثاني: السَّابقون بالهجرة[3].

الثالث: السَّابقون بالنصرة.

الرَّابع: السَّابقون بالبيعة.

---

(١) في (د) و(ص): يدل.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم: (١٩٧-عبد الباقي).

(٣) لطائف الإشارات: (٥١٨/٣).

الخامس: السَّابقون إلى الخيرات[١].

السَّادس: السَّابقون إلى التوبة[٢].

السَّابع: من سبقت له الحُسنى؛ كما قال تعالى، فسبقوا إلى ما سبق لهم[٣].

الثَّامن: قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٣]، ولم يقل: «المتقربون»؛ لأنَّهم لم يكن ذلك منهم، وإنَّما كان بفضل الله لهم وبرحمته[٤]، وقد بيَّن النبي ﷺ الحقيقة في الطريقة، فقال: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل له: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا؛ إلَّا أن يتغمَّدني الله برحمته»[٥].

التَّاسع: قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٣ - ١٤]، ولم يقل: «من جنَّات النعيم»، وهذا يدلُّ على أنهم في الجنة مقرَّبون من أفضل مَن في[٦] الجنة[٧]، وذلك هو رضى الله، كما قدَّمنا في الحديث الصحيح من قوله تعالى لأهل الجنة: «أَلَا أُعطيكم أفضل منها؟ رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[٨].

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٥١٨).

(٢) لطائف الإشارات: (٣/٥١٨).

(٣) لطائف الإشارات: (٣/٥١٨).

(٤) لطائف الإشارات: (٣/٥١٨).

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) سقطت من (ك) و(ب).

(٧) لطائف الإشارات: (٣/٥١٨).

(٨) سبق تخريجه.

وقد أَفْرَدَ السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار بالذِّكْرِ، واختلف الناسُ فيهم على أقوال يَكْثُرُ إيرادُها، ذَكَرْنَا جُمْلَتَها في «أنوار الفجر»، وأشرنا إليها في كتاب «أحكام القرآن»[1] - القسم الثالث - قبل هذا، فليُنظر فيه.

ويُحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿وَالسَّـٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَـٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠١]: من تقدَّم في الهجرة؛ كالمهاجرين إلى الحبشة، ومن تقدَّم في النُّصْرَةِ؛ كالمُبايِعِينَ لَيْلَتَي[2] العَقَبة، والتَّابعون لهم بإحسان: من جاء بعدهم، وكلُّ ذلك مُتَقَصًّى في موضعه[3]، وهذا «سِرَاجٌ» يَدُلُّ عليه.

قال الإمام الحافظ[4] رضي الله عنه: وباجتماع هذه الأسماء في العبد إلى بلوغه إلى هذا المقام يكون «مَلِكًا».

* * * * *

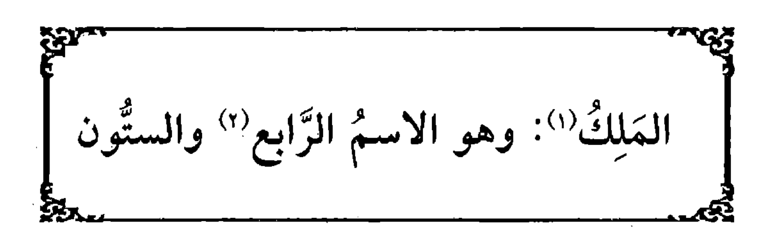
---

(١) أحكام القرآن: (٢/١٠٠٢).

(٢) في (ص): ليلة، وأشار إليها في (د).

(٣) ينظر: أحكام القرآن: (٢/١٠٠٤).

(٤) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ب): قال الإمام رحمه الله.



المَلِكُ[١]: وهو الاسمُ الرَّابع[٢] والستُّون

[٤٤/ب] وهو من الأسماء العظيمة القَدْرِ، وقد بيَّنَّاه في/ كتاب «الأمد الأقصى»[٣].

وحقيقتُه: القدرة على الإنشاء والإيجاد.

وفائدته: جواز التصرف على الإطلاق من غير قاطع ولا مانع.

فبالمقدار الذي مَكَّنَ له عنده من التصرُّف، وأجرى على يديه من الإنشاء، وجعله مَحَلًّا لأفعاله ومقاديره؛ سمَّاه «مَلِكًا»، ومعنى قدرته وتصرفه جريانُ أفعاله بين الجلب والدفع، وقطع الضر[٤] ووَصْلِ النفع.

وخاصيتُه: الأمر والنهي، وإيقاع الفعل بالغير[٥]، وذلك هو لله بالحقيقة، ولنا بالمجاز.

ومن شَرْطِ كَوْنِ المَرْءِ مَلِكًا[٦] «الحُرِّيَّةُ».

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الثاني والستون، وفي (ص): التاسع والخمسون، وفي (ب): الثامن والخمسون.

(٣) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٣١٨-٣٣٣).

(٤) في (د): الضرر.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): في الغير.

(٦) في (ك) و(ص): مالكًا.

الحُرُّ[١]: وهو الاسمُ الخامس[٢] والستُّون

وحقيقتُه: ألَّا يكون لأحد عليه رِقٌّ ولا مِلْكٌ إلَّا لله وحده؛ فلا يكون عبدًا لأرباب الدنيا، ولا لزُخْرُفِها[٣]، ولا لزَهْرَتِها، ولا نعيمها، ولا لباسها، ولا دينارها، ولا درهمها، فإنَّ الكل من هذه الأعيان بَلِيَّةٌ، فإذا ربط بها نفسه انتكس، وفيه قال النبي ﷺ: «تَعِسَ عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفَةِ، تعس عبد الخَمِيصَةِ»[٤]، حسب ما تقدَّم ذِكْرُنا له.

فإذا لم يَذِلَّ، ولا تعلَّق[٥] قلبُه بأحد، ولا استخدم لسانه في الثناء على أحد، ولا استعمل جوارحه في خدمة أحد، إلَّا بالله، ولله، وفي الله؛ كان عبدًا لله، وصحَّت له الحرية عند الله، والعِتْقُ من النار، والنجاة من العذاب، وصار من خِيَارِ الخَلْقِ، وإن كان عبدًا لعَبْدٍ كان شَرَّ العبيد.

فإذا خَلَّصَ نفسه - كما قال يحيى بن زكرياء في الحديث المتقدم - تَرَقَّى[٦] بعد ذلك إلى التَّمَلُّكِ، فأوَّلُ درجات المُلْكِ مِلْكُه لرعيته المختصة

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ب): التاسع والخمسون، وفي (ص): المُوَفِّي ستين، وفي (ك): الثالث والستون.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): لزخرفتها.

(٤) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الأول.

(٥) في (د): يتعلق.

(٦) في (ك): يرقى.

به، وهي جوارحه وحواسُّه، وضَمُّ نَشَرِ جُنْدِه، وهم غضبُه وشهوتُه وهواهُ، فإذا صرَّف هذه الأجناد في هذه الرعيَّة بحُكْمِ الشَّرْعِ ونُورِ العَقْلِ، وأطاعته الرعيَّة، وتصرفت الأجناد على مقتضى أَمْرِه ولم تَمْلِكْهُ، واستولى عليها ولم تغلبه؛ فهو مَلِكُ ذَاتِه.

فإذا مَلَكَ نفسَه طلب بعد ذلك النظر في مِلْكِ غير نفسه وتصريفها كما يجب[1]، وإلى هذا المعنى وقعت[2] الإشارة بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف:١٠١].

[من محامد يوسف عليه السَّلام]:

قال علماؤنا: «فذَكَرَه بلفظ ﴿مِنَ﴾؛ التي هي للتبعيض في رأي الضعفاء، ولابتداء الغاية في رأي الأقوياء، فيُوسُفُ أُوتِيَ بعض المُلْكِ على رَأْيِ أولئك، وأُوتِيَ ابتداءَه على رأي الآخرين»[3]./ [٢/٤٥أ]

ليدُلَّ بذلك على أنَّ المُلْكَ بالكمال لله، والمُلْكُ الذي أَعطى للعباد سبحانه قسمان: ظاهر، وباطن.

فالمُلْكُ الظاهر: الولاية.

والمُلْكُ الباطن: مِلْكُه لنفسه[4].

حين راودته امرأة العزيز وهي مَلِكَةٌ، مَالِكَتُه سيدة جميلة عَطِرَةٌ، في خَلْوَةٍ وأَمْنٍ، ففَرَّ منها ولم يلتفت إليها، ولا داناها ولا قاربها، وخرج

---

(١) في (ص): يحب.

(٢) في (د): وقفت.

(٣) لطائف الإشارات: (٢/٢٠٩).

(٤) لطائف الإشارات: (٢/٢٠٩).

مُعْرِضًا ناظرًا لنفسه في الخلاص من الإثم والخيانة لله وللصَّاحب، وخَوْفًا من سوء العاقبة في ارتكاب ذلك، ولم يُبَالِ بمعاقبتها على خلافه لها ما كانت، ألا ترى إلى قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]، فَرَضِيَ بالسجن، ولم يرض بدناءة الزنى والخيانة، وهذا هو المُلْكُ بالحقيقة.

وقد قال بعض المريدين لبعض العارفين: «أوصني، فقال له: كُنْ[١] مَلِكًا في الدنيا، مَلِكًا في الآخرة».

والمعنى في مُلْكِ الدنيا ما شرحناه، وإذا كان كذلك تَنَقَّلَ[٢] إلى مُلْكِ الآخرة، الذي قال الله فيه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان:٢٠].

وكان قَوْلُ يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ بعد أن ألقى إليه المَلِكُ أَمْرَ مصر حين قال له: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]، وإنَّما سأله في ذلك لوجهين:

أحدهما: أنه قد كان قال المَلِكُ: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف:٥٤].

الثاني: أنه سأله في ذلك ليضع الحق موضعه، ويُوصِلَ إلى كل أحد حقَّه المحبوس عنه[٣].

---

(١) في (ص): لتكن.

(٢) في (ك): ينقل.

(٣) لطائف الإشارات: (٢/١٩٠).

ولم يطلب ذلك لنفسه، وقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، ولم يقل: «جميل صَبيح»؛ ليُعْلِمَ أن الفضل في المعاني لا في الصُّوَرِ[١]، قال النبي ﷺ: «إنَّ الله لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالكم، وإنَّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢].

الفائدة العظمى:

إنَّ الله سبحانه استخلف الخلق كلهم من آدم وذريته في الأرض بنَصِّ القرآن والسنة، قال النبي ﷺ: «إنَّ الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون»[٣]، فكل أحد من هذه الذرية - بيده ناقة تُقِلُّ[٤] أو مُلْكُ الأرض - خليفةٌ على ما في يده، ينظر الله إليه[٥] كيف عمله فيها؛ بما أمره به أو نهاه عنه، ولذلك قال النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكلكم مسؤول عن رَعِيَّتِه»[٦].

[٤٥/ب] والخَلْقُ على قسمين: رُعاة،/ ورَعيَّة، فالعلماء رُعاة، والجهَّال رعية.

والعلماءُ خلفاءُ؛ آتاهم الله عِلْمَه، وردَّ الخلق إليهم فيما علموه ليسألوهم، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وقال النبي ﷺ: «إنَّما شفاء العِيِّ السؤال»[٧]، والغباوة تنكشف بالجواب.

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/١٩٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم: (٢٧٤٢-عبد الباقي).

(٤) في (ك) و(ص): باقة بقل، وفي (ب): تافه يقل، وأشار إليها في (د).

(٥) سقط من (ص) و(د).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) سبق تخريجه.

والأنبياءُ ينابيعُ العلم وأصولُ الخلافة، والعلماء بعدهم ورثتهم، ينزلون منزلتهم، ويتكلَّمون بألسنتهم، ويُبَلِّغُونَ ما أَلْقَوا إليهم ممَّا أنزله ربُّهم عليهم.

ومَلِكُ مِصْرَ كان قد استأثر على الخلق، وعَدَلَ عن الحق، ولم يُطْلِقِ الله يوسفَ عليه، بل جعله في سجنه لما عَلِمَ من حُكْمِه، فلمَّا أخرجه من السجن و تخلَّى له عن الأمر رجع الحقُّ في نصابه، واستقرَّت الولاية في دَسْتِها بتخلِّي الغاصب لها عنها، فرجعت إلى مستحقها.

[السببُ الذي جعل العلماء يقبلون الولايات]:

ولهذا قَبِلَ العلماءُ الولايات من الولاة الذين لا يعدلون، لا على معنى النيابة عنهم، ولكن لأنَّ الله ولَّاهم الفُتْيَا والقضاء بينهم، والهداية والإرشاد لهم، فإذا منعهم وَالٍ أو تعدَّى عليهم آمِرٌ قَبَضُوا أنفسهم، وسمعوا وأطاعوا، حتى إذا تخلَّى لهم وتمكَّنوا لم يكن لهم عُذْرٌ إن لم يقبلوا، وليعدلوا فليُعْزَلُوا؛ فيكونوا قد وَفَّوا بعهد الله، وعملوا بولاية الله، ويَنْفُذُ بعد ذلك من القَدَرِ ما شاء الله، فأَفْتَوا بخلافة الله، وقَضَوا بولايته.

[المُوفُون بالعهد]:

وممَّن وَفَى بما عاهد[١] عليه الله من المتقدمين أَنَسُ بن النَّضْرِ؛ عَمُّ أَنَسِ بن مالك، غاب عن بَدْرٍ فقال: «غِبْتُ عن أوَّل قتال النبي ﷺ، لئن أشهدني الله مع النبي ليَرَيَنَّ الله ما أصنع أو ما أجد[٢]»، فَلَقِيَ يوم أُحُدٍ؛ فهُزِمَ الناس، فقال: اللهم إنِّي أعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء - يعني: المسلمين -،

---

(١) في (د): عهد. (٢) في (ب): أحد.

وأبرأُ إليك ممَّا جاء به المشركون، فتقدَّم بسيفه، فلَقِيَ سعدَ بن معاذ فقال: أي سعد؛ إني أجد ريح الجنة دون أُحُدٍ، فمضى فقُتِلَ، فما عُرِفَ حتى عرفته أخته ببنانه أو بشَامَةٍ، وبه بِضْعٌ وثمانون؛ من طعنة، وضربة، ورمية بسَهْمٍ»[١]، صحيحٌ صحيحٌ.

وممَّن أَوْفَى بعهده من المتأخرين أبو حمزة الخراساني، من شيوخ الصوفية، سمع أنَّ ناسًا بايعوا رسول الله ﷺ على أن لا يسألوا أَحَدًا شيئًا، فكان أحدُهم إذا وقع سوطه لا يسأل أحدًا رَفْعَه إليه، فقال أبو حمزة: ٢ «ربِّ[٢] إنَّ هؤلاء عاهدوا نَبِيَّك إذ رَأَوْه، وأنا أعاهدك ألَّا أسأل أحدًا/ [٤٦/أ] شيئًا أبدًا، قال: فخرج من الشام يريد مكة، فبينما[٣] هو يمشي في الطريق بالليل إذ بقي عن أصحابه لعُذْرٍ ثم اتَّبعهم، فبينما[٤] هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق، فلمَّا حصل في قعره قال: أستغيث لعلَّ أحدًا يسمعني فيُخرجني، ثم قال: إنَّ الذي عاهدته يراني ويسمعني، والله لا تكلَّمت بحَرْفٍ لبَشَرٍ، ثمَّ لم يلبث إلَّا يسيرًا إذ مرَّ بذلك البئر نَفَرٌ، فلمَّا رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سَدُّ هذا البئر، ثم قطعوا خشبًا ونصبوها على فَم البئر، وغَطَّوها بالتراب، فلمَّا رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، فأراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله لا أخرج منها أبدًا، ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس الذي عاهدتُ يرى ذلك كله؟ فسكت وتوكَّل، ثم أسند في قعر البئر مُفَكِّرًا في أمره، فإذا بالتراب يقع عليه، والخشب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب المغازي، باب غزوة أُحُدٍ، رقم: (٤٠٤٨-طوق).

(٢) لم يرد في (ك).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): فبينا.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): فبينا.

تُرفع، وسمع في أثناء ذلك من يقول: هات يدك، قال: فأعطيته يدي، فأقلعني[١] في مرة واحدة إلى فَم البئر، فخرجتُ ولم أر أحدًا، ثم سمعتُ هاتفًا يقول: كيف[٢] رأيت ثمرة التوكل؟»[٣]، وأنشد:

نهاني حيائي منك أن أكتم الهوى ... وأغنيتني بالعلم منك عن الكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ في أمري فأبديتَ شاهدي ... إلى غائبي واللُّطْفُ يُدرك باللُّطفِ
تَرَاأَيْتَ لي بالعلم حتى كأنَّما ... تُخَبِّرُني بالغيب أنَّك في كَفِّ
أراني وبي من هيبتي[٤] لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعَطْفِ
وتُحْيِي مُحِبًّا أنت في الحبِّ حتفُه ... وذا عَجَبٍ كَوْنُ الحياة مع الحَتْفِ[٥]

فهذا رجلٌ عاهد الله؛ فوجد الوفاء على التمام والكمال فيه، فاقتدُوا - إن شاء الله - تهتدُوا.

وكما أن المَلِكَ لا يقدر على التصرف في جميع الأمور إلَّا بنائب، وعليه أن يختار من ينوب عنه، فعلى العبد ألَّا يستخدم بجارحة إلَّا أن تكون صالحة للنيابة، فإن لم تكن صالحة فلا يَسْتَنِبْها في خدمة.

وقد غلا بعضُ الصوفية في ذلك، حتى قيل له - حين أطال الصمت -: «اذكر الله، فقال: ومثلي يذكره؛ ولم أغسل فمي بألف توبة متقبلة»[٦].

---

(١) في (ب): فاقتلعني.
(٢) سقط من (د).
(٣) رسالة القشيري: (ص٢٠٣).
(٤) في (ص): همتي.
(٥) من الطويل، وهي لأبي حمزة الخراساني، في الرسالة القشيرية: (ص٢٠٣)، والحلية: (١٠/٧٨).
(٦) رسالة القُشَيري: (ص٢٥٦).

٢ وكأنه رأى أنَّ الفرض لا بد له منه، وإنَّما هرب من نَفْلِ الذِّكْرِ لِمَا كان يَعْلَمُ من نفسه/ من التقصير في الغفلة أو في المخالفة. [٤٦/ب]

وغلا آخرون في الطَّرَفِ الآخر، فقيل له: اذكر الله، فقال:

الله يعلم أني لست أذكره وكيف يذكره من ليس ينساهُ[١]

واعتذر الآخَرُ فقال:

ما إن ذكرتُك - إِلَاهُمَّ - يلعنني قلبي وسِرِّي وروحي[٢] عند ذكراكَا

حتى كأنَّ رقيبًا منك يهتف بي إيَّاك - وَيْحَك - والتَّذْكار إيَّاكَا[٣]

وقال بعضُهم:

عجبتُ بأن يقول: ذكرتُ ربي وهل أنسى فأذكرُ ما نسيتُ

أموت إذا ذكرتك ثم أحيى ولولا حُسن ظني ما حييتُ

فأحيى بالمُنى وأموت شوقًا فكم أحيى عليك وكم أموتُ

شربتُ الحُبَّ كأسًا بعد كأس فما نَفِدَ الشرابُ ولا رَوِيتُ

فليت خيالكم نَصْبٌ لعيني فإن أبصرتُ غيركم عَمِيتُ[٤]

ولو كان لمُلْكِ الدنيا رَسْمُ الجلالة على الإطلاق ما خَطَّطَ الله به الكافر، ولا سمَّى به المشرك الجاحد، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٧]، إلَّا أنه قد قال قَوْمٌ: «إنَّ

---

(١) مرَّ تخريجه في السِّفْرِ الثاني.

(٢) في (ب): جوارحي ولساني، وفي (د): جوارحي وفؤادي.

(٣) مرَّ تخريجه في السِّفْرِ الثاني.

(٤) من الوافر، وهي في البداية والنهاية: (١٥/١٨٠-التركي)، وبعضها في الرسالة القشيرية: (ص١٠٨).

المراد بقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: إبراهيم؛ لأنه أُعطي النبوة والخُلَّةَ، وهي: المُلْكُ الحقيقي».

وهذا لا يشهدُ له ظاهر الكلام، ألا ترى كيف فسَّر المُحَاجَّةَ التي أخبر عنه بها بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فادَّعى ذلك لنفسه ابتداءً، ولم يقل: «وأنا أحيي وأميت»، بل ابتدأ ذلك لنفسه، وكأنَّ هذا القائل فَرَّ من تسمية الكافر بالمَلِكِ، والله قد سمَّاه به نصًّا في «سورة يوسف» كما قدَّمناه.

كما أخبر عنه باسم «العزيز»، وهو من أسماء الله سبحانه، ولكنه سبحانه ذو العِزَّتَيْنِ؛ الإلَهية التي بها كان عزيزًا، والعزة المخلوقة، ولله العزة جميعًا:

الأولى: بحُكْمِ الصفة[1].

والثانية: بحُكْمِ الخِلْقَةِ[2].

كما أنَّه سبحانه ذو الرحمتين:

[**الأولى**]: رحمة هي صفة ذاتية أوَّلية[3].

[**والثانية**]: ورحمة أخرى خَلَقَها وجعلها مائة جُزْءٍ؛ بثَّ منها في الخلق واحدة، فبها يتراحمون، وبها ترفع البهيمةُ حافرها عن ولدها[4]،

---

(١) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٣٥٩).

(٢) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٣٦١).

(٣) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٨٧).

(٤) مضى تخريجه.

والتسعة والتسعون عنده، فإذا كان يوم القيامة أخذ الرحمة من الخلق وأضافها إلى التسعة والتسعين؛ وبثَّها في الناس[١].

[أعظمُ اسم لله هو «الله»]

٢ [٤٧/أ] والذي تَوَحَّدَ به الباري سبحانه اسمُ «الله»؛ فإنه انفرد به ذِكْرًا، وقَبَضَ عنه ألسنة الخَلْقِ/ تعجيزًا؛ بما[٢] استوجبه وأوجبه من التقديس والتنزيه[٣].

فأعظمُ اسم[٤] لله هو «الله»، وأعظمُ اسم المخلوق هو العَبْدُ، وإذا استخلص الله عبدًا لم يُبْقِ للحظوظ فيه البتة شيئًا، والمَلِكُ يكون مَلِكًا جَارَ أو عَدَلَ، لا تذهب الاسمية عنه لوجود معناها فيه؛ من التصرف في الخلق، والحُكْمِ بالأمر، ولكنه يكون اسمه في الدنيا مع الجور وَبَالًا، ويكون مع العدل إحسانًا وإفضالًا، وتماديًا لا يخاف عليه زوالًا.

[طاعةُ الأمير]:

قال النبي ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، ولو أُمِّرَ عليكم عبد حبشي له زبيبتان»[٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ص) و(ب): إنما.

(٣) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢٣٧/١).

(٤) في (د): في خـ: أسماء الله.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم: (٧١٤٢-طوق).

وقال: «سَتَلِيكُمْ أُمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: صلُّوا في بيوتكم لوقتها، وصلُّوها معهم»[١].

وقال: «إنهم يحرمونكم حقوقكم، فأدُّوا الذي لهم، واسألوا الله الذي لكم»[٢].

فلم ير ﷺ[٣] خَلْعَ يَدٍ من طاعة؛ ولو ظلموا وخالفوا السُّنَّةَ.

وقال ﷺ: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصى أميري فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله»[٤].

* * * * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم: باب كراهة تأخير الصلاة عن وقتها المختار، رقم: (٦٤٨-عبد الباقي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أُمورًا تنكرونها»، رقم: (٧٠٥٢-طوق).

(٣) في (ك): صلى الله عليه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الأحكام، رقم: (٧١٣٧-طوق).

الأَمِيرُ(١): وهو الاسم السَّادس(٢) والسِّتُّون

وهو: فَعِيلٌ من أَمَرَ، على معنى المبالغة في أَمَرَ، وهو الذي يأمر وينهى فتلزم طاعته، وسُمِّي بالأمير ولم يُسَمَّ بالنَّاهي لأنَّ(٣) الأَمْرَ سَبَقَ فينا قبل النهي؛ فإنَّ الله أمر إبليس بالسُّجُودِ لآدم قبل أن يَنْهَى آدمَ عن الشجرة، فوقع الابتلاءُ بالأمر قبل النهي؛ فلأجل ذلك قُدِّمَ عليه في الذِّكْرِ.

[الأمراءُ هم العلماء]:

وقد كان الأمراءُ قَبْلَ اليوم وفي صَدْرِ الإسلام هم العلماء، والرعيَّة هم الجند، فاطَّرَدَ النِّظَامُ وظهر دين الإسلام، وكان القَوام والقِوام، ثم فَصَلَ الله الأمر لحِكْمَتِه(٤) البالغة وقضائه السَّابق، فصار العلماءُ فريقًا، والأمراءُ آخَرَ، وصارت الرعية صِنْفًا(٥)، وصار الجندُ آخَرَ، فتعارضت الأمور، ولم ينتظم حال الجمهور، وخرج الناس عن الطريق، ثم أرادوا الاستقامة - بزعمهم - فلم يجدوها، ولن يجدوها أبدًا؛ فإنَّ(٦)/ [٤٧/ب] من المُحال أن يبلغ المَقْصَدَ من حاد عنه، وإن عُمِّرْنا فسَنُبَيِّنُ ذلك إن شاء الله(٧).

---

(١) في (ص) و(ك) و(د): والأمير.

(٢) في (ك): الرابع، وفي (ص): الحادي، وفي (ب): الموفي ستين.

(٣) في (ص) و(ك) و(ب): فإن.

(٤) في (ص) و(ب) و(ك): بحكمته.

(٥) في (د): ضيعًا.

(٦) في (ص) و(ب) و(ك): فإنه.

(٧) ولعله يكون في السياسة الشرعية، وهو القسم الخامس من علوم القرآن، ولم يبلغنا عن الإمام أنه شَرَعَ فيه أو تمَّمه، والعِلْمُ عند الله.

[افتقارُ الأمير إلى العدل والبطانة الصالحة]:

وقد فاتَ الأميرَ اليوم[١] العَدْلُ، وفاتته الوسائط والبطائن؛ التي قال النبي ﷺ: «ما بعث الله نبيًّا ولا استخلف من خليفة إلَّا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضُّه عليه، والمعصوم من عَصَمَ الله»[٢].

وروى البخاري عن أبي هريرة: «أنَّ أعرابيًّا قال للنبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظر السَّاعة، قال: وما إضاعتها؟ قال: إذا أُسْنِدَ الأمر إلى غير أهله»[٣].

وذلك أنَّ الخَلْقَ والدِّينَ أمانةُ الله، فإذا قُدِّمَ من لا يكون أهلًا للقيام عليها والنظر فيها فقد ضُيِّعَتْ.

وقال النبي ﷺ: «وزيراي من أهل السماء جبريل وميكائل، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر»[٤].

ورَوَتْ عائشةُ أن النبي قال: «من وَلِيَ عملًا فأراد الله به خيرًا جعل له وزيرًا صالحًا؛ إن نَسِيَ[٥] ذكَّره، وإن ذكر أعانه»[٦]، خرَّجه النسائي[٧].

---

(١) في (ص): العزم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته، رقم: (٧١٩٨-طوق).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم: (٦٤٩٦-طوق).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٣٦٨٠-بشار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب».

(٥) في (د): نسيني.

(٦) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب البيعة، وزير الإمام، رقم: (٧٧٧٩-شعيب).

(٧) سقط هذا الحديث من (ك) و(ص).

ووزيرُ القلب العَقْلُ، وهي إحدى بطانتَيه، والبطانة الأخرى الشهوة.

وقيل: «إن بعض الملوك قال لبعض الصِّدِّيقِين: ألك حاجة؟ قال: ولي تقول ذلك؟ ولي عبدان هما سَيِّدَاكَ؛ الحرص والهوى»[1].

[أبو الطيِّب اليمني الزاهد]:

وما رأيتُ في رحلتي مَلِكًا إلَّا أبا الطيِّب اليَمَنِيَّ[2] الزَّاهد؛ فإنه كان مَلِكًا؛ اعتزل الناس كافَّة، واعتكف دائمًا، وتجرَّد عن الدنيا، وقطع العلائق، واقتصر على جِلَفِ الخبز والماء، يأتدمُ بالزيت، لا يأكل شيئًا مَرَّتْ عليه يَدٌ، ولا استولى عليه أَحَدٌ بمِلْكٍ، إنَّما كان في أيام القيظ[3] يخرج إلى «الفَحْصِ»[4] في الأرض التي لا مِلْكَ لأَحَدٍ عليها، فيجمع الخِطْمِيَّ ثم يدرسه، ويستخرج بَزْرَه[5] ويدَّخره، ويطحنه ويصنع منه خُبْزًا ويأكله، ويبتاع من تُجَّارِ الرُّوم الزيت يأتدمُ به، وكان يتوخَّى ذلك كله لغلبة الحرام وعمومه لما في أيدي الناس، فكنتَ تراه شَعِثًا قَضِفًا[6] نَيِّرًا.

---

(١) شرح أسماء الله الحسنى لأبي القاسم القُشَيري: (ص٧٥).

(٢) في الأحكام (٦٣٩/٢): سعيد المغربي، ولعله تصحيف، وفي بعض نسخ الأحكام: سعيد العربي، وكذلك هو في المنشور من القبس: (١١٥٥/٣)، وكذلك هو في نسخة نور عثمانية من القبس، وذُكِرَ هنالك ما ذُكِرَ هنا من طريقته في طلب الحلال، ولم أقف له على ترجمة تفيد في معرفته وتجلية أمره، والله أعلم.

(٣) في (ك): القيض.

(٤) الفحص: خارج البلد، والأحواز التي تليه وتجاوره، وينظر في معناه أيضًا: تاج العروس: (٦٤/١٨).

(٥) في (ك): بذره.

(٦) في (ص): قصفًا.

[الأميرُ أمينٌ]:

وروى الحُفَّاظُ عن أم هانئ: «أنَّ النبي ﷺ قال: الصائم المتطوع أميرُ نفسه، إن شاء صام وإن شاء أفطر»(١).

وقد رُوي: «أمين نفسه»(٢)، رُوِّينَاهُ من طريق الدارقطني وغيره.

وإنَّما جعله أمينًا لأنَّ الشَّرْعَ فوَّض إليه ذلك، ولم يُلْزِمْهُ إيَّاه إلزامًا، وهو مذهبُ أكثر العلماء.

[الامتنانُ بالمُلْكِ]:

٢ [٤٨/أ]

وقد قال/ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٢]، فذكَّرهم نِعَمَه، وقرَّرهم على ما أسدى إليهم من مِنَّتِه(٣)، ومن جملتها: أنه جعلهم مُلُوكًا بعد أن كانوا مملوكين، قادرين بعد أن كانوا مستضعفين عاجزين؛ لمَّا صبروا على البلاء أُتِيحَتْ(٤) لهم النعماء.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب الصيام، الرخصة للصائم المتطوع أن يفطر، رقم: (٣٢٨٨-شعيب).

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن: كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام التطوع والخروج منه قبل تمامه، رقم: (٢٢٢٢-شعيب)، والترمذي في جامعه: أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إفطار الصائم المتطوع، رقم: (٧٣٢-بشار).

(٣) في (ص) و(ب) و(ك): مِنَنِه.

(٤) في (د): انتخبَ، وفوقها: في خـ: فتحت.

وقد بيَّن ذلك تعالى بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥]، فَمَنَّ عليهم بالتخليص من أيديهم، وجعلهم أئمة يهتدي بهم الخلق، وبارك في أعمارهم فجعلهم وارثين، ومكَّن لهم في الأرض بأن بدَّلهم من الخوف أَمْنًا، وأَرَى فرعون وقومه ما كانوا يحذرون[١].

والباري لا بدَّ أن يُعطي، والخلق بجهلهم يعتقدون أنه يُبطئ، وهو يُمهل ولا يُهمل، ويكون الذي يريد في وقته؛ إبطاءً أو تعجُّلًا[٢]، وأعطاهم ما لم يُعط أحدًا من العالمين[٣].

ومن فوائد «أبي سَعْدٍ[٤] الشهيد»:

[**الأوَّل**]: قال: إنَّ الأمر لبني إسرائيل بالذِّكْرِ للنِّعَم كان[٥] على لسان نبيهم، وكان الأمرُ لهذه الأمة بخطاب الله لهم لا على لسان مخلوق، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٦] [البقرة:١٥١].

الثاني: أنَّ الله أمر بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله[٧]، وأمرنا أن نذكره، وشتَّان بين المَذْكُورَيْنِ، وإن كانت النِّعَمُ منه[٨].

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٥٤).

(٢) في (ك): أبطأ أو تعجل.

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٥٤).

(٤) في (ص) و(ب) و(ك): سعيد.

(٥) سقط من (ص) و(ب) و(ك).

(٦) لطائف الإشارات: (١/٤١٥).

(٧) في (ص) و(ب) و(ك): نعمه.

(٨) لطائف الإشارات: (١/٤١٥).

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً﴾؛ وقد بيَّنَّا لكم أنَّ المَلِكَ من مَلَكَ هواه، والعبد من هو في رِقِّ شهواته وأَسْرِ لذَّاته[١].

وقيل: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً﴾: لم يُحوجكم إلى أمثالكم، ولم يَحْبِسْكُمْ عنه بأشغالكم، وسهَّل سبيلكم إليه في عموم أحوالكم[٢]، وهي: **الثالثة**.

الرَّابعة: أنه قال: ﴿وَءَاتَيٰكُم مَّا لَمْ يُؤتِ أَحَداً مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إذا نظرتم كل ما آتاهم فأضعافه آتاكم.

ومن ذلك قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة:٢٣]، وهي: **الخامسة**.

فإن كان أورثهم الأرض المقدَّسة ومصر؛ فقد أَوْرَثَنا الأرضَ كلَّها، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فعَلِمَ الله وقدَّر/ وأراد، وتكلَّم وكتب[٣]. ٢ [٤٨/ب]

فأمَّا العِلْمُ والقدرة والإرادة والكلام؛ فذلك واجبٌ له كسائر صفاته العُلَى الذاتية.

وأمَّا الكتابة فهو الغني عنها، وله الحكمة البالغة فيها، وكلُّ ذلك علَّمه بفضله لنا، وأَلْقَى أُنْمُوذَجًا منه عندنا، وخصَّ هذه الأمة بالأرض، وقال النبي ﷺ: «زُوِيَتْ لي الأرض فأُرِيتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ مُلْكُ أمَّتي ما زُوِيَ لي منها»[٤].

---

(١) لطائف الإشارات: (٤١٥/١).

(٢) لطائف الإشارات: (٤١٥/١).

(٣) لطائف الإشارات: (٤١٦/١).

(٤) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الأوَّل.

وقال تعالى لنا - رأفة وامتنانًا، ورحمة وإحسانًا -: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٦]، فسهَّل لنا وذلَّل، وبنُو إسرائيل صعَّب عليهم وعلَّل(١).

[حديثُ ابن العربي عن رحلته وما لَقِيَه من أهل بلده]:

وقد قال الله سبحانه للنبي ﷺ(٢): ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وأنا أحمدُ الله إليكم، وأشكره لديكم، وأُثني بآلائه عليَّ عندكم، وأُحَدِّثُ بنِعَمِه عندي بين ظَهْرَانَيْكُمْ:

خرجتُ سنة خمس وثمانين وأربع مائة في طلب العِلْم؛ وبُرْدُ الشَّباب قَشِيب، وكأس الفتوة قَطِيب، وغصن الأماني رَطِيب، ودَوَّخْتُ من الأندلس إلى العراق، فِعْلَ الصفَّاق الأَفَّاق، وأَنَخْتُ بكل(٣) حضرة، في عيشة نَضِرة؛ دين قائم، وبؤس نائم، وأُكْلٌ دائم، وأمن مُتَّصِل، وبِرٌّ وإكرام غير منفصل، وعِلْمٌ جَمٌّ، وإقبال عَمٌّ، وعلماء رُفَعاء؛ بُحُورٌ زاخرة، وأنجم زاهرة، وملوك جَمَعَ الله فيهم الدين والدنيا، وأطاب بحراهم(٤) الممات والمحيا، تفيض أيمانُهم(٥) على الضيف، ويأمن جارُهم من الحيف، أبصارهم عن المعايب مغضوضة، والمحاسنُ بعين المَبَرَّةِ لديهم ملحوظة، فأَقَمْنَا مع كلا الطائفتين في دَوْحٍ وارفة الظلال، وقَطَفْنا ثَمَرَ الأماني متصلة

---

(١) لطائف الإشارات: (٤١٦/١).

(٢) قوله: «للنبي ﷺ» لم يرد في (ص) و(ب) و(ك).

(٣) في (ك): في كل.

(٤) في (د) - أيضًا -: بطيبهم.

(٥) في (د) - أيضًا -: بركاتهم.

الإقبال، وقطعنا الزمان بالنظر في العلم، فجمعنا فنونه، وانتقينا عيونه[١]، ونثلنا مكنونه، وفضضنا خِتامه، ومَلَكْنا زِمامه، فصرَّفناه تصريف الأفعال، ودفعنا به في نَحْرِ المُحال، وشددنا عليه يد المِحال، ورجعنا منه بملْء الحقائب، ومُنْيَةِ الراغب، وحسرة الخائب، وغُصَّة المُجانب، ونحن نسأل الله أن يرزقنا العَمَل، ويُبَلِّغَنَا فيه الأَمَل؛ برحمته.

ثم عُدْنَا نَنْوِي الحقَّ الذي حصَّلنا، ونعتقدُ القيام بالقِسْطِ الذي فصَّلنا، فألفينا قلوبًا متناكرة، وأخلاقًا متنافرة، وأرواحًا لم تلتق في سبيل المعرفة، فتأتلف على أكرم خُلُقٍ وأحسن صفة، بل هي أمة أكثرُها عن الواضحة ناكبة، تَقْسِطُ[٢] فيما فَرْضُها أن تُقْسِطَ[٣]، وتَعْدِلُ[٤] عمَّا/ يلزمها فيه أن تَعْدِلَ، في جميع أحوالها؛ عقائدها، وأقوالها، وأفعالها، وهو: ٢ [٤٩/أ]

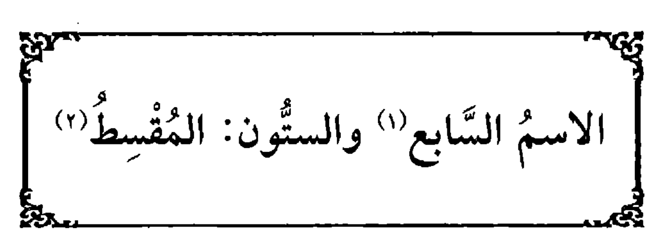
* * * * *

(١) في (ص) و(ب) و(ك): اعتمنا.

(٢) تَقسط: تَجُورُ.

(٣) تُقسط: تعدل.

(٤) تعدل: تميل.



وهو العادل، وقد تقدَّم تفسيره(٣).

تقول العرب: قَسَطَ: جار.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥].

وتقول العرب - أيضًا -: أَقْسَطَ: عدل.

قال النبي ﷺ: «المقسطون يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»(٤).

[قولُه تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾]

وقد قال الله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

ومعنى قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: عَلِمَ الله وأخبر، وذلك في الأزل(٥) من غير أمد، وأبلغه إلينا على لسان رسوله، ونَصَبَ عليه البراهين، ووضع الأدلة المفضية إلى اليقين، وأوضح الآيات، وأبدى البينات، وأيَّد

---

(١) في (ص): الثاني، وفي (ك): الخامس.

(٢) في (ب): «المقسط: وهو الاسم الحادي والستون».

(٣) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٢٩٤).

(٤) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الأوَّل.

(٥) في (ص) و(ب) و(ك): الأوَّل.

بالواضحات المعجزات، فكلُّ جُزْءٍ خَلَقَ وفَطَرَ، وأخرج من العدم وأظهر، وكان على ما أراد من الصفات من أغيار[١] مُستقبِلة، وآثار مُذَلَّلَةٍ، وأعيان[٢] قائمة ومضمحلَّة، وذوات متلاقية[٣]، وصفات في المحال متعاقبة، فذلك كله بوجوده مُفْصِحٌ، ولربوبيته[٤] مُوَضِّحٌ، وعلى عَدَمِ أوَّليته شاهد، ومُخْبِرٌ للعقول بأنه واحد، عزيز ماجد، شَهِدَ الكُلُّ بجلال[٥] قَدْرِه، وكمال عِزِّه، حتَّى لا جَحْدَ ولا جَهْلَ، ولا عرفان لمخلوق ولا عقل، ولا وفاق ولا خلاف، ولا كفر ولا إيمان، ولا فَهْمَ ولا قَدْمَ، ولا سماء ولا فضاء، ولا ظلام ولا ضياء، ولا فصول/ المزدوجات والمفردات، بالاتفاق والاختلاف في الأوقات، إلَّا وهو له شاهد بأنَّه واحد[٦]. ٢ [٤٩/ب]

وقوله: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: لم يقل ذلك تعالى اعتضادًا[٧]؛ فإنَّه مقدس[٨]، وإنَّما أخبر ذلك عبادَه مُعْلِمًا لهم بأنه أسعدهم وأيَّدهم، ووفَّقهم وهداهم، وسدَّدهم لمعرفته وأرشدهم[٩].

وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾؛ يعني: من بني آدم، إذا تفطَّنوا للأدلة، وتحقَّقوا الإلَهية، وأخبروا بما وصل إليهم من ذلك، فهذا

---

(١) في (ص): أعيان.

(٢) في (ص): أغيار.

(٣) في (د): متلافية.

(٤) في (ك): بربوبيته.

(٥) في (د): بخلال.

(٦) ينظر: لطائف الإشارات: (١/٢٢٦).

(٧) في (ص) و(ك): اعتصادًا.

(٨) في (د) طرة ألحقها الناسخ بالأصل، ولم أتبينها لسوء التصوير.

(٩) لطائف الإشارات: (١/٢٢٦-٢٢٧).

تَشْرِيفٌ لهم حيث قَرَنَ بشهادته شهادَتهم، فشهدوا عن يقين، ولم يُخبروا عن ظنون وتخمين، فهم وإن لم يُدركوه حِسًّا، فلم يعلموه حَدْسًا، بل رأوه ببصائرهم، وسيعاينونه بأبصارهم، وأشهدهم فعَلِمُوا، واستشهدهم فشَهِدُوا[١].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

ولو لم يُعَرِّفْهُمْ ما عرفوا، ولو لم يُشْهِدْهُمْ ما شَهِدُوا، وقد بيَّنَّا تفسير قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾، وقول النبي ﷺ: «إنَّ الله مسح ظهر آدم بيمينه، فاستخرج منه ذريته أمثال الذَّرِّ، وقال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى»[٢]، فأخبرنا الله عمَّا كان له فينا من سابق عهده، وصادق وَعْدِه، وتصريف الحال؛ كيف عُلِّمَ أَثَرُ ذلك ومن بَعْدَه[٣].

مراتبُ أولي العلم[٤]:

وأُولو العلم على مراتب؛ فمن عالم يعرف ذاته، ومن عالم يعرف صفاته، ومن عالم بأحكامه، وحلاله وحرامه، ومن عالم لسنته وآثاره، وعالم يستظهر كتابه، ويعرف تأويله وتفسيره، ومُحْكَمَه وتنزيله[٥].

---

(١) لطائف الإشارات: (١/٢٢٧).
(٢) سبق تخريجه في السِّفْرِ الأوَّل.
(٣) لطائف الإشارات: (١/٥٨٥).
(٤) قوله: «مراتب أولي العلم» سقط من (د) و(ص) و(ك).
(٥) لطائف الإشارات: (١/٢٢٧).

وأَهْلُ العلم هم أركان الملة، ودعائم الدين، ورُفعَاءُ الإسلام، والهادون لعباد الله، الناصحون لهم، المرشدون لمن استرشدهم، المفتون لمن سألهم، فإن كان خَلَلٌ من وَالٍ فإنَّما يعود خَلَلُه إلى الدنيا، فأمَّا الدِّينُ فلا يتعلق به من خَلَلِهم شيء، وذلك من حُكْمِ الله البديع.

والنَّاصحون من العلماء - كما قدَّمنا - أصناف[١]:

فقَوْمٌ هم دَرَسَةُ القرآن وحُفَّاظُ حديث النبي ﷺ، وهم بمنزلة الخَدَمَةِ.

وصِنْفٌ هم المَخْصُوصُونَ بالردِّ على الملحدين بالأدلة، وهم شجعان الإسلام وجُنْدُه.

وقَوْمٌ هم الذين/ رتَّبوا قانون العبادات[٢]، وشروط المعاملات، [٥٠/أ] وأحكام الجراحات والمناكحات، ومقادير الجزية والدِّيَّات، والفرائض من الأموات، والأيمان والمنذورات[٣]، وفَصْلِ الحُكْمِ في المنازعات، وهم وُكلاء المَلِكِ المتصرفون في مُلْكِه.

وصِنْفٌ هم الذين اختصُّوا بخدمة المَوْلَى والعُكوف على بابه.

[الموازنةُ بين العلوم]:

وتنازع النَّاسُ في تفضيل بعضهم على بعض؛ بعد الاتفاق على أنَّ كل واحد منهم مُقْسِطٌ، «على منابر من نُورٍ، عن يمين الرحمن»[٤]، كما أخبر تعالى، وهذه النازلة تفتقر إلى تفصيل في تحصيل التفضيل:

---

(١) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٧٣).

(٢) في (ص): العباد.

(٣) في (ص) و(ك): النذورات.

(٤) تقدَّم تخريجه.

فإن هذه العلوم مرتبطة بعضها ببعض، ومنها ما لا يصحُّ أن ينفرد عن الآخر، فإنَّ الذي يحمي الشريعة عن البدع بالأدلَّة، ويَفْصِلُ النزاع بين المختلفين في المعاملات؛ لا بدَّ له من القرآن والحديث، بَيْدَ أنه لا يفتقر إلى أن يعلم الكل، بل يكفي المتعلق بالأدلة في الذَّبِّ عن المِلَّةِ أن يَعْلَمَ آيات التوحيد؛ وهي نَحْوُ العشرة آلاف[1]، ويكفي المتعلق بالأحكام أن يَعْلَمَ الثماني مائة الآية التي جمعناها[2] نحن في «الأحكام»، ويكفيه من الحديث نحو أَلْفَيْ حديث التي صحَّت عن النبي ﷺ باتفاق.

وإذا تجرَّد العاملُ للعمل من غير معرفة بهذه الأحكام كلها والدلائل؛ لم نَقُلْ: إنه أفضل من المتجرد للعِلْمِ.

ولا نقول: إنَّ الصحابة الذين تجرَّدوا للخدمة بأفضل من الذين تجرَّدوا لإصلاح الخَلْقِ.

ووَجْهُ التحقيق في ذلك تسمعونه إن شاء الله، وهو:

إنَّ العبادة ممَّا خَفِيَ على الناس تحقيقُها، وتحقيقُ العبادة -عندي-: أن يقوم المرءُ بالقِسْطِ في جميع أقواله وأفعاله، فأَصْلُه ألَّا يعصي، وفَرْعُه ألَّا يخالف السنة في المندوبات وسائر التصرفات، وأن يكون قولُه كلُّه وفعلُه جاريًا على السُّنَّةِ، فلا يتكلم إلَّا بسنة، ولا يعمل إلا بسنة، ويصلي ركعتي الضحى، وأربعًا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين قبل العصر، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين بعد العشاء، ويُوتِرُ بثلاث؛ أوَّل الليل أو آخره، ويصلي ركعتين بعد الجمعة في بيته، ويُقبل على أنواع

(١) كذا قال، وهو سَبْقُ قلم منه؛ ولعل الكلام يستقيم بقولنا: وهي نحو الألف، والله أعلم.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): جمعنا.

العلوم؛ فلا يخصُّ[١] منها واحدًا دون آخر، ويبدأ بالأهم فالأهم، حسب ما قرَّرناه في «قانون التأويل»[٢]، ويُصلح معاشه كما رتَّبناه له[٣]، فإذا فعل ذلك حصلت له الأسماء والصفات/ التي قرَّرناها هاهنا.

٢ [٥٠/ب]

والصَّحَابَةُ الذين كانوا على هذه الصفة التي قرَّرنا أحقُّ وأكثرُ من الصحابة الذين تجرَّدوا للخدمة، والتزموا الصَّوْمَ والصَّلاة.

وتفضيلُ[٤] الأعمال بابٌ نَعْقِدُه في آخِرِ الكتاب، فَصْلًا نختمُه به إن شاء الله.

فائدة: [في الموازنة بين علماء المشرق وعلماء الأندلس]

ولقد شاهدتُ بتلك الديار الكريمة العلماءَ والمتبتِّلين لا يهدأُ لهم لسانٌ من الحركة بالقُرَبِ، والعلوم والمُلَح، والأمثال والنوادر، كلها مكتوبة في صحائف الحسنات، وأصحابكم يَرَوْنَ أن الزَّمَاتَةَ[٥] هي العبادة، والصمت هي الطاعة، وذلك لكثرة جهلهم، وقلة عِلْمِهم، فلو استرسلوا في الكلام لكَبَوا، ولو أعلنوا بالمقال لَلَغَوا[٦].

نكتة:

وقد قال الله: ﴿وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء:٣٥]، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٤]، وقال: ﴿وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧].

---

(١) في (ب): يختص.
(٢) القانون: (ص٣٤٦-٣٤٨).
(٣) في قسم المقامات: مقام الحياة الدنيا.
(٤) في (ص) و(ب): تفصيل.
(٥) في (ص): الزمانة، وفي (ب): الدماثة.
(٦) في (ص) و(ب) و(ك): لعَوَوا.

وقد بيَّنَّا أنَّه العَدْلُ.

وقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:٤]، يعني: بالعدل.

وهذا ممَّا يُشْكِلُ؛ فإنَّ علماءنا من المتكلمين قالوا: «العَدْلُ وَضْعُ الشيء في موضعه، والجَوْرُ والظُّلْمُ وضعُه في غير موضعه»[1].

وللباري سبحانه أن يُعَذِّبَ الخَلْقَ بحق مِلْكِه ولو أطاعوه بتوفيقه، ولكنه أخبر أنه لا يفعل بفَضْلِه.

والقِسْطُ الذي أَمَرَ به في الوزن هو الأخذُ والإعطاء في المعاملة على طريق المماثلة، ولو كان يَجْزِينَا بمِثْلِ ما عَمِلْنَا لهَلَكْنَا، بل أنعم علينا من فضله، وزادنا من رحمته، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦١]، ولكن الآية محمولة المعنى على وجهين:

أحدهما: أنه يرجع الجزاء بالقسط إلى الجملة؛ فإنه جزاءُ الخير بالخير، والشر بالشر، قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣٠]، وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:٩].

ومن يزرعِ الشوكَ لا يحصدْ به العِنَبا[2]

---

(١) أصول الدين لأبي منصور: (ص١٣٢)، وينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٢٩٥).

(٢) هذا عجز بيت، وصدره: إذا وترت امرأً فاحذر عداوته

وهو من بحر البسيط، من جملة أبيات لصالح بن عبد القدوس في الحماسة البصرية: (٥٩/٢)، وفي ترجمته في تاريخ دمشق: (٣٥٥/٢٣)، ونهاية الأرب للنُّوَيري: (٨٢/٣)، ومنهم من ينسبها لعبد الله بن معاوية بن جعفر الطالبي.

ومن يغرس القَتَادَ لا يجني الورد، ومن[1] يُنبت الحشيش لا يقطف الثمار، ومن[2] سلك سبيل الغَيِّ[3] لم يُفْضِ إلى مَحَلِّ الرُّشْدِ.

٢ **الثاني**: وهو بَدِيعٌ قَوِيٌّ؛ أنَّ القِسْطَ الذي يجزي به هو وَعْدُه، فالقِسْطُ صِدْقُ الوَعْدِ، قال تعالى/: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا اَلْاَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداًۖ وَعْدَ اَ۬للَّهِ حَقّاًۖ وَمَنَ اَصْدَقُ مِنَ اَ۬للَّهِ قِيلاٗ﴾ [النساء:١٢١]. [٥١/أ]

وقد قال ﷺ: «ينزل ابنُ مريم فيكم حَكَمًا مُقْسِطًا، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويؤمكم منكم - وفي رواية: وإمامكم منكم -»[4]، ويقتل الدجال، ويتزوج ويموت، ويدفن مع النبي ﷺ في قُبَّةٍ واحدة[5].

وذلك قَوْلُه سبحانه: ﴿وَإِن مِّنَ اَهْلِ اِ۬لْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُومِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ﴾ [النساء:١٥٨]، في **أصح التأويلين**، وهو قَوْلُ ابن عبَّاس[6].

---

(١) في (ص) و(ب) و(ك): من.

(٢) في (ص) و(ب) و(ك): من.

(٣) في (ص): الغير.

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) الإشارة هنا إلى حديث عبد الله بن سلام ؓ موقوفًا: «مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه»، قال أبو مودود: «وقد بقي في البيت موضع قبر»، أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٣٦١٧-بشار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب».

(٦) تفسير الطبري: (٩/٣٨٠-شاكر).

وفي **الثاني**: أنه يـؤمن بـه الكِتَـابِيُّ عنـد قبض روحـه؛ حـين لا ينفعـه الإيمان به[١].

[الثالث]: وقال بعضهم: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾: يعني: بمُحَمَّدٍ[٢].

وهو بعيد، ودعوى من غير دليل.

والمعنى في الحديث: أنَّ مُحَمَّدًا بعثه الله بالقِسْطِ لـيحكم بـين النـاس بما أراه الله، ثم وقع الخلل في الإيمان والأعمال، فيُنْـزِلُ الله عيـسى خليفـةً لمُحَمَّدٍ ﷺ؛ ليُعِيدَ الإيمان والأمان، ويَعُمَّ بالعـدل الأرض، ويُـصَدِّقَ مِيعَـادَ النبي ﷺ في مُلْكِ أُمَّتِه للأرض كلها، حتى يكون عيسى من أصحابه، ومـن أئمـة دِينِـه، ومـن أنـصاره، «فيقتـل الخنزيـر»، ولا يـرى ذَكَاتَـه ولا أَكْلَـه، «ويكسر الصليب»؛ لأنه كُفْرٌ، «ويضع الجزية»، معناه: لا يقبل الجزية؛ إمَّـا الإيمان، وإمَّا السيف، فـإذا مـات عيـسى اخْتَلَّـتِ الأرض ورُفِعَـتِ الأمانـة، وضلَّ الخَلْقُ اعتقـادًا وعمـلًا، فـلا يكـون فـي الأرض مـن يقـول: «الله»[٣]، معناه - في أحد التأويلين -: من يذكر الله.

وقـد كانـت الأمانـةُ ضـائعةً حتـى خَلَـقَ الله مُحَمَّـدًا ﷺ، فجعلهـا فيـه جِبِلَّةً، فكان اسمُه عند قريش في الجاهلية[٤] «الأمين»[٥].

---

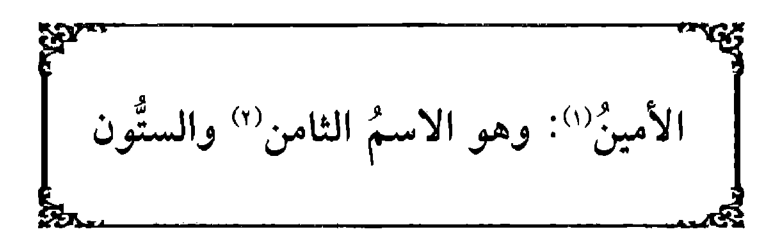
(١) تفسير الطبري: (٩/٣٨٢-شاكر).

(٢) تفسير الطبري: (٩/٣٨٦-شاكر).

(٣) سبق تخريجُه في السِّفْرِ الأوَّل.

(٤) قوله: «في الجاهلية» سقط من (ص) و(ب) و(ك).

(٥) سيرة ابن هشام: (١/٢٢٤).



الأمينُ(١): وهو الاسمُ الثامن(٢) والستُّون

حتَّى كانت قريش تُسَمِّيه في الجاهلية «الأمين».

وقال ﷺ - وقد نَسَبَ إليه الجاهلون ما لا يليق به في جهة المال -: «أَيَأْمَنُنِي على أهل الأرض ولا تَأْمَنُوني»(٣).

ولمَّا صالح أَهْلَ نجران سألوه أن يبعث معهم أمينًا، فقال: «لأبعثنَّ معكم أمينًا حق أمين، فاستشرف لها أصحابُ النبي ﷺ، فبعث معهم أبا عُبَيدة عامر بن الجرَّاح»(٤)، فسُمِّيَ أمينَ هذه الأمة.

وقد اتفق الناس على أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩ - ٢١]؛ أنَّه من صفة جبريل(٥)، فجبريلُ أمين، ومُحَمَّدٌ أمين الأمين(٦)، وأبو عبيدة أَمِينُ الأَمِينِ(٧)

---

(١) سقط من (ص) و(د) و(ك).

(٢) في (ص): الثالث، وفي (ب): الثاني، وفي (ك): الخامس.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾، رقم: (٣٣٤٤-طوق).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم: (٤٣٨٠-طوق).

(٥) تفسير الطبري: (٢٤/١٦٤-التركي).

(٦) سقط من (ص) و(ب) و(ك).

(٧) في (ب) و(ك): أمين.

الأمِينِ، في الدرجة الثالثة من[1] الفضل، وناهيك بهذه جلالة، صلَّى الله عليهما، ورضي عنه.

٢ [٥١/ب] والأَمِينُ حقيقةً:/ هو الذي أُمِنَ ضُرُّه، واؤتمن على غيره، فهو عنده أو معه على صفته، لا تخاف عليه آفة، ولا يُتوقَّع عليه تغيير.

تقول: «أَمِنْتُ كذا، بأَلِفٍ واحدة»، إذا لم تخف جهته، «وآمَنْتُ فلانًا على كذا، بأَلِفين»، إذا جعلت عنده ما لا يتوقع[2] عليه آفة، «وائتمنته - بتائين فِعْلًا مضاعفًا -»: إذا اعتقدتَه أمينًا، أو اتخذتَه أمينًا.

[ما ورد من الآيات في شأن يوسف وإخوته]:

وقد قال الله تعالى في سورة يوسف: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف:١١]، أي: لا ترى أنه معنا في سلامة من الآفات، على ما هو عليه من الصفات، وكان هذا قَوْلَ حَسُودٍ.

يُرِيكَ الرضى والغِلُّ حَشْوُ ضُلُوعِهِ   وقد يُسْتَسَرُّ الأمرُ تُخْشَى عواقبُهْ
ولا ينفع المَرْءَ الحَذُورَ من القضا   حِذَارٌ فإنَّ القَدْرَ لا شك صاحبُهْ[3]

وقد كان يعقوبُ تَفَرَّسَ من إخوته الحَسَادَةَ، حتى قال ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٨]، ولكن الباري لمَّا أراد أن يُنْفِذَ قضاءه أذهل يعقوب عمَّا كان خاف عليه[4]، فأسلمه

(١) في (ب): في.
(٢) في (ص) و(ب): تتوقع.
(٣) من الطويل، والأوَّل في المستطرف: (ص٤٤)، وفيه: «حشو جفونه»، والثاني لم أجده.
(٤) لطائف الإشارات: (٢/١٧١).

إليهم رغبة في راحة يوسف، وإن كان في عذاب يعقوب؛ لأنَّ من حُكْمِ المحبة إيثارَ رضى المحبوب على غرض المُحِبِّ[١].

أنشدنا محمد بن عبد الملك[٢]: أنشدنا أبو الفضل[٣]:

إذا أراد الله أمرًا بامرئ وكان ذا عَقْلٍ وسَمْعٍ وبَصَرْ
وحيلة يُعملها في دفع ما يأتي به مكروه أسباب القَدَرْ
غطَّى عليه سَمْعَه وعَقْلَه وسلَّه من ذهنه سَلَّ الشَّعَرْ
حتى إذا أنفذ فيه حُكْمَه ردَّ عليه عَقْلَه ليَعْتَبِرْ[٤]

وقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين، وقد جمعناها ألف آية، وأمليناها عليكم في «أنوار الفجر» مجرَّدة، لمن يريد الاعتبار بها.

وقد قال أيضًا لهم حين سألوه الولد الثاني: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤]، وهذه من جملة الألف الآية[٥].

قال علماؤنا: «لما عرفهم بالخيانة لاحظهم بغير[٦] الأمانة»[٧].

---

(١) لطائف الإشارات: (١٧٢/٢).
(٢) هو محمد بن عبد الملك التِّنِّيسِي المصري، تقدَّم التعريف به.
(٣) هو أبو الفضل الجوهري المصري، الواعظ الشهير، تقدَّم التعريف به.
(٤) من الرجز، ونسبها الثعالبي في اليتيمة (٤١٧/٤) لأبي جعفر محمد بن عبد الله بن إسماعيل، ونُسبت لغيره، وهي في أحكام القرطبي: (١٣/١٧٨-عالم الكتب).
(٥) كذا في النسخ التي بين يدي.
(٦) في (د): بعين.
(٧) لطائف الإشارات: (١٩٣/٢).

وصوابه: لمَّا اتهمهم بالخيانة لاحظهم بغير الأمانة، وفيه كلام طويل بيانُه هنالك.

ومنها: «أنَّ يعقوب لم تسكن نفسه إلى ضمانهم لِمَا سَبَقَ من شأنهم»[١].

٢ ومنها: أنَّه قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾، فمنحته هذه الكلمة الصيانة عن الخيانة، وصانته عن المهانة إلى الكرامة، وبدَّلته بالفُرْقَةِ من أبيه[٢] لُقِيَّةً/ [٥٢/أ] لأخيه، ولم يُصِبْهُ شيء من قِبَلِ القوم، وإنَّ في ذلك لآية للسَّائلين، وعبرة للمعتبرين، ما يُجْرِي الله على ألفاظ الآدميين من المقادير الكائنة، ويكشف به من الأغراض[٣] الكامنة.

قالوا ليعقوب: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا﴾، وهو ما كان يَحْبِسُهُ عنهم تُهْمَةً لهم، وإنما كان شَفَقَةً عليه، ولكنهم لمَّا[٤] كانوا قد تشاوروا فيه وائتمروا به من قَتْلِه أو نَفْيِه استشعروا الخيانة، فنفوا عن أنفسهم تَعَيُّنَ[٥] الأمانة، ألا ترى إلى يعقوب كيف صرَّح بالعِلَّةِ، فقال: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف:١٣]، ثم جاءه[٦] بآية، فقال: «وأخاف منكم الغفلة، فربَّما أكله الذئب».

---

(١) لطائف الإشارات: (١٩٣/٢).

(٢) في (ص): ابنه.

(٣) في (د): الأعراض.

(٤) في (ص) و(ب) و(ك): بما.

(٥) في (ب): يقين، وفي (ك): بعين، وما أثبتناه مرَّضه في (ص).

(٦) في (د): جاء.

قال بعضهم: كيف خاف الذئب والله منه قريب[١]؟

وقال آخرون: «أحوال الأنبياء ممنوعة عن الاعتراض، محروسة عن الانتقاض»[٢].

ومنها: أنَّ ما أجرى الله على لسان يعقوب من خَوْفِ الذئب عُوتِبَ به في أن يُنَبِّهَ الإخوة إلى وجه العُذْرِ منه، وحينئذ ﴿جَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، ولولا ذِكْرُ يعقوب للذئب ما كانوا[٣] ينتبهون[٤] لذلك[٥]، والله أعلم.

ومنها: أنَّ بين قَوْلَي الإخوة في الحالين كثير:

قالوا في الحالة الأولى كَبِيرَةً: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩].

وقالوا هاهنا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف:٦١].

ومنها: أنَّ يوسف إنَّما كلَّفهم سَوْقَ أخيهم؛ لأنه عَلِمَ من حالهم أنهم باعوه للطمع بثَمَنٍ بَخْسٍ، فوعدهم بإيفاء الكَيْلِ، وبحُسْنِ[٦] النُّزُلِ[٧]، وهي الضيافة.

---

(١) لطائف الإشارات: (١٧٢/٢).

(٢) لطائف الإشارات: (١٧٢/٢).

(٣) في (ك): كان.

(٤) في (ص): يتنبَّهون.

(٥) ينظر: لطائف الإشارات: (١٧٢/٢).

(٦) في (ب): بتحسين.

(٧) لطائف الإشارات: (١٩٢/٢).

ومنها: أنَّ يوسف طلبهم بالإتيان بأخيه، والتفريق[١] بينه وبين أبيه، وقد عَلِمَ أنَّ ذلك له أفجع، وتَحَقَّقَ أنَّ نُكْأَ[٢] القَرْح بالقَرْحِ أوجع.

وقد اختلف النَّاسُ في ذلك على أربعة أقوال:

الأوَّل: أنَّ ذلك فَعَلَه بإذْنٍ، وكانت الحكمة فيه أنَّ الله أراد مضاعفة البلاء بالفراق على يعقوب؛ ليكون لأجره أعظم.

الثاني: قال بعضهم: ليكون إلى الفرَج أقرب، ومن أمثالهم: «اشْتَدِّي أزمة تَنْفَرِجي»[٣].

الثالث: تَعَارُضُ شوق الأب والأخ، وكان الأب قد استمتع به مدة، فأراد الأخ أيضًا أن يأخذ بحظه من لقائه، والتشفي برؤيته من رُوَائِه[٤]./ [٥٢/ب]

الرَّابع: أنَّ يوسف تَلَطَّفَ في استحضار أخيه بوَجْهٍ من الترغيب فيما يعود بمَنْفَعَةٍ على أبيه[٥].

والذي أعتقده أنَّ ذلك كان بوَحْي من الله، أَذِنَ له في أخذه بالحِيلَةِ، وعَلِمَ أنَّ عند يعقوب من الصَّبْرِ أضعاف ذلك، وأنه لا يدخل عليه بفَقْدِ الأخ ما دخل عليه بفَقْدِ يوسف، أَلَا ترى تحقيق ذلك في قوله حين رجعوا إليه دونه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف:٨٤].

---

(١) في (ص) و(ب) و(ك): فرق. (٢) في (د): بكاء.

(٣) أخرجه القضاعى (١/٤٣٦، رقم ٧٤٨)، والديلمى (١/٤٢٦، رقم ١٧٣١)، قال العجلونى (١/١٤١): «رواه العسكرى والديلمى والقضاعى بسَنَدٍ فيه كذَّاب».
وعمله يوسف بن محمد التُّوزَرِي -المعروف بابن النحوي- مطلعًا لقصيدته الذائعة، نسبها له في الذيل والتكملة: (٥/٣٥٦)، ونيل الابتهاج: (ص٥٨٣)، ونسبها ابنُ السبكي في طبقات الشافعية: (٨/٥٦) إلى أبي الحسن يحيى بن العطَّار القرشي الحافظ، والأوَّل أرجح.

(٤) لطائف الإشارات: (٢/١٩٢). (٥) لطائف الإشارات: (٢/١٩٢).

قال الأستاذ أبو علي الدقَّاق - شيخُ الفقراء -: «انظروا[١] إلى قوله سبحانه مُخْبِرًا عن يعقوب: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، ولم يقل: «عَمِيَ»؛ لأنَّه لم يكن في الحقيقة عَمًى[٢]، وإنَّما كان حجابًا عن رؤية غير يوسف، رِفْقًا من الله سبحانه، حتى لا يحتاج إلى أن يرى غيره؛ لأنه لا شيء أشد على الأحباب من رؤية غير المحبوب في حال فراقه»[٣].

وقد قال الحكيمُ:

لمَّا تَحَقَّقْتُ أني لا أشاهدكم ... غَمَّضْتُ عيني فلم أنظر إلى أَحَدِ[٤]

وقد كان يعقوب يَتَسَلَّى برؤية ابنه[٥] بِنْيَامِين[٦] في حال غيبته، فلمَّا زال عن رؤيته قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ لأنه لمَّا مُنِعَ من النظر إلى يوسف كان يتسلَّى بالأثر، وهو أخوه، فلمَّا زال عنه آخِرًا الأثرُ كما زال أوَّلًا النظرُ تأسَّف على النظر الأوَّل[٧]، وفي ذلك كله[٨] كلامٌ بديعٌ مذكورٌ في موضعه.

---

(١) في (ك): انظر.

(٢) في (ص): عَمِي.

(٣) لطائف الإشارات: (٢/٢٠٠).

(٤) من البسيط، وهو للشِّبْلِي، مع بيت آخر قبله، وهو:

الناس في العيد قد سروا وقد فرحوا ... وما سررت به والواحدِ الصمدِ

وهو في: لطائف الإشارات: (٢/٢٠٠)، وتاريخ دمشق في ترجمته: (٦٦/٧٥)، والتبصرة لابن الجوزي: (٢/١١٠).

(٥) سقط من (ص) و(ب) و(ك).

(٦) في (ص) و(ب) و(ك): ابن يامين.

(٧) لطائف الإشارات: (٢/٢٠٠).

(٨) سقط من (ك).

[أحاديثُ الأمانة]:

ومن أحسن أحاديث الأمانة ما روى حُذيفة قال: «حدَّثنا رسول الله حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدَّثنا أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة، وحدَّثنا عن رَفْعِها فقال: ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْتِ، ثم ينام النومة فتُقبض، فيبقى أثرها مثل أثر المَجْلِ؛ كجَمْرٍ دحرجته على رِجْلِك فنَفِطَ، فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إنَّ في بني فلان لرجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله! ما أظرفه! ما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان، ولقد أتى عليَّ زمان لا أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلمًا ليردَّنه عليَّ الإسلام، ولئن كان يهوديًا أو نصرانيًا ليردَّنه عليَّ ساعيه، فأمَّا اليوم فما كنت لأبايع إلَّا فلانًا وفلانًا»[١].

٢ وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال في خطبة[٢] يوم الوداع؛ من حديث جابر الطويل/ [٥٣/أ] في وصف حَجَّةِ النبي ﷺ، أنَّه قال: «اتقُّوا الله في النساء، فإنَّكم أخذتموهن بأمانة[٣] الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفتن، باب إذا بقي في حثالة من الناس، رقم: (٧٠٨٦-طوق).

(٢) في (ص) و(ك): حجة، وضعَّفها في (د).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): بأمان.

ضربًا غير مبرح»[١]، وذكر الحديث، وقال: «قد تركتُ فيكم ما لن تضلوا ما اعتصمتم به، كتاب الله»[٢].

وفي حديث عمرو بن الأحوص الصحيح: أنه شهد مع النبي حجة الوداع، فحمد الله وأثنى عليه، وذكَّر ووعظ، وذَكَرَ قصة فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنَّهنَّ عندكم عَوَانٌ، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا، أَلَا إنَّ لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فأمَّا حقكم على نسائكم؛ فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، أَلَا وحَقُّهُنَّ عليكم أن تُحْسِنُوا إليهن؛ في كِسْوَتِهنَّ وطعامهنَّ»[٣].

فأخبر ﷺ أنهنَّ عندنا عَوَانٌ؛ بأمانٍ دائر بين حقين اثنين؛ حق لهنَّ، وحق عليهنَّ، مُبَيَّنَيْنِ لا ثالث لهما، وقد بيَّنَّا ذلك في «شرح الحديث» والكلام عليه.

ومن الأمانة عندك عِرْضُ أخيك المُسْلِم؛ فلا تغتبه إذا عَرَفْتَ له معصية، وقد ضرب الله مَثَلًا للمغتاب أَكْلَ لَحْم الميت، تشبيهًا للغائب بالميت، وللإذاية باللسان بالإذاية بالمِقْرَاضِ، ومن الأمثال السائرة:

وجُرْحُ اللسان كجُرْحِ اليَدِ[٤]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم: (١٢١٨-عبد الباقي).

(٢) هو حديث جابر رضي الله عنه السَّابق.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الرضاع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم: (١١٦٣-بشار).

(٤) عجز بيت لامرئ القيس، وصدره: ولو عن نثا غيره جاءني

وهو من المتقارب، في ديوانه: (ص١٨٥).

وقد رُخِّصَ فيها في أربعة مواضع:

منها: التظلم عند من تُرجى نُصرته بدعوة، أو يقضي لك عليه بفُتْيَا أو حُكْمٍ، كقول هند عند النبي ﷺ: «إن أبا سفيان رجل مِسِّيكٌ»[١].

ومنها: تحذير المغتر به[٢] عند صحبة أو معاملة، وقد بيَّنَّاها في موضعها من «قانون التأويل»[٣] وغيره.

وإذا رَأَيْتَه على معصية فعِظْهُ ما بينك وبينه، ولا تفضحه، فقد روى أبو داود والنسائي عن عُقبة بن عامر: أنَّ النبي ﷺ قال: «من رأى عَوْرَةً فسترها كان كمن أحيى موؤودة»[٤]، تفرَّد النسائي بقوله: «من قَبْرِها»[٥].

ولا يحمله على فضيحة نفسه، فقد جاء مَاعِزٌ الأسلمي إلى هُزَّال الأسلمي/ [٥٣/ب] فقال له: «يا هزَّال، إني زَنَيْتُ، فأمره أن يأتي رسول الله، فلمَّا جرى ما جرى عليه من الرَّجْم، جاء هزَّال إلى النبي ﷺ فقال له: هلَّا سترته بردائك»[٦]، خرَّجه أهلُ الصَّحيح[٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كتاب النفقات، باب نفقة المرأة إذا غاب عنها زوجها ونفقة الولد، رقم: (٥٣٥٩-طوق).

(٢) بعده في (ك) و(ص): عنه، وضرب عليها في (د).

(٣) القانون: (ص٣٨٥-٣٨٦).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب، بابٌ في الستر على المسلم، رقم: (٤٨٩١-شعيب).

(٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب الرجم، الترغيب في ستر العورة، رقم: (٧٢٤١-شعيب).

(٦) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب الرجم، الستر على الزاني، رقم: (٧٢٣٤-شعيب)، وأصله في الموطأ: كتاب الرجم والحدود، ما جاء في الرجم، (٢/٢٥٦)، رقم: (٢٤٦٧-المجلس العلمي الأعلى)، ومسلم في الصحيح: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم: (١٦٩٢-عبد الباقي).

(٧) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): خرَّجه الصحاح، وما أثبته أشار إليه في (د).

وجاء في روايات: «أنَّ أبا بكر وعمر نهياه أن يتظاهر عند رسول الله ﷺ به»[١].

وفي الحديث الحسن[٢]: «أنَّ صفوان جاء بسَارِقِ ردائه إلى النبي ﷺ[٣]، فلمَّا أمر بقطعه قال: لم أُرِدْ هذا يا رسول الله، قال[٤]: فهلَّا قبل أن تأتيني به»[٥].

أَمَا إِنَّه إذا عاينت منه معصية لله فيها حَقٌّ[٦] جاز لك أن تقوم به حِسْبَةً، كما فعل أبو بكرة مع المغيرة، ولكن الأفضل تركها، إلَّا أن يتتايع[٧] الناس في الشَّرِّ، فحينئذ يجوز رَفْعُها، أو يجب بحسب الحال في ذلك، وسيأتي بيانُه في باب الآمِرين بالمعروف والنَّاهِين عن المنكر.

وكذلك الجارُ أمانة، والجارُ عليه أمين، يغض عنه بصره، ويُصِمُّ[٨] عنه أُذُنَيْه، ويكفُّ عنه أذاه، ويَسْدِلُ[٩] دونه حِجَابَه، فإن رأى عورة سترها، أو سيئة غفرها، أو حسنة نثاها[١٠] ونشرها.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الرجم والحدود، ما جاء في الرجم، (٢/٢٥٥)، رقم: (٢٤٦٦-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): في الحسن من الحديث.

(٣) في (ك): صلى الله عليه.

(٤) بعده في (ك) و(ص): له، وضرب عليها في (د).

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب السرقة، ترك الشفاعة للسَّارق إذا بلغ السلطان، (٢/٢٦٨)، رقم: (٢٥٠٧-المجلس العلمي الأعلى).

(٦) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): الحق، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٧) في (ك): يتتابع.

(٨) في (ص): يُصَمِم، وفي (د): يُصْمِتُ.

(٩) في (ص): يُسبل.

(١٠) في (د): ثناها، وهو تصحيف، ونَثَا الحديث والخبر ينثوه نثوًا: حدَّث به، وأشاعه، وأظهره، تاج العروس: (٤٠/١٩).

[حكاية]:

أخبرنا أبو بكر الصوفي[١]: أخبرنا الرُّصافي[٢]، وأخبرنا جعفر بن أحمد المقرئ[٣]، قالَا: حدَّثنا[٤] الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ: أخبرنا علي بن أحمد الرزَّاز: أخبرنا أبو الليث نصر بن محمد الزاهد البخاري: حدَّثنا محمد بن محمد بن سهل النيسابوري: حدَّثنا أبو أحمد[٥] محمد بن أحمد الشُّعَيْبِي[٦]: حدَّثنا أسد بن نوح، حدَّثنا محمد بن عبَّاد، قالَا[٧]: حدَّثنا القاسم بن غسَّان: أخبرني أبي: حدَّثني عبد الله بن رجاء الغُدَانِي[٨]، قال:

«كان لأبي حنيفة جارٌ بالكوفة إسكافٌ، يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جنَّه الليل رجع إلى منزله؛ وقد حَمَلَ لحمًا فطبخه، أو سمكة فشواها، ثم لا يزال يشرب، حتى إذا دبَّ الشرابُ فيه غَزِلَ[٩] بصَوْتٍ[١٠] وهو يقول:

---

(١) هو محمد بن طَرخان التركي.

(٢) هو محمد بن فتُّوح الحُمَيدي.

(٣) في (ك): المغربي.

(٤) في (ك) و(ص) و(د): أخبرنا، وضعَّفها في (د).

(٥) في (ب): محمد، وفي (د): أحمد، وضرب عليه، وفي الطرة: جعفر، وصحَّحه.

(٦) في (د) و(ب) و(ص): الشُّعَبِي، وما أثبتناه يُصَحِّحُه ما في تاريخ بغداد: (١٥/٤٩٦)، والأنساب للسمعاني: (٧/٣٤٧-٣٤٨).

(٧) سقط من (ك) و(ص) و(ب)، وفي تاريخ بغداد (١٥/٤٩٦): قال.

(٨) في (د): الغُدَّاني، وضبطناه كما جاء في الأنساب للسمعاني: (٩/١٢٧).

(٩) في المنشور من تاريخ بغداد (١٥/٤٩٥): غنى.

(١٠) في (ص): يصوت.

أضـاعوني وأيَّ فتًـى أضـاعوا   ليـوم كريهـة وسِـداد ثَغْـرِ[(١)]

فلا يزال يشرب ويُرَدِّدُ هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جَلَبَتَه كلَّ ليلة[(٢)]، وكان أبو حنيفة يصلي الليل كلَّه، ففقد أبو حنيفة ليلةً صوتَه فاستخبر عنه، فقيل: أخذه الحرس[(٣)]، وهو محبوس مُذْ ليالٍ، فلمَّا صلَّى أبو حنيفة الصُّبْحَ من غَدٍ رَكِبَ[(٤)] بغله[(٥)]، وجاء الأميرَ فاستأذن/ عليه؛ فأَذِنَ له؛ وألَّا ينزل حتى يطأ البساط، ونزل، فلم يزل الأمير يُوَسِّعُ له في مجلسه حتى أنزله مساويًا له، فقال له: ما حاجتك؟ فقال: إِسْكَافٌ أخذه الحرس منذ لَيَالٍ، يأمر الأمير بتخليته، قال: نعم، وكلُّ من أُخِذَ في[(٦)] تلك الليلة، فخلَّى جميعهم، فرَكِبَ أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فلمَّا نزل مضى إليه فقال: يا فتى، أضعناك؟ قال: لا، بل حفظتَ ورعيتَ، جزاك الله خيرًا عن حُرمة الجار ورعاية الحق، وتاب الرجلُ عمَّا كان فيه»[(٧)].

٢ [٥٤/أ]

[فضيلةُ السَّتْرِ]:

وليَقْتَدِ في ذلك من السَّتْرِ، وليَهْتَدِ بسَتْرِ الله على العباد مع اطلاعه على عوراتهم، وما[(٨)] يرى ويعلم من مخالفاتهم، فهو يسترها في الدنيا

---

(١) من الوافر، وهو مطلع قصيدة لعبد الله العَرْجِي في ديوانه: (ص٣٤).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): يوم، وهو الذي في المنشور من تاريخ بغداد، وضبَّب عليه في (د)، والمثبت صحَّحه في طرته.

(٣) في المنشور من تاريخ بغداد (١٥/٤٩٧): العسس.

(٤) في (ك) و(ب): وركب.   (٥) في (ص): بغلته.

(٦) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٧) تاريخ بغداد: (١٥/٤٩٦-٤٩٧)، وذكرها ابن العربي أيضًا في العارضة: (٨/٢١٣-٢١٤).

(٨) سقطت من (ك) و(ب).

عمومًا، ويغفرها في الآخرة خصوصًا، وهذا مندوب إليه شرعًا، محثوث عليه، مخصوص[1] فيه، بَيْدَ أنه في كل ذنب يختص بالعبد لا يتعدَّاه، فإن كان يلحق غيره منه ظُلْمٌ؛ فلا ينبغي له أن يُقِرَّه عليه، ولا يستره فيه[2]، وليست هذه من الشهادات التي يلزم أداؤها، أو يقال فيها: «خَيْرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها»[3].

[حقيقة الشَّهادة]:

وقد[4] تكرَّر، ولكن لتداخل معاني الأسماء ربَّما نُشير إلى شيء منه، ثم نُحِيلُ على البيان الشَّافي في مَوْضِعٍ غيره[5].

وحقيقةُ الشَّهادة: الإخبارُ بما عَلِمَ لِيَنْبَنِي عليه عمل.

وقد يُستعمل في غير هذا، وقد بيَّنَّاه في كتاب «الأمد الأقصى»[6] وغيره.

والشَّهَادَاتُ التي يلزم أداؤها هي كلُّ قَوْلٍ إذا سكت عنه فات وفي وجوده منفعة.

---

(١) في (ك) و(ب): محضوض.

(٢) قوله: «وليَقْتَدِ في ذلك بالسِّتْرِ.. فإن كان يلحق غيره منه ظُلْمٌ؛ فلا ينبغي له أن يُقِرَّه عليه، ولا يستره فيه» سقط من (ص).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه: كتاب الأقضية، باب بيان خير الشهود، رقم: (١٧١٩-عبد الباقي).

(٤) قبله في (ك) و(د): وهو الاسم السَّادس والستون، وضرب عليه في (د)، وفي (ب): الشاهد: وهو الاسم الثالث والستون، وفي (ص): الرابع والستون.

(٥) قوله: «وقد تكرَّر، ولكن لتداخل معاني الأسماء ربَّما نُشير إلى شيء منه، ثم نُحيل على البيان الشَّافي في مَوْضِعِ غيره» سقط من (ص).

(٦) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٢٤).

«وخَيْرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها[(١)]»[(٢)].

معناه: أن يُخْبِرَ الذي عنده له شهادة بما عنده، ثم يكون أداؤها بحسب إرادة مَن له الحق، وإن كان لله أو لعامَّة المسلمين وجب عليه الابتداء بها قبل الطلب، ولا سيما في الوجهين إذا كان الحقُّ لله.

ومنه: شهادة عبد الرحمن بن عوف: أنَّ النبي قال في الوباء: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»[(٣)].

ومنها: شهادة المغيرة بن شعبة: «أنَّ النبي أعطى الجَدَّةَ السُّدُسَ»[(٤)].

ومنها: شهادة الرجل على زوجه في الزنا، ولذلك صورتان:

إحداهما: أن يشهد على الرؤية.

[الثانية]: أو على نَفْيِ الحمل.

فأمَّا الشهادةُ على رؤيته لزناها فمكروهة.

وأمَّا شهادتُه على/ نَفْيِ الحمل فواجبٌ؛ فإنَّه لا ينبغي أن يُلْحِقَ بنفسه [٥٤/ب] ٢ من ليس منه، وقد بيَّنَّا ذلك في «مسائل الخلاف»، فإنه ليس من بابنا، وهي من باب الأمانة التي قلنا؛ فإنه إذا شهد عليها فلا يفيده ذلك أكثر من

---

(١) قوله: «قبل أن يُسألها» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم: (٥٧٣٠-طوق).

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الفرائض، ميراث الجدة، (١/٥٣٤)، رقم: (١٤٦٤-المجلس العلمي الأعلى).

الفراق، والفراق مع الستر أفضل وأولى، وأوجب[١] وأحرى، وأمَّا مع إلحاق غَيْرِ وَلَدِه به فلا صبر عليه.

وقد أخبرني أبي عن رجل قَاضٍ: أنَّ زوجه بَغَتْ فحملت، فكان يقول لها: «ماذا أصنع بك - قاتلك الله -؟ إن سَكَتُّ ألحقتُ بنفسي من ليس منِّي، وإن تكَّلمت فضحتُكِ وفضحتُ[٢] نفسي».

وغلَّب السُّكُوتَ، فأنا رأيت أخاه وشِبْهَه لغير رِشْدَةٍ، وتذكَّرتُ قول النبي ﷺ للمرأة: «إن جاءت به كذا[٣]، وإن جاءت[٤] به كذا؛ فهو[٥] للَّذِي قُذِفَتْ به، فجاءت به على النعت المكروه»[٦]، فقال النبي ﷺ[٧]: «لولا ما سبق لي[٨] من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[٩].

وفي رواية: «لو كنت راجمًا أحدًا بغير كتاب الله لرجمتها»[١٠].

---

(١) بعده في (ك) و(ص): أو أحب، وضرب عليه في (د).
(٢) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).
(٣) في (ك): بكذا، في (ب): فكذا.
(٤) في (ك): كانت.
(٥) في (ك): فهي.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحدود، باب من أظهر الفاحشة واللطخ والتهمة بغير بينة، رقم: (٦٨٥٤-طوق).
(٧) قوله: «للمرأة: إن جاءت به كذا، وإن جاءت به كذا فهي الذي قذفت به، فجاءت به على النعت المكروه، فقال النبي ﷺ» سقط من (ص).
(٨) سقط من (ك) و(ص) و(ب).
(٩) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، ﴿ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾، رقم: (٤٧٤٧-طوق).
(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحدود، باب من أظهر الفاحشة واللطخ والتهمة بغير بينة، رقم: (٣٨٥٥-طوق).

ورُوي عن النبي ﷺ في شهادة الإنسان على نفسه: «أنه جاءه ماعز الأسلمي فاعترف بالزنا، قال: فلما شَهِدَ على نفسه أربع مرات دعاه النبي ﷺ فقال: أَبِكَ جنون؟ قال: لا، قال: فهل أُحصنت؟ قال: نعم، فقال النبي ﷺ: اذهبوا به فارجموه»[١].

وهذا ممَّا بيَّنه الله سبحانه في قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

وإذا قُبلت عليه الشهادة وهي ظَنٌّ، فأَوْلَى وأَحْرَى أن يُقبَل عليه قولُه، وهو يَقِينٌ عندنا.

[شهادةُ المخلوقين لله بالإلَهية]:

وكل مخلوق يشهد لله سبحانه بالإلَهية، وأنت أحقُّ بذلك لما جُعل فيك من الصفات العليَّة، فإذا كان الجماد يشهد لله[٢] ويسبح بحمده فأنت أولى بذلك، وأحرى من قَبْلِه ومِن بَعْدِه.

فيا عجبًا كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده جاحدُ[٣]
ولله في كل تَحْرِيكَةٍ ... وتَسْكِينَةٍ عَلَمٌ شاهدُ[٤]
وفي كل شيء له آية ... تدلُّ على أنه واحدُ[٥]

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) في (ك): له.

(٣) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٤) من المتقارب، وهي لأبي العتاهية في ديوانه: (ص١٢٢)، وفيه:
وفي كل تسكينة شاهدُ.

(٥) سقط من (ك) و(ص) و(د).

وتشهدُ أنت بمثل شهادته وأفضل، وتشهد عليه أيضًا بما شَهِدَ به على نفسه كما يشهد عليك؛ فإنه مما يجب أن تتحقَّقوه - معشر المريدين - أَنَّ السماوات ومن فيها، والأرضين[1] ومن فيها وما فيهما جميعًا؛ كلٌّ يشهد للمطيع بما أطاع، وللعاصي بما عصى، كما تشهد به عليه جوارحه، ويفرح الكلُّ بطاعته، ويبكي لمعصيته، ويأنس بعمله الصالح، ويتبرَّك به، ويستوحش من عمله السيء ويتشاءم[2] به، وهذا كله منصوصٌ في كتاب الله وعلى لسان رسوله.

[٥٥/أ] ٢ وللعلماء/ اختلافٌ في كيفيته، وقد بيَّنَّاه في «كتاب المشكلين»، فلينظر هنالك.

[الحذرُ من شهادة الزُّورِ بنسبة الفعل لغير الله تعالى]:

وليَحْذَرْ كلُّ أَحَدٍ من شهادة الزور، والكذب على الواحد والجمهور؛ فيكذب على موجودات الأرض ويكذب على السماء.

فمن كَذِبِهِ على الأرض وما فيها شهادتُه على النار بأنها تُحرق، أو على الجمادات كلها بأنها تفعل شيئًا، وهذه شهادة زُور، وكذب كبير، ولا يَحِلُّ لأحد أن يشهد إلَّا بما أدرك بحواسِّه، أو حصل له به العِلْمُ ابتداءً في نفسه، والذي شَاهَدَ بحواسِّه ورأى بعينه أنَّ شيئًا إذا جاور[3] النَّار احترق.

فإذا قال: شهدتُ أن الهشيم إذا اتَّصل بالنار احترق، كان هذا الكلام صِدْقًا، والشهادة حقًّا.

---

(١) في (ك) و(ص) و(د): الأرضون.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): يستشئم، وضبَّب عليه في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) في (د): جاوز.

وإذا قال: إنَّ النار أحرقته، كان كذبًا بَحْتًا؛ لأنَّ النار ليست بفاعلة، وإنَّما هي جماد، والجماد لا يصح منه فِعْلٌ.

فإن قال: خلق الله فيها قُوَّةً تُحرق بها.

قلنا له: هذه شهادةٌ بما لم تَرَ ولا سَمِعْتَ؛ فإنَّ القوة لا تُرى ولا تُسمع، ولا أخبر بها[١] الله ولا الصادق من رُسُلِه المبعوثين إلينا، الذين نراهم ويُكَلِّمُونَنا، فمن أين لك هذا؟

ثُمَّ قدرةٌ تخلق في جماد يَفعل بها فِعْلًا مُثَبَّجًا - فكيف مُتْقَنًا - مُحَالٌ.

فقِفْ يا وقَّاف، وقل: إن الله يفعل ما يشاء، ويخلق ما أراد، وكما لا يَشِذُّ شيء عن علمه لا يَشِذُّ عن قدرته وخَلْقِه.

ومن كَذِبِهم على السماء شهادتُهم بأنَّ الشمس والقمر يُنبتان الحشائش، ويُنتجان الثَّمَرَ من الشجر، وما لها من الفائدة إلَّا ما أخبر الله في كتابه من أنَّهما مخلوقان، مُنزلان مَنَازِلَهما لمعرفة عدد السِّنين والحساب، متعاقبان إلى الانتثار[٢] والسكون، وسوى ذلك لا كان ولا يكون.

وأشدُّه كَذِبُهم على الله؛ كقولهم[٣]: «إنه في السماء»، والسماء محصورة، جِسْمٌ مُقَدَّرٌ[٤]، ووعاء لمخلوق[٥] مُحَدَّدٌ، والباري يتقدَّس عن أن

---

(١) في (د): الله بها.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): على الانتشار، وضعَّفه في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) في (ك): كقولهم تعالى، وفي (ص): كقولهم عنه تعالى، في (د): كقوله تعالى.

(٤) سقط من (ص).

(٥) في (ك) و(ب): مخلوق.

يَحِلَّ بمكان، أو يَحْوِيَه شيء، ولم يفهموا ما أرادت المرأة المسؤولة بذلك؛ من كونه عالي القَدْرِ، عن أن يكون كآلهة الأرض، كما تقول العرب: فلان في السماء رِفْعَةً، وفي النجم جَلَالَةً، وقد قال النبي ﷺ: «إنه بينكم وبين رؤوس رحالكم»[١]، ولا يصح كونه هنالك، ولكن ضرب ﷺ ذلك مَثَلًا للقُرْبِ بالعلم والإحاطة، وهؤلاء يكذبون على الله بما يُضِيفونه[٢] ممَّا لا يليق/ به. ٢ [٥٥/ب]

والذين يجعلون للنار فِعْلًا وللشَّمس[٣] والقمر، ممَّن يجعلُ لله ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٨].

وكذلك شهادتُه على السماوات؛ فإن الشيطان أطمعه أن يرقى إليها بالعِلْمِ، إذ لم يستطع أن يرقى إليها بالرؤية، فأنشد قَوْلَ المُوسَوِي[٤]:

عَزَّنِي أن أرى الديار بطَرْفِي ... فلعلِّي أرى الديار بسَمْعِي[٥]

فسوَّل لهم وصوَّر عندهم أن يُعَرِّفَهم هيئَتها، ويُرِيَهم بالنظر والبصيرة؛ إذ فاتهم بالبصر كيفيتُها، وهيهات هيهات لما توعدون، إن هي إلَّا جهالتكم البُهْمَى، وما أنتم عنها بمُخرجين، ولا تكونوا فيها أبدًا مهتدين، وهذا ممَّا لا يَحِلُّ لمسلم أن يتكلم فيه ولا أن يشهد به.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): يصفونه.

(٣) في (ك): الشمس.

(٤) في (ب): الموسمي، وفي (د): الموسي، وفي الحاشية كلمة لم أتبينها لسوء التصوير، وفوقها: خـ.

(٥) من الخفيف، وهو من أبيات للشريف الرضي، وهي في ديوانه: (٦٥٨/١).

ومِنَ السماوات مَرْئِيٌّ، وهو الكوكب، وذاتُ السماء لا يراها أحد، وإنَّما الذي يُرى هو مُنْقَطَعُ البَصَرِ، وما وراءها غير معلوم، أكثر من أن الأنبياء أخبرت عن الله أنَّ الشمس والقمر والنجوم في أفلاك تَجْرِي بأمر الله، فما رأيناه حق، وما أُخبرنا به صدق، وما وراءه:

تخَرُّصًا وأحاديثًا[١] مُلَفَّقَةً ليست بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرْبِ[٢]

فرَأَوا من رأيهم الشَّطير وعقلهم الفَطِير أن يَرْكَبُوا أفلاك الدراري السبعة باختيارهم، فأجمعوا على أن القمر أقربُها إلينا، وأن زُحَلًا أبعدُها عنَّا، وسائرهما[٣] بينهما، واحدٌ فوق آخَر، وقد بيَّنَّا فساد الترتيب على هذا النظام للموجودات في كتاب «العواصم»[٤].

ويحتمل أن يكون ما قالوا، ولكن الذي تصوَّروا فيه من غير ظن، لا نقول من غير برهان؛ فإنه لم يكن معهم قطُّ - لحظةً من الدهر - أمران:

أحدهما: قولهم: «إنَّ السماوات هي الأفلاك»، وهذه دعوى لا سبيل أبدًا إلى إثباتها بخبر ولا نظر، لا على رأيهم وطريقتهم، ولا من غَيْرِ ذلك.

الثاني: ترتيب هذه الأفلاك واحدًا بعد آخَرَ، حتَّى يكون فَلَكُ القمر في حَيِّزٍ أقرب إلى رؤوسنا، وزُحَل أبعد من سواه منَّا، فهذا وإن كان كلٌّ منهم قد تعرَّض له.

---

(١) في (ص): أحاديث.

(٢) من البسيط، وهو لأبي تمَّام من قصيدته التي يذكر فيها عَمُّوريَّة، ديوانه: (١٧٢/١).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): سائرها.

(٤) العواصم: (ص١٣٣-١٣٤).

ورتَّب صاحب «المَجَسْطِي»[١] كتابه على هذا، وعوَّل على الحساب الذي يؤديه إلى معرفة كسوف الشمس والقمر، فإنَّ ما وراءه لم يقدر عليه أبدًا، ورتَّب مقدمات ونتائج على سبيل البرهان، ثم لمَّا عجز قال: «رصدتُ/ فوجدتُ، ورصد فلانٌ فوجد»[٢]، فخلَّط برهانًا حسابيًا بدَعْوَى رَصْدٍ، تَرَكَّبَ على غير سَنَدٍ، وأقام[٣] دون عَمَدٍ، وهذا لا يصل المرء إلى إبطاله أو إلى صحته أو إلى الشك فيه إلَّا بعد عُمْرٍ طويل في النظر فيه، ولأيِّ معنًى يفعل الحازم ذلك؟ وأي فائدة له فيه؟ وحكمة الله بعد الإحاطة بذلك كله لا تُدرك، وما ظهر إلينا وعاينَّاه من آياته وآثَارِ قدرته فيها أوضح مسلك، فما وراءها إلَّا كل مَغْوَاة، مَهْلَكٌ له موعد، وليس دون الله مُلْتَحَدٌ.

٢ [٥٦/أ]

وممَّا يتعيَّن على كل مسلم أن يشهد به - ما يُكَذِّبُونَه بأجمعهم - ما ثبت في الصحيح سَنَدًا، وهو متواتر نقلًا؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَانشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، قال عبد الله بن مسعود: «انشق القمر؛ وذلك حين سألت كفار قريش رسول الله ﷺ آية، حتى رأيتُ حِرَاءَ من بين فِلْقَتَي القمر، فقال النبي ﷺ: اشهدوا»[٤]، وهذا ممَّا يستحيل عند أرباب الهندسة قولًا، ويَرَوْنَ أنَّ هذا - إن صحَّ - كان تَخْيِيلًا؛ إذ الهيئة لا تتبدَّل أبدًا، وهذا هو الحاجز بين الإلحاد والإيمان، وقد أقمنا عليه في كتاب

---

(١) المَجَسْطِي: هو الكتاب الذي وضعه بَطْلَيْمُوسُ الحكيم في عِلْمِ الهيئة، وعُرِّبَ في زمن المأمون، تاج العروس: (٢٠/ ٩١).

(٢) العواصم: (ص١٧٢).

(٣) في (ك) و(ب): قام.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، ﴿اقتربت الساعة﴾، رقم: (٤٨٦٤-طوق).

«العواصم من القواصم»[1] البرهانَ، وهو موجود في «كتب الأصول»، ونحن من الشهداء على ذلك، وعلى كل ما أخبرنا به نَبِيُّنا، حسب ما فعل خُزَيمة، فَبِهِ[2] سُمِّيَ ذا الشهادتين[3]، وسيتكرَّر القَوْلُ في هذا المعنى إن شاء الله.

وإذا أقام هذه الشهادات وأوصافها[4] كان موصوفًا بالوفاء[5].

* * * * *

---

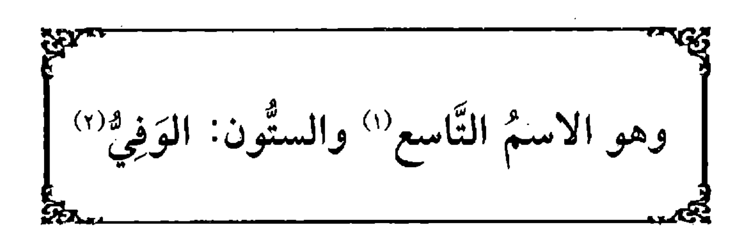
(١) العواصم: (ص١٣٤)، و(ص١٧٢).

(٢) في (ك): فيه، وما أثبتناه مرَّضه في (د)، وكتب في الطرة: فمنها، هكذا قرأتها، ولشَكِّي فيها لم أُثبتها، ورمز لها بـ: خـ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: من المؤمنين رجال، رقم: (٢٨٠٧-طوق).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): أمثالها، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): الوفي.



وهو الاسمُ التَّاسع[١] والستُّون: الوَفِيُّ[٢]

وهو[٣] عند العرب: عبارة عن كل من أكمل ما وَجَبَ عليه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٣٩].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٥٩].

والعَهْدُ في لسان العرب: الإعلامُ بالشيء.

والعَقْدُ: هو ربطه واستيثاقه.

والباري تعالى قد أعلم الخلق بما ألزم، وربطهم إلى ما أمر به ونهى عنه وأحكم، فهو راجع إلى كل مأمور به ومنهي عنه في الامتثال والاجتناب؛ من واجب/ أو مندوب، ومحظور أو مكروه، ولكن أصوله معلومة. ٢ [٥٦/ب]

(١) في (ك): السَّابع، وفي (ص): الخامس.
(٢) في (ب): الوفي: وهو الاسم الرابع والستون، وسقط من (ك) و(ص).
(٣) في (ك) و(ص) و(د): هي، وضعَّفها في (د).

[أنواعُ العهد]:

فمنها: العهد الأوَّل في صُلْبِ آدم، فإن الخلق التزموا أنه الربُّ الواحد، فالوفاء بالعرفان أصلُ العهود والأيمان، ثم الوفاء بالإحسان - وقد تقدَّم بيانه -: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)].

ومنها: الانكفاف عن العصيان، ولا أقلَّ من اجتناب الكبائر، فإن اجتنب الصغائر فهو الوفاء[(٢)].

ومنها: الوفاء للرسل بتصديقهم[(٣)] وبالكتب، وبالمراعاة[(٤)] للوَصاة بها[(٥)]، والوقوف عند حدودها.

ومنها: التبليغ؛ فإن من سمعه لَزِمَه أن يكون ممن يبلغ.

ويلزم الوفاءُ بعهد الآدمي كما يلزم الوفاء بعهد الله؛ فإنه من عهود الله، من حيث أمره بحفظه والوفاء به، حتى لو كان لكافر، قال الله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

ومن أعظم الخلق عند الله إثمًا من غَدَرَ بما عاهد عليه الله ولم يَفِ بما أُلزم[(٦)] بأمر الله، وهو ثُلُثُ النفاق أو رُبُعُه، كما قال النبي في علامات المنافق: «إذا عاهد غَدَرَ»[(٧)].

---

(١) سلف تخريجه.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): الوفي، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) في (ك): بتصاريفهم.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): بالمراعاة.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): فيها، ومرَّضها في (د)، والمبثت من طرته.

(٦) في (د): في خـ: التزم من أمر الله.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ﵄: كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر، رقم: (٢٤٥٩-طوق).

وأَصْلُ الوفاء بالعهد والالتزام للعقد عَقْدُ «لا إله إلا الله»؛ فإنها للمعرفة به، والتصديق برسوله[١]، والامتثال لحدوده، حتى أَمَرَ النبيُّ ﷺ بالوفاء بعهود الجاهلية والقيام بحقوقها، إلَّا ما نُسِخَ من الميراث.

وكذلك الوفاء بعقود المعاملات؛ بما فيها من الوظائف والشروط، ويتبعها من الأحكام والحقوق، كالبيع ونوعه، والنكاح في أصله، والنذور والأيمان والوعد، وذلك كله مُبَيَّنٌ في موضعه.

[حِفْظُ الأسرار]:

وقد يكون العَهْدُ بالقول، وقد يكون بالفعل، مثل أن يُحَدِّثَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ بالشيء وهو يلتفت، فيكون ذلك عهدًا في الحديث بالكتمان، فإذا أظهره فقد غَدَرَ به.

وقد يكون ما يطَّلع عليه المَرْءُ من غيره ممَّا يعلم أنه يضرُّه إظهارُه، فعَهْدُه عليه ألَّا يُطْلِعَ أحدًا عليه، وهو الذي قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جارُه بوائقَه»[٢]، وقال: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»[٣]، إلَّا أن يَتَوَجَّهَ فيما سَمِعَ منه حَقٌّ لغيره عليه؛ فإنه تلزمه الشهادة به عليه.

وتتعارض حينئذ الحقوق، فهذا له عَهْدٌ فيما حدَّث به، وذلك له عَهْدٌ/ فيما وجب له، فاتَّفقت الأمَّة على أنَّ عَهْدَ الذي وجب له الحق أَوْكَدُ من عهد الذي حدَّث بالقول، وسواء كان في إظهار السِّرِّ ضَرَرٌ أو لم يكن إذا جعله عندك سرًّا فإنه لا يجوز لك أن تُحَدِّثَ به. [٢/٥٧أ]

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): برسله، وضعَّفها في (د)، والمثبت من طرته.

(٢) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الثاني.

(٣) تقدم تخريجه في السِّفْرِ الثاني.

والأَصْلُ فيه أنَّ النبي ﷺ دعا ابنته[(١)] فاطمة في مَرَضِه، فأسرَّ إليها بشيء فبكت، ثم دعاها فأسرَّ إليها شيئًا فضحكت، فسألتها عائشة، فقالت: «ما كنت لأُفْشِي سِرَّ رسول الله، فلمَّا مات رسول الله سَأَلْتُها، فقالت: أخبرني أنه مَيِّتٌ من وجعه ذلك فبَكَيْتُ، ثم أخبرني أنِّي أوَّل أَهْلِهِ لحوقًا به فضحكتُ»[(٢)].

ومن كتمان السِّرِّ أُتِيَ يوسف؛ فإنه قال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف:٥]، فكان هنالك من نَقَلَ ذلك إلى الإخوة - على ما روى أهل التفسير[(٣)] - فسَعَوا له في المكيدة.

ومن الأمثال السائرة على ألسنة العلماء: «صُدُورُ الأحرار قُبُورُ الأسرار»[(٤)].

كما أنَّ من الأحاديث الموضوعة الباطلة: «النهي عن إفشاء سِرِّ القَدَرِ»[(٥)]، فما له سِرٌّ، وإنَّما هو كله جَهْرٌ، القضاء من الله، والأمر كله لله، لا[(٦)] يُسأل عمَّا يفعل[(٧)].

---

(١) في (ك): بنته.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم: (٤٣٣٣-طوق).

(٣) لطائف الإشارات: (١٦٨/٢).

(٤) حلية الأولياء: (٣٧٧/٩).

(٥) حديث: «لا تكلَّموا بشيء من القدر؛ فإنه سر الله، فلا تفشوا سر الله» خرَّجه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة عن ابن عمر رضي الله عنهما: (٦٢٩/٢)، رقم: (١١٢٢)، وينظر: الشريعة للآجُرِّي: (٩٤٠/٢).

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): ولا.

(٧) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٩٥/٢).

ومن الأمثال السائرة ولا يصح إسنادها: «القلوب عِيَابٌ، والشِّفَاهُ أقفالها، والألسنة[١] مفاتيحها»[٢].

وقد كانت هذه الخَصْلَةُ كريمةً مُتَّفَقًا عليها في الجاهلية، قال قيس بن الخَطِيم:

أَجُودُ بمضنون التِّلَادِ وإنَّني ... بسِرِّي[٣] عمَّن سَالَنِي لضَنِينُ

إذا جاوزَ الإثنين سِرٌّ فإنَّه ... ببَثٍّ وتكثير الوُشاة قَمِينُ

وإن ضَيَّع الأقوامُ سِرًّا فإنَّني ... كَتُومٌ لأسرار العَشِيرِ أمينُ

يكون له عندي إذا ما ضَمِنْتُه ... مكان سُوَيْد[٤] الفؤاد كَمِينُ[٥]

واختلف الناس في قوله: «إذا جاوز الإثنين»:

فقيل: هما المتحدثان به؛ قائله وسامعه[٦].

وقيل: أراد الشفتين[٧].

والأوَّل أصحُّ.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): اللسان، وضبَّب عليها في (د)، والمبثت من طرته.

(٢) سراج الملوك: (٢/٤١٤).

(٣) في (د): بسيري.

(٤) في (ص) و(ب): مكان سويداء، وفي (د): مكان بسويداء.

(٥) الأبيات من الطويل، وهي من قصيدة لقيس بن الخطيم الأنصاري، وهي في أمالي القالي: (١/٦٨٠-٦٩٠)، مع بعض الاختلاف، وفي لباب الآداب لأسامة بن منقذ: (ص٢٣)، ونسبها مرة إلى جميل بن معمر: (ص٢٤٠)، وفي ديوان قيس بن الخطيم: (ص١٦٢، ٢٤٠)، وفيها جميعًا: «بسرك» بدل «بسري».

(٦) سراج الملوك: (٢/٤١٨).

(٧) سراج الملوك: (٢/٤١٨).

وقد قال الشَّاعر:

أَلَــم تَــر أَنَّ غُــواة الرجــالِ ... لا يتركــون أديمًــا صَــحِيحَا

فــلا تُفْـشِ سِــرَّكَ إلَّا إليــكَ ... فــإنَّ لكُــلِّ نَـصِيحٍ نَـصِيحَا[1]

وقال آخَرُ:

مــا كــلُّ معلــوم يبــاح بِــهِ ... احْــذَرْ لــسانك مــن جَوَانِبــهِ

فمـرارة الكتمـان أعـذب مـن ... بــث تُحَــاذِرُ مــن عواقِبــهِ/

لــيس الزمــان كمــا مــضى ... أيَّــامَ[2] تكْــرَعُ فــي مَــشَارِبِهِ

هــذا زمــانٌ لــو ذُكِــرْتَ بِــهِ ... ضَحِكَ[3] الحُسَامُ إلى مَضَارِبِهِ[4]

٢
[٥٧/ب]

وقد ثبت أَنَّ حفصة بنت عمر لمَّا تَأَيَّمَتْ عَرَضَها على أبي بكر، فقال: «ليس لي اليوم رغبة في ذلك، ثم عرضها على عثمان فلم يراجعه، قال: فكنتُ أَوْجَدَ عليه مِنِّي على أبي بكر، ثم خطبها النبي ﷺ فلَقِيَه عثمان فقال له: ما منعني من أن أرجع إليك في شأن حفصة حين كلَّمتني فيه إلَّا أني قد كنتُ سمعتُ رسول الله ﷺ يذكرها، فما كنت لأُفْشِي سِرَّ رسول الله»[5].

---

(١) البيتان من المتقارب، وينسبان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهما في ديوانه: (ص٤٢)، بتقديم وتأخير، وفي بهجة المجالس: (١/١٠٠).

(٢) في (ب): أيان.

(٣) في (ص) و(د): صحك.

(٤) الأبيات من الكامل، وهي في سراج الملوك: (٢/٤٢٢)، وفيه: «من جوالبه».

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، رقم: (٥١٢٢-طوق)، ووقع في سياق متنه عند ابن العربي قَلْبٌ، فمكان عثمان أبي بكر، ومكان أبي بكر عثمان.

وثبت من كل طريق وعند كل فريق أنَّ النبي كان يُسِرُّ إلى حُذَيفة بن اليمان في الفتن وشأنها، والمنافقين وأعيانها، وكان مخصوصًا بذلك عنده[١].

ولقد جَهِدْتُ منذ[٢] زمان الطَّلَبِ للعلم إلى اليوم في أن أطَّلع على وجه اصطفائه حذيفة لذلك فما قدرتُ عليه، إلَّا أنه قد ثبت أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله؛ يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر»[٣]، ورسول الله ﷺ يُجِيبُه عليه، فالله أعلم كيف كان سَمْحُه له في الجواب[٤] عن تلك السرائر.

وقد كان عند أبي هريرة من ذلك شيء، وما أُراه إلَّا من كثرة حِفْظِه لما كان يسمعه، لا من جهة أنه خُصَّ في ذلك بشيء، فإنه قال: «حفظتُ عن رسول الله ﷺ وِعَاءَيْنِ؛ أمَّا أحدهما فقد بَثَثْتُه، وأمَّا الآخَرُ فلو بَثَثْتُه لقُطِعَ منِّي هذا البُلْعُوم»[٥].

---

(١) وسمَّاه أبو هريرة رضي الله عنه بصاحب سر رسول الله ﷺ، أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، رقم: (٣٨١١-بشار)، وأخرج مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه: «أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة»، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، رقم: (٢٨٩١-عبد الباقي).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): من، وضعَّفها في (د)، وما أثبتناه صحَّحه بطرته.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ رقم: (٧٠٨٤-طوق).

(٤) قوله: «في الجواب» سقط من (ص)، وفي (ك): السرائر في الجواب.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب حفظ العلم، رقم: (١٢٠-طوق).

[شكوى ابنِ العربي من أهل بلده]:

وكم عندنا من العلوم، وماذا جمعنا من الفوائد، ولم نَجِدْ لها في هذه الأقطار مَحَلًّا، ولا رأينا لها أهلًا، فخَزَنَّاها فيما بيننا وبين ربنا، وادَّخرناها ذخيرة لمُوازنة ذَنْبِنَا.

ومن أعظم السِّرِّ السِّرُّ الذي بين العبد وبين الربِّ، وذلك فِعْلُ طاعة لا يعلمها إلَّا هو، وسِرُّ معصية لم يطَّلع عليها غيره.

فأمَّا سِرُّ الطاعة فخَزْنُه أفضل، وإفشاؤه جائز إذا أُمنت منه الغوائل، وقد تقدَّم بيانه.

وأمَّا سِرُّ المعصية فإفشاؤه معصية أخرى، ولا يزال العبدُ في رجاء من المغفرة ما لم يُحَدِّثْ بمعصيته، فإذا حدَّث بها كان الرجاء أضعف، وقد تقدَّم حديث ابن عمر في مناجاة الرب للعبد المذنب، وقوله: «أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وأمَّا إذا تاب الرجلُ من الذنب[2] الذي لم يطَّلع عليه غيره؛ فقد بيَّنَّا أنَّ/ الأفضل كَتْمُه، وإفشاؤه جائز إذا صحَّت فيه نية التوبة. ٢ [٥٨/أ]

موعظة: [في متعلَّقات الوفاء وثوابه]

في هذا الباب تنبيه على فُصُولٍ من متعلقات الوفاء وثوابه في باب الاعتقاد والعمل:

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) في (ك): الذنوب، وضرب عليها في (ك).

الأوَّل: أنَّ من أوفى[1] بعَهْدِ الله إذا عاهد عليه أو عَهِدَ به إليه في دار المحنة بالخِدْمَةِ جُوزِيَ في بساط النعمة بدار الكرامة بالرضى والرؤية[2].

الثاني: من أوفى بعَهْدِ الله في مجانبة الضلال رُفِعَ عنه الإِصَرُ[3] والأغلال.

الثالث: من أوفى بعهده في حِفْظِ السِّرِّ ضُوعِفَ أجرُه من البِرِّ[4]، وبيانُه أنه لا تتطرَّق إليه خيانة، ولا تجري عليه مهانة.

الرَّابع[5]: من أوفى[6] بعَهْدِ الله فلم يُؤْثِرْ عليه غَيْرَه لم يمنعه خَيْرَه[7]، فإن نَظَرَ إلى سواه وَكَلَه إليه.

الخامس: من أوفى[8] بعهد الله في عِرْفَانِه وَفَى له بإحسانه[9].

السَّادس: من أوفى[10] له بملازمة الحسنات جازاه بغُفران السيئات.

السَّابع: من أوفى بعهده معه في شرائه ومعاملته وَفَى له بمواصلته في دار كرامته.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب) و(د): الوفاء، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.
(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (١/٨٤).
(٣) في (ب): الإصرار.
(٤) لطائف الإشارات: (١/٨٤).
(٥) قوله: «من أوفى بعهده في حِفْظِ السِّرِّ ضُوعِفَ أجرُه من البِرِّ، وبيانه أنه لا تتطرَّق إليه خيانة، ولا تجري عليه مهانة. الرَّابع» سقط من (ص).
(٦) في (ص): وفى.
(٧) لطائف الإشارات: (١/٨٤).
(٨) في (ص): وفى.
(٩) لطائف الإشارات: (١/٨٤).
(١٠) في (ص): وفى.

الثَّامن: من أوفى[١] لله بالتبرِّي من الحَوْلِ والقوَّة وسلَّم الأَمْرَ كله له وَفَى له بالعصمة[٢]، وبلَّغه آماله[٣].

التَّاسع: من أوفى[٤] لله بالتنصُّل أعطاه الله ما شاء من التفضُّل[٥].

العاشر: من كان لله وفيًّا بالمحبة جازاه الله بالقُرْبَةِ[٦].

الحادي عشر: من قام بحق الوفاء كان من أهل الاصطفاء.

الثاني عشر: من وفَّى لله بترك الشهوات وفَّى الله له بإكمال العِدَات[٧].

الثالث عشر: لا تقولوا لغيري: «ربي»، أقول لكل من فعل ذلك منكم: «عبدي»، ولا أجعل لأحد عليه سلطانًا بعدي[٨].

قال الله سبحانه: ﴿وَلَبِن زَالَتَآ إِنَ آمْسَكَهُمَا مِنَ آحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١]، ولا قَبْلَ له ولا بعد، ولكن حقيقته إن أمسكهما أَحَدٌ غيره، ولمَّا كان القَبْلُ للشيء والبَعْدُ غَيْرَيْنِ له عبَّر به عنهما أو عن أحدهما.

---

(١) في (ك) و(ص): وفى.

(٢) لطائف الإشارات: (١/٨٤).

(٣) في (ك) و(ص): أمله.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): وفى.

(٥) لطائف الإشارات: (١/٨٤).

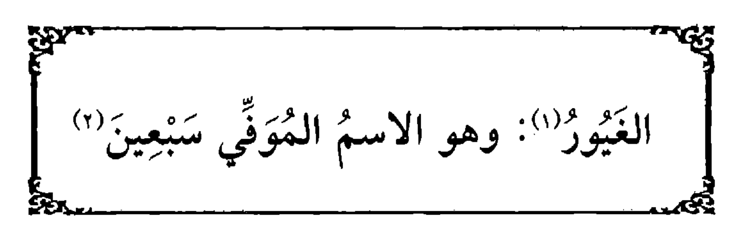
(٦) لطائف الإشارات: (١/٨٤).

(٧) لطائف الإشارات: (١/٨٥).

(٨) لطائف الإشارات: (١/٨٥).

وقـــال تعـــالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥]، وهـذا إنَّمـا يكـون عـن تَمَكُّـنِ الغيـرة مـن القلـب، فـلا يرضى أن يشارك مع الله في سلطانه سواه، وبه يُقال له: «الغَيُورُ».

* * * * *



الغَيُورُ[١]: وهو الاسمُ المُوَفِّي سَبْعِينَ[٢]

٢

قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «أتعجبون من/ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أغيرُ منه، [٥٨/ب] والله أغير منِّي»[٣].

وقال صلى الله عليه: «لا أَحَدَ أغير من الله»[٤].

ومن غَيْرَتِهِ حرَّم الفواحش؛ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ.

والغَيْرَةُ في لسان العرب: تَغَيُّرُ النفس عند سماع ما يكره عن العِرْضِ والمال أو رؤيتِه.

وظاهره سماع ما يكره في العِرْضِ، وإذا تغيَّرتْ نفسه عند السماع أو الرؤية دَفَعَ عن نفسه، كما قال سعد: «لو وجدتُ مع امرأتي رجلًا لضربته بالسيف غير مُصْفَحٍ[٥] به»[٦].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الثامن والستون، وفي (ص): السَّادس والستون، وفي (ب): الخامس والستون.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن المغيرة ﵁: كتاب الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلًا فقتله، رقم: (٦٨٤٦-طوق).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود ﵁: كتاب التفسير، ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾، رقم: (٤٦٣٤-طوق).

(٥) في (د) و(ب): مفصح.

(٦) هو حديث المغيرة السَّابق.

فأُضيفت الغَيْرَةُ إلى الله حين منع الفواحش بقوله في تحريمها، وبحدوده التي وَضَعَ في الزجر عنها، وبنِقْمَتِه من فاعلها، أو بعذابه له، وهي من الخصال الكريمة.

يُروى أنَّ النبي ﷺ قال لعمر: «دخلتُ الجنة فإذا جارية توضَّأُ على باب قَصْرٍ، قلتُ: لمن هذا؟ قالت: لعمر بن الخطاب، فأردتُ أن أدخله فذكرتُ غَيْرَتَك، فبكى عمر، وقال: وعليك أغار يا رسول الله»[١].

وإذا كانت الغيرة متمكنة فيك أيها العبد ذَبًّا عن[٢] حريمك؛ فالغيرةُ في الذَّبِّ على[٣] حُرمات الله أوكدُ عليك وأولى بك.

وقد رُوي أنَّ رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن امرأتي لا ترد يد لامس، قال له: طَلِّقْها، قال: إني أحبها، قال: فاستمتع بها»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي ﷺ، رقم: (٣٦٧٩-طوق).

(٢) في (د): على.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): عن.

(٤) أخرجه أبو داود في السنن عن ابن عباس ﷺ: كتاب النكاح، باب في تزويج الأبكار، رقم: (٢٠٤٩-شعيب)، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب الطلاق، الخُلع، رقم: (٥٦٣٠-شعيب)، ورجَّح إرساله، وقال فيه الإمام أحمد: «هذا الحديث لا يثبت، وليس له أصل»، وهناك من صحَّحه من الأئمة؛ منهم الحافظ المنذري، ينظر: البدر المنير: (١٧٩/٨-١٨٠)، ونقل الإمام ابن يوسف المقدسي تضعيف ابن العربي لهذا الحديث؛ مُقِرًّا له ومُحْتَجًّا به، أقاويل الثقات: (ص١٨٩).

وتأوَّله قَوْمٌ، والحديثُ ضعيفٌ لا أصل له، فلا تشتغلوا به، وقد تكلَّمنا على وُجُوهِهِ في موضعه من كتاب «الأمد»[١] وغيره.

وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله يغار، والمؤمن يغار»[٢].

وأشدُّ ما تكون الغَيْرَةُ في المشاركة في المحبوب، والباري يحب الطاعة ويكره المعصية[٣]، ويحب منها التوبة والطهارة، ويحب التقوى، فلا ينبغي أن يشارك معه في ذلك سواه، ولتُجْعَلْ له خالصةً كما بيَّنَّاه في اسم «المخلص».

ومن أفضل وجوه الغيرة ألَّا تنتهك لغيرك حُرمة، كما تكره ذلك لنفسك، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: «إني أُحب الزنا، فقال[٤] له[٥]: أتحب أن يُزنى بأمك أو بأختك أو بنتك[٦]؟ قال: لا، قال: فلا تفعل ذلك بغيرك»[٧]، وهو حَدِيثٌ حَسَنُ السَّنَدِ، حَسَنُ المَعْنَى، وذلك من صفات «الكريم».

---

(١) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٢٢٢-٢٢٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى، رقم: (٢٧٦١-عبد الباقي).

(٣) قوله: «ويكره المعصية» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): قال.

(٥) سقط من (ك).

(٦) في (ب): ببنتك.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: (٣٦/٥٤٥)، رقم: (٢٢٢١١-شعيب).

الكَرِيمُ[١]: وهو الاسمُ الحادي والسَّبْعُونَ[٢]

وهو من الأسماء الشريفة، والخصال الكريمة، الجامعة لخصال الخير والشرف؛ دِينًا ودُنْيَا، العامة فيها[٣]، المتناولة من كل وجه بها[٤]، وقد بسطنا القَوْلَ فيه في «الأمد الأقصى»[٥]؛ في وصف الباري بالكريم سبحانه، فأمَّا الذي يختصُّ بالعبد من ذلك/ فنأخذُ فيه هاهنا إن شاء الله. [٥٩/أ] ٢

ويجب أن تعلموا - علَّمكم الله واستعملكم - أنَّ أهل العربية متفقون على أن الكَرَمَ كما قُلْنَا: عبارة عن خصال الخير.

تقول العرب: كَرُمَ فلان؛ إذا كان كريمًا، أي: جامعًا لها.

وقد يُعبَّر به عمَّن كان فيه بعضها.

كما تقول العرب[٦] للرجل الكثير الخَيْرِ عند الناس: كريم.

وقد يكون الذي يتَّصل خيره.

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٢) في (ك): التَّاسع والستون، وفي (ص): السَّابع والستون، وفي (ب): السَّادس والستون.

(٣) في (ك) و(ب): فيهما.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): لها.

(٥) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٥١/١-٤٦٧).

(٦) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

[أوصافُ شجرة الكَرْم]:

وقد يكون الذي يَسْهُلُ جانبُه ولا يخشن، ويَقْرُبُ تَنَاوُلُ ما عنده ولا يبعد، ومن ذلك سُمِّيَتْ شجرةُ الكَرْمِ كَرْمَةً؛ لأنها جمعت أوصافًا سبعة كلها ممدوحة[1]:

الأوَّل: لُطْفُ شجرتها.

الثاني: طِيبُ ثمرتها.

الثالث: عدم مضرتها؛ إذ لا شوك فيها.

الرابع: قُرْبُ تناول جناها؛ فإنه قريب من اليد.

الخامس: أنه سَهْلُ القطاف.

السَّادس: أنه يؤكل أَخْضَرَ ويابسًا.

السَّابع: أنه يُتَغَذَّى به طعامًا وشرابًا.

ألا ترى أنَّ النخلة وإن كانت كريمة فإنها بعيدة المتناول، لها شَوْكٌ، وفي قَطْعِها عُسْرٌ؛ لجفاء العِثْكَال.

[من معاني الكريم]:

ولهذا المعنى تَفَطَّنَتْ مَلِكَةُ[2] سَبَأ حين قالت: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٢٩].

---

(١) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٤٥٢)، وأَصْلُه في شرح الأسماء لأبي القاسم القشيري: (ص١٦٣)، والمقصد الأسنى لأبي حامد: (ص١٠٥).

(٢) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

فقيل: لكَرَمِ صاحبه[١].

وقيل: لخَتْمِه[٢].

وقيل: لأن الطير حملته، وما حملت قط كتابَ أَحَدٍ، فعلمت أن لصاحبه قَدْرًا عظيمًا[٣].

وقيل: لحُسْنِ خَطِّه.

وقيل: لفصاحته وبيانه؛ فإنه مختصر اللفظ، فصيح المعنى، مصيب الغرض[٤].

وكذلك تقول العرب للحِصَانِ الذي تُحْمَدُ أخلاقه: طِرْفٌ كريم.

وقد تُعَبِّرُ بالكريم عمَّن انتفت عنه المكاره والدناءات، ولا شك[٥] أنه لا يشرف [الإنسانُ][٦] إلَّا بنفي الدناءات وبما فيه من المكرمات، وهذا بهذا، لأنهما متلازمان[٧].

وقد تقول العرب: فلان كريم، بمعنى مُكْرِم، وذلك من خصال الشرف وكمال السُّؤْدَدِ أن يُكرم سواه.

---

(١) تفسير الطبري: (٤٨/١٨-التركي)، والكشف والبيان: (٢٠٦/٧).

(٢) تفسير الطبري: (٤٨/١٨-التركي)، ولطائف الإشارات: (٣٥/٣).

(٣) لطائف الإشارات: (٣٥/٣).

(٤) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٥٣/١).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): إلا، وضرب عليها في (د).

(٦) صورة الكلمة في (د): الانــا، وتحتمل: الإناء، والله أعلم، وسقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٧) في لطائف الإشارات (٣٥/٣): «الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة».

وقال النبي ﷺ: «لا تقولوا للعنب الكَرْم[١]، إنَّما الكَرْم[٢] الرجل المؤمن»[٣]، وفي رواية: «قلب المؤمن»[٤]، صَحِيحٌ صَحِيحٌ[٥].

[خِصَالُ الكريم]:

ثم رأيتُ جماعة من الصوفية قد رَكَّبُوا على القول بأنَّ الكريم: الشريف القَدْرِ، الحسن الذات والصفات، في نَحْوٍ من عشرين عبارة[٦]:

منها: أنَّ الكريم هو الذي يُعْطِي على أَلَّا يُعَاوَض، أو[٧] يعطي بغير سبب، أو الذي لا يحتاج معه إلى وسيلة.

رُوي أن حاتمًا الطائيَّ جاء إليه رجل فقال له: «اعتَفَيْتُكَ، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا الذي أحسنتَ إليه في العام الماضي، قال:/ مرحبًا بمن تشفَّع إلينا بنا»[٨]. ٢ [٥٩/ب]

---

(١) في (ك): الكريم.

(٢) في (ك): الكريم.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب كراهة تسمية العنب كَرْمًا، رقم: (٢٢٤٧-عبد الباقي).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب كراهة تسمية العنب كَرْمًا، رقم: (٢٢٤٧-عبد الباقي).

(٥) سقط هذا الحديث من (ص).

(٦) تنظر هذه الوجوه أيضًا في: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٥٣/١-٤٥٦)، وأصل بعضها في شرح الأسماء لأبي القاسم القُشَيري: (ص١٦٢-١٦٣).

(٧) في (ك): و.

(٨) أحكام القرآن: (١٢٥١/٣).

ومنها: أنَّ الكريم الذي لا يقتصر بعطائه على مستحقه، لا كما قال الطائي:

إنَّ الصنيعة لا تكون صنيعةً حتى يُصاب بها طريق المَصْنَعِ[(١)]

بل كما قال الآخَر: «أَمْطِرِ المعروف مطرًا، فإن لم تصادف أهله كنت أنت[(٢)] من أهله»[(٣)].

ومنها: أن يرى كلَّ من قَبِلَ منه ما أعطاه مُسْتَحِقًّا شكره عليه، حيث جعله أهلًا لأن يُعْطِيَه.

ومنها: ألَّا يعطي ما يحتاج لمن يحتاج، بل يعطي مع الاستغناء عن عطائه، وهي حقيقة الهَدِيَّةِ.

ومنها: ألَّا يقطع عطاءه عمن ذمَّه، أو لا يمتنع[(٤)] من ابتداء عَطِيَّتِه بسبب مَذَمَّتِه له وكراهيته.

ومنها: أن يُعطي قبل أن يُسأل، قال الشَّاعر:

رأى خَلَّتِي من حيث يخفى مكانها فكانت قَذَى عينيه حتى تَجَلَّتِ[(٥)]

---

(١) نَسَبَهُ في أدب الدنيا والدين (ص٢٠٦) إلى حسَّان ﷺ، وهو في زيادات ديوانه: (١/٤٩٣-عرفات).

(٢) سقط من (ك).

(٣) الإحياء: (ص١١٥٤).

(٤) في (د): يمنع.

(٥) من الطويل، وهو من جملة أبيات كما في الأغاني: (١٤/٢٢٠)، والحماسة البصرية: (١/١٣٥)، والكامل: (١/١٧٣)، والخزانة: (٢/٢٦٥)، منسوبًا لعبد الله بن الزبير الأسدي، وفي أمالي القالي: (١/٩٠)، غير منسوب، ونُسِبَ إلى غيره.

ومنها: أن يُعطي لمن لم يُصَرِّحْ بسؤاله، كما قال الشَّاعر في الكافر:

أَأَذْكُـرُ حـاجتي أم قـد كفـاني حيائي منك إنَّ شيمتك الحياءُ[١]
إذا أثنـى عليـك المـرءُ يومًـا كفـاه مـن تعرضـه الثنـاءُ[٢]

ومنها: أنَّ الكريم هو الذي إذا قَدَرَ عفا.

ومنها: أن الكريم هو الذي إذا وَعَدَ وفى.

ومنها: أنه الذي لا يُضَيِّعُ من قَصَدَه.

ومنها: أنه الذي لا ينتقم.

ومنها: أنه الذي لا يُعَاتِبُ على الذنب بل يَغْفِرُه غَفْرًا.

وهذه المعاني تكثر، ولو تَتَبَّعَ المَرْءُ خصال الجُودِ لجاءت منها بِحَارٌ من القول.

[تكريمُ بني آدم[٣]]:

ويا أيها المريد؛ ولم لا تكون كريمًا؟ وقد كرَّمك الله سبحانه جِنْسًا؛ بأن خَلَقَكَ آدَمِيًّا، حَيًّا، عالمًا، قادرًا، مُتَكَلِّمًا، سَمِيعًا، بَصِيرًا، مُرِيدًا[٤]، وأكرمك بأن سَخَّرَ لك البَرَّ والبحر، وسَخَّرَ لك المَحَالَّ التي تتصرَّف عليها فيه؛ من الفُلْكِ والأنعام.

---

(١) في (ص): حيائي إن شيمتك الحياء، وفي (ك) و(ب): حياؤك إن شيمتك الحياء.

(٢) من الوافر، وهما من قصيدة لأُمَيَّة بن الصلت يمدح عبد الله بن جُدعان، وهي في ديوانه: (ص١٧-١٨).

(٣) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٤٦٣-٤٦٤)، وبعضه في الكشف والبيان: (٦/١١٤-١١٥).

(٤) في (ك) و(ص): مُدَبِّرًا.

ومنها: أن جَعَلَكَ قائمًا لا تَنْكَبُّ، فكُنْ قائمًا بالحق غير مُكِبٍّ.

ومنها: أن جَعَلَ تصرفك بيديك، حتى يصل إلى فمك[1] غذاؤك كما يحبه قَلْبُك، وسائر الأَكَلَةِ يحاولونه بأفواههم.

ومنها: أنه بَدَأَكَ بالنعمة قَبْلَ أن أَمَرَكَ بالخِدْمَةِ.

وقالت طائفة من العلماء: «إن قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]: عَامٌّ في لفظه، خاصٌّ في معناه، ألا ترى إلى قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، / وإنَّما أهانه بأنه امتنع من السجود له، ولم يخلق له القدرة عليه، فالكرامة في الطاعة، وغايتُها في تَتْرِيبِ الوجه ووَضْعِه - وهو أرفع عُضْوٍ - على أهون موجود؛ وهو التُّراب»[2]. ٢ [٦٠/أ]

ولهذا قال النبيُّ ﷺ لمولاه أَفْلَحَ: «تَرِّبْ وجهك يا أفلح»[3]، وانصرف هو ﷺ من الصلاة وفي وجهه الكَرِيمِ الطِّينُ[4]، سِيمَاءٌ من السجود كريمة، على غُرَّةٍ كريمة.

فإن قيل: فإن كان أراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الخصوص - وهم المؤمنون - فلم أَطْلَقَ القول[5]؟

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): فيك.

(٢) ينظر: لطائف الإشارات: (٣٦١/٢)، ومنه أفاد في: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٤٦٤/١).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): اللفظ، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

قلنا: عنه ثلاثة أجوبة[١]:

الأوَّل: ما قدَّمنا من أنه عامٌّ، فما من أحد من بني آدم إلَّا وهو تحت نعمة الله وكرامتِه في الظاهر وتَعْظِيمِه، وقد يكون حقيقةً إذا كان معه الإيمان، وقد يكون استدراجًا إذا عَرِيَ عن الإيمان.

الجواب الثاني: أنه لا يُستنكَر أن يكون اللفظ عامًّا والقصد خاصًّا، وذلك في القرآن والسنة والعربية كَثِيرٌ.

الثالث: أنَّ الله أَطْلَقَ القَوْلَ بالكرامة على صفة الآدَمِيَّةِ حتى يكون الكَرَمُ ابتداءً منه لا يُقابِله عِوَضٌ.

[وُجُوهُ كرامة الله لعباده]:

قال الإمام الحافظ[٢] رضي الله عنه: وكذلك هو حقيقةً، فإنَّ خيرًا يسيرًا من كرامة الله ونِعْمَتِه لا يقابله شُكْرُ الدنيا، وكَرَامَةُ الله للعبد من وجوه[٣]:

أحدها: أَنْ خَلَقَ له معرفتَه.

الثاني: أن يسَّر له عبادتَه.

الثالث: أَنْ مَنَحَه مناجاته، فيُقَالُ: مع من هو فلان؟ فيقال: يناجي الله؛ إذا كان يصلي، وأيُّ كرامة تُماثل هذه الكرامة؟

---

(١) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٤٦٤-٤٦٥).

(٢) في (ب): قال الإمام ابن العربي، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٣) تنظر بعض هذه الوجوه في: لطائف الإشارات: (٢/٣٦٠-٣٦١)، وبعضها في الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٤٦٥).

الرابع: أنه إن نَقَضَ التوبة لم يُمْنَعْ[١] من قَبُولِها بعد النقض إذا أعادها.

الخامس: أنه يغفر عَشَرَةً من الذنوب بطاعة واحدة.

السَّادس - أعظمها -: أنه يفرح بتوبته؛ فالله أفرح بتوبة العبد من رجل طلب[٢] ناقته في دَوِيَّة مهلكة، فلمَّا يئس منها وأيقن بالهَلَكَةِ ونام في أصل شجرة استيقظ فوجدها[٣].

السَّابع: أنه إِنْ ذَكَرُوهُ ذَكَرَهُمْ، وإن استغفروه غَفَرَ لهم، وإن سألوه أعطاهم، وإن استقربوه وجدوه «قريبًا»، وإن دعوه أَلْفَوْهُ «مجيبًا»، وإن اضطروا إليه[٤] أَلْفَوْهُ «مختارًا»، لما يوافقهم «وهَّابًا»، وهو: **الثامن، والتاسع، والعاشر، والحادي عشر**.

الثاني عشر: أنَّهم قيل لهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٦]، ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة:٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٤]، وهو: **الثالث عشر، والرابع عشر**.

[٦٠/ب] **الخامس عشر**:/ «أنه يرفع الحجاب بينه وبينهم - وهو رِدَاءُ الكبرياء على وجهه - في جنة عَدْنٍ فيرونه»[٥]، ولا منزلة فوقها، ولا مطلب بعدها.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): يمتنع.

(٢) في (ص): ضلَّت.

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (ك) و(د): إليها.

(٥) تقدَّم تخريجه.

وإذا تحقَّقتم أن الكريم من جَمَعَ خصال الخير ؛ فحَصِّلُوها اعتقادًا وقَوْلًا وعَمَلًا ؛ تَتَحَقَّقُ لكم الصفة ، ويَعْرِفُها فيكم أَهْلُ المعرفة.

[آثارٌ في الجُودِ بالمال]:

ومن أوصاف المُرِيدِ الكريمة التي بها يكون كريمًا في أفعاله أَلَّا يَعْتَدَّ بماله ، بل أَلَّا يدَّخره عن أصحابه ، إذ لا يَتِمُّ الكَرَمُ في الذات إلَّا بأن يَتْبَعَهُ الكَرَمُ في الفعل.

وأَوَّلُه: المواساة ؛

وثانيه: الإيثار بالمال ؛

وثالثه: الإيثار بالأهل ؛

ورابعه: الإيثار بالنفس.

فأمَّا المواساة فهي معلومة وكثيرة في الخلق ؛ قديمًا وحديثًا ، على اختلاف مراتبهم ، وتباين أزمنتهم ، وذلك ينشأ من المعرفة بالله وبالدنيا وبمكارم الأخلاق ؛ فتَسْخُو النفس بما تعلم أن لا قَدْرَ له ، وأنَّ قَدْرَه حقير.

ولم يكن في هذه المرتبة العالية أَحَدٌ إلَّا رسول الله ، كان أجود الناس ، «وكان أجود ما يكون في شهر رمضان إذا لَقِيَهُ جبريل ، فلَرَسُولُ الله حينئذ أجود بالخير من الريح المرسلة»[١].

وسأله رجل فأعطاه غَنَمًا بين جبلين ، فأدرك قومه وقد أسلم ، وقال: «أسلموا ، فإني رأيت مُحَمَّدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر»[٢].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس ﷺ: كتاب الفضائل ، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا ، وكثرة عطائه ، رقم: (٢٣١٢-عبد الباقي).

وقال ﷺ: «لا تجدوني بَخِيلًا، ولا جَبَانًا، ولا كَذَّابًا»[١].

وكان لا يَرُدُّ أحدًا سأله شيئًا، وما سُئِلَ شيئًا[٢] قطُّ فقال: لا[٣].

وقال صفوان: «أعطاني رسول الله وإنَّه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يُعطيني حتى إنَّه لأحبُّ الناس إليَّ»[٤].

وجاءه أبو بكر بماله كله[٥]، وعمر وعبد الرحمن بن عوف بنصف مالهما[٦].

ووَاسَتِ الأنصارُ المهاجرين بأموالهم، فلمَّا فتح الله الفُتُوحَ رُدَّ إلى كل أَحَدٍ مالُه، وفيه روايات.

وأمَّا الإيثارُ فقد آثَرَهُ أبو بكر بجميع ماله وبنفسه؛ خرجت حَيَّةٌ من جُحْرٍ[٧] في الغار فسَدَّ أبو بكر عنه[٨] الغار برِجْلِه، فنهشته فرقاه رسول الله[٩].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن جُبَير بن مُطْعِم ﷺ: كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، رقم: (٣١٤٨-طوق).

(٢) في (د): شيء.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه، رقم: (٢٣١١-عبد الباقي).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن صفوان ﷺ: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه، رقم: (٢٣١٣-عبد الباقي).

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) تقدَّم تخريجه.

(٧) في (ك): حجر.

(٨) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٩) ينظر: سيرة ابن هشام: (١٢٧/٢).

وآثَرَهُ عَلِيٌّ بنفسه؛ تَسَجَّى ببُرْدِهِ[١] الحَضْرَمِيِّ ونام على فراشه[٢]، وخرج رسول الله فارًّا بنفسه، مهاجرًا إلى ربه.

ووَقَاهُ طَلْحَةُ بيده فضُرِبَ فيها[٣] فشَلَّتْ[٤].

ونزل سَعْدُ بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف عن شَطْرِ ماله وإحدى زوجتيه فلم يَقْبَلْ[٥].

وقد كان المواساةُ والإيثارُ في الجاهلية من أكرم الخصال، وقِصَّةُ كعب بن مَامَةَ في إيثاره لأخيه النَّمَرِي بالماء حتَّى مات عَطَشًا/ مشهورة[٦].

ولإيثار الأنصار مَدَحَهُم الله في كتابه وأثنى عليهم، فإنَّ صِلاتهم تكاثرت، ومواساتهم تظاهرت، وإيثارهم توالى، حتَّى رُوي - واللفظ للبخاري -: «أنَّ رجلًا جاء النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجَهْدُ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلَّا الماء، قال رسول الله: من يُضِيفُ هذا الليلة يرحمه الله؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق إلى امرأته فقال: أَكْرِمِي ضَيْفَ رسول الله؛ لا تدَّخريه شيئًا، فقالت: ما عندنا إلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ، فقال: هَيِّئِي طعامك، وأَصْبِحِي[٧] سِرَاجَك، ونَوِّمِي صبيانك إذا

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): برده.

(٢) سيرة ابن هشام: (١٢٤/٢).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): فيه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر طلحة بن عُبَيد الله، رقم: (٣٧٢٤-طوق).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) الأمثال لأبي عُبَيد: (ص٢٤٢-٢٤٣).

(٧) في (ك): أصلحي.

أرادوا عَشَاءً، ونَطْوِي بطوننا الليلة، فهيَّأت طعامها، وأصبحت[١] سِرَاجَها، ونَوَّمَتْ صبيانها، ثم قامت كأنَّها تُصْلِحُ سراجها فأطفأته، فجعلا يُرِيَانِه أنهما يأكلان، فباتا طَاوِيَيْنِ، فلمَّا أصبح غَدَا إلى النبي ﷺ فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]»[٢].

وكان قَيْسُ بن سعد الأنصاري من الكرام[٣].

وطلحة بن عبد الله بن خَلَف الخُزاعي المعروف بطَلْحة الطَّلَحات، كان يبتاع الرقاب ويعتقها، فإذا وُلِدَ لأحد منهم وَلَدٌ سُمِّيَ بطلحة[٤]، وفيه يقول الشَّاعر:

رَحِمَ الله أَعْظُمًا دفنوها ... بسجسْتان طلحة الطَّلَحَاتِ[٥]

وكانت عائشةُ من الأجواد، رُوِيَ: «أنها[٦] جاءتها أربعون ألف درهم، فما برحت من مكانها حتى فرَّقت جميعها، وحان[٧] الفِطْرُ فقالت

---

(١) في (ك): أصلحت.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله: كتاب التفسير، ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾، رقم: (٤٨٨٩-طوق).

(٣) ينظر: سراج الملوك: (١/٣٦٥).

(٤) سراج الملوك: (١/٣٦٦).

(٥) من الخفيف، وهو من قصيدة لعبد الله بن قيس الرُّقَيَّات يرثي طلحة الطلحات، ديوانه: (ص٢٠)، وهي أيضاً في سراج الملوك: (١/٣٦٦).

(٦) في (ك) و(ص): أنه.

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): كان.

لخادمها: جيئي[١] بفَطوري: قالت: لا فطور لك، وهلَّا أخذت ممَّا كان بين يَدَيْكِ فَطُورًا؟ قالت لها: لو ذكَّرْتِنِي لفعلت[٢]»[٣].

ورَوى مالك في «الموطأ»: «أنَّ مسكينًا سأل عائشة وهي صائمة، وليس في بيتها إلَّا رَغِيفٌ، فقالت لمولاة لها: أعطه إيَّاه، فقالت: ليس لك ما تُفطرين عليه، فقالت: أعطه إيَّاه، ففعلت، فلمَّا أمسى[٤] أهدى لنا أهلُ بَيْتٍ شَاةً وكَفَنَها[٥]، فقالت عائشة ﵂: هذا خير من قُرْصِك»[٦].

[مُواسَاةُ ابن العربي لصاحبه أبي المعالي]:

قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله ﵁[٧]: كُنْتُ مع أبي بمدينة السَّلَامِ؛ فخَرَجَتْ عَنَّا النَّفَقَةُ في بعض الأيَّام، فقال لي: خُذْ هذه الثلاثة الأرباع الدينار، ادفعها إلى الخبَّاز، وأَجْرِ[٨] الصَّرْفَ منها، حتى يأتينا من رِزْقِ الله ما وَعَدَنَاهُ، إذ التجارة عندهم بالخبز، فخرجتُ بها؛

(١) في (ك) و(ص) و(ب): جئني.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): فعلت.

(٣) الإحياء: (ص١١٥٣).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): أمسينا، وأشار إليها في (د).

(٥) أي: ما يغطيها من الرغفان، تاج العروس: (٣٦/٥٧).

(٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الجامع، الترغيب في الصدقة، (٢/٣٥٦)، رقم: (٢٨٠٢-المجلس العلمي الأعلى).

(٧) لم ترد في (ك) و(د) و(ب).

(٨) في (ب): أخر.

٢
[٦١/ب] فلقيني في الطريق من أخبرني أنَّ/ صاحبَنا أبا المعالي المَيَّافَارِقِي وَجِعٌ[١]، فقلتُ: أَعُودُه في طريقي، فدَخَلْتُ عليه فأَلْفَيْتُه مُضْطَجِعًا على نِطْعٍ، تحت رأسه حَجَرٌ، وهو في نِهَايَةٍ من الضعف، وثِيَابُه التي يختلف[٢] بها إلى المجلس موضوعة في طَاقٍ، فسألتُه عن حالته، فكَشَفَ لي عَوْرَةً من الفَقْرِ والألم ما سمعتُ من أَحَدٍ بأعظم منها، فقلت: لا أَطْلُبُ أَثَرًا بعد عَيْنٍ، فخرجتُ إلى الطبيب؛ وأَعْلَمْتُه بحاله وضعفه، فذَكَرَ دواءً وغذاءً، وابتعتُ له فَرُّوجًا، وجئته بالدواء فاستعمله، ثم جئته بالفرُّوج وتَكَلَّفْتُه له، وتناول منه، ودَفَعْتُ إليه بَقِيَّةَ الذهب، وجئتُ إلى داري بغير شيء، وأَزْمَعْتُ على إعلام أبي بالحال، وقلت: عندنا كُتُبٌ[٣] وثِيَابٌ[٤]، وننتظر خَيْرًا، ورَأَيْتُ رَجُلًا لا ملجأ له، وتعيَّن عليَّ فَرْضُه، فلم يكن بُدٌّ من أدائه، فلمَّا جِئْتُ بابَ داري إذا عليه أبو القاسم بن أبي حامد بن عمر؛ فتًى من أبناء[٥] البلد، ومن أصحاب الخليفة، كان يقرأ معي، وكان مُخْلِصًا لي، فسَلَّمْتُ عليه ورَحَّبْتُ به، وقلت له: ما جاء بك وهذا افتراقُنا في المجلس؟ فقال: أردتُ تجديد العهد بك، فدخلنا وجلس في العَرْصِ[٦] معي؛ حيث كانت

---

(١) قبله في (د): أصابه، وضرب عليه.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): يتصرف، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) سقطت من (ص).

(٤) في (ب) و(ك): ثياب وكتب.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): تُنَّاءِ.

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): العُرْضِي، ينظر في معنى العَرْصِ تاجَ العروس: (١٨/٢٨).

كُتُبِي ومجلسي، وكان أبي بكُتُبِه في الإيوان، وتحدَّثنا مَلِيًّا، ثم تذاكرنا مسائل، وتواعدنا للاجتماع عَشِيَّةً على ما جرى من العلم، ثم قام فشيَّعته إلى باب الدار، ثم عُدْتُ إلى موضعي، وخَلَعْتُ ثيابي لأمشي إلى أبي وأُعْلِمَه بما جرى، وجَمَعْتُ الكُتُبَ التي كنَّا فرَّقناها للنظر في الأحاديث التي تذاكرناها، فإذا بجُزْءٍ منها مضطرب الهيئة؛ ففَتَحْتُه، فإذا فيه[1] صُرَّةٌ مشدودة، فحللتها فإذا فيها ثلاثون دينارًا، فقبضتُ عليها وجئت أبي، فقال لي: أبطأتَ، ومضى النهار وفات النظر، فقلتُ: إنَّما أبطأتُ عليك لأنه كان يوم تجارة، قال لي: وكيف؟ قلتُ: أخذتُ الثلاثة الأرباع[2] الدينار وتَجَرْتُ بها إلى الآن، فلمَّا خَلَصَتْ[3] إليَّ ثلاثين دينارًا جِئْتُكَ بها، ورميتُ بالدنانير بين يديه، فلمَّا رآها خَجِلَ، قال: ما هذا من تجارة؟ قلت: إي والله منها، مِن عند[4] غَنِيٍّ وَفِيٍّ، قال: بالله، قُلِ الأَمْرَ على وجهه، / فبَقَرْتُ له الحديث؛ فعَجِبَ منه، وحَمِدَ الله عليه. ٢ [٦٢/أ]

فهذه كلها وجوه من الكَرَمِ؛ أوَّلها المواساة، وآخِرُها الإيثار، وأوَّلها إعطاء الحبة، وآخرها إعطاء المال، بل إعطاء النفس:

فالجودُ بالنفس أقصى غاية الجودِ[5]

---

(١) سقط من (د).

(٢) في (ص): أرباع.

(٣) في (ص): حصلت.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): مع، ومرَّضها في (د)، والمُثبت من طرته.

(٥) عجز بيت، وهو للوليد بن مسلم، من البسيط، وهو في ديوانه: (ص١٦٤)، من قصيدة مطولة يمدح فيها داود بن يزيد، وصدره:

تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها

وأمَّا أنا ؛ فما أَعْطَيْتُ[١] تلك الثلاثة الأرباع الدينار لصاحبي من كَرَمٍ ، إنَّما رَأَيْتُ رجلًا غريبًا، وَجِعًا فقيرًا تَالِفًا[٢] ، فتَوَهَّمْتُ حالَه ، وتَوَقَّعْتُ أن يكون مآلِي[٣] مآلَه ، فبادرتُ بذلك الذي فَعَلْتُ شَفَقَةً لا تَكَرُّمًا[٤].

وأمَّا المعنى في تسميته بالجَوَادِ[٥]:

* * * * *

---

(١) في (د): أعطيته.

(٢) سقط من (د) و(ص).

(٣) سقط من (ص).

(٤) بعده في (د): انتهى الجُزْءُ، والحمد لله حقَّ حمده، والصلاة على محمد وأهله، يتلوه إن شاء الله: وأمَّا المعنى.

(٥) في (ب): الجود.

الجَوَادُ[١]: وهو الاسمُ الثاني والسَّبعون[٢]

فإنَّه من السَّيَلَانِ؛ يقال: جاد المطر يَجُودُ جودًا، وبه يقال: جاد الكريم.

وفي الأحاديث الحِسَانِ في وصف الله بأنه «جواد»[٣] لكثرة عطائه، وهو من صفات الفِعْلِ[٤].

قال الإمام الحافظ[٥] ﷺ: ولا تكمل صفات المؤمن وإيمانه إلَّا به، ولا ينتهي إلى درجة الصِّدْقِ[٦] إلَّا بالإيثار على النَّفْسِ بالنفس.

قال سفيان الثوري: «إذا كَمُلَ صِدْقُ الصادق لم يُخَلِّفْ ما في يَدَيْه»[٧].

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ك): المُوَفِّي سبعين، وفي (ب): السَّابع والستون، وفي (ص): الثَّامن والستون.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي ذر ﷺ: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٤٩٥-بشار)، ولَفْظُه فيه: «ذلك بأني جواد واجد ماجد»، وحسَّنه أبو عيسى.

(٤) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٣٩١).

(٥) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): الصديق.

(٧) سراج الملوك: (١/٣٧٩).

[جُودُ أبي سهل الصعلوكي]:

وقال السُّلَمِي: «كان الأستاذ أبو سهل الصُّعْلُوكِي محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان[١] الحنفي[٢] من الأجواد، وكان ابنه أبو الطيب سَهْلٌ جمع رياسة الدين والدنيا، وأخذ عنه فقهاء نيسابور، وكان أبو سهل لا يُنَاوِلُ أحدًا شيئًا، إنَّما يضعه على الأرض ويقول: الدنيا أقل من أن تُرى من أجلها يَدَيَّ على يَدَيْ[٣] غيري»[٤].

[جُودُ النُّورِي]:

ولمَّا سعى غُلَامُ خَلِيلٍ بالصوفية إلى الخليفة ورُفع إليه أنهم زناديق أَمَرَ بضرب أعناقهم، فأَمَّا الجُنَيْدُ فاستعاذ بالفقه، وكان على مذهب أبي ثَوْرٍ، وأَمَّا الشَّحَّام والرَّقَّام وأبو الحُسَين[٥] النُورِي وغيرهم فقُبِضَ عليهم، وبُسط النِّطْعُ لضرب أعناقهم؛ فتقدَّم النُّورِي، فقال له السَّيَّافُ: «تدري لما تتقدَّم؟ قال: نعم، قال: وما يُعْجِلُكَ؟ قال: أُوثِرُ أصحابي بحياة ساعة، فتحيَّر السَّيَّافُ، وأنهى الخبر إلى الخليفة فردَّهم إلى القاضي ليتعرف حالهم، فألقى القاضي على أبي الحُسين النُّورِي مسائل فقهية، فأجاب عن الكل، ثم أخذ يقول: وبَعْدُ، فإنَّ لله عبادًا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا تكلَّموا تكلَّمُوا/ بالله، وإذا فعلُوا فعلُوا لله، وسرد كلامًا بالغًا، حتى أبكى القاضي، [٦٢/ب]

---

(١) قوله: «ابن محمد بن سليمان» سقط من (د).

(٢) الحنفي نسبًا، نسبة إلى بني حنيفة.

(٣) في (ب): يد.

(٤) سراج الملوك: (١/٣٧٦).

(٥) في (ك) و(ص): الحسن.

وقال: إِنْ كان هؤلاء زنادقة فما على الأرض مُسْلِمٌ، وأرسل إلى الخليفة فأَمَرَ بالتخلِّي عنهم»[١].

[الإيثارُ من علامات المحبة]:

وقالت الصوفية: «الإيثارُ من علامات المحبة»[٢]، كما تقدَّم.

ألا ترى إلى امرأة العزيز لما تَنَاهَى حُبُّها في يوسف قالت: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[٣] [يوسف:٥١].

وقد ذَكَرَ بعضُ المفسرين خبرًا باطلًا: «في أنَّها لمَّا عَمِيَتْ وافتقرت لَقِيَتْ يوسف، فجرى بينهما[٤] كلام، وتزوَّجها في آخره»[٥].

ولا أصل لذلك، فلا تلتفتوا إليه.

[الجُودُ بالثواب]:

وأَعْظَمُ الكَرَمِ والجُودِ الكَرَمُ بالثواب، وبما يُعطي الله من المراتب والمنازل في دار المآب، وهذا فَصْلٌ لم أُسْبَقْ إلى بيانه، ولم أُزْحَمْ على ذِكْرِه.

وأَكْرَمُ الخَلْقِ[٦] محمد رسول الله؛ قال ﷺ: «لكل نبي دعوة، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة»[٧].

---

(١) سراج الملوك: (١/٣٦٩-٣٧١).

(٢) لطائف الإشارات: (٢/١٧٢).

(٣) لطائف الإشارات: (٢/١٨٩).

(٤) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٥) ينظر: سراج الملوك: (٢/٥١٢)، ولطائف الإشارات: (٢/١٨٤).

(٦) بعده في (ك) و(ص) و(ب): فيه، وضرب عليه في (د).

(٧) تقدَّم تخريجه.

فأخبر أنَّ كل نَبِيٍّ لمَّا أُعْطِيَ دَعْوَتَه عاد بها على ذاته، وسألها في منفعته، ومُحَمَّدٌ ﷺ جَادَ بها على أُمَّتِه، وبذلك كان أجود الخلق، وصار ذلك أصلًا في الإيثار بالثواب.

فأمَّا الدعاء فلا خلاف فيه، وكذلك ثواب المال في الصدقة.

وأمَّا ثوابُ الصلاة والصيام فلم يَقُلْ به مالك[١]، وقد ثبت عن النبي أنه قال: «من مات وعليه صَوْمٌ صام عنه وَلِيُّه»[٢]، ولم يَرِدْ في الصلاة أَثَرٌ، وكان[٣] الصيامُ قد[٤] دخله[٥] الفِدَاءُ بالمال[٦] فدخلته النِّيَابَةُ[٧].

وأمَّا الصلاة فلم أر فيها لا صحيحًا ولا سقيمًا أكثر من أن جواز الحج عن الغير باتفاق يقتضي أن يركع عنه ركعتي الطواف، فتكون هذه نيابة في الصلاة على طريق التَّبَعِ[٨] لأفعال الحج، فأمَّا ابتداءً فلا أعلمه مَرْوِيًّا ولا مَقُولًا.

---

(١) الموطأ: (١/٣٤٩-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ﵂: كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم: (١٩٥٢-طوق).

(٣) في (ص): كأنَّ.

(٤) سقط من (ك) و(ب) و(ص).

(٥) في (ك): داخله.

(٦) قوله: «ولم يرد في الصلاة أَثَرٌ، وكان الصيامُ قد دخله الفداء بالمال» سقط من (ب).

(٧) ينظر: المسالك: (٤/٢٢١-٢٢٢).

(٨) في (ك): التبليغ.

[نكتة]:

وهاهنا نكتة؛ وهي أنَّ الذي ذكرناه هو فيما إذا نوى بالعمل الغير، فأمَّا إذا نوى العمل عن نفسه فلمَّا كَمُلَ وهب ثوابَه للغير؛ فلم أَرَ فيه نَصًّا عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه إلى الآن، ولكن حَفِظْتُ منه كثيرًا عن الزهَّاد.

لقد حجَّ بعضُهم سبعين حجة، فلمَّا كان في آخرها وظنَّ أنه لا يعود قال في الموقف: «ربِّ إن كنت قَبِلْتَها فقد تصدَّقتُ بها على المذنبين من أهل الموقف، فرأى الباري تعالى في المنام، فقال له تعالى[1]: علينا تَتَسَخَّى؟ قد غفرتُ لهم ولك»[2].

وتكلَّم الناسُ على جُودِ الفقير على الغني فقالوا: «إنَّه أفضل من/ جود الغني على الفقير»، وهو صحيح؛ لأنَّه رُوي في الأثر: «سَبَقَ درهم مائة ألف درهم»[3]، وهو وإن لم يصحَّ سَنَدُه فإنَّ معناه صحيح.

مثالُه: فقير معه درهم تصدَّق به، وآخَرُ معه مائتا ألف درهم تصدَّق بمائة ألف، فيكون الأوَّل قد تصدَّق بجميع ماله، والثاني قد تصدَّق بنِصْفِ ماله.

---

(١) في (ك) و(ب): تعالى له.

(٢) تقدَّم توثيقه.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الزكاة، صدقة جهد المقل، رقم: (٢٣١٨-شعيب)، وإنما ضعَّف ابنُ العربي هذا الحديث لأنه من رواية ابن عَجلان، وفيه: «عن سعيد المَقْبُرِي عن أبي هريرة»، وتكلَّم فيه يحيى بن سعيد لأجل روايته عن المقبري، الجامع الكبير: (٦/٢٣٨-بشار)، ولهذا أخرج ابن خُزَيمة روايته عن زيد بن أسلم: (٤/٤٨)، والله أعلم.

ومن أبدع أمثال العرب:

ذَرِيني أكن للمال ربًّا ولا يكن ... ليَ المال ربًّا تَحْمَدِي غِبَّه غدَا
أَرِينِي جوادًا مات هُزْلًا لعلَّني ... أرى ما تَرَيْنَ أو بَخِيلًا مُخَلَّدَا[١]

قال أحمد بن حنبل عن شُعيب بن حرب: «ليس السَّخِيُّ من أخذ المال من غير حِلِّه فبَذَّره، ولكن السخي من عُرِضَ عليه ذلك المال فتركه».

[التعريفُ بالإمام الحافظ عطيَّة الأندلسي]:

وقرأتُ على أبي بكر محمد بن طَرْخَان[٢] الصُّوفِي بدرب نُصَيْرٍ من مدينة السَّلام: أخبركم أبو عبد الله محمد بن فتُّوح: أخبرني عبد العزيز بن بُندار الشِّيرَازِي قال: «لَقِيتُ عَطِيَّةَ الأندلسي[٣] ببغداد وصَحِبْتُه، وكان من الإيثار والسخاء والجود بما معه على أمر عظيم، إنما يقتصر من لباسه على فُوطَةٍ ومُرَقَّعَةٍ، ويؤثر بما سوى ذلك، وكان قد جمع كُتُبًا حملها على بَخَاتِيَّ

(١) البيتان من الطويل، وهما لحطائط بن يعفر، كما في الأغاني: (١٣/٣٠)، والشعر والشعراء: (١/٢٤١)، وسراج الملوك: (١/٣٧٩).

(٢) الطَّرْخَان: اسمٌ للرئيس الشريف في قومه، وضبطه السيِّد الزَّبيدي بالفتح، وغلَّط من ضبطه بغير ذلك، فقال: «ولا تَكْسِرْ وإن فَعَلَه المحدثون، والصوابُ الاقتصار على الفتح»، تاج العروس: (٧/٣٠٢).

(٣) الإمام الحافظ، المحدث المُسْنِدُ، أبو محمد عطية بن سعيد بن عبد الله الأندلسي، أحد الرحَّالين والجوَّالين، وأحد أقطاب التصوف، مع زهد وتبتل، وتقلل من الدنيا، وجُود منقطع النظير، وله تصانيف كثيرة، منها: «كتابٌ في طُرُقِ حديث المِغْفَرِ ومَن رواه عن مالك بن أنس»، في أجزاء كثيرة، و«كتاب في تجويز السماع»، توفي عام ٤٠٣هـ، ترجمته في: تاريخ بغداد: (١٤/٢٧٥)، وجذوة المقتبس: (ص٤٦٨-٤٧٢)، والصلة: (٢/٦٧-٧٠).

كثيرة، فرافقته[١]، وخرجنا معه[٢] جميعًا إلى الياسرية، وليس معه إلَّا وَطاؤه ورَكْوَتُه، ومُرَقَّعَتُه عليه، قال: فعجبت من حاله ولم أعارضه، فبلغنا إلى المنزل الذي نزل فيه الناس، وذهبنا نَتَخَلَّلُ الرِّفَاقَ، ونمرُّ على النازلين، فإذا أنا بشيخ خُراساني له أُبَّهَةٌ، وهو جالس في ظِلٍّ له، وحوله حَشَمٌ كثير، قال: فدعانا وكلَّمنا بالعَجَمِيَّةِ، وقال لنا: انزلوا، فنزلنا وجلسنا عنده، فما أَطَلْنَا الجلوس حتى كلَّم بعض غلمانه، وأَتَى بالسُّفْرَةِ[٣] فوضعها بين أيدينا وفتحها، وأقسم علينا، فإذا فيها طعام كثير وحلاوة[٤] حسنة، فأكلنا وقمنا.

قال عبد العزيز: فلم نَزَلْ على هذه الحال؛ يَتَّفِقُ لنا كلَّ يوم من يدعونا ويُطعمنا ويسقينا إلى أن وصلنا مكَّة، وما رأيتُه حَمَلَ من الزَّادِ قليلًا ولا كثيرًا.

وقُرئ عليه بمكَّة «الصحيح» للبخاري؛ روايته عن إسماعيل بن محمد الحاجبي عن الفِرَبْرِي عن البخاري[٥].

سمعتُ أبا بكر بن طَرْخَانَ يقول: سمعتُ محمد بن فتُّوح يقول: سمعت أبا غالب محمد بن أحمد بن سهل النحوي المعروف بابن بِشْرَان يقول: سمعتُ عطية بن سعيد يقول: سمعت القاسم بن علقمة الأبهري يقول: سمعت أحمد بن الحُسين الرازي يقول: سمعت محمد بن هارون يقول: سمعت أبا دجانة يقول[٦]: سَمِعْتُ ذا النُّون المصري يقول:

---

(١) سقط من (د) و(ص).

(٢) سقط من (ص) و(ب).

(٣) في (د): في خـ: وأتانا بسفرة، وفي (ص): فأتانا سفرة.

(٤) في (ص) و(ب): حلاوات.

(٥) جذوة المقتبس: (ص٤٦٩).

(٦) قوله: «سمعت أبا دجانة يقول» سقط من (ص).

أُقَلِّـلُ مـا بـي فيـك وهْـوَ كثيـرُ ... وأزجـرُ دَمْعَ العـين[١] وهـو غزيـرُ
وعنـدي دُمُـوعٌ لـو بَكَيْـتُ ببعـضها ... لفاضــتْ بُحُــورٌ بعـدهنَّ بُحُــورُ
قبورُ الورى تحت التراب وللهوى ... رجـال لهـم تحـت الثيـاب قبـورُ
سـأبكي بأَجْفَـانٍ عليـك قريحـة ... وأرنــو بألحــاظٍ إليـك تـشيرُ[٢]

قال القاضي أبو بكر[٣]: رأيتُ سماعَ عطية بن سعيد بـن عبد الله هـذا بالمـشرق فـي الأصـول، والـصوفية تُعَظِّمُـه، والمحـدثون يُثنـون عليـه، والخطيب أبو بكر حافظُ بغداد يُقَدِّمُه، وله أمثال وما لهم مِثَالٌ.

وكان عطيَّـةُ هـذا لا ينـام على الأرض إلَّا مُحْتَبِيًا، مـات سـنة ثـلاث وأربع مائة[٤].

وهذا الخبرُ يدخل في الجُود، والتوكل، والتخلي عن الدنيا، وفصول من الأسماء والحالات.

وكـان عُبيـد الله بـن أبـي بَكْـرَةَ مـن الأجـواد، ينفـق علـى جيرانـه مـن الجهات الأربعة[٥]، من كل جهة أربعين دارًا، فيعطي لكل مائة وستين دارًا ما يكفي أهلها من قُوتٍ وكسوة، لما رُوِي في الصحيح من الوَصاة بالجار، وجاء في الآثار من تحديد الجوار بأربعين دارًا[٦].

---

(١) في المنشور من جذوة المقتبس (ص٤٧٢): دمعي عنك.
(٢) من الطويل، وهي في جذوة المقتبس: (ص٤٧١-٤٧٢)، أنشدها ذو النون.
(٣) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ب): قال ابن العربي.
(٤) تاريخ بغداد: (١٤/٢٧٥).
(٥) في (ك): الأربع.
(٦) سراج الملوك: (ص٣٧٩).

وأَحْسَنُ الكَرَمِ ما يكون من قِبَلِ الوُلَاةِ؛ فإنَّهم خُزَّانُ أموال جماعة المسلمين، وما من أحد إلَّا له عندهم حَقٌّ، أَعْطَوْهُ أو مَنَعُوهُ، فإذا جاؤوا به لأربابه كَرُمَتْ ذواتهم، وطابت صفاتهم، وصَفَتْ حالاتهم، وعلت درجاتهم، وتضاعفت بركاتهم.

[جُودُ أبي الفتح مَلِكْشَاه]:

وما رأيتُ في رحلتي، نعم؛ ولا في مُدَّتِي، واليًا جوادًا، بل رأيتُ وعاينتُ من المسرفين جُمْلَةً، ومن المُنْفِقِينَ في غير وجهه عِدَّةً، حاشا أبو الفتح(١) بن مَلِكِ خراسان البَارَسْلَان(٢).

[التعريف بخواجا بُزُرْك ومكارمه]:

ووزيرُه أبو علي خَوَاجَا بُزُرْك(٣)، كان قَبْلَ أن يَزِرَ صُوفِيًّا فقيرًا، يمشي على قدميه من مسجد الأقدام بمصر إلى أرض تُرْكُسْتان وما وَرَاءَ جَيْحَان في

---

(١) السلطان جلال الدولة، مَلِكْشَاه بن السلطان ألب أرسلان السُّلْجُوقي، تـ ٤٨٥هـ، له أعمال وصنائع، مع هيبة وجلالة، وحلم وبذل وجود، ترجمته في: سير النبلاء: (١٩/٥٤-٥٨).

(٢) كذا في النسخ، وفي المصادر التاريخية: ألب أرسلان.

(٣) هو الوزير نظام المُلْكِ، الحسن بن علي بن إسحاق، أبو علي الطوسي الشافعي الأشعري، (٤٠٨-٤٨٥هـ)، أَوَّلُ من بنى المدارس في الإسلام، قال فيه ابن عَقِيل: «بهر العقولَ سيرةُ النِّظام؛ جُودًا وكَرَمًا وعَدْلًا، وإحياءً لمعالم الدين، كانت أيَّامُه دولةَ أهل العلم، ثم ختم له بالقتل وهو مَارٌّ إلى الحج في رمضان، فمات مَلِكًا في الدنيا، مَلِكًا في الآخرة»، ترجمته في: سراج الملوك: (٢/٥١٣-٥١٥)، وسير النبلاء: (١٩/٩٤-٩٦)، والوافي بالوفيات: (١٢/٧٧-٧٩)، وأجل ترجمة له ما رَقَمَهُ التاج السُّبْكِي في طبقاته: (٤/٣٠٩-٣٢٨).

صحبة الزهاد، والتنقل من رِبَاطٍ إلى رباط، أربعين عامًا، ثم وَزَرَ أربعين عامًا، وأَمْرُه ترونه في كتاب «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة» إن شاء الله.

وهو الصاحب الأجل السيِّد، غِيَاثُ الدولة، سيد الوزراء، رَضِيُّ أمير المؤمنين؛ أبو علي حسن الخراساني، خواجا بُزُرْك، يعني: السيِّد الكبير، فلمَّا انتهى إلى منزلة الوِزَارَةِ[1] - بصورة طويلة - رَعَى ما كان فيه من الفقر والحاجة، واشتمل على الفقهاء والصوفية، وجذب بِضَبْعِ الكُلِّ إلى الدولة، وقام على تربية المُلْكِ بأحسن السياسة، وأَوْسَعَ عَدْلًا الرياسة، حتَّى قال الناس: إنه لم يَزِرْ بَعْدَ بني بَرْمَكَ مِثْلُه.

٢ وكان[2] عالمًا مُوَحِّدًا، وبَنُو بَرْمَك ملحدون، وكان هذا يسمع الحديث؛ فإنه كانت له رواية عالية، ولم يَبْقَ بَلَدٌ[3] [٦٣/ب] /حَاضِرٌ بخراسان ولا بالعراق إلَّا بنى فيه المدارس للفقهاء، والرِّبَاطَاتِ للصُّوفية، ورتَّب لهم، وأَدَرَّ الأرزاق عليهم، واشترى لهم الدواوين في كل بلد، وحبَّسها على الطلبة[4]، ووظَّف لهم الوَرَقَ للنَّسْخِ، وأثبت في ديوان كل بلد عَدَدَ من فيه من عالم وطالب، أو شيخ للصوفية أو مُرِيدٍ، وفَرَضَ لكل أحد ما يليق به ويصلح له؛ بالشام، والعراق، وخراسان، وما وراء النهر جَيْحُون، فتألَّف من ذلك سِتُّ مائة ألف دينار في العام، سوى ما يَخُصُّ به الأعيانَ منهم؛ من الصِّلات الوافرة، والكُسَا الظاهرة، ويتلقَّى به الوافدين، فيَذْكُرُ جميعُهم

---

(١) في (د): في خـ: الوزراء.

(٢) بعده في (ك) و(ص) و(ب): هذا، وضرب عليه في (د).

(٣) سقط من (ب).

(٤) قوله: «ورتَّب لهم، وأَدَرَّ الأرزاق عليهم، واشترى لهم الدواوين في كل بلد، وحبَّسها على الطلبة» سقط من (ص).

أنه كان يُخْرِجُ في ذلك بَيْتَ مال في كل عام، فائتلفت القلوبُ على محبتهم[١]، وعُمِرَتِ المساجد والرِّباطات بالدعاء لهم والثَّناء عليهم.

وسَارَ ذِكْرُ الوزير والأمير مسيرة[٢] الشمس والقمر، وصاب على الآفاق صَوْبَ المطر، وتَأَرَّجَتْ به الدنيا تَأَرُّجَ الإِنَابِ والقُطَرِ، وارتاحت إليهما النفوس ارتياحها بنَسِيمِ السَّحَر، فألقى الحُسَّادُ في أُمْنِيَةِ المَلِكِ أنَّ الوزير يُفْسِدُ عليه في كل عام بيت مال، على قَوْمٍ لا تنتفع بهم الدولة، ولا يعتضد بهم المُلْكُ، وأنَّ هذا المال لو عاد به المَلِكُ على جُنْدِهِ أو على ثُغُورِهِ لكان ذلك أنجع، وأَعْوَدَ على المُلْكِ بالعائدة وأنفع، وأَصْوَبَ في مدارك الرأي وأوقع، فاستدعاه وشافهه، فبكى نِظَامُ المُلْكِ وقال له: أيُّها المَلِكُ عَلِمْتَ ظُؤُورَتِي[٣] لك، وتَحَقَّقْتَ خِدْمَتِي لأبيك، وتيقَّنت تَرْبِيَتِي[٤] لمُلْكِك؛ جَلْبًا ودَفْعًا، وعائدتي بصحيح النظر له؛ فيما وقى ضُرًّا، أو جَلَبَ نَفْعًا، وأنا شيخ فَارِسِيٌّ؛ لو نُودي عليَّ فِيمَنْ يَزِيدُ ما بَلَغْتُ خمسة دنانير، وأنت غلام تُرْكِيٌّ؛ لو نُودِيَ عليك ربَّما بَلَغْتَ عشرين دينارًا، أو الغاية ثلاثين، وليس لنا عَمَلٌ يصعد إلى الله بصلاحه، بكَلِمٍ[٥] طَيِّبٍ يرفعه، وإنَّما نحن أبناء الدنيا؛ أعددنا أمدادًا، وحشدنا أجنادًا، بسلاح[٦] قصيرة، لها آماد محصورة، ولم تصحبهم تقوى، ولا تفكَّروا في العُقْبَى، وهذا الجَيْشُ[٧] الذي أَقَمْتُ لك يَسْرِي إذا هَجَعَ النَّاسُ، ويمشي إذا وقفوا،

---

(١) في (ص): محبته.

(٢) في (ك) و(ب): مسير.

(٣) الظؤورة: العاطفة والمحبة، تاج العروس: (١٢/٤٦٠).

(٤) في (ك): ترتيبي.

(٥) في (د): كلم.

(٦) في (ك): بصَلاح.

(٧) في (د): الخيش.

ويصعد إذا أَسْهَلُوا[١]، يجأرون بالدعاء لك، ولجيوشك ليلًا ونهارًا، تَرْقَى سِهَامُ أدعيتهم إلى السماء السَّابعة، وتتصل بالرحمن في أعز مكان[٢]، وأشرف زمان[٣]، وهو قد استدعاها[٤] منهم، وأمرهم برفعها إليه، ووعدهم بإجابة/ الدُّعاء، وإعطاء السُّؤْلِ، ونيل المأمول، وإنَّما يُحمى المُلْكُ ويُقاتل الأعداء بالعمل الصالح والدعاء المجاب، قبل الرجال والأجناد، فبكى أبو الفتح، وكان مَلِكًا رفيقًا عادلًا، وقال له: «شا باش[٥]»[٦].

٢ [٦٤/أ]

وممَّا يزيد من فضل هذا[٧] المَلِكِ على وزيره أنَّك كنت تمشي في مُلْكِهِ مسيرة ستة أشهر - مشيتُ فيها أربعين يومًا -؛ لا تخاف فيها إلا الله والذئب على الغنم، أو الأسد على الرجال والدواب، لا وَكس ولا شطط، ولا مكس ولا ضَغط، بلاد راخية، وعيشة راضية، وأمم هادنة، وسِيَرٌ هادية، حتَّى مات؛ فاضطرمت الأرض نارًا، واضطربت بأهلها تَدْوَارًا، وانقلبت أعاليها أسافلها دمارًا، وقد بَيَّنْتُ عجائب من أمره وحاله في كتاب «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة[٨]».

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): أسفلوا، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.
(٢) في (ص): وتتَّصل بالرحمن فتصل في أشرف زمان، وتُرفع في أعز مكان.
(٣) في (ك): الزمان، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.
(٤) في (د): استرعاها.
(٥) شاباش: كلمة فارسية بمعنى الاستحسان والتهنئة، ينظر: سراج الملوك: (٢/٥١٥)، هامش رقم (١٣).
(٦) أفاده ابن العربي من سراج الملوك: (٢/٥١٤-٥١٥).
(٧) سقط من (ك).
(٨) قوله: «للترغيب في الملة» سقط من (ك) و(ص) و(د).

وعلى كل[1] حَالٍ؛ فهؤلاء أولادُه في مُلْكِهم وعلى درجتهم، حين لم يعدلوا عن سيرتهم، ولا عاجوا عن طريقتهم، وعَصَمُوا عن بؤسهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١٢]، وقد يحفظ الله الأولاد بصلاح الآباء إذا عَضَدُوا أنفسهم بتَرْكِ المخالفة والإباء، قال الله سبحانه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨١]، فذَكَرَ المُفَسِّرُونَ أنهم حُفِظُوا في حُرْمَةِ الأب السَّابع[2].

[التعريفُ بجُودِ أبي سعيد بن الحداد الأصفهاني]:

ومن غريب الجُودِ: أنه حجَّ سنة تسعين[3] أبو سعيد بن الحدَّاد الأصفهاني[4]، أخو شيخنا[5] إسماعيل[6] البُنْدَار، نزيل بغداد، فدخل مدينة

---

(١) سقط من (ك) و(ب).

(٢) قوله: «وعلى كل حَالٍ؛ فهؤلاء أولادُه في مُلْكِهم وعلى درجتهم، حين لم يعدلوا عن سيرتهم.. فذكر المفسرون أنهم حُفِظُوا في حُرْمَةِ الأب السَّابع» سقط من (ص).

(٣) أي: سنة تسعين وأربع مائة.

(٤) لعله هو الذي وَرَدَ ذِكْرُه في سراج الملوك لأبي بكر الفهري: (٢/٥١٦-٥١٧)، واسمه فيه: أبو سعيد الصوفي، وذَكَرَ هناك أنه باني المدرسة النظامية لخواجا بُزُرْك، وذَكَرَ سيرتَه في شراء الخانات والدُّورِ والبساتين، وقد جَعَلَ كُلَّ ذلك مُحَبَّسًا على الصوفية والفقراء.

(٥) في (د): إسماعيل شيخنا البندار.

(٦) لعله الفقيه العلَّامة الإمام، إسماعيل بن عبد الملك بن علي، أبو القاسم الطوسي، ذانشمند الأكبر، ولعل ما يجعلني أميل إلى ذلك ما ذكره ابن العربي من صلة أبي حامد بأخيه، ومعرفته به، فقد كان إسماعيل عَدِيلًا لأبي حامد في رحلته إلى الشَّام عام ٤٨٩هـ، وأبو القاسم هذا ممَّن برع في الأصول والفقه =

السَّلام؛ وحَمَلَ إلى الخليفة مالًا عظيمًا، وحمل الزَّادَ على ثلاثة آلاف جَمَلٍ، خرج من «النجمية» مُعَرَّسِ الحاج بالجانب الغربي منها[١]، وأَطْعَمَ الحاجَّ من يوم خروجه إلى رجوعه؛ كل يوم، لا يهتبل أَحَدٌ بزاد، ولا ينظر في معيشة، ودَفَعَ إلى أمير الحاج وجَيْشِه الذي يَسْرِي[٢] في البَذْرَقَةِ[٣] عشرة آلاف دينار، جَذْرُه[٤] الذي كان يُعطيه الملك العادل، فلمَّا مات كان يأخذه من الناس مُقَسَّطًا على الحاجِّ[٥]، ثم أعطى ابنَ أبي هاشم عشرة آلاف دينار كِسْوَتَه، وأعطى للأشراف مثلها، ولم يبقَ بمكة ساكن ولا مُجَاوِرٌ إلَّا وصلت إليه صِلَتُه، وعاد إلى بغداذ؛ فكُتِبَ له كلُّ إمام[٦] بها وطالب، وإمام[٧] ومؤذن، وصُوفِيٍّ ومُرِيدٍ، فأعطى الرؤوس مائة دينار، مائة دينار[٨]، وأعطى الأتباع من دينارين إلى عشرين دينارًا، ومشيتُ إليه بعد انكفائه عن

= وتوفي عام ٥٢٩هـ، ودفن بجوار أبي حامد الغزالي، رحمهما الله ورضي عنهما، ويجوز أن يكون غيره، والله أعلم، ترجمته في: تاريخ دمشق: (٩/١٨)، وسير النبلاء: (٢٠/٦)، والوافي بالوفيات: (٩/٩٢)، وطبقات التاج: (٧/٤٧).

(١) في (ك) و(ص) و(ب): فيها.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): يسير، وضعَّفها في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) البذرقة: الطريق الرديئ، فارسية معربة، تاج العروس: (٢٥/٣٦).

(٤) أي: ضَرْبُ عشرة آلاف دينار في عشرة آلاف دينار، حاصله: (١٠٠،٠٠٠،٠٠٠) دينار، فهذا الذي كان يدفعه الملك العادل إلى أمير الحج وعساكره، وهو مال جليل، ونَقْدٌ كثير.

(٥) في (ص) و(ب): الحال.

(٦) إمام في العِلْم والتدريس.

(٧) إمام الصلاة، وضرب عليه في (ك).

(٨) قوله: «مائة دينار» سقط من (ك).

٢

الحج مع أبي، صُحْبَةَ شيخنا أخيه إسماعيل، فدخلنا عليه؛/ وبوَصِيَّةِ أبي [٦٤/ب] حامد الغزالي بِنَا وتنبيهه علينا، لنراهُ ونطَّلع حاله، وقلنا: تكون معرفة، فربما دخلنا خراسان وعرَّجنا على أصفهان، فوصلنا إلى منزله بالكَرْخِ، وتقدَّم أخوه واستأذن لنا، فوصلنا إليه، وتلقَّانا ببِرٍّ وافر، وتكلَّم معنا بتُرْجُمَانٍ، ومَجْلِسُه غاصٌّ، وفي أثناء الكلام جاءت السُّفَرُ، ونُضِدَ عليها الأقراص والصحون بالألوان، فرأيتُها بأجمعها هَيْئَةَ فُولٍ مطبوخ، وهو الذي نُسَمِّيه «البَيْسَار»[1]، فقلتُ: هذه سيرة الزهاد، وإنه ليشبه ملبسَه؛ فإنه كان مُتَوَسِّطًا جدًّا، فلمَّا غسلنا أيدينا وأخذنا في الأكل إذا بالصحون اللَّوْنُ واحدُ، والأطعمةُ مختلفة، وقد أَتَوْنَا به مُتَشَابِهًا، فَوَالعَظِيمِ الكريم العزيز الرَّحيم العَلِيِّ الحكيم الذي ابتلاني بكم بعدهم، وجعلني بَدَلًا منهم معكم، ما انفصلتُ عن ذلك المجلس إلَّا والدنيا قد خَرَجَتْ من قلبي، فما دَخَلَتْهُ إلى اليوم؛ لأنِّي علمتُ أن تلك هي الدنيا والمُلْك، لا دُنْيَا المَلِكِ العادل ولا مُلْكه، ورأيتُ أنه أَمْرٌ لا يُدْرَكُ، فوَقَفْتُ حيثُ وَقَفَتْ بي المقاديرُ، وتَرَدَّدَتْ في أثناء التدبير، ولله الحُكْمُ العلي الكبير.

ورَدَفَتْنا صِلَتُه في حُرْمَةِ أبي حامد الغزالي وأَخِيهِ[2]، وكان ذلك الذي فَعَلَ برَأْيِ الغزالي وأَمْرِهِ، ورجع إلى أصبهان[3] وقد أنفق بَيْتَ مال، وكان من تُنَّاهَا، لا اتصالَ له بسلطان[4]، ولا تَصَرُّفَ له معه، وخَرَجَ راكبًا

---

(١) وكذلك نُسَمِّيه إلى يوم الناس هذا.

(٢) الفقيه الواعظ، أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسِي، أبو الفتوح الغزالي، تـ ٥٢٠هـ، ترجمته في: طبقات الشافعية: (٦/٦٠-٦٢)، ولسان الميزان: (١/٦٤٧-٦٤٩).

(٣) في (ك) و(ب): أصفهان.

(٤) في (د): بسلطان.

مُسْتَبْشِرًا[١]، والغلمانُ بين يديه بأطباق الدَّنانير، والخلق يتبعونه، وهي تُنْثَرُ عليهم، وهم يلتقطونها، حتى فرغت الأطباقُ، وتقطَّعت الثياب في لَقْطِها، وربما انفكت يَدٌ، وانكسر ساقٌ.

[جُودُ ابن عمر البغدادي]:

ولقد نزلنا أضيافًا على رجل من تُنَّاءِ بغداذ، وهو ابن عمر أبي[٢] حامد[٣]، فكنَّا في ضيافته من يوم دخلناها إلى يوم خروجنا عنها، مع إرسال الدنانير والثياب في أوقات، كأنه كان معنا في الحاجة إليها على ميقات.

[جُودُ أهل بيت المقدس]:

ولقد كنَّا نخرج مع أبي بكر الفِهْرِي الصُّوفِي شَيْخِنا، فنمشي في مشاهد الأنبياء ورباطات الأصفياء؛ الأيام والأشهر، في جَمْعٍ[٤] الطلبة، نَقِيلُ بمَنْهِل، ونبيت على منزل، في تُحَفٍ كثيرة، وخيرات معدَّدة[٥] مردَّدة، ثم نعود إلى المسجد الأقصى،/ ثم نخرج إذا طاب الهواء[٦]، وغرَّد المُكاء، وانتهى جريان الماء في الأغصان إلى الاستواء.

٢ [٦٥/أ]

---

(١) في (د): مستبشر.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): أبو.

(٣) تقدَّم ذِكْرُه، وسماه: أبو القاسم بن أبي حامد بن عمر، وهو من أصحاب الخليفة.

(٤) في (د) و(ص): جميع.

(٥) في (ك) و(ب): معدودة.

(٦) في (د): الهوى.

فانسِبُوا - يا معشر المريدين - بلادكم إلى تلك البلاد، أو ناسكم إلى أولئك الناس، أو أخلاقكم إلى أخلاق تلك الأمم، أو سِيَرَكُم إلى سِيَرِ تلك الطبقة، حتى تتحقَّقوا ما بينكم وبينهم من التفرقة، ومع هذا كله فقد استولت عليهم المِحَنُ، ومحقتهم الفِتَنُ[1]، فهل تنتظرون أنتم إلَّا أَشَدَّ من ذلك أو أَشَرَّ، أو السَّاعة؛ فالسَّاعة أدهى وأَمَرُّ؟

وبهذا وأمثاله حصل لهم السُّؤْدُدُ، وتَمَكَّنَ لهم المَجْدُ المُوَطَّدُ، وقال القائلُ: «إنَّك لا تلقى منهمُ إلَّا السَّيِّدَ بعد السَّيِّدِ».

* * * * *

(١) ينظر: العواصم: (ص٣٧١-٣٧٢).

السَّيِّدُ[١]: وهو الاسمُ الثالثُ[٢] والسَّبعون

ومعناه في اللغة والحقيقة: الذي بلغ الغاية في الفضائل، وفاق الأقران والنُّظَراء في خصال الكمال[٣].

والسَّيِّدُ بالحقيقة هو الله سبحانه الذي لا مِثْلَ له.

والنَّبِيُّ سَيِّدُ وَلَدِ آدم؛ لأنَّه فوقهم في المراتب والفضائل، وقال[٤] ﷺ: «أنا سَيِّدُ الناس يوم القيامة»[٥]، خرَّجه مسلم[٦]، وهذا ظاهر، وقد بيَّنَّاه في غير موضع.

ولمَّا نزلت قُرَيْظَةُ على حُكْمِ سعد بن معاذ أرسل إليه النبي، فجاء سعد، فلمَّا رآه النبي مُقْبِلًا قال للأنصار: «قوموا إلى سيدكم»[٧]، فأثبت له

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الحادي والسبعون، وفي (ص): التاسع والستون، وفي (ب): الثامن والستون.

(٣) ينظر: الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (١/٤٥٠).

(٤) في (ك): قال.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم: (١٩٤-عبد الباقي).

(٦) قوله: «خرَّجه مسلم» سقط من (ص).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم: (١٧٦٨-عبد الباقي).

المنزلة على جميعهم، وحَكَمَ له بأنه أفضلهم، فسَعْدُ بن معاذ في حياة رسول الله أفضلُ الأنصار، ولا عِلْمَ لأَحَدٍ بأفضلهم بعد موته.

وخَيْرُ الناس بعد رسول الله أبو بكر.

وفي التفضيل في حياته كلامٌ بيَّنَّاه في موضعه(١).

وصار يُطْلَقُ(٢) - في العُرْفِ - على من يُرجع إليه في الآراء، ويَنْفُذُ قوله في الأمور على الجمهور، ولذلك(٣) قال الشَّاعر:

أَلَا بَكَّرَ النَّاعي بخَيْرَيْ(٤) بني أَسَدْ ... بعَمْرِو بن مَسْعُودٍ وبالسيِّد الصَّمَدْ(٥)

وهو الذي يُصمد إليه في الأمور، ويُقصد فيها بكل معنى، كما تقدَّم.

وقد كان بعضُ أصحابنا(٦) من المُتَعَبِّدِينَ يرى أنَّ أهل هذا(٧) المغرب ليس فيهم فقيه، فإذا كَاتَبَ أحدًا منهم قال: «إلى سَيِّدِي أبي فُلَانٍ فُلَانِ بن فُلَانٍ»، فيَتَوَرَّعُ عن أن يكتب «فقيهًا»؛ لئلا يَكْذِبَ، فيكتبُ: «سَيِّدِي»، ٢ وهي كِذْبَةٌ/ عُظْمَى؛ لأنه ليس له بمَالِكٍ، ولا له عليه فضيلةٌ يتميَّز بها، بل [٦٥/ب] ربما كان من أهل المعاصي والظُّلَمِ(٨).

---

(١) ينظر: العارضة: (٩/١٧١).

(٢) أي: السيد.

(٣) في (ك): بذلك.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): بخير.

(٥) من الطويل، وهو لامرأة من بني أسد كما في البيان والتبيُّن: (١/١٨٠)، والأغاني: (٢٢/٩٦).

(٦) لعله الفقيه الإمام أبو بكر الطرطوشي، وقد ذَكَرَ ابنُ العربي عنه ذلك في اسم «الفقيه»، أو لعله غيره، والله أعلم.

(٧) سقط من (ك).

(٨) في (ك) و(ص) و(ب): أو المظالم.

وأيضًا فإنَّ التجاوز في أن يكتب له: «فقيهًا»، ويتأوَّل فيه فَهْمَ مسألة واحدة أخفُّ عليه من أن يكتب إليه[١]: «يا سيِّدي»، ولم يَسُدْه بصفة من الصفات.

وأيضًا فإن اسم «السَّيِّدِ» يَنْطَلِقُ على الله، واسمُ «الفقيه» لا ينطلق عليه، فكيف يَحْرِمُه اسمًا يشاركه فيه المخلوقون، ويُطلق عليه اسمًا يُسَمَّى بمثله الخالق؟

وهذا إنَّما أَوْجَبَهُ عليه أنه تَفَقَّه بنفسه، وعَوَّلَ على فهمه، ولم يَحُكَّ رُكْبَتَيْه برُكْبَةِ[٢] طالب، فَضْلًا عن عالم.

وليته إذ تجوَّز فيه يكتب: «إلى فلان بن فلان سَيِّدِ قَوْمِه»، كما كتب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم[٣]، أي: تُعَظِّمُه الروم، وتعظيم الروم له باطل، ولكنه موجود حقيقة، فلذلك وَصَفَه النبي به.

وقد روى بُرَيدة عن النبي ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيد؛ فإنه إن يَكُ سَيِّدَكم أسخطتم ربكم»[٤]، فكيف يكتب هذا إلى الظلمة وأهل الشقاق: سيِّد؟

ولو قال أَحَدٌ: «سيد»؛ لمن يستحق ذلك ولم يكن منه عن خُلُوصِ نِيَّةٍ؛ فإن ذلك مكروه منه.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): له، وأشار إليه في (د).

(٢) في (ك) و(د) و(ب): يحك ركبتيه طالبٌ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه النسائي في السنن: كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل: سيدنا وسيدي، رقم: (١٠٠٠٣-شعيب).

روى مُطَرِّفٌ عن أبيه وحُمَيد عن أنس: أنَّ رجلًا جاء إلى النبي ﷺ - وقال مُطَرِّفٌ: من بني عامر - في وفدهم، فقال له: «أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، أنت سَيِّدُ قريش، قال النبي: السَّيِّدُ الله، قال: أنت أفضلنا[١] قَوْلًا، وأفضلنا فِعْلًا، وأعظمنا فيها طَوْلًا، قال النبي: قولوا بقولكم - وفي رواية: ليقل أحدكم بقوله -، ولا يسجره[٢] - أو لا يَسْتَجِرُّه، أو لا يستجرينكم[٣]، أو لا يستهوينكم[٤] - الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله، ما أُحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أَنْزَلَنِيها الله»[٥]، وهذا كله قبل أن يُعْلِمَه الله سبحانه بمنزلته التي أَرْقَاهُ إليها.

وقد كان أبو هريرة جالسًا فجاء الحَسَنُ بن علي بن أبي طالب، فسلَّم فرَدَدْنا عليه، وأبو هريرة لا يعلم، فمشى فقلنا: «يا أبا هريرة هذا الحسن بن علي قد سلَّم علينا، فقام فلحقه[٦]، فقال: يا سيدي، قال: فقلنا: تقول له: يا سيدي؟ فقال[٧]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه لسَيِّدٌ»[٨].

---

(١) في (ك) و(ب): «أفضلها.. وأفضلنا.. وأعظمها».

(٢) في (ب): ولا يستجره.

(٣) السنن الكبرى: رقم: (١٠٠٠٦-شعيب).

(٤) السنن الكبرى: رقم: (١٠٠٠٤-شعيب).

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل: سيدنا وسيدي، رقم: (١٠٠٠٧-شعيب).

(٦) في (ك): ولحقه.

(٧) في (ك): قال.

(٨) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل: سيدنا وسيدي، رقم: (١٠٠٠٨-شعيب).

٢
[٦٦/أ] وقال أبو بَكْرَةَ في حديثه: «ولعلَّ الله أن يُصْلِحَ به/ بين فئتين عظيمتين من المسلمين، أو بين أمَّتين[١]»[٢].

وفي الصحيح: أنَّ عمر قال: «أبو بكر سيدنا وخَيْرُنا[٣]»[٤].

وإذا علمتم هذا وكان السَّيِّدُ هو الذي يُرجع إليه ويُصمد نحوه، وكان كذلك، وجب عليه أن يكون «نَصِيحًا».

* * * * *

---

(١) في (ك) و(ب): أو من أمتي.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل: سيدنا وسيدي، رقم: (١٠٠٠٩-شعيب).

(٣) قوله: «وقد روى بُرَيدة عن النبي ﷺ: لا تقولوا للمنافق سيد.. وفي الصحيح: أنَّ عمر قال: أبو بكر سيدنا وخَيْرُنا» سقط من (ص).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، بابٌ، رقم: (٣٦٦٨-طوق).

النَّصِيحُ[١]: وهو الاسمُ الرَّابع[٢] والسَّبعون

وحقيقته: إصلاح الفاسد[٣].

ومنه: جَمْعُ المفترق، والمُحتاج[٤] إلى جمعه.

والخياطة نُصْحٌ؛ لأنها[٥] تُصلح[٦] المخيط للمنفعة وتُهَيِّئُه[٧] للمراد، قال الأوَّل[٨]:

نَصَحْتُ بني عَوْفٍ فلم يتقبَّلوا وَصَاتِي ولم تنجح لديهم وَسَائِلِي[٩]

وقال جرير: «بايعنا رسول الله على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنُّصْحِ لكل مُسْلِمٍ»[١٠].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الثاني والسبعون، وفي (ص): الموفي سبعين، وفي (ب): التاسع والستون.

(٣) ينظر: العارضة: (٨/٢٠٢)، وسراج الملوك: (١/٣٢٦).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): المحتاح.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): لأنه.

(٦) في (ك) و(ص) و(ب): يصلح.

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): يهيئه.

(٨) بعده في (ك) و(ص) و(ب): منهم، وضرب عليها في (د).

(٩) البيت من الطويل، وهو للنابغة في ديوانه: (ص٩٣).

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»، رقم: (٥٧-طوق).

[تفسيرُ قول رسول الله: «الدين النصيحة»]

ومن الحديث الحسن: عن تميم الداري[(١)] عن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة؛ لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، ولعَامَّتِهم»[(٢)]، وهو صَحِيحٌ عند مسلم، سَقِيمٌ عند البخاري[(٣)]، وقد أمليناه عليكم في «شرح النَّيِّرَيْنِ»[(٤)].

فأَمَّا قوله: «لله»؛ ففيه قولان:

أحدهما: أنه استفتاحُ كلامٍ لا يتعلق بالمعنى، كقوله: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٠] الآية، فقوله هاهنا: ﴿لِلهِ﴾: هو استفتاح كلام؛ لأنَّ الأرض كلها لله.

الثاني: أنَّ النصح لله توحيده بالاعتقاد، والمجادلةُ عنه لأهل الإلحاد، وإخلاصُ العمل له في الاجتهاد.

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن تميم ﵁: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم: (٥٥-عبد الباقي).

(٣) إنما قال ابن العربي هذا القول لأن أبا عبد الله البخاري أورده مُعَلَّقًا في صحيحه، ففَهِمَ منه أنه لو كان على شَرْطِهِ لأخرجه، فلمَّا لم يُخْرِجْهُ دلَّ ذلك على وجود عِلَّةٍ في الحديث مَنَعَتْهُ من إخراجه، وقد أورده البخاري في صحيحه مُعَلَّقًا: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»، وينظر: الفتح: (١/١٣٧-١٣٨).

(٤) ينظر في تفسيره: سراج الملوك: (١/٣٢٦-٣٢٧).

وأمَّا النُّصْحُ لكتابه؛ فمن سبعة أوجه:

الأوَّل: الإيمان به.

الثاني: تَعَلُّمُه[١].

الثالث: العمل بما فيه[٢].

الرَّابع: الوقوف عند متشابهه، والنظر في مُحْكَمِه.

الخامس: الذَّبُّ عنه.

السَّادس: تَرْكُ المِرَاءِ فيه[٣].

السَّابع: تَرْتِيلُه.

والإيمان به على الجملة فَرْضٌ بالإجماع، وكذلك العمل بما فيه فَرْضٌ أيضًا بالإجماع، على أنواع العمل الخمسة؛ فيعمل بالواجب واجبًا، ويترك[٤] المحظور محظورًا، ويأتي المندوب فَضْلًا، ويَنْكَفُّ عن المكروه تنزيهًا، ويتخيَّر في المباح كيف شاء من فِعْلٍ وتَرْكٍ.

وأمَّا الوقوف عند متشابهه ففي ذلك كلام كثير بيَّنَّاه في «قانون التأويل»[٥]، وفي «المشكلين»، وفيه أقوال كثيرة،/ وكلام طويل عريض. ٢ [٦٦/ب]

(١) في (د): بعلمه.

(٢) في (ك): العمل به.

(٣) في (د): ترك المراقبة.

(٤) في (ك): بترك، وسقط من(ص).

(٥) قانون التأويل: (ص٣٧٢-٣٧٥).

والذي أَقْدَحُ لكم به في هذا «السِّرَاجِ» أنَّ المتشابه على قسمين:

منه ما تَكِعُّ[١] عنه العامَّة؛

ومنه ما يَكِعُّ[٢] عليه[٣] العلماء.

فأمَّا العامَّة فحَظُّها الإيمانُ به؛

ومن كانت له قدرة فحَظُّه النظر فيه للعلم به.

وأمَّا المُحْكَمُ فطَلَبُ عِلْمِه فريضة.

وأمَّا الذبُّ عنه ففَرْضٌ على من قَدَرَ عليه.

وأمَّا تَرْكُ المِرَاءِ فيه ففَرْضٌ على جميع الأمة؛ وهو المنازعة في معانيه وفي أصله لغير وجه الله، ولا لطلب الحق والفهم والعلم، وإنَّما هو للتشكيك والتضليل وللمباهاة.

وأمَّا ترتيله ففضيلة.

وأمَّا نُصْحُ رَسُولِه فمن أربعة أوجه:

الأوَّل[٤]: تَصْدِيقُه، قال الله سبحانه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح:٩].

الثاني: تَعْظِيمُه، لقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): تكيع، ومرَّضه في (د).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): يكيع، ومرَّضه في (د).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): عنه.

(٤) سقط من (ك) و(ص).

الثالث: طَاعَتُه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٨].

الرَّابع: الرِّضَى بحُكْمِه، لقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٤].

وأمَّا النُّصْحُ لأئمة المسلمين؛ فالإمامُ نائبُ رسول الله، يَجِبُ له ما يجب للرسول[١] من الحُرْمَةِ والطاعة، لكن ما يَجِبُ للنبي أَعْظَمُ بأضعاف مضاعفة، ويزيدون على النبي بما[٢] لا يجب للنبي؛ لا لحرمة زائدة، ولكن لِعِلَّةٍ حادثة، من أربعة أوجه:

الأوَّل: الصَّبْرُ على أذاهم إذا لم يَعْدِلُوا.

الثاني: تَنْبِيهُهم إذا غَفَلُوا.

الثالث: تَرْكُ الثناء عليهم بما ليس فيهم.

الرَّابع[٣]: الدُّعَاءُ عند فسادهم بصلاحهم.

وقد رُوي عن الفُضَيل بن عياض وعبد الله بن المبارك كلمة بَدِيعَةً من الجُودِ والإيثار على أنفسهم للأمة؛ لأنهما قَالَا: «لو كانت لنا دعوة مجابة لجعلناها في السلطان»[٤].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): لرسوله.
(٢) في (ك) و(ص): مما.
(٣) في (د): الرضى بحكم الدعاء عند فسادهم بصلاحهم، وجعلها ناسخُها لَحَقًا، ولم يظهر لي وجه في إثباتها.
(٤) حلية الأولياء: (٨/٩١).

يعنيان: لما فيه من صلاح العامة، واستقامة الأمور، وسلامة ذات البَيْنِ.

ويجب ذلك للعامة، كما قال: «ولعامَّتهم»، والعامَّة على قسمين:

داخلون في جملة الحُكَّام بفتواهم، وهم حَمَلَةُ العِلْمِ، وعلى الخلق تصديقهم فيما رَوَوا، وتقليدهم[١]، والدعاء لهم، وتعظيمهم.

٢ [٦٧/أ]

وأمَّا من عَدَاهُمْ/ فحقوقهم كثيرة، وهي[٢] متفصلة[٣] ومتنوعة، غايتها تعليمهم إذا جهلوا، وتقويمهم إذا عاجوا، ومقصودها إصلاح الظاهر والباطن، وتقويمها إذا احتاجوا.

[المُشَاوَرَةُ[٤]]:

وعلى العامَّة من الخليفة حَقُّ المشاورة؛ من الرسول إلى أقل خَلْقٍ بعده في درجاتهم، والمُشَاوَرَةُ أَصْلُ الدين، وسُنَّةُ الله في العالمين، ومُحَمَّدٌ أَوَّلُ مستشير، وجبريل أوَّل ناصح، صلَّى الله عليهما.

نزل جبريل على النبي فقال له[٥]: «إنَّ الله خيَّرك بين أن تكون نَبِيًّا مَلِكًا، أو نبيًّا عبدًا، فنظر النبي إلى جبريل كالمستشير، فأشار إليه جبريل أن تواضع، فقال النبي: أختار أن أكون عبدًا نبيًّا»[٦].

---

(١) في (د): تقليده.

(٢) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٣) في (د): منفصلة.

(٤) ينظر: أحكام القرآن: (١٦٦٨/٤).

(٥) سقط من (ك).

(٦) تقدَّم تخريجه.

وفي الصحيح: «دعا رسول الله عَلِيَّ بن أبي طالب وأسامة يستشيرهما في فراق أهله، فأمَّا أسامة فأشار بالذي يعلم من براءة أهله، وأمَّا علي فقال: لم يُضَيِّقِ الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجارية تصدقك، فسأل بَرِيرَةَ فقال: هل رَأَيْتِ من شيء يُريبك[1]؟ قالت: ما رأيتُ أمرًا أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين[2] أهلها؛ فتأتي الداجن فتأكله»[3].

وخطب النَّبِيُّ على المنبر في شأن عائشة فقال: «أَشِيرُوا عليَّ في أناس أَبَنُوا أهلي، وما علمتُ على أهلي من سوء»[4]، وذكر الحديث.

وتشاور أبو بكر مع عمر والصحابة في أمر مَنْعِ الزكاة، فلم يسمع أبو بكر منهم حين كان عنده دَلِيلُ الحق نصًّا.

حتى غالى في ذلك بعضهم فقال: «إنَّ قولَه تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[5] سُنَّةٌ في المشاورة، ولولا ذلك ما استجرأ أحدٌ منهم على المجاوبة بما قالوه، ولكنهم فهموا أنَّ الجواب منهم مطلوب فقالوا ما قالوه».

---

(١) مرَّضها في (د)، وفي الطرة ما لم أعرف قراءته، وذلك لسوء التصوير.

(٢) في (د): عجينها، ومرَّضها، وفي الطرة مثل الذي أثبتنا.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم: (٤١٤١-طوق).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب التوبة، بابٌ في حديث الإفك، رقم: (٢٧٧٠-عبد الباقي).

(٥) [البقرة:٢٨].

وقال الله لرسوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، أَمَرَ بذلك تَطْيِيبًا لأنفسهم، وتنبيهًا لنا[١]، وذلك في الحرب خاصَّة، لا في مسائل الدين.

قال الله لنَبِيِّه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما قصروا، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما أذنبوا، ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ ليُثْبِتَ لهم مَحَلًّا ومنزلة، وليرفع الخَجْلَةَ[٢] عن قلوبهم وظواهرهم، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ بعد ذلك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

فشَاوَرَ صلَّى الله عليه، وتَشَاوَرَ أصحابُه في مقامات كثيرة، بيَّنَّاها[٣] في «أنوار الفجر».

٢ وقد مَدَحَ الذين يتشاورون فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٥]، [٦٧/ب] في الآيات/ الجامعة، وفيها أَحَدَ عَشَرَ مَعْنًى وخَصْلَةً[٤]:

الأَوَّل: الإيمان، وقد تقدَّم بيانُه.

الثاني: التوكل، وقد تقدَّم شَرْحُه.

الثالث: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى:٣٥]، كُلُّ ذلك وما يأتي بعده مبنيٌّ[٥] على قاعدة قد[٦] بيَّنَها ونبَّه سبحانه عليها،

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): وتثبيتًا لها.

(٢) في (د): الحجلة.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): أمليناها، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٤) سقطت من (ص).

(٥) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٦) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في بدن أو مال، ﴿فَ﴾ كله ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنه لا بد له أن يفنى، وكلُّ ما تعتقد من الراحات لا يصفو من الشوائب، وكُلُّ ذلك سريع الزوال، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص:٦٠]، ولكنه لا يُعطي لأحد ابتداءً دون أن يتقدَّمه عَمَلٌ في جُمَلٍ؛ منها: الإيمان والتوكل في قِسْمِ الأوامر، ومنها:

الرَّابع: وهو اجتناب الكبائر؛ وهو الشِّرْكُ بأنواعه، والفواحش، وهي قبائح المعاصي؛ كالزنا، والخمر، والسرقة، والغصب، والكذب، والقذف، وأكل مال الربا، وأكل مال اليتيم، وفي القتل خلاف[1]؛ هل هو من نوع الكفر الموجب للتخليد أم من المعاصي الداخلة في المشيئة؟

الخامس: تَجَرُّعُ كأسات[2] الغضب، وتَسْكِينُ سَوْرَةِ النفس عند الطيش؛ بفَوْتِ أَمَلٍ، أو سماع مكروه، بل يقابلونه بالمغفرة، ويقبلون معه المعذرة، فإن غلبهم اضطجعوا، أو اغتسلوا، كما جاء في الحديث، وقد رُوي أنَّ النبي قال له رجل: «أوصني، قال: لا تغضب»[3].

السَّادس: أنه يستجيب لربه في كل ما دعاه إليه؛ من امتثال واجتناب[4].

---

(١) سقطت من (ك).

(٢) في (ك) و(ص): كامنات.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ك) و(ص): أو اجتناب.

السَّابع: قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي لا يستبد بأمر[١]، ويَتَّهِمُ رأيه أبدًا، حتى يستعين فيه بغيره؛ ممَّن يَظُنُّ به[٢] أن عنده مَدْرَكًا لغرضه، وهذه سيرة أَوَّلية، وسُنَّةٌ نبوية، وخَصْلَةٌ عند جميع الأمم مَرْضِيَّةٌ[٣].

هذا إبراهيمُ الخليل لمَّا أمره الله بذَبْحِ ولده أعلمه به، وقال له: ماذا ترى فيه؟ قال له ابنه: ﴿إِفْعَلْ مَا تُومَرُ﴾ [الصافات:١٠٢]، فسَنَّ[٤] سُنَّةً، واختبر سريرة، ورَازَ[٥] دِينًا، واستبرأ عقلًا، واستدعى طاعة، فوجد كلَّ ذلك كما أراد.

وقد قال بعضُ الحكماء: «إنفاذُ الأمر بغير رَوِيَّةٍ كالعبادة بغير نِيَّةٍ»[٦].

وهذا ممَّا يغترُّ به كثير من المُقَصِّرِينَ، وليس بشيء؛ فإنَّ العبادة بغير نية لا شيء في كل حال، والرأي بغير رويَّة قد لا يخيب[٧]، ويُفضي إلى المطلوب.

وقال بعضُ المؤلفين: «لا تُشَاوِرِ/ الجماعة، وشَاوِرْ كل واحد على حِدَتِه»[٨]. [٢/أ٦٨]

---

(١) في (ك): بأمره.

(٢) في (ص): فيه به، وفي موضعهما من (ب) و(د) طمس.

(٣) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٣٥٧).

(٤) في (ص): فبيَّن.

(٥) في (ص) و(د): زاد، ومعنى راز: جرَّب.

(٦) سراج الملوك: (١/٣٢١).

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): ينجب، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٨) سراج الملوك: (١/٣٢٢).

قال الإمام الحافظ[١] رضي الله عنه: هذا خطأ على الإطلاق، الغالب أن يُشَاوَرَ الكُلُّ في الجماعة، وهنالك أمور حُكْمُها أن يقع السؤال عنها والمشاورة فيها سِرًّا؛ تكشفها التجربة[٢].

وأنشد الحكماء:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حَازِمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... مكان الخوافي نافعٌ[٣] للقوادمِ[٤]

والرَّأْيُ في الحرب هو رُوحُ المكيدة، وقوة النصر، وحظ[٥] السَّلامة، وفاتحة الظَّفَرِ، ولقد أصاب بعضُ الأحداث فقال:

الرَّأْيُ قبل شجاعة الشجعان ... هي أُولى وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حُرَّةٍ ... بلغت من العَلْيَا كلَّ مكانِ
ولربما طعن الفتى أقرانَه ... بالرأي قبل تَطَاعُنِ الأقرانِ[٦]

والكَيْدُ: المكر[٧]؛ وهو العمل في الظاهر بما لا يقصد في الباطن، هو أصل الآراء.

---

(١) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله، وفي (ب): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٢) قوله: «تكشفها التجربة» سقط من (ب).

(٣) في (د): تابع.

(٤) البيتان من الطويل، وهما لبشَّار بن بُرد في ديوانه: (٢/١٩٣-١٩٤).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): حصن، ومرَّضه في (د)، والمثبت من طرته.

(٦) الأبيات من الكامل، وهي للمتنبي في ديوانه: (٢/٢٥١).

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): والمكر.

وقال[١] النبي: «الحرب خَدْعَةٌ»[٢]؛ بفتح الخاء وإسكان الدال.

قيل: معناه: يكون بالخداع، كما تقول: الموت ضربة بالسيف، أي: تكون بها.

ورُوي بضم الخاء وفتح الدال[٣]، معناه: تخدع صاحبها، فنُسِبَ الفعل إليها، كما قالوا: ليل نائم.

وقد بيَّن الله حكمة مشاورة النبي لأصحابه، وأَعْلَمَ أنَّ ذلك برحمته في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، بل كان رؤوفًا رحيمًا، فرَزَقَهُ القوة على صحبتهم مع جَفْوَتِهم، وتبليغ الرسالة إليهم مع ما قاسى منهم، فلولا قُوَّةٌ إلَهية وضعها الله فيه وخَلَقَها له ما أطاق صُحْبَتهم، ولا احتمل أذاهم، ألا ترى إلى موسى ﷺ - قال علماؤنا: - «كيف لم يصبر عند مخاطبة أخيه، وأَخَذَ برأسه يَجُرُّه إليه»[٤].

الثَّامن: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٦].

قال أَهْلُ التفسير: «يعني: إذا ظَلَمُوا أباح الله لهم الانتصار من الظالم بمثل فِعْلِه، لا بزيادة عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٣]»[٥].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): قال.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ: كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، رقم: (١٧٣٩-عبد الباقي).

(٣) مشارق الأنوار: (١/٢٣١).

(٤) لطائف الإشارات: (١/٢٩٠).

(٥) تفسير الطبري: (٢٠/٥٢٤-التركي).

٢

وقال أَهْلُ الزهد: «انتصَرُوا/ لأنفسهم من أنفسهم»[١]. [٦٨/ب]

فيكبح نفسه عن هواها، ويَرُدُّها عن شهوتها إلى طاعة مولاها، ويَقِفُها عن الركض في ميدان البطالة على خَيْلِ المخالفة.

التاسع: ﴿فَمَنْ عُفِىَ﴾ [البقرة:١٧٧]، يعني: عن الجاني.

* * * * *

---

(١) لطائف الإشارات: (٣٥٧/٣).

العَفُوُّ[١]: وهو الاسمُ الخامس[٢] والسَّبعون

وهي خصلة عظيمة، واسم كَرِيمٌ، أثبته الله لنَفْسِهِ بكلامه وفِعْلِه، فنَدَبَ عَبْدَه إلى أن يكون من وَصْفِهِ قرآنًا وسنةً.

وهو مأخوذٌ من معاني كثيرة، بيَّنَّاها في اسم «العَفُوِّ» من كتاب «الأمد الأقصى»[٣]، وفي كتاب «الأحكام»[٤]؛ في آية القصاص.

والمُرَادُ[٥] به هاهنا الإسقاطُ[٦]، فكُلُّ من تَرَكَ ما وَجَبَ له وأَسْقَطَ ما ثبت له فهو عَافِي، وإذا كَثُرَ ذلك منه فهو عَفُوٌّ، على وَزْنِ فَعُولٍ.

قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤] الآية.

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٠].

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ك): الثالث والسبعون، وفي (ص): الحادي والسبعون، وفي(ب): الموفي سبعين.

(٣) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٣٦٠-٣٦١).

(٤) أحكام القرآن: (١/٦٦-٦٧).

(٥) في (ك) و(ص): المراد.

(٦) وجعله في «الأحكام» دائرًا بين العطاء والإسقاط: (١/٦٧).

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

ورَوَتْ عائشة: «أن النبي ﷺ ما انتقم لنفسه قَطُّ؛ إلَّا أن يُنتهك[١] حُرْمَةٌ من حُرمات الله، فيكون أشدَّ النَّاس غضبًا، حتى ينتقم لله»[٢].

وفي الحديث الحسن: «يُنادي منادي يوم القيامة: أَلَا لِيَقُمْ من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلَّا من عَفَا»[٣].

فأمَّا قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: فإنَّ البخاري روى عن عبد الله بن الزبير في تفسير الآية: «أنَّ الله أَمَرَ نبيَّه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»[٤].

وروى غيره أن النبي ﷺ سأل جبريل عنها، فقال له: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عن من ظلمك»[٥].

والثابت أن عُيَينة بن حُصَين[٦] دخل على عمر فقال له[٧]: «إنك لا تُعطي الجَزْلَ، ولا تحكم بالعدل، فغضب عُمَرُ وهَمَّ أن يُوقِعَ به، فقال له

---

(١) في (ك) و(ب): تنتهك.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ﵂: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم: (٣٥٦٠-طوق).

(٣) أخرجه الطبراني في أوسط معاجمه عن أنس بن مالك ﵁: (٢/٢٨٥)، رقم: (١٩٩٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، ﴿خذ العفو وامر بالعرف﴾، رقم: (٤٦٤٣-طوق).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في (ك): حصن.

(٧) سقط من (ك).

ابن أخيه الحُرُّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، قال: فما تجاوزها عمر، وكان وَقَّافًا عند كتاب الله».

وليس يمتنع أن يكون[1] معاني العَفْوِ من الإِسْقَاطِ والعطاء مرادة بالآية، على ما بيَّنَّاه في «أصول الفقه»، ويكون الله قد أمره بأن يُسْقِطَ حقَّه، ويُعطي فَضْلَه.

وأمَّا قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾؛ فيعني به: المعروف[2]، أَمَرَه أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

٢ [٦٩/أ]

وأمَّا إِعْرَاضُه عن الجاهلين/ فقد بيَّنَّا أن بعضه منسوخ؛ وهو في حق الكفار، وبَعْضُه مُحْكَمٌ في حق المؤمنين[3].

وأمَّا قوله: ﴿ٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾؛ فهم الذين إذا فَارَ غَيْظُهم رَدُّوه عن سبيله وحبسوه، وقطعوه عن اتصاله.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ قد بيَّنَّا أن الإحسان مع الله أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسانُ مع الناس أن تدع حقَّك كلَّه، كم كان مع من كان.

وأمَّا قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ يؤكد[4] هذا لأنه جعله من العَزْمِ، وهو جَزْمُ الإرادة على[5] ثبات القلب في مخالفة الشهوة والهوى، والعمل بمقتضى العقل والمروءة.

---

(١) في (ب): تكون.

(٢) تنظر: المسالك: (٦/٢٦).

(٣) ينظر: الناسخ والمنسوخ: (٢/٢٢١).

(٤) في (ك): تؤكد.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): عن.

وقد قال الله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٣].

قيل: معناه: لم نجد له عزمًا على امتثال الأمر(١).

وقيل: لم نجد له عزمًا على ترك المخالفة(٢)، يُحَقِّقُه قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، فأخبر الله تعالى(٣) أنَّ ذلك إنَّما واقعه نسيانًا(٤)، ولم يجد له على تَرْكِ المخالفة عزمًا ولا تعمدًا(٥)، ولم يكن النسيان في تلك الشريعة مرفوعًا عن الخلق، وإنَّما هو أَمْرٌ خُصَّتْ به هذه الأمة، وقد بيَّنَّا شَرْحَ الآية في «كتاب المشكلين» بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٣٧]؛ كلمة لا يوازنها شيء، لأنَّ الذي للعبد عند الله ومن الله وبالله خَيْرٌ له ممَّا يأخذه لنفسه بإرادته ويفعله باختياره.

العاشر: إن الانتصار جائز؛ لأنَّ الله عَلِمَ من عباده أنَّ منهم من لا يملك نفسه، ولا يبلغ حَزْمُه إلى هذه الخصلة، فأَذِنَ له في النِّقْمَةِ، ورخَّص له في المكافأة، على سبيل العدل والقِسْطِ.

---

(١) ينظر: لطائف الإشارات: (٤٨١/٢).

(٢) لطائف الإشارات: (٤٨١/٢).

(٣) بعده في (د) علامة اللَّحَقِ، وفيه: أنه.. ذلك نسيانه.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): أنه إنما واقع ذلك نسيانًا.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): ولم نجد له عزمًا على ترك المخالفة ولا تعمدًا.

الحادي عشر: قال علماؤنا: «وقد يكون العَفْوُ لاحتقار حال الجاني أو قَدْرِ المَعْفُوِّ عنه، فهذا هو الصَّفْحُ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٤]»[(١)].

وقيل: معناه: أَسْقِطْهُ ولا تذكره، وهو الصَّفْحُ الجميل الذي أَمَرَ الله به رسوله.

وقيل: الصَّفْحُ الجميل هو الاعتذار عن الذنب، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾، وهذا من فضل الله سبحانه، وهذا كله يرجع إلى الإحسان، وهو يتناوله ويتضمَّنه.

فإن تَعَذَّرَتْ عليه النصائح فليُدَارِ ما استطاع، ولا يُدَاهِنْ./ [٢/ ٦٩]

---

(١) لطائف الإشارات: (١/ ٤١١-٤١٢).

المُدَارِي[١]: وهو الاسمُ السَّادسُ[٢] والسَّبْعُونَ

فإنَّ المُدَارَاةَ[٣] سُنَّةٌ.

قد رُوي عن أبي الدرداء أنه قال: «إنَّا لنَكْشِرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم»[٤]، هذا على زهده وصرامته في الحق.

وقالت عائشة: «استأذن على النبي رجل فقال: ائذنوا له، فبئس أخو العشيرة، فلمَّا دخل أَلَانَ له القول، فقلت: يا رسول الله: قُلْتَ ما قُلْتَ ثم أَلَنْتَ له القول[٥]؟ قال: يا عائشة، إنَّ شَرَّ الناس منزلة من وَدَعَه الناس اتِّقاء فُحْشِه فقال ذلك»[٦].

ولم تكن غِيبَةً لأنه كافر، وأَلَانَ له القول دَفْعًا لشَرِّه عن الدين، وصارت سُنَّةً في المدافعة.

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الرابع، وفي (ص): الثاني، وفي (ب):الحادي.

(٣) في (ك) و(ص) و(د): «ولا يداهن، فإنَّ المداراة -وهو الاسم..- سُنَّةٌ».

(٤) ذكره البخاري في صحيحه مُعَلَّقًا: كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس.

(٥) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس، رقم: (٦١٣١-طوق).

والمداهنة معصية، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه[١]: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩].

قال المفسرون: فيه سَبْعُ[٢] تأويلات[٣]:

الأوَّل: وَدُّوا لو تَكْفُرُ فيكفرون[٤].

الثاني: وَدُّوا لو تُصْعَقُ فيصعقون[٥].

الثالث: لو تَلِينُ فيَلِينُونَ، قاله الفرَّاء[٦].

الرَّابع: لو تَكْذِبُ فيكذبون[٧]، قاله ابن عباس.

الخامس: لو تُرَخِّصُ فيُرَخِّصُونَ[٨].

السَّادس: لو تُدَاهِنُ فيداهنون معك في دينهم[٩].

فهذا مُنْتَهَى قَوْلِ[١٠] جَمِيع[١١] المفسرين، وقد بيَّنَّا لكم في «قانون التأويل»[١٢] كيف تتبع[١٣] هذا وأمثاله بالدليل.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): ﷺ.

(٢) في (د): ستة.

(٣) ينظر: أحكام القرآن: (٤/١٨٥٥).

(٤) تفسير الطبري: (٢٣/١٥٦-التركي).

(٥) لم أجده بعد البحث.

(٦) الهداية: (١٢/٧٦٢٤).

(٧) الكشف والبيان: (١٠/١٢)، ونسبه للعَوْفِي.

(٨) تفسير الطبري: (٢٣/١٥٦-التركي).

(٩) تفسير الطبري: (٢٣/١٥٧-التركي).

(١٠) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(١١) في (ك) و(ب): جمع.

(١٢) قانون التأويل: (ص٣٤٥).

(١٣) في (ك) و(ص) و(ب): يتتبع.

أمَّا من قال: «وَدُّوا لو تكفر فيكفرون»، أو «تكذب فيكذبون»، أو «تُرَخِّصُ فيُرَخِّصُون»؛ فله وجه، ولكنه قصَّر فيه.

وأمَّا من قال: «لو تصعق فيصعقون»؛ فجزاؤه القلب والتصحيف بالسَّوْطِ لا باليد.

وفي هذه الآية غرائبُ من التفسير ومن استخراج المعاني من الألفاظ، تسمعونها - إن شاء الله -:

وذلك أن حقيقة «دَرَأَ»: دَفَعَ، وحقيقة «دَهَنَ»: لَانَ، من الدُّهْنِ، وهو اللَّيِّنُ من المائع[1].

وقد جاء لفظُ «دَرَأَ» محمودًا في الشريعة، ولم يأت لفظُ «دَهَنَ» إلَّا مذمومًا.

قال النبي ﷺ: «فليدرأه ما استطاع»[2].

ومن كلام السَّلَفِ الأوَّل: «ادرؤوا الحدود بالشبهات»[3].

وقال عمر في أبي بكر: «كنت أداري منه بعض الحَدِّ»[4].

وحيث جاء «دَهَنَ» جاء مذمومًا، قال الله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة:٨٤]، وقال: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/١٥٧-التركي).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، رقم: (٥٠٥-عبد الباقي).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الحدود عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في درء الحدود، رقم: (١٤٢٤-بشار)، وإنما قال ابنُ العربي: إنه من كلام السلف؛ لأنه لم يصحَّ عنده رَفْعُه، ورُوي مِثْلُه عن غير واحد من الصحابة ﷺ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن عمر ﷺ: (١/٤٥٢)، رقم: (٣٩١-شعيب)، وهو طرف من حديث السقيفة.

٢ وقال النبي صلوات الله عليه: «مَثَلُ القائم بحدود الله والمُدَّهِنِ فيها كمثل قَوْمٍ استهموا[١] سفينةً»[٢]، الحديث./ [٧٠/أ]

وتَنَخَّلَ[٣] لكم من هذا أنَّ المداراة هي دَفْعُ الشيء بحق، والمداهنة اللِّينُ الذي يكون في موضع الدَّرْءِ الواجب، فإذا لم يجب الدَّرْءُ ولِنْتَ لم تكن مُدْهِنًا[٤].

وقد كانت قريش تَوَدُّ أن يَلِينَ لهم النبي ﷺ فيما كان يشدهم فيه، وتحاول[٥] ذلك بوجوه[٦]، والنبي لا يقبل منهم، بل يمضي على أمر الله كما ألزمه، لا يَرُدُّه عن ذلك شيء، ولا يمنعه منه خوف، وقد بيَّن الله ذلك في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٤].

وقد تَكَلَّمَ المفسرون على هذه الآية بجَهَالَةٍ، وقد بيَّنَّاها في «المشكلين».

لُبَابُه:

قالوا: «إن المشركين منعوا النبي ﷺ من لَمْسِ الحَجَرِ حتَّى يلمس الآلهة، فحدَّث النبيُّ بذلك نفسَه، وقال: ما عليَّ، والله يعلم أني كَارِهٌ»[٧].

---

(١) بعده في (ك) و(ص) و(ب): في، وضرب عليها في (د).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، رقم: (٢٦٨٦-طوق).

(٣) في (د): يتنخل.

(٤) ينظر: أحكام القرآن: (٤/١٨٥٦).

(٥) في (د) و(ك) و(ب): يحاول.

(٦) في (د): لوجوه.

(٧) تفسير الطبري: (١٥/١٣-التركي).

وقالوا: «إنَّ ثَقِيفًا طلبت منه أن يؤخرهم بالإسلام سنة ؛ حتى يجمعوا ما كانت العادة أن يقبضوه لآلهتهم ، فهَمَّ النبي بذلك ، فمنعه الله»[١].

وهذا كله باطل ، وبعضُه أشدُّ من بعض.

أمَّا قولهم: إنه هَمَّ بلَمْسِ الآلهة ؛ فما كان هذا قطُّ ، ولا يجوز أن يكون ؛ لا عادة ولا ديانة ، أمَّا من[٢] طريق العادة فقد عَلِمَتْ قريش والخلق أنه ما ألمَّ بها قطُّ قبل أن يُبْعَثَ ولا نَظَرَ إلى جهتها ، فكيف يلمسها بعد النبوة؟

الثاني: أن لَمْسَ الأصنام كُفْرٌ ، فكيف يخفى على النبي أنه كفر؟ أم كيف يسامح فيه؟

ولا يجوز أن يُمْهِلَ حتى يجمعوا مال الأصنام ، فإنَّ الأوَّل كُفْرٌ ، والثاني معصيةٌ ، وكلاهما لا يجوز على النبي.

وقد نفى الله عنه أن يَهُمَّ أو يُقَارِبَ ، وبيَّن براءته في القرآن نَصًّا ، حيثُ قال: «إنهم قاربوا[٣] أن يفتنوك» ، يعني: بسؤالهم وطلبهم ، وثَبَّتَهُ الله عن أن يقاربهم ، ونفى عنه مقاربتهم بقوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ ، فمنع الله نبيَّه بتثبيته أن يقاربهم ، فإنَّ كلمة «لولا» تدل على امتناع الشيء لوجوب[٤] غيره ، والذي وجب التثبيت ، والذي امتنع مقاربة الركون ، فأين[٥] هذا عن هؤلاء[٦] الذين لا يعقلون؟ ويتسلَّطون على كتاب الله وهم لا يعلمون ، ويبسطون ألسنتهم في الرُّسُلِ بما لا يجوز وهم لا يشعرون.

---

(١) تفسير الطبري: (١٥/١٥-التركي). (٢) سقطت من (ك).

(٣) في (د): قارنوا.

(٤) في (ص): لوجود.

(٥) بعده في (ك) و(ب) و(ص): عن ، وضرب عليه في (د).

(٦) قوله: «عن هؤلاء» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

[٧٠/ب] ولذلك قال: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، أي: تَلِينُ فيَلِينُونَ،/ وهذا يدل على أنه لم يَكُنْ لِيَهُمَّ[1]، ولَوْ هَمَّ لَلَانَ، ولو رَكَنَ لَلَانَ، وذلك مَنْفِيٌّ عنه عقلًا وقرآنًا.

وقد تبيَّن لكم بهذا أن الدَّفْعَ إذا كان بما يجوز بَقِيَ على أصله اسمًا، فيقال له: الدَّرْءُ، ولفَاعِلِه: «المُدَارِي»، ويبقى أيضًا حُكْمًا فيكون جائزًا، فإذا كان بما لا يجوز كان إِدْهَانًا.

فركَّب المفسرون على الحقيقة إن كانوا علموها.

فمن قال: إن معناه: «وَدُّوا لو تكفر فيكفرون، أو تكذب فيكذبون»[2]، فإنه فسَّره على المآل؛ بأنه لو فَعَلَ ذلك أو قاله كان كُفْرًا وكَذِبًا.

وكذلك من قال: «ترخَّص»؛ فإنَّ الرُّخْصَةَ هي تَرْكُ الواجب، مأخوذ من شيء رَخْصٍ، وهو النازل عن الشدة.

وأمَّا من قال: «تَلِينُ»؛ فهو الحقيقة في اللفظ واللغة.

فأمَّا السَّادس فهو اللفظ بعينه، فلم يُفِدْ شيئًا زائدًا.

وأمَّا من قال: «تلين»؛ فقد فسَّر اللفظ بمعناه عربية.

وأمَّا من قال: «ترخَّص»؛ فهو تفسير اللِّينِ، فلم يخرج عن طريق العربية.

وأمَّا من فسَّره بالكذب والكفر؛ ففسَّره بمُتَعَلَّقِه الذي كانوا أرادوا منه، فهو تفسير مُتَعَلَّقِ اللفظ، لا نفس اللفظ، وهذا ممَّا لا يُدْرَى من الكلمة، وإنَّما يُدرى من دليل آخر.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): لم يلن لهم.

(٢) تقدَّم تخريجه.

فإن قيل: فقد قال الله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾، معناه: مُكَذِّبُونَ.

قلنا: هذه الآية ممَّا لم يَفْهَمِ المفسرون، قد[١] قال بعضهم فيه: «إنه النفاق»[٢]، وإنما هرب إليه لأنه رأى أن الكافر المعاند لم يُلَايِنْ، فلم يتمكَّن له أن يجعله فيه، فلجأ إلى المنافق الذي لَانَ ظاهرًا وخَشُنَ باطنًا، ولكنه أخطأ؛ فإنَّ المُخاطَب بهذه الآية أوَّلًا الكفار؛ لأن سورة «الواقعة» كلها مَكِّيَّةٌ بإجماع، فتفسيرُ من فسَّره بالكذب[٣] مطلقًا أَخْلَصُ[٤].

وأدخلهم - أيضًا - في هذا الباب حَرْفُ الباء، وهو يليق بكذب، يقال: كذَّب فلان بكذا، فلما رَأَوُا الحديث[٥] وحَرْفَ الباء ركَّبوا أحدهما على الآخر، فإن كانوا طلبوا منه كفرًا صحَّ أن يقال فيه: لو تكفر[٦]، وإن كانوا طلبوا منه معصية؛ قيل: معناه: لو[٧] تَعْصِي.

فأمَّا أن يقتحم على تفسير الإِدْهَانِ بأنه الكفر أو الكذب دون خَبَرٍ يَرِدُ بذلك فهذا هو القول في كتاب الله بالتَّشَهِّي.

---

(١) في (ك): وقد.

(٢) الهداية: (١١/٧٢٩٤)، وهو قول الضحَّاك.

(٣) في (د): التكذيب.

(٤) تفسير الطبري: (٢٢/٣٦٨-التركي).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): الحال، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٦) في (ك): تكفرون.

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): أن.

[قانونُ التفسير]:

وقد بيَّنَّا أنه لا يُفَسَّرُ القرآن إلَّا بالعربية التي نزل بها، أو بآية أخرى، ٢
أو بحديث النبي ﷺ، وغير/ ذلك باطل، لا سبيل لأحد إليه، ولا يَتَمَكَّنُ [٧١/أ]
ولا يُمَكَّنُ منه.

[تَوَعُّدُ رسول الله على المداهنة]:

وقد توعَّد النبي صلى الله عليه[1] في الحديث الصحيح على المداهنة؛ روى عامر الشَّعْبِي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ القائم على حدود الله والمُدْهِنِ فيها كمثل قَوْمٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذي أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم، فقالوا: نخرق خرقًا في جهتنا هذه، ولا نُؤْذُوا من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هَلَكُوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعًا»[2].

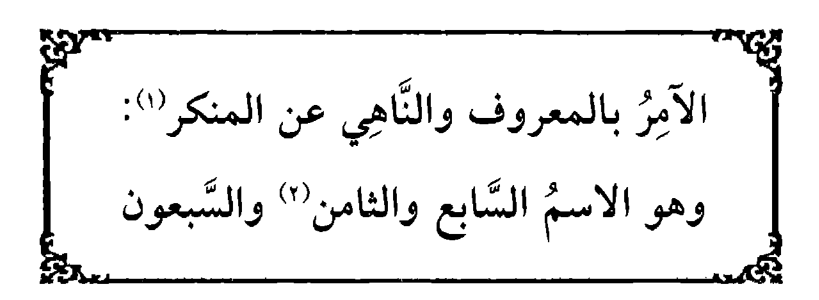
وإذا أَدْهَنَ في حدود الله فقد تَرَكَ الأَمْرَ بالمعروف والنَّهْيَ عن المنكر، وهو الأصلُ في الدِّينِ، وفَرْضُ النَّبِيِّينَ، وخِلَافَةُ المرسلين.

* * * * *

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): ﷺ.

(٢) تقدَّم تخريجه.



الآمِرُ بالمعروف والنَّاهِي عن المنكر(١): وهو الاسمُ السَّابع والثامن(٢) والسَّبعون

قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة:٦٥].

وقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة:٨١].

وقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٣].

وقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج:٣٩].

وقال مُخْبِرًا عن الحكيم: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٦].

فأمَّا قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾؛ قال أهل الزهد: «الربَّاني هو الذي ارتقى عن الحدود، والراهب ارتقى عن الآفات، وزاد في القربات»(٣).

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د)، وفي (ب): الآمر بالمعروف: وهو الاسم الثاني والسبعون، والناهي عن المنكر: وهو الاسم الثالث والسبعون.
(٢) في (ك): الخامس والسادس، وفي (ص): الثالث والسبعون والرابع والسبعون.
(٣) لطائف الإشارات: (٤٣٦/١).

فخَصَّ العلماءَ بتغيير المنكر، واختلف الناسُ من هم على ثلاثة أقوال:

فقيل: هم العاملون العالمون[١].

وقيل: هم العالمون بالمنكر خاصَّة.

وقال قوم: هم الولاة[٢].

ولا خلاف أنَّ من شَرْطِ تغيير المنكر العلم بأنه مُنْكَرٌ، وقد بيَّنَّا شروطَه في «كُتُبِ الأصول»، وكثيرًا من فصوله في كتاب «الأحكام»[٣].

٢ وأمَّا مَن شَرَطَ العمل؛ فإنَّ أهل السنة متفقون على أنه يجوز أن يُغَيِّرَ [٧١/ب] المنكر فَاعِلُه، وهي مسألة أصولية، ولكنه قلَّ[٤] أن يؤثر التغيير للمنكر/ من مُرْتَكِبِه، وخاصَّة إذا كان التغيير بالقول، وقد قال الحكيم:

يا أيها الرجل المُعَلِّمُ غيرَه ... هلَّا لنفسك ذلك التعليمُ
تصف الدواءَ لذي السَّقام من الضنى ... ومن الضنى وجواه أنت سقيمُ
ما زلت تُلقح بالرشاد عقولنا ... قَوْلًا وأنت من الرشاد عديمُ
فابدأ بنفسك فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك ينفع إن وعظتَ ويُقتدى ... بالقول منك وينفع التعليمُ[٥]

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): العالمون العاملون.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٨/٢٤٩٨).

(٣) أحكام القرآن: (١/٢٦٦-٢٦٧)، و(١/٢٩٢-٢٩٣)، والعارضة: (٩/٢٣-٢٧).

(٤) في (د) و(ص): قبل.

(٥) مرَّ تخريجها.

وأمَّا قوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾؛ فهي آية مُحْكَمَةٌ، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٨٠ - ٨١]، فأخبر تعالى بأن اللعنة قد حقَّت عليهم بإتيانهم المناكير فيمن[1] أتاها، وبتَرْكِ النكير فيمن[2] كان يأباها، وبيَّن أن الرضى[3] بالمخالفة موافقة[4] للمخالف، مخالفة لمن وقع له[5] الخلاف من مرتكبه، فلم تَبْقَ موافقة بعد ذلك بين الراضي وبين من خُولِفَ بعد تمييز[6] الخلاف.

وقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، ولا تَتِمُّ الصحبة إلَّا بمعاداة عدو الصَّاحب، ومن حكمة الجُهَّالِ قولهم: «إن الرجل من يكون صديق عَدُوَّيْنِ»، وكذَّبوا الحكمة - قولك -: «إن الرجل الذي لا يتولَّى عَدُوَّ صاحبه»، ألا ترى إلى تأكيد ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فبيَّن أنهم لو كانوا أولياءَ له ما وَالَوا من عاداه[7].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): ممَّن.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): ممن.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): الراضي، وضعَّفها في (د)، والمثبت من طرته.

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): موافق، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٥) سقط من (ك).

(٦) في (ك) و(ب): تميز.

(٧) ينظر: لطائف الإشارات: (١/ ٤٤٢).

وإنَّما هلكت بنو إسرائيل لأنهم كانوا إذا رأى أحدُهم صاحبَه على منكر لم يمنعه ذلك أن يكون خَلِيطَه وشَرِيبَه وأَكِيلَه.

ومن الثابت الصحيح: أن أبا بكر الصديق قال: «أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:١٠٧]، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنَّ الناس إذا رأوا الظالم/ فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب من عنده»(١). [٧٢/أ] ٢

وثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح: أنه ﷺ قال: «من رأى منكم منكرًا فليُغَيِّرْهُ بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٢).

ومن الحديث الحسن: أنَّ النبي ﷺ(٣) قال لأبي ثعلبة الخُشَنِي في ذلك قولًا بديعًا، قال أبو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِي: «أتيتُ أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾؟ فقال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيرًا، سألتُ عنها(٤) رسول الله فقال(٥): ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شُحًّا مُطَاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كل ذي

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيِّر المنكر، رقم: (٢١٦٨-بشار).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (ك): صلى الله عليه.

(٤) سقطت من (د).

(٥) بعده في (ك) و(ص) و(ب): بل، وضرب عليه في (د).

رأي برأيه؛ فعليك بخاصَّة نفسك، وإيَّاك وأمر العامة، فإن من ورائكم أيَّامًا الصبرُ فيهن كالقبض على الجمر، للعامل فيهن أَجْرُ خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم، وزاد غيره: فقال[١]: بل أجر خمسين منهم[٢]، قال: بل منكم، مرَّتين أو ثلاثًا، قال في الآخِرَةِ: لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، وهم[٣] لا يجدون عليه أعوانًا»[٤].

وقوله: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ إخبارٌ عن دعاة الخلق إلى الحق، وتحذيرهم عن غير الله، وأوَّل ما يُغَيِّرُونَ على أنفسهم؛ فيأمرونها بالتقوى، وينهونها عن اتباع الهوى والاغترار بالمُنَى، فإذا أطاعتهم أنفسهم انتقلوا إلى سواها، واتخذوها سبيلًا[٥] إلى غيرها، وجعلوها قنطرة للعبور إلى مطلوبهم من جِنْسِ ذلك، ممَّا فيه الفوز والنعيم[٦].

وأمَّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ قال أهل الزهد: «بدأوا بأنفسهم، انظر[٧] إلى قوله: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وذلك فِعْلُهم»[٨].

---

(١) في (د): فقالوا.

(٢) في سنن أبي داود (٥/٣٩٦-شعيب): «أجر خمسين منهم».

(٣) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب التفسير عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المائدة، رقم: (٣٠٥٨-بشار).

(٥) في (ك): سبلًا.

(٦) ينظر: لطائف الإشارات: (٢/٦٨).

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): انظروا.

(٨) لطائف الإشارات: (٢/٥٥٠).

ثم قال: ﴿وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وذلك في أنفسهم أوَّلًا، حتى قالوا: «إنهم إذا التزموا ذلك في أنفسهم لم يتفرَّغوا لغيرهم»[1].

وقال بعضهم: «لا يتم ذلك حتى يَحْفَظَ عن المعصية الحواس، وعن الغفلة الأنفاس»[2]، ولم[3] يتفق ذلك إلَّا لتميم الداري، وأبي الدرداء، وعُمَير بن هانئ، وأبي هريرة،/ وعامر بن عبد الله[4] بن الزبير، ونظرائهم. ٢ [٧٢/ب]

قال علماؤنا: «هذه الآية نَصٌّ على أنَّ مِن شَرْطِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العَلاء[5] والتمكين، ولا يصح ذلك مع شيء من الخوف»[6].

حتى قالوا: «إنها نزلت في الخلفاء الأربعة، فإنه لم يُمَكَّنْ في الأرض إلَّا لهم، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ﷺ»[7].

وإن كان هذا قولًا؛ فالذي مُكِّنَ له أبو بكر وعمر وعثمان؛

فكان أوَّلُ حال أبي بكر شغبًا، ثم مُكِّنَ وتَمَكَّنَ.

وكان حالُ عثمان في الأوَّل تمكينًا، وشُغِبَ عليه في الآخِرِ وقُتِلَ.

---

(١) لطائف الإشارات: (٢/٥٥٠).

(٢) لطائف الإشارات: (٢/٥٥٠).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): لا.

(٤) قوله: «ابن عبد الله» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٥) في (ك) و(د) و(ب): العدد.

(٦) يُقارَن بما في الإحياء: (ص٧٩١).

(٧) ينظر: الهداية: (٧/٤٩٠٣).

وأمَّا عليٌّ فلم يُمَكَّنْ له[1]؛ لا في الأوَّل، ولا في الآخِر، إلَّا على الوجه المعلوم، وما حصل له من التمكين لم يَعْدُ فيه عن خلافة المرسلين، ولا زَهق عن قانون الدين، ولا كان له نظيرٌ في الباقين، ولا نازعه أَحَدٌ بحق مُبينٍ، ولكنها تأويلات، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وأمَّا تمكين غيرهم فقد قيل: «إنَّها نزلت في أبي بكر، وعمر، وعمَّار، وسلمان، وصُهَيب، وأبي ذَرٍّ، وأبي الدَّرداء».

والصَّحِيحُ أنها نزلت في كل مؤمن يَقْدِرُ أن يُغَيِّرَ؛ فَرْدًا أو مع غيره.

والمعروفُ: كُلُّ مأمور به.

والمنكر: كل مَنْهِيٍّ عنه؛ حتَّى: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وأمَّا الغيبة والنميمة والغش والخديعة والخِلابة ونظراؤها فلا كلام فيها.

[شَرَفُ لقمان الحكيم]:

وما[2] ذَكَرَهُ تعالى عن لقمان؛ فلئن كان نبيًّا لقد يُشْبِهُ قولُه قولَهم، ولئن كان حكيمًا - وهو الصحيح - فلقد شَرَّفَ الله حكيمًا حَمَلَ الرحمنُ كلامَه إلى أكرم رُسُلِه، وأَمَرَ الأمَّة أن تقتدي به، ولقد شَرُفَ الوُعَّاظُ إذْ كان لقمانُ منهم.

ومن أوَّل قَوْلِه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان:١٣]؛ قالوا: الشِّرْكُ بالله إثباتُ غَيْرٍ مع شهود الغيب، ومنه الكَلَامُ بالقلب مع الغير في الصلاة، وأَتْبَعَها في

(١) سقط من (ك) و(ص).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): وأما.

قصة لقمان، لا أنه من قَوْلِه، ولكن لأنَّ[1] لمَّا ذَكَرَ من حال بِرِّ الوالدين تَعَلُّقًا بالشرك في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، فقَرَنَ شُكْرَهما بشُكْرِه ثم قال: «وإن سألاك بجِدٍّ أن تُشرك بي فليس ذلك مما أَلْزَمْتُكَهُ في جملة ما فَرَضْتُه في اقتران شُكْرِهما بشُكْرِي».

٢ [٧٣/أ] ومن «فوائد الشهيد أبي سَعْدٍ» في قَوْلِه/: «﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ هو كلُّ ما يُوَصِّلُ العَبْدَ إلى الله، والمنكر: هو ما يشغل العَبْدَ عن الله»[2].

قال الإمام الحافظ[3] ﷺ: ووَجْهُ هذا أن المُنْكَر على قسمين؛ من جهة النهي والعقاب قِسْمٌ، ومن جهة بَخْسِ الحظ ونقصان الأجر قِسْمٌ، فترجع فائدة أبي سعد إلى هذا الحَدِّ.

ثم قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، وهذا يدلُّ على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن نال العَبْدَ فيه مكروهٌ، ولا يلزم ذلك فرضًا، ولكنه إذا فَعَلَه لم يَخْسَرْ مع الله.

ثم قال له: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يعني: لا تتكبَّر عليهم، وأَصْلُ الصَّعَرِ المَيْلُ في اللغة، والمتكبر يُعْرِضُ عن الخلق تعاظمًا بنفسه عليهم، واستحقارًا لهم، حتى يعتقد فيها أنه فوقهم، وإذا اعتقد ذلك فهو تحتهم، وقد ذمَّ الله التكبر في كتابه وعلى لسان رسوله في عدة مواضع.

---

(١) في (ص): لِأَنْ.

(٢) لطائف الإشارات: (١٣٢/٣).

(٣) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي.

ومن الحديث في مثلها: قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرَّة من كِبْرٍ»[١]، يعني: من كُفْرٍ، وقد تقدَّم بيانُه.

[رؤوس المُتَكَبِّرِينَ]:

وقد تكبَّر إبليسُ على آدَمَ فهَلَكَ إلى الأبد، وكان ذلك لأنه اعتقد أنه أكبر من آدم، وقد أَمَرَهُ الله أن يُعَظِّمَه حتى يكون أكبر منه عَمَلًا، كما كان أكبر منه عِلْمًا، واعترض على أَمْرِ الله برأيه السخيف وعقله الناقص، فكان هذا رَدْعًا لكل من اعتقد في نفسه ما لم يجعله الله فيه، وكان إبليسُ كما قيل:

فبات بخَيْرٍ والزمانُ مسالم ... وأصبح يومًا والزمان محاربُ[٢]

وقلتُ أنا[٣]:

وغَالَبَ أَمْرَ الله فيما يظنه ... وإن طالت الأيامُ فالله غالبُ[٤]

وآدمُ وإبليسُ في أمرهما غريبة؛ كانت من آدم هفوة بشرية، تداركتها رحمة أوَّلية، وكانت من إبليس كلمة جاهلية، فنفذت فيها نقمةٌ عَصَوِيَّةٌ[٥]، أنزلته ببقعة غَضَوِيَّةٍ[٦].

---

(١) تقدَّم تخريجه في السِّفرِ الأوَّل.

(٢) من الطويل، ولم أقف عليه.

(٣) قوله: «وقلت أنا» سقط من (د).

(٤) من الطويل.

(٥) في (ص): غضبية.

(٦) في (ص): عصوية.

وإذا الحبيبُ أتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنُه بألف شفيعِ[١]

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف:٣٩]؛ لمَّا تعاظموا لم يُرفع لهم عمل ولا رُوح إلى السماء، وأُخِذَ بهم/ أسفل سافلين، ولا يُسمع لهم دعاء ولا نداء، بل يكون ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٥]، سَدَّتِ الذنوبُ عليهم الطرق، وأحاطت بهم الخطيئات، فأحاط بهم العذاب، صُرِفُوا عن دار السعادة، واستُفِلَ بهم عن مكان السَّادة.

٢ [٧٣/ب]

وكذلك قال الله[٢] فيهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، لمَّا تراكم الرَّيْنُ على قلوبهم صاروا مُعْرِضِينَ عن الآيات، وأَصْلُه تَعَاظُمُ النفوس، فلم[٣] يخلق لهم القبول لما يسمعون، وأفادهم ذلك جحود الحق بعمى الحق، حتى إذا رأوا سبيل الرشد لم يسلكوه، وإذا رأوا سبيل الغي سلكوه، وهذا لأن الرؤية لا تكون إلَّا مع التوفيق؛ لمعرفة الحق حقًّا والباطل باطلًا.

والجاحدُ للحق مع تحققه به أقبحُ حالًا من جاحده مع خفائه عليه، ولهذا سلبهم محبته، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]، وإذا وجبت لهم بُغْضَتُه حقَّت عليهم لَعْنَتُه، وأسكنهم دار عذابه بعد أن توفَّاهم على حال خِزْيِهم وهوانهم، فيُنْكِرُونَ أنهم ما عملوا سُوءًا، فيُكَذِّبُهم الله والملائكة والجوارح والخلق.

---

(١) من الكامل، وهو لابن نباتة مع بيت آخر في ديوانه: (ص٣١٢).

(٢) لم يرد في (ك).

(٣) في (ك) و(ص): فلا.

وكذلك الذين دَنَّسُوا يقينهم بإعراضهم عن الطاعات ؛ إذا نزلت بهم الآفات[١] أخذوا في الجزع والتضرع ، وأيقنوا بأنهم مُعامَلون بما عامَلوا ، مَجْزِيُّونَ بما اقترفوا ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها ، وإذا داموا على الأعمال السيئة وتكبَّروا عن الأعمال الصالحة وتعاظموا على[٢] القبول لم يُؤْمَنْ عليهم سوء الخاتمة ، حين لم يتدبَّروا القول ، وحال بينهم وبينه الكِبْرُ ، وتأخَّروا عنه القهقرى ؛ فأُخِّرُوا إلى وراء الوراء ، وكانوا يأتون بهُجْرِ القول بَدَلًا من القول الحق ، فأسمعهم الله من ملائكته المُتَنَاوِلَةِ لهم من قُبْحِ القول وغِلْظَتِه[٣] ما كان فيه وحده هَلَاكُهم.

ومن رؤوس المتكبرين من قال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٧] ، فانظروا إلى هذا الحجاب العظيم الذي أُلْقِيَ عليه ، فاعتقد أنه يُحْيِي ويُمِيتُ ، أو أَلْبَسَ بما عَلِمَ أنه مُحَالٌ ، ليَحُوطَ مُلْكَه ، ويَحْمِي قلوب العامة في اتِّباعه ، ورأى أنَّ القَدْرَ الذي سلَّطه مالكُ الأعيان عليه ومكَّنه خالقُ الأشياء منها بذلك استحقَّ أن يكون هو المقصود/ وحده ، والإله المعبود دون غيره. ٢ [٧٤/أ]

ونَسِيَ أوَّلَه وآخِرَه وحاله التي هو عليها ، وغفل عمَّا خرج عن يده ، حتى نبَّهه العَالِمُ بالله وبه عليه ، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): الوفاة ، ومرَّضها في (د) ، والمثبت من طرته ، وصحَّحه.

(٢) في (ك): عن.

(٣) في (ب): غلظه.

وبذلك صارت القَدَرِيَّةُ من المستكبرين على الله؛ فإنهم يزعمون أن الله لمَّا خَلَقَ لهم القدرة والعلم والإرادة صاروا هم يفعلون بذلك كله ما أرادوا، لا ما أراد الله، ولا يَقْدِرُ الباري على دَفْعِهم بذلك.

[مناظرةٌ بين سُنِّيٍّ وقَدَرِيٍّ]:

ولقد اجتمع قَدَرِيٌّ وسُنِّيٌّ في دعوة في بُسْتَانِ فواكه، فأخذوا في الحديث حتى قال القدري: «أنا خالق فِعْلِي، ومالك نفسي، ومُصَرِّفُ - كيف شئتُ - أمري[1]، واسْحَنْفَرَ[2] وخرج، وقال: يا قوم، أو يجهل هذا أحد[3]؟ ومدَّ يده إلى غصن كان يتدلَّى فيه سَفَرْجَلَةٌ فقطعها، وقال: أليس هذا فِعْلِي وقَطْعِي؟ وما لله في هذا من عمل، فقال له السُّنِّيُّ: إن كنتَ أنت قاطعها من موضعها فرُدَّها فيه، فبُهِتَ بين الحاضرين، وانقلبت الدعوة عن ظهور السني».

والقَوْمُ من الإنصاف والعقل من حيث إذا ظهرت الحجة انقادوا إليها، ولو حادوا عنها لسقطوا من الأعين، ولم يكن لهم عند الطلبة قَدْرٌ، ولو كان في هذه البلاد لخلَّط في الجواب، وأَكْثَرَ من قول غير الصواب؛ لغلبة الجهل عليهم، وقلة الإنصاف بينهم.

[من رؤوس المتكبرين]:

ومن رؤوس المتكبرين فِرْعَوْنُ، أنكر الإله لموسى، وسأله عنه سؤال الجاهل به[4]، وكلَّما ذَكَرَ له موسى اسمًا ونَصَبَ له دليلًا قال له آخِرًا: «إنه

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): فعلي، ومرَّضها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.
(٢) اسحنفر: مضى مسرعًا.
(٣) في (ك) و(ص) و(ب): أحد هذا.
(٤) سقط من (ك).

لمجنون»، فلمَّا ملأ قلبه رُعْبُه[١] قال له مُهَدِّدًا: «لأسجننَّك»، وعَطَفَ على قومه فقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، وجعل يقول لأصحابه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ للنصرة، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

رَمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتِ

وقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[٢] [غافر:٣٦].

قال علماؤنا: «لو لم يكن من المضاهاة بين من قال: إن المعبود في السماء، وبين فرعون إلَّا هذا القول؛ لكان كافيًا لخَزْيِ[٣] من قال ذلك، فقد كذَب فرعون في قوله: إن الإله في السماء، ولو كان ذلك صحيحًا لكان فرعون مصيبًا/ من وجه، قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر:٣٧]، فأخبر أنَّ اعتقاده أنَّ المعبود في السماء باطل، وأنه بذلك مصدود عن سبيل الرشاد، ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨]»[٤].

٢ [٧٤/ب]

وقد تكبَّرت قُرَيْشٌ على النبي ﷺ[٥]، وتعاظمت عليه كتَعَاظُم من سَبَقَ من الأمم على الرُّسُلِ، حتَّى[٦] استحقرتها واستضعفتها، وجهلت أن

---

(١) في (د): رغيه.
(٢) في النسخ: «يا هامان ابني صرحًا لعلي أطلع إلى إله موسى».
(٣) في (ص): لخِزي.
(٤) ينظر: لطائف الإشارات: (٣/٣٠٦).
(٥) في (ك): صلى الله عليه.
(٦) في (ك) و(ص) و(ب): حين، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

القوة لله، وأن محلها القلوب في الأصالة، وأن الجوارح تَبَعٌ لها[١]، وأن قوة القول أكبر من قوة الفعل، ولا أَظْهَرَ من فضل التواضع[٢]، ورَأَتْ أنه فقير يتيم فاستضعفته؛ على عادة العرب، فأعزَّه الله وأظهره[٣]، ونصره وظفَّره، وأعلاه وأقهره، وأغناه عن كل شيء سواه، وذلك بما يسَّر له من شَرْحِ صدره، فإنه شَرَحَه بالمحسوس والمعقول.

[شَرْحُ صَدْرِ رسول الله]:

فأمَّا[٤] شَرْحُه بالمحسوس ففي مرَّتين:

إحداهما: أيَّام كان عند ظِئْرِهِ السَّعدية مُسْتَرْضَعًا، حتى انتفض وخرج يرتع، فبينما هو منتبذ في بطن وَادٍ مع أتراب له من الصبيان، إذ أقبل ثلاثة رَهْطٍ معهم طَسْتٌ من ذهب مملوء ثَلْجًا، قال: «فأضجعني أَحَدُهم، فشَقَّ[٥] ما بين ثَغْرَةِ صدري[٦] إلى منتهى سُرَّتِي، فلم أجد له مسًّا، ثم أخرج حُشْوَتِي فغسلها بذلك الثلج، فأَنْعَمَ غسلها، ثم أخرج الآخَرُ قلبي فصدعه، وأخرج منه بضعة سوداء فألقاها، وتناول بيده خاتمًا[٧] من نُورٍ فخَتَمَ به قلبي، ثم أعاده مكانه، فامتلأ قلبي نُورًا، ثم ضَمُّونِي، وقالوا لي: لا تُرَعْ، لو علمتَ ما يراد بك من الخير لقرَّت عينك»[٨].

---

(١) سقطت من (ك) و(ص).

(٢) مرَّضها في (د)، وكتب في الطرة: «لا ظهر من فعل المتواضع»، ولم يظهر لي فيها وجه فلم أثبتها، ورمز لها بـ: خـ.

(٣) سقط من (ك).

(٤) في (ك): وأما.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): ثم شقَّ.

(٦) في (د): صدر.

(٧) في (ك): خاتم.

(٨) أخرجه بنحوه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم: (١٦٢-عبد الباقي).

وللحديث طُرُقٌ، وقد سُقْنَاهُ في «أنوار الفجر»، في «فَضْلِ المعجزات».

وأمَّا الثانية: ففي ليلة الإسراء؛ جاءه ثلاثة نَفَرٍ فلم يُكَلِّمُوه حتى احتملوه، فوضعوه عند زمزم، فتولَّاه منهم جبريل؛ فشقَّ من السَّحْرِ[1] إلى مَرَاقِّ البطن، قال: «فاستخرج قلبي، قال: حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله بماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطَسْتٍ من ذهب فيه تَوْرٌ[2] من ذهب، مَحْشُوٌّ إيمانًا وحِكْمَةً، فحشا به صدره ولَغَادِيرَه - يعني: عُرُوق حَلْقِه -، ثم أطبقه»[3].

وهذا هو الشرح المعقول بالحكمة والنور.

[من شروط الأمر بالمعروف]:

وإذا كملت هذه العارضة عُدْنَا إلى المقصود، فقلنا:

٢ [٧٥/أ]

المُتَعَلِّقُ بهذا ممَّا نحن/ فيه: إذا لم يكن مُتَكَبِّرًا وكان متواضعًا كان لقوله في قلوب الخلق موقع[4] ومَحَلٌّ، ولمَحَلِّه جَلَالَةٌ وبِرٌّ.

ويُروى أن كعب الأحبار قال لأبي مسلم الخَوْلاني: «كيف منزلتك من قومك؟ قال: حسنة، قال كعب: إن التوراة لتقول غير ذلك، قال: وما

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): النحر، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٢) في (ك): ثور.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﵁: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم: (١٦٤-عبد الباقي).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): موضع، وضعَّفها في (د)، والمثبت من طرته.

تقول؟ قال: تقول: إنَّ الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه، قال له: صَدَقَتِ التوراة، وكذب أبو مسلم»[١].

قال الإمامُ الحافظ[٢] ﷺ: الأَمْرُ بالمعروف على قِسْمَيْنِ:

أحدهما: أن يكون عظيم القَدْرِ.

[الثاني]: أو يكون خاملًا.

فإن كان عظيم القدر نَفَذَ تغييره، ولم يؤثر ذلك في منزلته.

وإن كان خاملًا وأَغْلَظَ وقد خلصت نيَّتُه لله لم يُنْقِصْ ذلك منه.

وإن كان ذلك لقلة إخلاص أو بقِلَّةِ عمل فهو الذي يكرهه قَوْمُه، وتسقط منزلته عندهم، كالجار مع الجار، فإنَّ سنة التغيير معه ألَّا يُنْكِرَ عليه جَهْرًا، ولا يأخذه قَهْرًا، ولا يكشف له سِتْرًا.

وقد[٣] سُئِلَ مالك عن الرجل يأمر بالمعروف من لا يطيعه؛ كالجار والأخ، قال: «لا بأس بذلك»[٤].

وكان صِلَةُ بن أَشْيَمَ من الفضلاء، فمرَّ عليه رجل يُسْبِلُ إزاره، فهَمَّ أصحابُه أن يأخذوه أخذًا شديدًا، فقال: «دَعُونِي أَكْفِكُمْ، فقال: يا ابن أخي، إنَّ لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أُحِبُّ أن ترفع من إزارك، قال نعم، وأَنْعِمْ عَيْنَكَ بذلك، فرجع صِلَةُ وقال لأصحابه: لو أخذتموه بالشِّدَّة للَقِيتُم منه[٥] حِدَّة»[٦].

---

(١) الإحياء: (ص٧٨٧).

(٢) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي.

(٣) في (ك) و(ص): قد.

(٤) البيان والتحصيل: (١٧/٨٤).

(٥) سقطت من (د).

(٦) الإحياء: (ص٨١٢).

[حكايةٌ مع المقرئ محمد بن عبد الرحمن الزاهد[١]]:

وكنتُ أُصَلِّي ليلةً صلاة المغرب بالمسجد الأقصى - طهَّره الله[٢] - مع إمام الباب الأخضر عند بَابِ[٣] حِطَّة، الذي قيل فيه لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾[٤] [البقرة:٥٧]، وفي الجماعة شيخنا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المقرئ الزاهد، وأنا عن يمينه، وعن يساره رجل، ويَلِيهِ رجل آخر، فلمَّا قضينا الصلاة قال الرجل الذي كان ثالث المقرئ للَّذي عن يسار المقرئ ثانيه: أفسدت صلاتك، ما زِلْتَ ترفع قبل الإمام و تخفض، قال له: كذبت، قال له: بل كذلك فعلت، فإني نظرتُ إليك في صلاتك كلها، وأنت مستمر على هذا الفعل، ورَدَّ وَجْهَه إلى شيخنا أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن/ المقرئ الزاهد، وكان عن يمين هذا المصلي، فقال له: يا فقيه، أليس هكذا كان فِعْلُه؟ فقال له المقرئ: لا عِلْمَ لي، لم أشتغل بأحد ولا بصلاته، إنَّما اشتغلت بصلاتي وبنفسي، فخجل ذلك المتكلم وأُبْهِتَ، وانصرفنا نتعجَّب من ذلك[٥].

٢ [٧٥/ب]

---

(١) الفقيه الإمام، العلَّامة المقرئ، محمد بن عبد الرحمن المغربي، أبو عبد الله الزاهد، وفي القبس (١١٧٥/٣): «أبو عبد الله النحوي»، وذكره ابنُ العربي في كتاب «الأحكام» و«النكت»، وظهر من خلال نقولاته عنه أنه كان نحويًّا، وينقل عنه أيضًا الإمام أبو حامد الطُّوسِي في كتابه «المنخول»، فأفاد هذا أن ابن العربي شارك أبا حامد في شيخه هذا، وغالب الظن أن يكون أبو حامد قد لقيه ببيت المقدس؛ إذ كان أحد المجاورين فيه، ينظر: أحكام القرآن: (١٠٦٠/٣)، والمنخول: (ص٩٠).

(٢) في (ص): ثبَّته الله على الإسلام.

(٣) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) في (ك) و(ب) و(د): ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾.

(٥) ينظر: أحكام القرآن: (١٣٠٩/٣).

وكانت هذه عقوبة فيه حين جَهَرَ، ولو جذبه إلى نفسه وانفرد به ووعظه بلِينٍ لكان أَحْرَى[١] في الإنجاح[٢]، وأقرب إلى ما أراد إن كان أراد[٣] الصَّلاح والإصلاح.

ولقد قال مالك: «بلغني أن سعد بن أبي وقاص رأى رجلًا بين عينيه سجدة، فقال له: مُذْ كم أسلمت؟ فذكر الرجل أمدًا[٤] كأنه يُقَرِّبُه، فقال له سعد: أسلمتُ منذُ كذا وكذا وما بين عَيْنَيَّ شيء»[٥].

قال الإمام الحافظ[٦] رضي الله عنه: ومن أعظم أوصاف جهنَّم أنها يوضع فيها الرجل فتدور به النار دورة، فتندلق أقتابه، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون له: «ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتِيه، وأنهاكم عن المنكر وآتِيه»[٧].

ونَعْتُه بشروطه وأوصافه في «كُتُبِ الأصول»[٨] و«الأحكام»[٩]، وإذا أَمَرْتَه بالمعروف ونَهَيْتَه عن المنكر وقُمْتَ بحَقِّ نفسك في ذلك وبحَقِّه؛ فأنتَ «الأَخُ».

---

(١) في (ك): أجرى.

(٢) في (ص): إنجاح.

(٣) بعده في (ك) و(ص) و(ب): من، وضرب عليه في (د).

(٤) في (ك) و(ص): أمرًا.

(٥) البيان والتحصيل: (١٧/٤٠٢).

(٦) في (ب): قال الإمام رحمه الله.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم: (٣٢٦٧-طوق).

(٨) ذَكَرَ ابنُ العربي في «الأحكام» أنه بيَّن في كتاب «المشكلين»: الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وآياته، وأخباره، وشروطه، وفائدته، الأحكام: (١/٢٦٦).

(٩) أحكام القرآن: (١/٢٦٦-٢٦٧)، و(١/٢٩٢-٢٩٣)، والعارضة: (٩/٢٣-٢٧).

الأَخُ[١]: وهو الاسمُ التَّاسع[٢] والسَّبعون

وهو في الحقيقة: عبارة عمَّن كان أَصْلُك أَصْلَه، ومَحَلُّك مَحَلَّه، وسببكما[٣] في الوجود والمَحَلِّ والرُّتْبَةِ واحدٌ.

ثُمَّ صار أصلًا في الدين والملة، قال ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[٤]، يعني: كما أخبر الله وأمر، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[٥] [الأحزاب:٥].

وقال ﷺ: «الأنبياء إِخْوَةٌ لعَلَّاتٍ[٦]؛ أمهاتهم شتَّى، ودِينُهم واحد، أنا أولى الناس بعيسى في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نَبِيٌّ»[٧].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ب): الرابع، وفي (ص): الخامس، وفي (ك): السابع.

(٣) في (ك) و(ص): نسبكما.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، رقم: (٢٥٥٩-عبد الباقي).

(٥) في (د): وإخوانكم.

(٦) في (ص): لعَلَّات.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السَّلام، رقم: (٢٣٦٥-عبد الباقي).

وقال ﷺ: «لو كنتُ متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن أُخُوَّةُ الإسلام»[١].

٢ [٧٦/أ]

وخرج ﷺ /إلى المقبرة فقال: «السَّلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت إخواننا ، قالوا له[٢]: ألسنا بإخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ، وأنا فَرَطُهم على الحوض»[٣].

وقال النبي لزيد: «أنت أخونا ومولانا»[٤].

ولمَّا أراد النبي ﷺ[٥] أن يُبَيِّنَ كونهم من أصل واحد وارتباطهم كالشيء الواحد قال: «مَثَلُ المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ؛ إذا اشتكى عُضْوٌ منه تَدَاعَى سائرُه بالحُمَّى والسَّهَرِ»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، رقم: (٢٣٨٢-عبد الباقي).

(٢) سقط من (د).

(٣) سبق تخريجه في السِّفْرِ الثاني.

(٤) ذكره البخاري في صحيحه مُعَلَّقًا عن البراء بن عازب ﷺ: كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ.

(٥) في (ك): صلى الله عليه.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير ﷺ: كتاب البر والصلة والآداب ، باب تراجم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، رقم: (٢٥٨٦-عبد الباقي).

قال الإمام الحافظ[١] رضي الله عنه: والمؤمنون بالحقيقة إخوة كما هم إخوة بالمعنى[٢]؛ فإن أباهم آدم، وأمهم حَوَّاء، وإن تباعدوا بتَبَاعُدِ[٣] الرَّحِمِ، فقد تقاربوا باتحاد الدين، إلى ما يجمعهم من رقَّة الجنسية، وأُنْسِ المشابهة، وإذا تلازما مكانًا كما اتَّحَدَا دِينًا كما استويَا نَسَبًا كان كُلٌّ واحد منهما للآخر «صَاحِبًا».

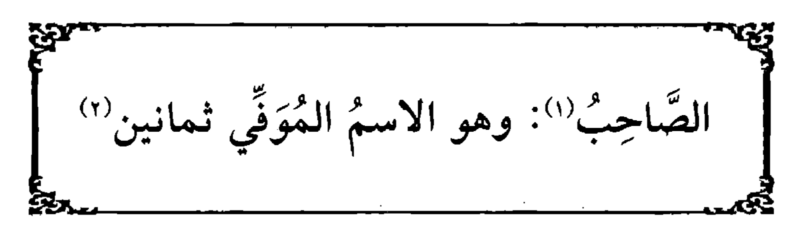
* * * * *

---

(١) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله، وفي (ب): قال الإمام رحمه الله.

(٢) في (د): والمؤمنون بالحقيقة إخوة بالمعنى كما هم إخوة، وفي (ص): والمؤمنون بالحقيقة إخوة كما هم إخوة.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): بتعداد، ومرَّضها في (د)، وما أثبتناه صحَّحه بطرته.



الصَّاحِبُ[١]: وهو الاسمُ المُوَفِّي ثمانين[٢]

ومن ذلك قيل: أصحابُ النبي[٣].

وقال هو ﷺ: «بل أنتم أصحابي»[٤]، إخبارًا عمَّا كانوا معه عليه من الملازمة، كما كانوا معه مشتركين في الإيمان.

ومن الصحيح الثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «دَعُوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدُكم كلَّ يوم مثل أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»[٥]، خرَّجه بهذه الزيادة البَرْقَانِي في «الصَّحِيحِ»، فحصلت لهم هذه المرتبة، وتميَّزوا بالمنزلة الشريفة والمنقبة.

وقال في الحديث الصحيح: «خَيْرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعدي قَوْمٌ من بعد ذلك تسبقُ أيمانُهم شهاداتِهم، وشهاداتُهم أيمانَهم»[٦].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الثامن والسبعون، وفي (ص): السادس والسبعون، وفي (ب): الخامس والسبعون.

(٣) ينظر: العارضة: (٥٧٢/١٠).

(٤) تقدَّم تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب فضائل الصحابة، بابٌ، رقم: (٣٦٧٣-طوق)، ولَفْظُه فيه: «لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذَهَبًا»، وقال ابن حجر: «زاد البرقاني في المصافحة من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش: كل يوم، وهي زيادة حسنة»، فتح الباري: (٣٤/٧).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم: (٢٥٣٣-عبد الباقي).

وجاء في الحديث الحَسَنِ: عن موسى بن إبراهيم عن طلحة بن خراش[١] عن جابر: سمعتُ رسول الله يقول: «لا تَمَسُّ النارُ مسلمًا رآني ورأى من رآني، قال طلحة: فقد رأيتُ جابر بن عبد الله، وقال موسى: قد رأيتُ طلحة، ونرجو رحمة الله»[٢].

٢ وقال رسول الله ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غَرَضًا بعدي،/ فمن أحبَّهم فبحُبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببُغْضِي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يُوشِكُ أن يأخذه»[٣]. [٧٦/ب]

والصَّحَابَةُ إِخْوَةُ النبي، وزيادةُ وَصْفِ الصُّحْبَةِ وفَضْلِها.

وقد سمَّانا ﷺ[٤] «إِخْوَةً»[٥]، ويا له من شَرَفٍ لا تعادله الدنيا بأَسْرِها! ووَدَّ أنه رَآنا، فنحن لذلك أَوَدُّ، وأعظم محبة وأحرص، ولو رأيناه صلى الله عليه[٦] لرأينا شَرَفَ الدنيا والآخرة، وقُرَّةَ عَيْنِ المؤمنين، ولو رَآنا لرأى ما يُسْخِطُه علينا، ويُسْخِنُ عَيْنَه مِنَّا[٧].

---

(١) قوله: «عن موسى بن إبراهيم عن طلحة بن خراش» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه، رقم: (٣٨٥٨-بشار)، وحسَّنه أبو عيسى.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب فيمن سَبَّ أصحاب النبي ﷺ، رقم: (٣٨٦٢-بشار).

(٤) في (ك): صلى الله عليه.

(٥) تقدَّم تخريجه.

(٦) في (ك): ﷺ.

(٧) قوله: «ما يُسْخِطُه علينا، ويُسْخِنُ عَيْنَه منَّا» سقط من (ص) و(ب).

[تَشَفُّعُ ابنِ العربي بحُرْمَةِ رسول الله]:

اللهم إنَّا نتشفَّع[١] إليك بحُرْمَتِه؛ أن تُصلح خاصَّتنا وعامَّتنا ووُلَاةَ أمورنا، إنك أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم أَرْضِنَا فيه، واجعلنا ممَّن يرضى عنه، اللهم إنك تَعْلَمُ تقديسي لك وتنزيهي، وترفيعي له وللرُّسُلِ وتنويهي، وتطهيرهم عمَّا نَسَبَ إليهم الجاهلون بهم، وتبرئتهم عمَّا روى الغافلون فيهم وعنهم، فاجْزِني بذلك جزاءَ من نَاضَلَ عن دينك ورُسُلِك، واكتبني فيمن بلغ غاية آماله، يا أرحم الراحمين.

[خصالُ الأُخُوَّةِ وشُرُوطُ الهجر]:

وفي الحديث المنثور: «المسلم أخو المسلم، لا يُسْلِمُه، ولا يَظْلِمُه»[٢].

وأنتَ وَلِيُّ أخيك المسلم إذا ظُلِمَ، فإن ظَلَمْتَهُ كان الله وَلِيَّه عليك.

وقد نهاكم أن تتحاسدوا، فإن حَسَدَك فلا تَحْسُدْه، وأن لا تتباغضوا، فإن أبغضك فلا تُبْغِضْه، وأن تدابروا[٣]، فإن[٤] أدبر عنك فأَقْبِلْ عليه؛ فإنَّ الشَّرَّ إذا دَفَعْتَهُ بالخير ذَهَبَ، وإذا جَارَيْتَهُ بالشَّرِّ اشتعل والْتَهَبَ، «فلا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث؛ يلتقيان فيُعْرِضُ هذا، ويُعرض هذا،

---

(١) في (د): نستشفع.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخَذله واحتقاره، رقم: (٢٥٦٤-عبد الباقي).

(٣) قوله: «وأن تدابروا» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): وإن.

وخَيْرُهما الذي يبدأ بالسَّلام»[١]، إلَّا إذا رأيته على مُنْكَرٍ، فلا يَحِلُّ لك مخالطته، إلَّا أن يكون مُتَأَوِّلًا؛ كالحَنَفِيِّ يشرب النَّبِيذَ، إلا أن يتأوَّل تأويلًا باطلًا، فلا تحل لك صحبته، مثل أن يتزوج امرأة مُفَوِّضَةً، بلا ولي، ولا شهود، ولا إعلان، ويقول: سَكَتُّ عن الصداق على سنة التفويض، وعن الولي على مذهب[٢] من لا يراه، وعن الشهود على قَوْلِ من لا[٣] يجعله شَرْطًا في صحة النكاح، وعن الإعلان على رأي من لم يعتبره، فهذا فَاجِرٌ محدود بالرَّجْمِ/ أو الجَلْدِ؛ على حسب صفته من بَكَارَةٍ أو إِحْصَانٍ.

٢ [٧٧/أ]

وقد أَمَرَ النبيُّ بهِجْرَانِ من عصى فتخلَّف عنه، وتَرَكَ المسلمون كَلَامَ كَعْبٍ وصَاحِبَيْه خمسين ليلةً[٤].

وقد هَجَرَتْ عائشةُ عبد الله بن الزبير حين بلغه أن عائشة باعت أو أعطت، فرآه كثيرًا، فقال: «لأَحْجُرَنَّ عليها، قالت: هو لله[٥] عليَّ نَذْرٌ أن لا أُكَلِّمَ ابن الزبير أبدًا، فاستشفع إليها حتى راجعته، وأعتقت أربعين رقبةً في نذرها، وكانت تبكي وتخاف ألَّا تفي به»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ: كتاب الأدب، باب الهجرة، رقم: (٦٠٧٧-طوق).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): رأي، وضعَّفه في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) في (ك): لم، وسقط من (ص).

(٤) ذكره البخاري في صحيحه عن كعب ﷺ مُعَلَّقًا: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الهجران لمن عصى.

(٥) في (د): الله.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب الهجرة، رقم: (٦٠٧٣-طوق).

وقد يكون بين المُحِبِّينَ نَوْعٌ من الترك لا يُبَلِّغُ إليها[١]، قال رسول الله لعائشة: «إني لأعرف غضبك ورضاك، قالت: قلت: وكيف تعرف ذلك يا رسول الله[٢]؟ قال: إذا كنتِ راضية قلت: لا، وربِّ محمد، وإذا كنتِ غَضْبَى قلت: لا، وربِّ إبراهيم، قالت: أجل يا رسول الله، والله ما أهجر إلَّا اسمك»[٣].

ولمَّا طلبتْ فاطمةُ ميراثَها من أبي بكر قال لها: «قد قال رسول الله: لا نُورَثُ»[٤]، وجرى الكلام، ورجعتْ فاطمةُ إلى بيتها فلم تُكَلِّمْه، ولا بايعه عَلِيٌّ حتى تُوُفِّيَتْ، والثلاثةُ مع رسول الله إخوانٌ على سُرُرٍ متقابلين.

وهذا الذي جرى بينهما لا تُدْرِكُهُ حسناتُنا، فكيف أن يَعُدَّه جاهل من سيئاتهم؟ ومن يكون المخذول الذي يتربَّع بين هؤلاء الثلاثة فيتكلَّم؟ حاشا لله وللمجد وللدِّين أن يكون في ذلك لأحد جَدٌّ[٥]، بل الجَلْدُ والحَدُّ[٦].

وروى الترمذي أنَّ ابن عمر جاءه رجل فقال: «إن فلانًا يقرئك السَّلام، فقال: إنه بلغني أنه قد أَحْدَثَ، فلا تقرئه مِنِّي السَّلام، فإنِّي

---

(١) أي: الهجران.

(٢) في (ك) و(ص): وكيف يا رسول الله؟

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الهجران لمن عصى، رقم: (٦٠٧٨-طوق).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم: (٤٢٤٠-طوق)، وفيه: «فوجدتْ فاطمةُ على أبي بكر فهجرته؛ فلم تُكَلِّمْهُ حتى تُوُفِّيَتْ».

(٥) في (ص): حد.

(٦) في (ص): جد.

سمعتُ رسول الله يقول: يكون في هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ أو قَذْفٌ في أهل القَدَرِ»[١]، صحيح حسن غريب، وهذا أَصْلٌ في هجران[٢] المبتدع واجتناب صُحْبَتِه.

[المنافرةُ التي كانت بين مالك وابن إسحاق[٣]]:

وقد تَهَاجَرَ مالك ومحمد بن إسحاق، وهما إمامان، ومَالِكٌ أعظم قَدْرًا، فكان محمد بن إسحاق يقول: «مالك مَوْلَى قريش، فلِمَ ترك ذلك وانتسب إلى أَصْبَح؟ لا يحلُّ له ذلك، ولا يُكَلَّمُ حتى يرجع»[٤]، وكان مالك يقول: «محمد بن إسحاق يقول: حدَّثتني فاطمة بنت المنذر، وما رآها، ولم يَتَسَوَّرْ على الحُرَمِ، وهذا هشامٌ زوجها يُقْسِمُ أنه ما كان ذلك»[٥]،/ فأمَّا الأَمْرُ فصحيح منهما، وكلاهما سالم. ٢ [٧٧/ب]

أَمَّا مالك فأَصْبَحِيٌّ نَسَبًا، وتَيْمِيٌّ حِلْفًا، وَرَدَ جَدُّه مكَّة فحَالَفَ التَّيْمِيِّينَ[٦]، إذ[٧] لم يكن[٨] يتفق لأحد من الغرباء أَمْرٌ بمكَّة ولا بغيرها من

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب القدر عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢١٥٢-بشار).

(٢) في (ك): هجر.

(٣) ينظر في الخصومة التي كانت بينهما: تاريخ بغداد: (٢/١٩-٢١).

(٤) ينظر: الانتقاء لابن عبد البر: (ص٤٠).

(٥) ينظر: تاريخ بغداد: (٢/١٨).

(٦) في (د): اليتمين.

(٧) في (د): إذا.

(٨) سقط من (د) و(ب).

القبائل إلَّا بحِلْفٍ، وخصوصًا الحَرم لشَرَفِه، فإن انتسب لأبيه جاز، وإن انتسب إلى حِلْفِه جاز، ورأى مالك أن النَّسَبَ آكَدُ من الحِلْفِ، إذ قد اختُلِفَ في الحِلْفِ هل نُسِخَ كلُّه أو بعضه، أو بقي بأسره؟ ورأى مَالِكٌ نَسْخَه.

وأمَّا قَوْلُ ابن إسحاق: «حدَّثتني فاطمة»، وإنكارُ مالك وزوجها لذلك، فليس يمتنع أن تُحَدِّثَ فاطمةُ زوجَها، أو ذا[1] رَحِمِها، أو امرأةً، أو نساءً، ومُحَمَّدٌ يسمع، فيقول محمد[2]: حدَّثتني فاطمة، بما سمعها تُحَدِّثُ لغيره[3]، وذلك في الحديث جائزٌ إجماعًا؛ بأن يقول الرجل لرجلين أو ثلاثة: أُحَدِّثُكم بكذا، ويسمعه غيرهما ممَّن لم يعلم به المُحَدِّثُ، فيجوز للآخر أن يقول: أخبرني فلان، وحدَّثني، وسَمِعْتُه، وإن لم يقصده.

وفي الشهادة قال مُحَمَّدٌ: «إذا أَشْهَدَكَ فلان وآخر يسمع فلا يحل له أن يشهد»[4].

وقال غيره: «إذا أَشْهَدَ واحدًا أو اثنين وسمعه الغير شَهِدُوا على إشهاده، وإن لم يقصد إِشْهَادَهم»[5].

فهذان فاضلان خَرَجَا عن العُهْدَةِ، وبرئت منهما السَّاحة، ولهما المغفرة والرحمة.

---

(١) في (د) و(ص): ذي.

(٢) لم يرد في (د).

(٣) في (ص): غيره، وفي (ك) و(ب): لغيرها.

(٤) هو قول الإمام محمد بن الموَّاز، النوادر والزيادات: (٨/٢٥٦).

(٥) هو قول الإمام أشهب، النوادر والزيادات: (٨/٢٥٧).

[أُخُوَّةُ الرَّحِمِ]:

فإذا كانت الأُخُوَّةُ بالأبوَّة أو بالبنوَّة فلها جِبِلِّيَّةٌ تحميها، فإذا بَعُدَتْ بالعمومة والخُؤولة فللشريعة تأكيدٌ في صِلَتِها، قال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢٣]، فقرن القطيعة بالكفر؛ وهو الفساد في الأرض، واتَّفقت عليه الملل[1]، واستدعته القرائح، وطابت به الأرواح، وتفاخرت به الأشراف، وذكره أبو سفيان لِهِرَقْلَ في صفة المصطفى، فقال: «يأمرنا بالصلاة والصدقة، وكذا وكذا، وصِلَةِ الرحم»[2].

وقال صِرْمَةُ في الجاهلية بالمدينة:

يا بَنِيَّ الأرحامَ لا تقطعوها ... وصلوها قريبة من زِيَالِ

يا بنيَّ التخومَ لا تظلموها ... إن ظلم التخوم ذو عُقَالِ

٢

يا بنيَّ الأيامَ لا تأمنوها ... واحذروا مَكْرَهَا ومَكْرَ[3] اللَّيَالِي / [٧٨/أ]

واعلموا أن أمرها لنَفَادِ الْـ ... ـخَلْقِ ما كان من جَدِيدٍ وبَالِي[4]

---

(١) في (ص): المال.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، رقم: (٥٩٨٠-طوق).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): مر، وضبَّب عليها، والمثبت من طرته.

(٤) من الخفيف، وهي لأبي قيس صرمة بن أبي أنس، أوصى بها بنيه عند الموت، وهي في التعازي والمراثي للمبرد: (ص١٢٦)، والمعارف لابن قتيبة: (ص٦٢).

وقال ﷺ[1]: «من سرَّه أن يُبْسَطَ له في رزقه ويُنْسَأَ في[2] أثره فليَصِلْ رَحِمَه»[3]، «وإنَّ الله لمَّا خلق الخلق قامت الرحم فأخذت بحَقْوِ الرحمن، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: أما ترضين أن أَصِلَ من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فهو لك، قال رسول الله: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»[4].

وقال: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[5].

وقال: «لا يدخل الجنة قاطعُ رَحِمٍ[6]»[7].

وقال: «الرحم شِجْنَةٌ من الله، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»[8].

---

(١) في (ك): صلى الله عليه.

(٢) سقط من (ك) و(ص).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم: (٥٩٨٥-طوق).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم: (٥٩٨٧طوق).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كتاب البر والصلة والأدب، باب صلة الرحم، رقم: (٢٥٥٥-عبد الباقي).

(٦) سقطت من (د).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن جُبَير بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم: (٥٩٨٤-طوق).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم: (٥٩٨٩-طوق).

وقال النبي صلوات الله عليه: «إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنَّما وليِّيَ الله، وصالح المؤمنين، ولكن لهم رَحِمٌ سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا»[١].

وقال[٢]: «ليس[٣] الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُه وَصَلَها»[٤].

وعن أبي هريرة أن رجلًا قال: «يا رسول الله، إن لي قرابة؛ أَصِلُهم ويقطعوني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسِيئُونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: لئن كان كما قلتَ فكأنَّما تُسِفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظَهِيرٌ عليهم ما دُمْتَ على ذلك»[٥].

قال الإمام الحافظ[٦] ﵁: هذه أحاديثُ صِلَةِ الرَّحِم الصِّحَاحِ، وما بعدها مِنْهُ ما لا بأس به، ومِنْهُ ما لا أصل له، وليتكم وفَّيتم بهذا[٧] في قولكم وفعلكم، حتى تُضيفوا إليه غيره ممَّا لم يصح.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمرو بن العاص ﵁: كتاب الأدب، باب يبل الرحم ببلالها، رقم: (٥٩٩٠-طوق).

(٢) سقط من (ك).

(٣) في (ك): وليس.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ﵄: كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، رقم: (٥٩٩١-طوق).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﵁: كتاب البر والصلة والأدب، باب صلة الرحم، رقم: (٢٥٥٨-عبد الباقي).

(٦) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وفي (ب): قال الإمام.

(٧) في (ك): بها.

والذي يؤكِّد صِلَةَ الرَّحِمِ أنَّها لا تنقطع مع الكفر؛ قالت أسماء بنت أبي بكر: «قلت: يا رسول الله، إن أُمِّي قَدِمَتْ عليَّ راغبة، وهي مشركة، أفأصلُها[١]؟ قال: نعم، صِلِي أمَّك»[٢]، صحيح من الصحيح.

وقد فسَّرنا قول النبي ﷺ: «من سَرَّهُ أن يُبْسَطَ له في رزقه ويُنْسَأَ له في أَثَرِه فليَصِلْ رَحِمَه» في كتاب «العِوَضِ المحمود» إملاءً عليكم، وفي كتاب «المشكلين»، وبيَّنا قوله: «أَخَذَتْ بحَقْوِ الرحمن» في «المشكلين».

٢ والمعنى فيه: أنَّ الله قد أثبت لنفسه رِدَاءً وإزارًا، وهو الحَقْوُ، فقال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري،/ من نازعني واحدًا منهما قصمته»[٣]، [٧٨/ب] ورُوي: «والعِزُّ إزاري[٤]».

فضَرَبَ مثلًا للرَّحِمِ المتعلق بعَظَمَةِ الله لتُعَظَّمَ، حيث رُوي في الحسان بمعناه[٥]: «أنا الرحمن، وهي الرحم، خَلَقْتُها وشَقَقْتُها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»[٦]، وهذا معنى قوله في الصحيح: «الرَّحِمُ شِجْنَةٌ»، كما تقدَّم، أي: «قرابة مُشْتَبِكَةٌ»، قاله أبو عُبَيد[٧].

---

(١) في (د): فأصلها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، رقم: (٥٩٧٩-طوق).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) بعده في (ص) و(ب): من نازعني واحدًا منهما قصمته.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): معناه.

(٦) تقدَّم تخريجه.

(٧) غريب الحديث لأبي عُبَيد: (١/٢٦٤).

[نَقْدُ كلام أبي عُبيد في تفسير الشِّجْنَةِ]:

وكَبُرَتْ كلمة خرجت من فيه، لم يَقْدُرْهَا قَدْرَها؛ لمَّا كان عَرِيًّا من طريق تقديس الله، وإنَّما كان طريقُه اللغة والعلم المسمَّى في اصطلاحهم بالفقه؛ معرفة أحكام أفعال المكلفين، وكان لم يتمرَّس بالنظر في طريق العلم بالله، ولا تُضَافُ القرابة من الله إلى العبد، وقد نفى الله ذلك، وكفَّر به من قاله، في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨]، وإنَّما الشُّجُونُ في المحسوس هي الأغصان في الأشجار، والعُرُوقُ في الأبدان، وهي في المعقول: معاني الحديث التي يتعلَّق بعضها ببعض، ومنه المَثَلُ: «الحديث ذو شجون»[1]، فتَشَاجُنُ المحسوسات هي اتصالُ بعضها ببعض في حَيِّزٍ، وتَمَاسُّها في مكان، وتَشَاجُنُ المعقولات ارتباطُ بعضها ببعض دلالةً، وتشاجن الرحم وارتباطها بالرحمن إنَّما هو ارتباطُها في الدِّلالة به، والأَمْرُ بحِفْظِها منه، وهذه كلمة عُبَيْدِيَّةٌ[2]، بها تعلَّقت في إلحادها الطائفة الفلسفيَّة[3]، وركَّبت عليها ما أغوى طائفة من البريَّة، فخذوها بيضاء بحمد الله نقيَّة.

[تفسيرُ حديث: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء]:

وأمَّا قوله عليه السَّلام: «إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليِّيَ الله وصالح المؤمنين»[4]، فإنَّ هذا الحديث وقع في البخاري مُبَيَّضًا، قال

---

(١) غريب الحديث لأبي عُبَيد: (١/٢٦٤).

(٢) نسبة إلى أبي عُبَيد.

(٣) إذ قالوا: «هذا نَسَبٌ بين الله وبين الرحم»، ينظر: العارضة: (٨/١٩٢).

(٤) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/٤٢٠): «قال أبو بكر بن العربي =

فيه: «إن آل أبي فلان»، قال البخاري: «وكان في كتاب محمد بن جعفر بياض»[١]، والمعنى فيه: أني لست أَخُصُّ قرابتي الماسَّة ولا فَصِيلَتِي الأدنين[٢] بولاية دون سائر المسلمين، أَمَا إِنَّ رحمهم معي في الطَّالِبِيَّةِ سَأَبُلُّها بِبَلَالها، معناه: أُعطيها حقَّها، فإن القطيعة في العربية يُبْسٌ، والصِّلَةُ بَلٌّ، قال الشَّاعر:

فلا تُوبِسُوا[٣] بيني وبينكم الثَّرَى   فإنَّ الذي بيني وبينكم مُثْرِي[٤]

[حديثُ: ليس الواصل بالمكافئ]:

٢ وأمَّا قوله: «ليس الواصل بالمكافئ»: فإنَّ المعنى فيه بَيِّنٌ؛ لأنه إذا وَصَلَ لمكافأة/ سابقة أو وَصَلَ يَتَوَكَّفُ مكافأة لاحقة[٥] فهو بائع ومبتاع، [٧٩/أ]

= في «سراج المريدين»: كان في أصل حديث عمرو بن العاص: «إن آل أبي طالب»، فغيَّر «آل أبي فلان»، كذا جزم به، وتعقَّبه بعضُ الناس وبالغ في التشنيع عليه، ونسبه إلى التحامل على آل أبي طالب، ولم يُصِبْ هذا المُنْكِرُ؛ فإن هذه الرواية التي أشار إليها ابنُ العربي موجودة في «مستخرج أبي نُعَيم»، من طريق الفضل بن المُوَفَّقِ عن عَنْبَسَةَ بن عبد الواحد بِسَنَدِ البخاري؛ عن بيان بن بِشْرٍ عن قيس بن أبي حازم عن عمرو بن العاص رَفَعَه: «إن لبني أبي طالب رَحِمًا أَبُلُّها ببلالها»، وقد أخرجه الإسماعيلي من هذا الوجه أيضًا، لكن أَبْهَمَ لَفْظَ «طالب»، وكأنَّ الحامل لمن أَبْهَمَ هذا الموضع ظنهم أن ذلك يقتضي نقصًا في آل أبي طالب، وليس كما توهَّموه».

(١) الجامع الصحيح: (٦/٨-طوق).

(٢) في (ك): الأدنون، وضعَّفها في (د).

(٣) في (د): تولجوا.

(٤) البيت من الطويل، وهو لجرير في ديوانه: (٤٢١/٢).

(٥) مرَّضها في (د)، وفي الطرة ما لم أهتد لقراءته، لبَتْرٍ لحق تلك الكلمة.

وتاجر طمَّاع، وإنَّما الواصل بالحقيقة هو الذي يَصِلَ لا عن عِوَضٍ مُتَقَدِّمٍ ولا مُتَوَقَّعٍ.

[حديث: كأنما تُسِفُّهم المَلَّ]:

وأمَّا قوله: «كأنما تُسِفُّهم المَلَّ»: فإنه مَثَلٌ ضَرَبَه بين فِعْلِه وفِعْلِهم، هو يَبُلُّ ويَبْرُدُ، وكل واحدٍ[1] منهم يُضْرِمُ ويُوقِدُ آثامًا يَلْقَوْنَ حرارتها، فكأنما[2] يُطعمهم المَلَّ، وهو الرماد الحارُّ.

قال الإمام الحافظ[3] رضي الله عنه: ومن فَضْلِ[4] صِلَةِ الرَّحِمِ أنَّ النبي ﷺ جعلها مُقَدَّمَةً على العِتْقِ، ففي الصحيح: أن ميمونة زَوْجَ النبي أخبرته أنها قد أعتقت وليدتها، قال: «أَوَ فَعَلْتِ؟ قالت: نعم، قال لها: أَمَا إِنك لو أعطيتِها أخوالك كان أعظم لأجرك»[5].

[أحكامُ الأُخُوَّةِ]:

أحكامُ الأخوَّة كثيرة، أمَّهاتُها سبع[6] عشرة:

---

(١) سقط من (د) و(ص).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): فكأنه، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله، وفي (ب): قال الإمام.

(٤) في (ك) و(ب): أفضل.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الهبة وفضلها، باب هبة المرأة لغير زوجها وعتقها إذا كان لها زوج، رقم: (٢٥٩٢-طوق).

(٦) في (ص): عشرة، وفي (د): أحد عشرة.

الأوَّل: النصرة؛ قال النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: تكفُّه عن الظلم، فذلك[1] نصرك إيَّاه»[2].

الثاني: الإيثار؛ آخى رسولُ الله[3] بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، فقال له سعد: «هذا نِصْفُ مالي لك، وإحدى زَوْجَتَيَّ أنزلُ لك عنها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلُّونِي على السُّوق»[4]، وذكر الحديث.

وقال أبو موسى: قال النبي ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو وقلَّ[5] طعامهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم بالسويَّة، فأنا منهم وهُمْ مني»[6].

وفي الصحيح: «أن رجلًا من الأنصار أعتق غلامًا له عن دُبُرٍ، ولم يكن له مال غيره، فاشتراه نُعَيم بن النحَّام بثماني مائة درهم فدفعها إليه»[7]، زاد[8] وقال: «إذا كان أحدكم فقيرًا فليبدأ بنفسه، وإن كان فيها

---

(١) في (ك) و(ص): فذاك.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم: (٢٤٤٤-طوق).
(٣) في (ب): النبي ﷺ.
(٤) تقدَّم تخريجه.
(٥) في (ص): أو قلَّ.
(٦) تقدَّم تخريجه.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأحكام، باب بيع الإمام على الناس أموالهم وضياعهم، رقم: (٧١٨٦-طوق).
(٨) كذا في جميع النسخ، وبعده في (ص) بياض، ورمز له بـ: صـ.

فَضْلٌ فعلى عياله، فإن كان فيها فَضْلٌ فعلى قرابته، فإن كان فيها فَضْلٌ فهاهنا وهاهنا»[١].

الثالث: الافتقاد عند الغيبة عن العادة، فإذا غاب عنه اليوم الأوَّل لم يَرَهُ شيئًا، فإذا كان في الثاني اهتبل، فإذا كان في الثالث ولم يأت سأل، فيعلم سَبَبَ[٢] ذلك؛ إن كان غائبًا دعا له، وهو **الرَّابع**، وإن كان مريضًا عاده، وهو **الخامس**.

فإن تأكَّدت/ الأخوة فليطَّلع حاله مرَّتين في اليوم، قالت عائشة ﵂: «وقَلَّ يومٌ مَرَّ علينا إلَّا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَيِ النهار؛ غدوة وعشيَّة»[٣]، وذلك لعظيم المحبة وكثرة الاهتبال. [٢/٧٩ب]

وقيل غير ذلك، وبيانُه في «شرح الحديث».

فإن لم يطالعه إلَّا في الأحيان بالزيارة؛ فإنه[٤] جاء[٥] في الأثر: «أن رجلًا زار أخًا له في الله فبعث الله على مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا[٦]»[٧]، الحديث.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب العتاق، باب في بيع المدبر، رقم: (٣٩٥٧-شعيب).

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): فيعمل بحساب، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب هل يزور صاحبه كل يوم أو بكرة وعشيًّا؟ رقم: (٦٠٧٩-طوق).

(٤) في (د): فإن.

(٥) سقط من (ك) و(د).

(٦) في (ك) و(د): ملك.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﵁: كتاب البر والصلة والأدب، بابٌ في فضل الحب في الله، رقم: (٢٥٦٧-عبد الباقي).

ومنه: أن رجلًا لقيه في الطريق فقال له: «أين تريد؟ قال: أريد فلانًا أزوره، قال: أَبَيْنَكَ وبينه رَحِمٌ تصلها أو نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا، قال: فَمَهْ؟ قال: أحبه في الله، قال: فإني رسول ربك إليك أنه يُحِبُّك بحُبِّك إيَّاه»[١].

ومن الأمثال الغرَّارة قولهم: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»[٢]، ولم يَزَلْ بَعْدُ[٣] حتَّى رفعوه إلى النبي ﷺ، وهو منه بريءٌ.

وقد أنشدني أبو القاسم عبد العزيز[٤] بن قيس[٥] بثَغْرِ عسقلان للقاضي أبي بكر ابن حسَّان العسقلاني:

زُرْ من يحبك كلَّ يوم لا تكن ... ممَّن يُغِبُّ زيارة الأحبابِ
ودَع القليل من الجفاء فإنه ... فيما حَكَوا يُنْمِي نماءَ خِضَابِ
لو صحَّ ما بين الخليل وخِلِّه ... لاستعملا ما جاء[٦] في الإِغْبَابِ
وإذا تهاون بالزيارة صاحبٌ ... هانت مودَّته على الأصحابِ[٧]

---

(١) هو حديث أبي هريرة السَّابق.

(٢) الأمثال لأبي عُبَيد: (ص١٤٨)، قال ابن حِبَّان (روضة العقلاء: ص١١٦): «رُوي عن النبي ﷺ أخبارٌ كثيرة تُصَرِّحُ بنفي الإكثار من الزيارة، حيث يقول: زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا، إلا أنه لا يصح منها خَبَرٌ من جهة النقل»، وقال ابن حجر (فتح الباري: ١٠/٤٩٨): «قد ورد من طُرُقٍ أكثرها غرائب، لا يخلو واحد منها من مقال».

(٣) قوله: «ولم يزل بعد» سقط من (ك) و(د).

(٤) لم أهتد إلى معرفته، ولم يذكره أَحَدٌ ممَّن اعتنى بتتبع مشيخة ابن العربي، فيُستدرَك عليهم.

(٥) في (ك): قريش.

(٦) في (ب): قيل.

(٧) من الكامل.

قال الإمام الحافظ[١]: وهذا إنَّما ينبني على صحة المودَّة، واستحكام العُقْدَةِ، والحرص على الاستكثار، والحاجة الدائرة بين القاصد والمقصود إليه وفراغهما لذلك[٢].

السَّادس: أن يحمل جَفْوَتَه وغِلْظَتَه، قال عُمَرُ في أبي بكر: «وكنت أداري منه بعض الحد»[٣]، وناهيك من غلظة عمر أن يداري من أبي بكر حِدَّةً يزيد بها عليه، وإن أبا بكر كان ساكنًا، فإذا تحرَّك لله لم يثبت له شيء، فكان إذا ثار لله سَكَنَ باللِّينِ، واكتسب ذلك عُمَرُ حتى كان كذلك.

السَّابع: أن يَتَخَدَّمَ له أموره قبل أن يُكَلِّفَه ذلك، إذا علم أنها له، وتحقَّق حاجته إليها، فأمَّا إذا كَلَّفَه ذلك فلا كلام فيه.

الثامن: ألَّا[٤] يكون بينه وبينه تَحَفُّظٌ، وليبسط نفسه ويده على مَالِه.

التاسع: ألَّا[٥] يكون بينه وبينه حِرْزٌ[٦]، وهذا مذهب الصوفية، وأمَّا الفقهاء فلا يرون ذلك، لَاهُمَّ[٧] إلَّا أن مالكًا/ أنزل الصَّدِيقَ المُلَاطِفَ منزلة الابن في الشهادات خاصَّة، وأَسْقَطَ شهادته لصديقه، ولم يُنزله منزلته في سائر الأحكام، وقد بيَّنَّا ذلك في «مسائل الفقه»[٨].

٢ [٨٠/أ]

---

(١) في (ب): قال الإمام.

(٢) قوله: «ومن الأمثال الغرارة.. وفراغما لذلك» سقط من (ص).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في (د): من ألا، وفي (ص): إلا أن.

(٥) في (ص): إلا أن.

(٦) في (د): حزْر.

(٧) في (ك): لهم.

(٨) ينظر: أحكام القرآن: (٢٥٥/١).

العاشر: أن يريد ما يريد، ويكره ما يكره، ويصل من وصل، ويقطع من قطع.

الحادي عشر[١]: أن يشفع له في الدنيا إن احتاج إلى ذلك، وفي الآخرة، كما ورد في الحديث الصحيح، ويشفع عندنا فيه ما لم يُصِبْ حَدًّا، فإذا أصاب حَدًّا فقد وجبت عليه اللعنة إنْ سعى في إسقاطه بعد وجوبه بشفاعته[٢] دون شُبْهَةٍ، فإن تَطَلَّبَ له شبهة جاز، كقوله: «لعلك قبَّلت، لعلك غمزت»[٣].

ومن دعاء الجنائز: «اللهم جئنا شفعاء له فشَفِّعْنَا فيه»، وليس ينبغي لكل أحد أن يبسط لسانه بهذه الكلمة، إلَّا[٤] أن يعلم من نفسه السَّلامة من الكبائر، فإذا سلم من الكبائر فحينئذ يكون شهيدًا، فيقول: «اللهم إني أُشهدك، وأَشهد عندك»، أو يقول: «اللهم إني جئتُ شفيعًا»، وأمَّا إذا كان مُتَلَطِّخًا[٥] بالخطايا مُرَحَّضًا بالذنوب فقال: «اللهم إنا جئنا شُفعاء له»؛ ربَّما دخل في المَثَلِ:

جئنا به نشفع[٦] في حاجة ... فاحتاج في الإذن إلى شافع[٧]

ولذلك لم يكن بالحقيقة هذا الاسمُ:

---

(١) بعده في (د) لَحَقٌ، لعله في كلمتين، ولكن طُمِسَ موضعهما، فلا يظهر كبير شيء.
(٢) في (ك) و(ص) و(ب): بشفاعة.
(٣) تقدَّم تخريجه.
(٤) سقط من (ك) و(ص).
(٥) مرَّضها في (ك)، وكتب في طرته: متخلطًا، وصحَّحها.
(٦) في (ك) و(ب): يشفع.
(٧) من السريع، وهو لدعبل الخزاعي في ديوانه: (ص٩٧).

الشَّفِيعُ[(١)]: وهو الاسمُ الحادي والثمانون[(٢)]

إلَّا لمُحَمَّدٍ ﷺ[(٣)]، ولأقرانه، ولمن تبعهم بإحسان في الأعمال والإيمان.

ومن مشهور الحديث: «اشفعوا تؤجروا، وليَقْضِ الله على لسان رسوله ما شاء»[(٤)].

ورُوي في الحسن: «من سأل القضاء وابتغى فيه شفعاء وُكِلَ إليه»[(٥)]، وذلك إذا وَلِيَ كذلك، ولا يلي بشفاعة عند إمام عَدْلٍ أبدًا، فلذلك لا تكون ولاية، ولا يكون فيها هداية.

وفي الحديث الصحيح من رواية ابن عَجْلان عن محمد بن يحيى بن حَبَّان عن الصُّنَابِحي أنه قال: «دخلتُ على عُبادة بن الصَّامت وهو في

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): التاسع والسبعون، وفي (ص): السابع والسبعون، وفي (ب): السادس والسبعون.

(٣) في (ك): صلى الله عليه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم: (١٤٣٢-طوق).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن أنس رضي الله عنه: أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي، رقم: (١٣٢٤-بشار)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب».

الموت، فبكيتُ، فقال: مَهْلًا، لم تبكي؟ فوالله لئن استُشْهِدْتُ لأشهدنَّ لك، ولئن شُفِّعْتُ لأشفعنَّ لك، ولئن استطعت لأنفعنَّك، ثم قال: والله، ما من حديث سمعتُه/ من رسول الله لكم فيه خَيْرٌ إلَّا حدَّثتكموه، إلَّا حديثًا واحدًا، وسوف أُحَدِّثُكُمُوهُ اليوم وقد أُحِيطَ بنفسي، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: من شهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمد رسول الله حرَّمه الله على النار»[1]، فلم يَضْمَنْ لفَضْلِه وعِلْمِه بمَكْرِ الله وما يُحرف من القلوب في اللحظات شهادةً له ولا شفاعةً، ولكنه قال له[2]: «إن كنتَ من أهل الشهادة أو الشفاعة فأنا لك شهيد وشفيع».

٢ [٨٠/ب]

ولذلك قال النبي صلى الله عليه حين وَقَفَ على أهل أُحُدٍ: «أنا أشهد[3] على هؤلاء»[4]، الحديث إلى آخِرِه.

وهو ﷺ[5] شفيع الشفعاء، وشهيد الشهداء، وقاضي القضاة والحق.

الثاني عشر[6]: في الصحيح: «أن النبي ﷺ مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيرًا[7]، فقال النبي ﷺ: وجبت، ومُرَّ بأخرى فأثنى عليها شرًّا[8]، فقال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، رقم: (٢٩-عبد الباقي).

(٢) سقط من (د).

(٣) في (ب): شهيد.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ﷺ: كتاب المغازي، باب من قُتِلَ من المسلمين يوم أُحُدٍ، رقم: (٤٠٧٩-طوق).

(٥) في (ك): صلى الله عليه.

(٦) بعده في (د) لَحَقٌ، وهو شبه مطموس، ومقداره كلمتان أو ثلاث.

(٧) في (ك) و(ص) و(د): خير.

(٨) في (ب): شرٌّ.

وجبت، قيل له: وما وجبت يا رسول الله؟ قال: أثنيتم على الأولى خيرًا فوجبت لها الجنة، وأثنيتم على الثانية شرًّا فوجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[١].

كما أنه قال ﷺ[٢]: «من صلَّى عليه مائة فشَفَعُوا له شُفِّعُوا فيه»[٣].

[مَحْمُودُ الثناء ومَذْمُومُه]:

وهذا الثناء مُسْتَحَبٌّ في مواطن، مكروه في مواطن، فأمَّا الموطن الذي يُسْتَحَبُّ فيه فما بعد الموت، ولا خلاف فيه، وهو التأبين والرثاء؛ أن تَذْكُرَ خصال الرجل ومناقبه بعد موته، فإذا كان ذلك في حياته؛ فإن كان في مَغِيبِه فلا بأس به، إذا خَلَصَتْ فيه نية القائل، وسَلِمَتْ فيه عقيدة الشاهد، ولم يقصد أن يُبَلِّغَ ذلك إليه، وإذا كان ذلك في حضوره فإنه مكروه، ثبت أن النبي ﷺ سمع رجلًا يُثني على رجل، فقال: «ويلك[٤]؛ قَطَعْتَ عُنُقَ صاحبك، مِرَارًا، قال: من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليَقُلْ: أحسبُ فلانًا، والله حسيبُه، ولا أُزَكِّي على الله أحدًا، أحسبُ كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»[٥]، وهو «المُزَكِّي» بذلك.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) في (ك): صلى الله عليه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه مائة شفعوا فيه، رقم: (٩٤٧-عبد الباقي).

(٤) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بكرة رضي الله عنه: كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، وخِيفَ منه فتنة على الممدوح، رقم: (٣٠٠٠-عبد الباقي).

المُزَكِّي(١): وهو الاسمُ الثاني والثمانون(٢)

وهذا هو في أشهر الأقوال تَفْسِيرُ قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣١]، أي: لا يُزَكِّي أَحَدٌ أَحَدًا قاطعًا به، وإن كان يعلمه؛ فإن الباطن خَفِيٌّ عنه، والعاقبة محجوبة عنه، حتى قال العلماء(٣): «لا يُزَكِّي نفسه؛ فإن زكَّاها عملًا وطاعةً فلا يُزَكِّيها/ اعتقادًا وشهادةً، وليَكُنْ عند نفسه ناقصًا قاصرًا، مُقَصِّرًا مذنبًا». ٢ [٨١/أ]

قال شيخُنا القاضي أبو المعالي عَزِيزِي(٤) بن عبد الملك بن شِيذَلَة(٥) الصُّوفِي(٦): كان شيخُنا الدَّامَغَانِي(٧) يقول في عَرَفَة إذا شاهد ذلك الجمع

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).
(٢) في (ك): الموفي ثمانين، وفي (ص): الثامن والسبعون، وفي (ب): السابع والسبعون.
(٣) سقطت من (ك) و(ص).
(٤) في (د): عُزَيزي، وكذلك ضبطه الزبيدي، تاج العروس: (٢٩/٢٢٥).
(٥) وضبطه السبكي بفتح الشين، طبقات الشافعية: (٥/٢٣٥)، وكذلك الزبيدي، تاج العروس: (٢٩/٢٥٥).
(٦) الإمام الفقيه، الأصولي المتكلم، الواعظ الصوفي، أبو المعالي شِيذَلَة، عَزيزي بن عبد الملك بن منصور الجِيلي، استُقضي ببغداد، وأصله من جَيْلان، أخذ عن شيخ الشافعية أبا الطيب الطبري، وآخرين، روى عنه ابن سُكَّرَة، وانتفع الوعَّاظ بتصانيفه، وله كتاب في «مصارع العشاق»، توفي عام ٤٩٤هـ ببغداد، ترجمته في: طبقات الشافعية: (٥/٢٣٥-٢٣٦)، والوافي بالوفيات: (٢٠/٧٢)، وتاج العروس: (٢٩/٢٥٥).
(٧) ترجمته في: السِّيَرِ للذهبي: (١٨/٤٨٥-٤٨٧).

العظيم، ورأى الفضاء العريض قد غصَّ بهم: «اللهم اقبلني معهم وإن كنتُ زائفًا، فقد يسمح الناقد وإن كان عارفًا».

وكان الأستاذ أبو القاسم القُشَيري يقول: «من اعتقد أنْ على البسيطة شَرٌّ منه فهو متكبر»[١]، يعني: من المؤمنين؛ إذ لا تُعلم الحال في الأكثر منهم، ولا تُدرى[٢] حال الخاتمة فيه وفيهم.

ومن الحديث الحسن: أنَّ رجلًا أثنى على عثمان في وجهه، فحَثَا المِقْدَادُ بن الأسود ترابًا في وجهه، وقال: «سمعتُ رسول الله يقول: احثُوا التراب في وجوه المدَّاحين»[٣].

ولذلك يكتفى في التزكية عند القاضي أن يقول: «ما علمتُ عليه إلَّا خيرًا، وأحسبه على حال كذا، ولا أُزَكِّي على الله أحدًا»، وهو مذهب البخاري[٤] وغيره.

ورأى فقهاء الأمصار أن يقول: عَدْلٌ، أو رِضًى، أو يجمعهما، على اختلاف بينهم في ذلك[٥].

وبقَوْلِ البخاري أَقُولُ في الدليل، والله أعلم بالتأويل.

وقد دخل ابنُ عباس على عائشة فقال ما نصُّه - في الصحيح واللفظ للبخاري -: عن ابن أبي مُلَيكة قال: «استأذن ابنُ عبَّاس على عائشة

---

(١) لطائف الإشارات: (٣/٤٨٨).

(٢) في (ص): ندري، وفي (ب): يدرى.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، وخِيفَ منه فتنة على الممدوح، رقم: (٣٠٠٢-عبد الباقي).

(٤) الجامع الصحيح: (٣/١٧٦-طوق).

(٥) الرسالة: (ص٢٢٣-أصل ابن الأزرق).

قبل[١] موتها وهي مغلوبة، قالت: أخشى أن يُثني علي، فقيل: ابن عم رسول الله، وهو من وجوه المسلمين، قالت: ائذنوا له، فقال: كيف تجدينك؟ قالت: بخير؛ إن اتقيت الله، قال: فأنت بخير إن شاء الله؛ زوجة رسول الله، ولم ينكح بِكْرًا غيرك، ونَزَلَ عُذْرُك من السماء، ودخل ابن الزبير خِلَافَه، فقالت: دخل ابن عباس فأثنى عليَّ، ووَدِدْتُ أنِّي كنت نِسْيًا مَنْسِيًّا»[٢].

قال الإمام الحافظ[٣]: وأَصْلُ هذا كله احتقارُ[٤] العبد لنفسه[٥]، واعتقادُه وعملُه أَوَّلًا مع الله، حتى يكون من أوَّل منازله في ذلك ما قال الأوَّلُ:

أُحبك حبًّا لو يَفَضُّ يسيرُه ... على الخلق مات الخلق من شدة الحبِّ
وأَعْلَمُ أنِّي بعد ذاك مُقَصِّرٌ ... لأنك في أعلى المراتب[٦] من قلبِ[٧]

٢ ويكون من[٨] **ثانيها** مع النبي ﷺ؛ أن يكون النبيُّ أحبَّ إليه من ماله وولده/ [٨١/ب] وأهله والناس أجمعين.

---

(١) في (ك): قُبَيل.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) في (ك): قال ابن العربي، وفي (ب): قال الإمام رضي الله عنه.

(٤) في (ك): اختبار.

(٥) في (ك) و(ب): نفسه.

(٦) في (ك) و(ب) و(د): المنازل، وصحَّحها في (ب)، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته، وأشار إليها في (ب).

(٧) من الطويل، وهي لمحمد بن أمية؛ كما في الأغاني: (١٢/١٧٤-١٧٥).

(٨) في (ك) - أيضًا -: في.

وثالثها: مع الناس، أن يرى لهم عليه الحقوق، ويصلهم بالنية والتحقيق.

ورابعها: أن لا يرى نفسه شيئًا في شيء[١].

وإذا[٢] تبرَّأ من نفسه واعتقد قصوره - كما قدَّمنا[٣] - وتقصيره، وشَرَّه ودَنَسَه؛ فهو «المتواضع».

* * * * *

---

(١) قوله: «قال الإمام الحافظ.. شيئًا في شيء» سقط من (ص).

(٢) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله: وإذا تبرأ.

(٣) في (ص): قدَّمناه.

المُتَوَاضِعُ[١]: وهو الاسمُ الثالث والثمانون[٢]

وهي صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، هو سَيِّدُ وَلَدِ آدم أيَّان تواضع، وإذ خيَّره[٣] الله بين أن يكون نبيًّا مَلِكًا أو نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا[٤]، وخيَّره الله آخِرًا بين الخُلْدِ في الدنيا ولقائه فاختار لقاءَه[٥].

وفي المغازي: ورُوِيَ عن مالك: «أنَّ النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح في جند الإسلام وسلطانه ظاهرًا قاهرًا[٦]، فانحنى[٧] لله على الراحلة ساجدًا، حتى إنَّ عُثْنُونَه ليَمَسُّ واسطة الرَّحْلِ»[٨].

وكان النبي ﷺ - في الحديث الحسن - يقول: «إنَّما أنا عَبْدٌ، آكُلُ كما يأكل العبد»[٩].

---

(١) سقط من (ك) و(د) و(ص).

(٢) في (ك): الحادي والثمانون، و(ص): التاسع والسبعون، وفي (ب): الثامن والسبعون.

(٣) في (ك): خيَّر.

(٤) تقدَّم تخريجه في السفر الأول.

(٥) تقدَّم تخريجه في السفر الأول.

(٦) سقط من (ك).

(٧) في (د): فأنحى

(٨) سيرة ابن هشام: (٤/٤٦).

(٩) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ: (٣/٢٤١)، رقم: (٦١٤)، قال ابن الملقن (البدر المنير: ٧/٤٤٧): «هذا إسنادٌ لا أعلم به بأسًا».

وفي كُتُبِ السِّيَرِ من طريق حسنة: «أنَّ النجاشي أرسل يومًا إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه، فإذا هو جالس على الأرض وعليه خُلقان ثياب، فأشفقنا حين رأيناه على تلك الحال، فلمَّا رأى ما في وجوهنا قال: إنِّي أُبَشِّرُكُمْ بما يَسُرُّكم، جاءني من نحو أرضكم خبير، فأخبرني أن الله قد نَصَرَ نبيَّه وأهلك عدوَّه، وأَسَرَ فلانًا وفلانًا، التقوا بوَادٍ يقال له: بدر، كثير الأراك، كأني أنظر إليه، كنت أرعى فيه لسيِّدي - رجل من بني ضَمْرَةَ - إبِلَه، فقال له جعفر: مَا لَكَ جالسًا على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق؟ قال: إنا نجد فيما أَنزل الله على عيسى: أن حقًّا على العباد أن يُحْدِثُوا لله تواضعًا عند ما أَحْدَثَ الله[1] لهم نعمة، فلمَّا أُخْبِرْتُ أن الله نَصَرَ نبيَّه أَحْدَثْتُ لله تواضعًا»[2].

ومن حِكَمِ الأَحْنَفِ بن قيس: «الشريفُ إذا تَقَرَّأَ[3] تواضع، والوضيعُ إذا تقرَّأَ[4] تكبَّر».

وفي الآثار: «إن الرجل إذا تواضع أخذ الله بناصيته فرفعه، وإذا تكبَّر خَضَّعَه الله ووَقَمَه»[5].

وصحَّ أن النبي قال: «إن المتكبرين يُحشرون يوم القيامة مثل الذَّرِّ في صُوَرِ الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن جهنم يسمَّى

---

(١) لم يرد في (د) و(ص) و(ب).

(٢) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا: (ص٥٣-٥٤)، رقم: (١٢٧).

(٣) تقرَّأ: تفقَّه وتنسَّك، تاج العروس: (١/٣٦٦).

(٤) في (د) كلمة غير واضحة.

(٥) ينظر: الإحياء: (ص١٢٥٥).

بَوْلَسَ[١]، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عُصارة أهل النار؛ طينة الخَبال، يطأهم الخلق بأقدامهم»[٢].

٢ [٨٢/أ] ومن الحِكْمَةِ المأثورة: «إنَّ الشريف إذا تنسَّك/ تواضع، والوضيع إذا تنسَّك تكبَّر»[٣].

قال الإمام الحافظ[٤] رضي الله عنه: وهذا الفِقْهُ[٥] صحيح؛ وذلك أنَّ الشريف يرى لنفسه بمنزلته، فإذا تنسَّك رأى أنه لا منزلة لأحد جَهِلَ خاتمته، والوَضِيعُ مَهِينٌ لا[٦] يرى منزلته، فإذا تنسَّك بجَهْلٍ يرى أنه قد ارتقى، ونعم؛ لقد ارتقى، ولكن إذا رأى أنه قد نزل فهذا شَرْطُ الارتقاء.

وحَدُّ التواضع: أن يُسْقِطَ في اعتقاده نفسَه عن مرتبة المُتَّقِينَ إلى المذنبين وهو مُتَجَنِّبٌ للذنوب، وعن مرتبة المجتهدين إلى المقصرين وهو مُجْتَهِدٌ، وعن مرتبة المحسنين إلى المسيئين وهو مُحْسِنٌ.

[تواضعُ أبي عبد الله الدَّامَغاني]:

أخبرني جماعةُ الأشياخ ببغداد[٧]: «أنَّ قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن علي الدَّامَغَانِي كان يمشي في الموكب الثقيل، وحوله القُضاة

---

(١) في (ص): بُولِسّ.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٤٩٢-بشار)، وحسَّنه أبو عيسى.

(٣) الإحياء: (ص١٢٥٧).

(٤) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، وفي (ب): قال الإمام.

(٥) في (ك): لِفِقْهٌ.

(٦) سقطت من (ك) و(ص).

(٧) ما ذكره ابن العربي عن الإمام أبي عبد الله الدامَغاني لا نعرفه في كتاب منشور، فهو من فوائده ومفاريده، وقد تقدَّم التعريف بالدامغاني.

والعدول والتُّنَّاءُ[١]، فيَمُرُّ بالرَّوْشَنِ فيقف ويقول: يرحمك الله يا فلانة، كنت أُحارس[٢] هذا الدرب بقراريط معلومة، فإذا أَعْتَمَ اللَّيْلُ جلستُ تحت هذا الرَّوْشَنِ أدرسُ اللَّيْلَ كلَّه، وكانت في رَوْشَنِها بمِرْدَنِها تغزل الليل كله، فإذا أوهمتُ أو توقَّفت في الدرس تقول: ليس هكذا يا[٣] محمد، وليس لتوقفك معنى، قد دَرَسْتُه[٤] قبل هذا على كذا وكذا، فأتذكَّره[٥]»، بما[٦] يُخَجِّلُ بذلك المتكبرين، ويُسَلِّي المتواضعين، ويَسُنُّ للمسلمين المريدين.

[تواضعُ أبي إسحاق الشِّيرَازِي]:

وكان أبو إسحاق الشِّيرَازِي[٧] فقيهُ الشافعية - بل الطوائف - شيخ الصوفية يُدَرِّسُ ويتصوَّف، وكان يقول في المدرسة النِّظَامِيَّةِ بمحضر[٨] أهل الآفاق - وقد حاز الرياسة والإمامة في الديانة -: «كان أبي صبَّاغًا بشِيرَازَ،

---

(١) في طرة بـ (ك): هم البياض، أي: بياض بغداد، وهم أهل الشرف والرفعة.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): أحرس، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٣) في (د): أيا.

(٤) في (د): درست.

(٥) في (د): فأتذكر.

(٦) في (ب): بها.

(٧) الفقيه الإمام، العلَّامة الزاهد، شيخ النظامية، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي، أبو إسحاق الشيرازي، (٣٩٣-٤٧٦هـ)، وكان ابتداء تدريسه بالنظامية عام ٤٥٩هـ، وكانت له هيبة ومكانة، مع التقلل من أعواض الدنيا وأغراضها، وله تصانيف، ترجمته في: تبيين كذب المفتري: (ص٢٧٦-٢٧٨)، وسير النبلاء: (١٨/٤٥٢-٤٦٤)، وطبقات التاج: (٤/٢١٥-٢٥٦)، وأفاد في مناظراته من كتاب «فرق الفقهاء» لأبي الوليد الباجي.

(٨) في (د): بحضرة.

وكان يقهرني على الصناعة[١]، ففَرَرْتُ منه إلى بغداذ، وأَوْقَعَ الله في قلبي طَلَبَ العلم، فلزمت القاضي أبا الطيِّب الطَّبَرِي[٢]»[٣].

قال لي بعضهم: حتَّى كان القاضي أبو الطيب يقول فيه: «إنه حمامة المسجد»، من كثرة ملازمته له.

قال أبو إسحاق: «وكنتُ أخدم طبَّاخًا، فإذا كان العَشِيُّ جئتُ إليه؛ فغسلتُ قُدُورَه، وأشعلت ناره، ورتَّبت طعامه، ثم يأتي المحتسب فيختم عليها، وتوضع على النار، وأُقيم عليها معه، حتى[٤] إذا أَسْحَرَ فكَّ الخاتَم وشرع في البيع، فإذا أصبح وطلعت الشمس تَرَكْتُه، ومشيتُ إلى مسجد القاضي أبي الطيِّب إلى العَشِيِّ، هكذا أبدًا؛ أدرسُ ليلًا ونهارًا في مسجدي[٥]/ ودُكَّانِي، ولا يعود عليَّ إلا ما أقتاتُ به[٦]، وأَتَلَبَّسُ بخَشِنٍ من الثياب، حتَّى رأى القاضي أبو الطيب أنِّي ممَّن حصَّل فأدناني وخزلني[٧] عن السوق، ولم يزل يسعى لي في العُلُوِّ[٨] والمرتبة حتى أعطى الله وفَتَحَ،

٢
[٨٢/ب]

(١) في (ك) و(ص): الصباغة.
(٢) أبو الطيب الطبري؛ طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر، (٣٤٨-٤٥٠هـ)، الإمام الكبير، وشيخ العراق، له من المصنفات: «التعليقة»، و«شرح الفروع»، وله غيرها في الأصول والجدل، ترجمته في: تاريخ بغداد: (١٠/٤٩١-٤٩٣)، وسير النبلاء: (١٧/٦٦٨-٦٧١)، وطبقات الشافعية: (٥/١٢-٤٩).
(٣) هذا النص من فوائد ابن العربي التي لم أجدها في كتاب آخر.
(٤) سقطت من (د).
(٥) في (ك): مسجد.
(٦) سقط من (د).
(٧) في (ك): خزنني، وخزل: حبس ومنع وعوَّق، تاج العروس: (٢٨/٤٠٦).
(٨) في (ك) و(د) و(ب): العلم.

ومات وهو عنِّي رَاضٍ[(١)]، وكنتُ أسمع لَغْوَ أهل السوق، وما دخل قطُّ في أذني[(٢)] شيء فخرج منه»[(٣)].

وكان يسترسل بحكايات عَامِّيَّةٍ، فيقول: «وما تسمعون من هذا فمن حِفْظِ أيَّام خِدْمَتِي للطبَّاخ»، ولا يرى أن ذلك يَضَعُ من قَدْرِه، بل كان يتواضع ويُفيد من العلم كيف جاءه، فَضْلُ الله وجريانُ نِعَمِه سبحانه على عباده، وترتيبُ عنايته بهم، ورَفْعُ المنازل المُسْتَفِلَة، وخَلْقُ العِلْمِ في قلب من شاء، وصَرْفُ الهمم إذا أدركتها عناية إلى الشريعة، وإخراج العالم من الجاهل، والجاهل من العالم، وهو أحد الأقوال في قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الروم:١٨]، ولو لم يكن في التواضع وضِدِّه من التكبُّرِ[(٤)] إلَّا ما تقدَّم في وصف أهل الجنة: «كلُّ ضعيف مُتَضَعَّفٍ»[(٥)]، وفي أهل النار: «كُلُّ جبَّار عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مستكبر»[(٦)].

[من خصال المُتَكَبِّرِينَ]:

ومن الكِبْرِ طُولُ الإزار؛ قال النبي ﷺ: «من جَرَّ إزاره خُيَلَاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[(٧)].

---

(١) في (د) و(ص): عني وهو راض.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): في أذني قط.

(٣) هذا النص من فوائد ابن العربي التي لم أجدها في ديوان آخر، والله أعلم.

(٤) في (ب): الكبر.

(٥) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٦) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٧) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

وفي الخبر: «بينما رجل يتبختر خَسَفَ الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[١].

وقال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزَكِّيهِمْ، ولهم عذاب أليم؛ شيخ زان، وإمام كذَّاب، وعائل مستكبر»[٢].

وقال تعالى: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»[٣].

وقال له رجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا[٤]، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ[٥] الحق وغَمْطُ الناس»[٦].

ومن الحديث الحسن: قوله ﷺ[٧]: «إنَّ الرجل ليذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبَّارين؛ فيُصِيبُه ما أصابهم»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب اللباس، بابُ من جَرَّ ثوبه من الخيلاء، رقم: (٥٧٨٩-طوق).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحَلِف، رقم: (١٠٧-عبد الباقي).

(٣) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٤) في (ك) و(ب): حسنة.

(٥) في (د): من بطر.

(٦) تقدَّم تخريجه.

(٧) في (ك): صلى الله عليه.

(٨) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الكبر، رقم: (٢٠٠٠-طوق).

وروى ثوبان - في الحسان -: أن نبي الله ﷺ قال: «من فارق الروحُ الجسدَ وهو بريء من ثلاثة دخل الجنة ؛ الكِبْرُ، والغُلولُ، والدَّيْنُ»[١].

وفي رواية: «الكنز»[٢].

ومن كلام الحكماء - وقد دخل في الحديث ولم يصحَّ -: «بئس العبدُ عبد تجبَّر وعتا ونسي الجبَّار الأعلى، بئس العبدُ عبد سَهَا وَلَهَا ونسي المقابر والبِلَىٰ، وبئس العبد عبد عتا[٣] وطغا[٤] ونسي المبتدأ والمنتهى، بئس العبد عبد يَخْتِلُ الدنيا بالدِّينِ، بئس العبد/ عبد يَلْبِسُ الدِّينَ بالشبهات، بئس العبد عبد طَمَعٌ[٥] يقوده[٦]، بئس العبد عبد هَوًى[٧] يُضِلُّه، بئس العبدُ عبد رَغَبٌ[٨] يُذِلُّه»[٩].

٢
[٨٣/أ]

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه عن ثوبان ﷺ: أبواب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الغلول، رقم: (١٥٧٢-بشار).

(٢) أخرجها الترمذي في جامعه عن ثوبان ﷺ: أبواب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الغلول، رقم: (١٥٧٣-بشار).

(٣) في (د): غنا.

(٤) في (ب): طغى وعتا.

(٥) في (ك): عبد طمعٍ.

(٦) قوله: «بئس العبدُ عبد يَخْتِلُ الدنيا بالدِّينِ، بئس العبدُ عبد يَلْبِسُ الدِّينَ بالشبهات، بئس العبدُ عبد طَمَعٌ يقوده» سقط من (ب).

(٧) في (ك): عبد هوًى.

(٨) في (ك): عبد رَغَبٍ.

(٩) أخرجه الترمذي في جامعه عن أسماء بنت عُمَيس ﷺ: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٤٤٨-بشار)، قال أبو عيسى: «ليس إسناده بالقوي».

قال الإمام الحافظ[١]: فأمَّا جَرُّ الإزار فسخافةٌ قبل النظر في التحريم، قد نظر عُمَرُ وهو في[٢] بَرْحِه من جُرْحِه إلى غلام يجرُّ إزاره فقال له: «ارفع إزارك يا غلام، فإنه أبقى وأنقى وأتقى»[٣].

وقال ﷺ: «إِزْرَةُ المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لا جُناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من ذلك ففي النار»[٤].

إذا أراد المُرِيدُ أن يعلم وجه النهي فلينظر إلى نفسه إذا جرَّها، فإنه يجد فيها عُلُوًّا، إن تمادى عليه صار عُتُوًّا.

وفي الصحيح: أنَّ أبا بكر قال: «يا رسول الله، إني أحيانًا يسترخي إزاري، قال له: أرجو ألَّا تكون منهم، أو: لستَ منهم»[٥].

وهذا صحيح؛ فإنَّ من تعلَّق رداؤه بغير قَصْدِهِ لم يكن عليه في ذلك حَرَجٌ من فِعْلِهِ[٦].

---

(١) في (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي رضي الله عنه، وفي (ك) و(ب): قال الإمام الحافظ رضي الله عنه.

(٢) سقطت من (د).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم: (٣٧٠٠-طوق)، ولفظه فيه: «ارفع ثوبك؛ فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك».

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كتاب الجامع، ما جاء في إسبال الرجل ثوبه، (٢/٣٠٠)، رقم: (٢٦١٢-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب اللباس، باب من جر إزاره من غير خيلاء، رقم: (٥٧٨٤-طوق).

(٦) ألف ابن العربي في الإسبال جزءًا في عشرين ورقة، وجعل مسائله في أربعين مسألة، وأدرج فيه نحوًا من خمسين حديثًا، ينظر: القبس: (٣/١١٠٤).

داهية: [في السَّدْلِ في الصَّلاة]

قال مالك رضي الله عنه: «لا بأس بالسَّدْلِ في الصلاة»[١].

ومن الكلام الذي يُنسب إلى واضع الشريعة ومُبَلِّغِها الثاني[٢] صلى الله عليه[٣] أنه نهى عن السَّدْلِ في الصلاة[٤].

فأمَّا النَّهْيُ عن السَّدْلِ في الصلاة فلم يصحَّ، لكنِ السَّدْلُ على وجهين:

أحدهما: سَدْلٌ يتجاوز الكعبين ويضرب الأرض؛ فذلك حرام - كما تقدَّم - بكل حال.

[الثاني]: وسَدْلٌ لا يبلغ الكعبين، فذلك جائز بكل حال.

ومعنى ذلك: أنَّ الرداء يكون على المرء إمَّا مُتَقَنِّعًا به، وإمَّا مُتَأَبِّطًا، وإمَّا مُشْتَمِلًا[٥]، وإمَّا مُضْطَبِعًا[٦]؛ على أنواع الهيآت.

---

(١) المدونة: (١٠٨/١)، وينظر: البيان والتحصيل: (٢٥٠/١).

(٢) سقطت من (ص) و(ب).

(٣) في (ك): صلى الله عليهما، وفي (ب): ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية السدل في الصلاة، رقم: (٣٧٨-بشار)، وأشار إلى تضعيفه، وأخرجه أبو داود في السنن عن ابن مسعود رضي الله عنه: كتاب الصلاة، باب الإسبال في الصلاة، رقم: (٦٣٧-شعيب)، ورجَّح أبو داود وقفه.

(٥) الاشتمال: هو تعميم البدن بالملبوس، المسالك: (٥٨/٣).

(٦) الاضطباع: أن يأخذ الإزار فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن، ويلقي طرفه على كتفه الأيسر من جهتي صدره وظهره، تاج العروس: (٣٩٤/٢١)، وينظر: المسالك: (٥٩/٣).

وقد يكون حاملًا له على رأسه ومَنْكِبَيْهِ، أو على منكبيه خاصَّة، سَادِلًا له على ظهره وذراعيه.

وسُنَّةُ لباسه التأبُّطُ، فقد رُوي في بعض الطرق: «أنها كانت رِدْءَةَ رسول الله»، وهو رِدْءَةُ العرب إلى اليوم، فكان هذا من مَالِكٍ إشارة إلى أنه يجوز أن يحمل الرداء في الصلاة على غير السُّنَّةِ والهيئة[1] التي يُحمل عليها في خارجها ويُتَجَمَّلُ بها في حَمْلِه.

[نَقْدُ المَسَائِلِيِّينَ في قولهم بسُنِّيَّةِ السَّدْلِ في الصَّلَاةِ]:

٢ [٨٣/ب]

وخَفِيَ هذا كلُّه على قوم يَسْتَقْرُونَ المسائل الفقهية، يُرَى[2] / أحدُهم حاملًا لردائه على هيئة الارتداء والتشمير، حتى إذا صلى سَدَلَهُ ضرورة.

ومَالِكٌ لم يقل: «سُنَّةُ الصلاة السَّدْلُ»، إنَّما قال: «لا بأس به»، فلِمَ جعلوه نَدْبًا؟ بل لِمَ جعلوه حالةً ملازمة؟ حتى زادوا فيه: «أن يسحبوه على الأرض سَحْبًا»، حتى زادوا فيه: «أن يُرْخُوه شِبْرًا وذراعًا»، فإذا بالرجل قد عاد امرأة؛ تُرْخِي دِرْعَها ذراعًا، وإذا بالرداء قد صار ذَيْلًا، وصار المرءُ ممَّن يمشي مُكِبًّا على وجهه؛ قد عَدَلَ عن الصراط المستقيم، ولم يركب جادَّة التعليم والتفهيم.

[تَفْسِيرُ حديث المُتَجَلْجِلِ]:

وأمَّا حديث المتجلجل فيحتمل أن يكون كافرًا، كما يأتي بيانه، ويحتمل أن يكون مؤمنًا؛ وغُلِّظَ عليه[3] عذابُه في الدنيا، وسَتُدْرِكُه - إن شاء الله - شفاعة الأخرى.

---

(١) في (د): ولباسه.

(٢) في (ص) و(ب): تَرى.

(٣) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

[تفسير حديث: شيخ زَانٍ]:

وأمَّا حديثُ الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم فحكمة بالغة، وهي أن الزِّنَا إنَّما يحمله عليه غُلْمَةُ الشَّبِيبَةِ[١]، وشَبَقُ[٢] الفُتُوَّةِ، وغِرَّةُ الصِّبَا، واستيلاءُ الهوى، وإذا شاخ[٣] المرءُ ضعفت القُوَى، وانحلَّ العَصَبُ، وانقلب الهوى إلى الهُوِيِّ، فإذا تمادى في غُلُوَائِهِ وصمَّم على سيرته الأولى ومضى على ما اعتاد منها؛ تحقَّق عليه فسادُ النفس، وخُبْثُ السُّوس، فكان عقابه أَكْبَرَ، ولم يكن بأَعْذَرَ.

[الأميرُ الكذَّاب]:

وأمَّا الإمام الكذَّاب فهو شَرُّ الخلق عند الله تعالى؛ لأنَّ الكذَّاب إنما يريد كذبه حيلة[٤] لما يعجز عنه، وليس فوق الإمام يد، ولا يفوته شيء ممَّا[٥] يعتاد دَركه، فإذا صادره[٦] بالكذب كان ذلك نزولًا عن الكرامة إلى الخِسَّةِ، وعن الطاعة إلى المعصية.

وقد قال لنا ذَانَشْمَنْد[٧]: «إنَّ في اللسان آفات كثيرة، شرها الكذب، وهو إذا تَرَكَه خَرَجَ به عن جميع المعاصي اللسانية والجوارحية»، لأنَّ الصِّدْقَ - كما قدَّمنا بيانَه - الأَصْلُ في الدين، وجملة الأعمال متعلقة به،

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): الشبقيَّة.

(٢) في (ك): سبق.

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): شاب، وضعَّفها في (د)، والمثبت من طرته.

(٤) في (د): جملة.

(٥) في (د): ما.

(٦) في (ك): صاده، وفي (ص): صاره.

(٧) هو الإمام أبو حامد الغزالي.

فإذا التزمه العبد لم يتَّفق له أن يعصي أبدًا، ولا يخالف حَدًّا، فإنك إذا قدرت أن تُسأل عمَّا فعلت فتقول: لم أفعل؛ وأنت قد فعلت، كذبت، وإن صدقت ربما قُتلت، أو حُدِدْتَ، أو عُزلت عن مرتبة الخير، وإن لسانك هو المعبِّر عنك فيما علمت، المعبر لك فيما تتعلَّم، وأعظمُ/ ما فيه من الآفات: الكَذِبُ، والغِيبَةُ، والمِرَاءُ، والمُزَاحُ. ٢ [٨٤/أ]

وإذا تفطَّنت كما بيَّنَّا[1] في «قانون التأويل»[2]؛ وجدتَ جميع مكروهات الأقدار[3] لا يُخرج عنها، فإذا احترست منها مَلَكْتَ لسانك، وسلمت من الوعيد الثابت؛ وهو[4] قوله ﷺ: «وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»[5].

وأَشَدُّ الكذب كَذِبُ الأمير، أو الكذب للأمير، من الحديث الصحيح؛ خرَّجه الترمذي والنسائي عن كعب بن عُجْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون أمراء، فمن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يَرِدُ عليَّ حوضي، ومن لم يصدقهم على كذبهم[6] ولم يُعنهم على ظلمهم فهو منِّي وأنا منه، ويَرِدُ عليَّ حَوْضِي»[7].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): بيناه.

(٢) قانون التأويل: (ص٣٨٣-٣٨٤).

(٣) في (ك) و(ص) و(ب): الأقوال، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(٤) في (د) - أيضًا -: هي.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في (د): بكذبهم.

(٧) أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم: (٢٢٥٩-بشار)، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب البيعة، ذِكْرُ الوعيد لمن أعان أميره على الظلم، رقم: (٧٧٨٢-طوق).

التَّعْرِيضُ بالمعاريض:

أَمَا إِنَّه قد رُخِّصَ فيه في مواطن ثلاثة أجمعت عليه[١] الأمة؛ الإصلاح بين الناس، ووَعْدُ الرجل أهله، والحرب[٢].

فأمَّا الإصلاح بين الناس فلمَا يُرْجَى من إطفاء النائرة بين الرجلين أو الفريقين، ولكن بالمعاريض، مثل أن يقول له: رأيته يدعو لك؛ إن جرى في كلمته دعاء له، وإن لم يسمع، فإن صلَّى معه فقد دعا للمسلمين في صلاته، فيقول[٣] له: قد دعا لك، وينوي بقلبه ما كان من دعائه في صلاته للمسلمين الذي هو أحدهم، أو إذا سمعه يذكره بكلمة حسنة قالها وحدها، ويجتنب التصريح بالكذب وإن لم يقصده بقلبه، وهي مسألة عظيمة من الفقه، بيَّنَّاها في «كُتُبِ الخلاف» في طلاق المُكْرَهِ، وصنَّف فيها علماءُ اللغة كُتُبًا.

وقد كان النبي ﷺ يقول: «نمشي إلى جهة كذا»[٤]؛ وهي المشرق، فإذا خرج ومشى إلى تلك الجهة لَيْلَةً عرَّج إلى المغرب، حتى يتحقَّق قَوْلُه وفِعْلُه.

وإذا ابتاع لزوجه ثوبًا بأربعة يقول: أخذته لك بخمسة، يعني: أخذته بكَفِّي، أو يقول: اشتريته بخمسة، يعني: بخمسة أجزاء أصلُها أربعة، بأن

---

(١) في (ص): عليها.

(٢) ينظر: قانون التأويل: (ص٣٨٤).

(٣) بعده في (ك) و(ص) و(ب): ذلك، وضرب عليها في (د).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن كعب بن مالك ؓ: كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، رقم: (٢٩٤٧-طوق).

[٨٤/ب] يَحُطَّ من كل وَاحِدٍ/ خُمُسًا، كما لو أراد أن يقسمها على أربعة رجال، وأمثالُ هذا لا يُحْصَى[١].

والغِيبَةُ[٢]: أن تذكر في الرجل[٣] ما فيه ممَّا يكره أن يسمعه، فإن لم يكن فيه ذلك فهو بهتان، إلَّا أن يكون كافرًا[٤].

روى البخاري في الصحيح: أن النبي ﷺ قال لعائشة: «ما أَظُنُّ فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا»[٥].

ذِكْرُ الفاسق:

فإن قلت: فإن كان فاسقًا قد ثَبَتَ فِسْقُه؟

قلنا: ولو كان ثابت الفِسْقِ لا يجوز لك أن تذكره به بحال، والدليل عليه أمران:

أحدهما: ما روى الأئمة أنَّ رجلًا كان يُلَقَّبُ حمارًا، وكان يؤتى به إلى النبي سكران فيجلده، فقال رجل بعد جلده مرَّة: «لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال: لا تكونوا عَوْنًا للشيطان على أخيكم»[٦]، فنهى عن لَعْنِه مُعَيَّنًا؛ وإن كان هو ﷺ[٧] قد لَعَنَ في الخَمْرِ عشرة[٨].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): تحصى.

(٢) ينظر: قانون التأويل: (ص٣٨٥).

(٣) في (ك) و(ص): أن يذكر الرجل في الرجل، وفي (ب): أن تذكر للرجل.

(٤) في (د): كافر.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ﵂: كتاب الأدب، باب ما يكون من الظن، رقم: (٦٠٦٧-طوق).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحدود، باب ما يُكْرَهُ من لَعْنِ شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة، رقم: (٦٧٨٠-طوق).

(٧) في (ك): صلى الله عليه.

(٨) أخرجه الترمذي في جامعه عن أنس بن مالك ﵁: أبواب البيوع عن رسول =

الأمر الثاني: قوله ﷺ: «إذا زَنَتْ أَمَةُ أحدكم فليجلدها الحَدَّ ولا يُثَرِّبْ»[١]، فإذا مَنَعَه ﷺ من[٢] أن يعاتبها على فِعْلِها فأَحْرَى أن يمنع من ذِكْرِه في غير ذلك.

أَمَا إِنَّ علماءنا قالوا: «يذكره في موضع يحتاج إليه، كمستشير له في أمر بمخالطة[٣]، أو كغريب يراه معه، أو يرى معه من يخاف أن يقتدي به أو يشاركه في عمله»، ونحو ذلك من معاني النصيحة.

ومن مَحَالِّ ذِكْرِ الغيبة الاستفتاء فيما يحتاج إليه من أمره، قالت هند بنت عُتبة: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل مِسِّيكٌ، فهل عليَّ من حرج أن أُطعم من ماله عيالنا؟ قال: لا، إلَّا[٤] بالمعروف»[٥].

ولا تُمَارِ؛ فإن المُمَارَاةَ هي المنازعة في تصحيح الباطل وإبطال الحق، ولذلك قال النبي: «مِرَاءٌ في القرآن كفر»[٦]؛ لأنه لا يكتفي بالبدعة حتى يدَّعي أن الله أَمَرَ بها، والله لا يأمر بالفحشاء، فكيف بالبدعة؟ وهذا ممَّا لم نجده لغيرنا والحمد لله، وهو يرجع إلى الكذب.

= الله ﷺ، باب النهي أن يتخذ الخمر خلًّا، رقم: (١٢٩٥-بشار)، وضعَّف إسناده، وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأشربة، باب العنب يُعصر للخمر، رقم: (٣٦٧٤-شعيب).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، رقم: (١٧٠٣-عبد الباقي).

(٢) سقط من (ك).

(٣) في (ص): بمخالطته.

(٤) سقط من (ب).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه أبو داود في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب السنة، باب النهي عن الجدال في القرآن، رقم: (٤٦٠٣-شعيب).

وأمَّا قوله: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»[١]؛ فهو من الأمثال البديعة التي ضَرَبَها النبي لله سبحانه، فلا تضربوا أنتم لله الأمثال؛ فإن الله ٢ يعلم وأنتم لا تعلمون، وفيه بديعة شنعاءُ من التوحيد بيَّنَّاها/ في «قانون [٨٥/أ] التأويل»[٢] وغيره، ويكفيكم فيها ما قُرِنَ من الوعيد بها.

وبَرَّأَ[٣] من يُرِيدُ جَمال الثياب والنعال من الكِبْرِ إذا أطاع الحق[٤].

وأمَّا قوله: «إن الرجل ليذهب بنفسه حتى يُكْتَبَ[٥] من الجبَّارين»[٦]؛ فهو تحذير من التدرج[٧] بيَسِيرِ المُحَرَّم إلى كثيره، وتنبيه عن[٨] التوقِّي من محقرات[٩] الذنوب، فإن الخير عادة والشر لجاجة.

وقوله: «دخل الجنة من[١٠] برئ من الكِبْرِ»[١١]، يعني[١٢]: دخلها في الزُّمْرَةِ الأولى، وقد بيَّنَّا ذلك في باب الوعيد من «كُتُبِ الأصول»[١٣]، إذ لا بدَّ لكل عَاصٍ مات على التوحيد من الجنة وإن أصابته النار بخطيئته[١٤].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) قانون التأويل: (ص٢٧٥).
(٣) في (ب): براءٌ، وفي (د): وكذا.
(٤) بعده في (ك) و(ب): وعظَّم الخلق، وضرب عليها في (د).
(٥) في (ك) و(ص) و(ب): يراها، ومرَّضها في (د)، والمثبت صحَّحه بطرته.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) في (ك) و(ص) و(ب): التذرع.
(٨) في (ك) و(ص) و(ب): على.
(٩) في (ك) و(ص) و(ب): لمحقرات.
(١٠) في (ص): حتى.
(١١) تقدَّم تخريجه.
(١٢) بعده في (ك) و(ص) و(ب): به، وضرب عليه في (د).
(١٣) ينظر: المتوسط في الاعتقاد - بتحقيقنا -: (ص٤١٥).
(١٤) في (د): بخطئه.

وأمَّا الذي أَثَرْنَاهُ عن الحكماء فهو حديث يُرْوَى، ولكنه لم يثبت[1]، وهي خصال معلومٌ قُبْحُها، مَخُوفٌ وِزْرُها، مُتَوَقَّعٌ سوءُ الخاتمة على مُقْتَرِفِها.

[أقسامُ الكِبْرِ]:

وأقسامُ الكِبْرِ كثيرة، وأشدُّها خمسة:

الأوَّل[2]: التَّكَبُّرُ على الله، كما فعل الجبَّارون الذين نَصَبُوا أنفسهم آلهة، وادَّعوا مع الله الشركة.

الثاني: التَّكَبُّرُ[3] على النبي واستحقاره، كما قالت الكفرة؛ وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يعني: ولِمَ يُوضَعُ في أقلهم مرتبة؟ ولم يعلموا المراتب بجهلهم، ولا قَبِلُوها حين[4] بُيِّنَتْ لهم بغباوتهم[5].

الثالث[6]: ومنها: التَّكَبُّرُ[7] على الوالي بمعارضته، وقد قال النبي: «اسمعوا وأطيعوا، ولو أُمِّرَ عليكم عبد حَبَشِيٌّ له زَبِيبَتان»[8]، فإن كان الوالي مُطِيعًا وجب تعظيمُه وبِرُّه؛ سِرًّا وعَلَنًا، وإن كان عاصيًا وجبت طاعته

---

(١) يشير إلى حديث أسماء بنت عُمَيس ﵂: «بئس العبدُ عبد تجبَّر وعتا»، ضعَّفه الترمذي، وقد تقدَّم ذِكْرُ ذلك.

(٢) سقط من (ك) و(ص).

(٣) في (ك): الكبر.

(٤) في (د): حتى.

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): بعبارتهم.

(٦) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): الكبر.

(٨) تقدَّم تخريجه.

ظاهرًا، وتعيَّن التبرِّي منه باطنًا، ووجب الدعاء له، ولم يَحِلَّ الطَّعْنُ عليه ولا الخروج، بل يصبرُ الخَلْقُ على ما أصابهم منه، والله يفتح له ولهم.

الرابع[١]: ومنها: التَّكَبُّرُ على المتعلم، فلا ينبغي للعالم أن يستحقره بجهله.

[**الخامس**]: ولا ينبغي للمتعلم أن يَتَكَبَّرَ على مُعَلِّمِه، وأعني به على العالم؛ تَعَلَّمَ منه أو لم يتعلم؛ لأن الله قد ردَّه إليه فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وأَمَرَهُ بالاقتداء به، فكيف يصحُّ أن يتعاظم عليه؟

[تَتِمَّةُ أحكام الأخوَّة]:

الثالث[٢] عشر من أحكام الأخوة: أن يَفْدِيَه، وذلك يكون بالنفس والأهل والمال؛

[٨٥/ب] فأمَّا[٣] فداؤه بالنفس/ فليس لأحد إلَّا للنبي ﷺ[٤]، حسب ما تقدَّم بيانُه؛ إذ لا يصح الإيمان ولا يُجْزِئ أحدًا إلا بأن يُحِبَّ النبيَّ أكثر من نفسه.

وأمَّا التَّفْدِيَةُ بالأهل فإنَّما يَصِحُّ إذا كان منهم أَحَدٌ كافرًا، وقال النبي لبعض أصحابه: «فِدًى لك أبي وأمي»[٥]، قال علماؤنا: «لأنهما كانا كافرين»[٦].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك) و(ص): الثاني، ومرَّضها في (د).

(٣) في (ك): وأما.

(٤) في (ك): صلى الله عليه.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن علي ﷺ: كتاب الأدب، باب قول الرجل: فداك أبي وأمي، رقم: (٦١٨٤-طوق).

(٦) ينظر: العارضة: (٣٦٦/٤)، والمسالك: (٥٦٧/٣).

وأمَّا الفداء بالمال؛ فمن حُكْم الأخوة أن يكون أخوه عنده فوق ماله إن قَدَرَ من نفسه، وإلَّا فالمواساة مع الحاجة حَقٌّ على ما تقدَّم بيانه في الحالة الأولى من «فاتحة الكتاب».

ذَكَرَ ابنُ حنبل أنَّ الأعمش قال: «كان على سعد بن عُبَيدة خَرْجٌ وجُعْلٌ[1] مائتا[2] درهم، فحُبِسَ بها، فمرَّ عُمارة بن عُمَير فسأل فأخبروه، فصَالَح مُكَاتِبَه على مائتي درهم يُعَجِّلُها[3]، فأعطاهم وأُخرج، ولم يعلم، فلمَّا سأل عنه قيل: فَعَلَه عُمارة[4]»[5].

الرابع[6] **عشر**: أن يُحسن ظنَّه فيه، قال النبي[7] صلى الله عليه[8]: «إيَّاكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[9].

والمعنى فيه: لا تَحْكُمُوا لمُجَرَّدِ[10] ما يبدو منه للقلب بالخواطر الظانَّة[11]، والأمارات المتعارضة، حتى يظهر ذلك بدليل من الأدلة[12]

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): جعل.

(٢) في (ك): مائتي.

(٣) سقطت من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) في (د): عمير.

(٥) لم أجده في المنشور من الزهد للإمام أحمد.

(٦) في (ك) و(ص): الثالث، ومرَّضها في (د).

(٧) لم يرد في (د).

(٨) في (ك) و(ص) و(ب): ﷺ.

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ: كتاب الأدب، باب ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن﴾، رقم: (٦٠٦٦-طوق).

(١٠) في (ك) و(ص) و(ب): بمجرد.

(١١) في (ك) و(ص) و(ب): المطلقة، ومرَّضها في (د)، والمثبت من طرته.

(١٢) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

الموضوعة للقضاء بها، وابتناء الحكم عليها، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وبعضُه أَجْرٌ، وبعضُه فَرْضٌ، وبعضُه مندوبٌ إليه؛ بحسب الأدلة المتعلقة به.

الخامس[١] **عشر**: أن تلقاه[٢] بوَجْهٍ طَلْقٍ، وهو أقل الدرجات في إحسان الأُخوَّة، وهو عنوان ما وراءه من الخير والبركة، وهو أَحَدُ التأويلات في مدح الشَّاعر الجاهلي في الجاهلية بقوله:

ثيابُ بني عَوْفٍ[٣] طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وأَوْجُهُهُمْ عند المشاهد غُرَّانُ[٤]

يريد: أنهم بِيضُ الوجوه من البشاشة، ليست مُكْفَهِرَّةً من الحقد والبغضاء.

وقوله: «ثيابُهم طَهارى»؛ يريد: لا عيب فيهم، وهو تأويل قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]، وقد غَلِطَ قَوْمٌ فيه فقالوا: «إن معناه[٥] طهارة النجاسة التي شُرِعَتْ للصَّلاة»[٦]، وهذا جهل بالحقيقة، وإسقاط للفائدة، وذلك أن هذه أوَّل كلمة سمعها النبي ﷺ من وَحْي ربه، أو ثانيتها، ولم يكن بَعْدُ أُمِرَ بطاعة، ولا ذُكِرَتْ له عبادة، فكيف يُذْكَرُ له شَرْطٌ من أقل شروطها، وإنَّما أُمِرَ في هذه/ الآية بأربعة أوامر؛ أصول فصول: ٢ [٨٦/أ]

---

(١) في (ك) و(ص): الرابع، وضبَّب عليها في (د).

(٢) في (ك) و(ب): يلقاه.

(٣) في طرة بـ (ك): في خـ: عَقْرٍ.

(٤) من الطويل، وهو لامرئ القيس، ديوانه: (ص١٤٦).

(٥) في (د): معنى.

(٦) تفسير الطبري: (٢٣/٤٠٩-التركي).

الأوَّل: قيل له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، كما قال النبي[١] ﷺ[٢] لهم: «إنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[٣]، و﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:٢٠]، و﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٤] [الفرقان:١].

والثاني[٥]: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وقدَّم هاهنا التسمية قبل[٦] العامل فيها؛ وهو[٧] الفعل، للاهتمام الواجب فيها، والتعظيم المستحق لها، وكذلك طريقة الفصاحة[٨] العربية في أمثالها، إذا كان لهم الاهتمام بالمعمول فيه قُدِّمَ على العامل، تقول: عَمْرًا ضربتُ، وعَمْرًا ضربَ زَيْدٌ، فإنما يُجْعَلُ صدر الكلام لكل ما يقع به الاهتبال والاهتمام.

فأَمَرَ بتكبيره وتعظيمه عن أن يكون معبودًا سواه، أو يشاركه غيره في عبادته، أو يكون له سَمِيٌّ في أفعاله أو صفاته أو ذاته.

وإذا[٩] قدَّس ربَّه عمَّا لا يليق به فقد أُمِرَ أن يُطَهِّرَ نفسه عن دناءات الآدميِّين التي لا تليق به، ولقد أَمَرَه سبحانه بما أعطاه وله[١٠] ويسَّره، ومَدَحَه بما خلق فيه وقدَّره، فله الحمد أوَّلًا وآخِرًا، وباطنًا وظاهرًا.

---

(١) لم يرد في (د).
(٢) في (ك): صلى الله عليه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) في (د) و(ص): «ولتكون للعالمين نذيرًا».
(٥) قوله: «والثاني» سقط من (ك) و(ب)، وفي (ص): الأمر الثاني.
(٦) سقط من (ك) و(ص) و(ب).
(٧) قوله: «وهو» سقط من (ك) و(ص) و(ب).
(٨) في (د): فصاحة.
(٩) قبله في (ص): الأمر الثالث.
(١٠) في (ك) و(ص) و(ب): له.

الثالث[١]: قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٢]؛ قيل[٣]: «طَهِّرْ نفسك عن الزلَّات، وقلبك عن المخالفات، وسِرَّك عن الالتفات إلى غير الله»[٤].

وقيل: «إن المُرَادَ بقوله: ﴿ثِيَابَكَ﴾: وأهلك فطَهِّرْ»[٥]، وهو مجاز لفظًا، والمعنى الحقيقي الأوَّل أقوى.

والرابع[٦]: قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، وهو يُسَمَّى به الأصنام، ويُسَمَّى به العذاب، فأَمَرَ بهجران الأصنام وما يُؤَدِّي إلى العذاب.

وجَمَعَ له في هذه الأحرف اليسيرة قِسْمَي الشريعة؛ المفعول من القُرُبَاتِ، والمتروك من المحرَّمات، قال الله تعالى: «يا أيها الطالب لصَرْفِ الأذى بالدِّثَارِ، قُمْ فاصرفه عن نفسك بالإنذار»[٧].

السَّادس[٨] **عشر**: أن ترعى حَقَّ الأخوة فيمن فوقك ومن دونك، حتَّى في عبدك، قال النبي ﷺ: «إخوانكم خَوَلُكم، ملَّككم الله رقابهم، فأطعموهم ممَّا تأكلون، واكسوهم ممَّا تلبسون، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلَّفتموهم فأَعِينُوهم»[٩]، وبذلك يكون «رَفِيقًا».

---

(١) سقط من (ك) و(ب) و(ص)، وتأخر ما بعده في هذه النسخ إلى ما بعد الأمر الرابع.

(٢) لم ترد هذه الآية في (ك) و(ب) و(ص).

(٣) بعده في (ك) و(ص) و(ب): في ثيابك، وضرب عليها في (د).

(٤) لطائف الإشارات: (٦٤٨/٣).

(٥) لطائف الإشارات: (٦٤٨/٣).

(٦) قبله في (ك) و(ص) و(ب): الأمر، وضرب عليه في (د).

(٧) لطائف الإشارات: (٦٤٧/٣).

(٨) في (ك) و(ص): الخامس، ومرَّضها في (د).

(٩) تقدَّم تخريجه.

الرَّفِيقُ[١]: وهو الاسمُ الرَّابع والثمانون[٢]

ثبت أن النبي قال: «من أُعْطِيَ حظَّه من الرِّفْقِ فقد أُعطي حظَّه من الخير، ومن حُرِم حظَّه من الرفق فقد حُرِم حظَّه من الخير»[٣].

٢ [٨٦/ب]

ومن صحيح الصحيح/ ما رُوي عن عائشة: «أن رَهْطًا من اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك، فقال النبي: عليكم، فقالت عائشة: فقلت: بل عليكم السَّامُ واللعنة، فقال النبي: يا عائشة، إن الله يُحِبُّ الرفق في الأمر كله، قالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: قلت: عليكم، إنه يستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيَّ»[٤].

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «اللَّهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فرَفَقَ بهم فارْفُقْ به، ومن شاقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه»[٥].

---

(١) سقط من (ك) و(ص) و(د).

(٢) في (ك): الثاني والثمانون، وفي (ص): الموفي ثمانين، و(ب): التاسع والسبعون.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، بابُ ما جاء في الرفق، رقم: (٢٠١٣-بشار).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم: (٦٠٢٤-طوق).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، رقم: (١٨٢٨-عبد الباقي).

وأوجبُ ما هو الرفق على الولاة؛ فإنه واجب عليهم في أنفسهم، واجب عليهم أن يفتقدوه من غيرهم.

«كان عمر بن الخطاب يذهب إلى العوالي كلَّ سَبْتٍ، فإذا وجد عَبْدًا في عمل لا يطيقه وَضَعَ عنه»[١].

ولقد تعدَّى رِفْقُه إلى البهائم، ولها حق، فيُرْوَى[٢]: «أنه اشتهى سَمَكًا، فركب يَرْفَا[٣] ناقةً إلى الجار، واصَّاد منها أربعة، وجاء بها عُمَرَ، فلمَّا رأى عمر الراحلة التي ركب عليها قال: والله لا يذوقها عمر وقد[٤] عُذِّبَتْ بهيمة من البهائم في شهوته»[٥].

قال الإمام الحافظ[٦]: وهذا إنَّما أراد به عمر أن يكسر شهوة[٧] القاسين على الحيوانات من الآدميِّين والبهائم، القاصين عن سبيل الرفق، وإلَّا فالفَرَسُ يتعب في الصيد أكثر من تَعَبِ الراحلة، والدواب يَسُوقُ[٨] الطعام من قُوتٍ وإِدَامٍ ومُشْتَهًى، وكل ذلك مأذونٌ فيه.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ بلاغًا: كتاب الجامع، الأمر بالرفق بالمملوك، (٢/٣٤٥)، رقم: (٢٧٦١-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) في (ص) و(ب): فروي.

(٣) يرفَا: مولى عمر بن الخطاب ﷺ، وقد يهمز، فتح الباري: (٦/٢٠٥).

(٤) قوله: «وقد» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٥) تاريخ دمشق: (٤٤/٣٠١).

(٦) في (ك) و(ب): قال الإمام الحافظ ﷺ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد اللهب ن العربي ﷺ.

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): شهوة، وضبَّب عليها في (د)، والمثبت من طرته.

(٨) في (ك): تسوق.

ويحتمل أن يكون عمر رأى أن تلك نعمة ؛ أن يُسِّرَ له عبد وبهيمةٌ جاءته بشهوته ، ورأى من شُكْرِها تَرْكَها ، أو خشي ألَّا يقوم بشُكْرِها ، أو رأى أنَّ ذلك يُعَيِّنُ عليه فرضًا من الشكر لم يكن توجَّه عليه فتَرَكَها[١].

وممَّا أَذِنَ الله فيه الجَدُّ في السَّيْرِ بالركاب مع اعتماد[٢] الرفق ، فقد مشى عقبة بن عامر[٣] من الكوفة إلى المدينة من يوم الجمعة إلى يوم الجمعة[٤] ، وهي نَحْوٌ من عشرين مرحلة ، وأقرَّه عمر على ذلك ولم يَرُعْه بقَوْلٍ ولا وَزَعَه ؛ على عادته في سماع ما يكره وما[٥] لا يراه حقًّا[٦].

وقد عدَّ جماعة من العلماء الرفق بالمال وتَرْكَ الخُرُقِ فيه من باب المأمور به ، وقد بيَّنَّاه في تأويل قوله: ﴿وَالذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يُقْتِرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَالِكَ قَوَاماً﴾[٧] [الفرقان:٦٧].

٢ [٨٧/أ]

وقال النبي ﷺ - كما تقدَّم -: «بَيْنَا أَيُّوب يغتسل يومًا إذ خَرَّ عليه/ رِجْلٌ من جراد من ذهب ، فجعل يَحْثِي في ثوبه ، فقال الله[٨] له: ألم أكن أغنيتك عمَّا ترى؟ فقال: بلى يا رب ، ولكن لا غِنَى بي عن بَرَكَتِك»[٩].

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): فتركه.

(٢) في (ك) و(ص): اعتقاد.

(٣) قوله: «ابن عامر» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) تاريخ دمشق: (٤٠/ ٤٨٧).

(٥) في (ك) و(ص) و(ب): أو ما.

(٦) سقط من (د).

(٧) في السِّفْرِ الثاني من السراج ، عند اسم «العابد».

(٨) لم يرد في (د).

(٩) تقدَّم تخريجه في السِّفْرِ الأوَّل.

وقد أمر النبيُّ بمِثْلِ هذا الفعل، وسَنَّ مثل هذه السنة في شريعته، فقال عبد الله بن السَّعْدِي: «إنه قَدِمَ على عمر بن الخطاب في خلافته، فقال له عمر: أَلَمْ أُحَدَّثْ أنك تَلِي من أعمال الناس، فإذا أُعطيت العُمَالَةَ كرهتها؟ فقلت: بلى، قال عمر: فما تُرِيدُ إلى ذلك؟ قال: إنَّ لي أَفْرَاسًا وأَعْبُدًا وأَبَاعِرَ، وأريد أن تكون عُمَالَتِي صدقة على المسلمين، قال عمر: لا تفعل؛ فإني كنتُ أردت الذي أردت، فكان رسول الله يعطيني[١] العطايا[٢] فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالًا، فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال لي[٣] النبي: خُذْهُ فتموَّله، وتصدَّق به، وما أتاك من هذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ ولا سائل فخُذْهُ، وما لا، فلا تُتْبِعْه نفسَك»[٤].

وقال النبي ﷺ لأنسٍ: «اللهم أَكْثِرْ مالَه ووَلَدَه، وبارك له فيما أعطيتَه»[٥].

قال الإمام الحافظ[٦]: فلذلك لم يكن كثرةُ[٧] المال عيبًا إذا لم يَدَّخِرْهُ مُكْتَسِبُه، ولا تعاطاه بما لا ينبغي له، وقد أُجِيبَتْ دعوته صلى الله عليه[٨]

---

(١) في (ك): يعطي.

(٢) في (د) و(ص): العطاء.

(٣) سقط من (ك).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأحكام، باب رزق الحكام والعاملين عليها، رقم: (٧١٦٣-طوق).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم: (٢٤٨٠-عبد الباقي).

(٦) في (ك) و(ب): قال الإمام الحافظ رضي الله عنه، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي رضي الله عنه.

(٧) في (د): كثيرة.

(٨) في (ك) و(ص) و(ب): ﷺ.

لأَنسٍ، فدَفَنَ لصُلْبِه مَقْدَمَ الحجَّاج البصرةَ مائة وعشرين وَلَدًا[١]، وكان خَبَّازُه[٢] قائمًا يُطعم ويتصدَّق لكثرة ماله[٣]، ولمَّا كان ما آتاه الله بدعاء رسول الله اقترن بالبَرَكَةِ، وكان مُصَرَّفًا في الطاعة، وسَلِمَ من التقصير في الشُّكْرِ ومن المعصية.

وقال ابن وهب: «قال لي مالك: من الناس من يؤتيه الله المال[٤] فيتَّقي الله فيه، ومنهم من يُبْتَلَى بالفقر فلا يتَّقي الله فيه».

قال الإمام الحافظ[٥]: هم أربعة:

غني متقي؛

فقير متقي؛

غني لا يتقي؛

فقير لا يتقي؛

فتلك بتلك في الأربعة، إلَّا الفقير الذي لا يتقي؛ فإنه متى أذنب في غير طريق الكسب بما لا يعود عليه به صلاحُ حال فهو في أسفل السَّافلين من الدناءة.

---

(١) قوله: «وعشرين ولدًا» سقط من (ك) و(د) و(ب).

(٢) في طرة بـ (ك): في خـ: خباؤه.

(٣) ينظر: الاستيعاب: (ص٥٤).

(٤) في (ك) و(ص) و(ب): الملك.

(٥) في (ك): قال الإمام الحافظ ﷺ، وفي (ص): قال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ﷺ، وفي (ب): قال الإمام ﷺ.

قال مالك عن يحيى بن سعيد: «قال عمر بن الخطاب: من كانت له أرض فليعمرها، ومن كان له مال فليُصلحه، فيُوشِكُ أن يأتي من لا يُعطي إلَّا من أحبَّ»[١].

ورِضْوَانُ الله على عمر؛ فإنه قد جاء بعده من تسلَّط على الأرض حتَّى نفَّر صاحبها عنها، وتسلَّط على المال حتَّى يودُّ الرجل أن[٢] لم يكن معه مال[٣]، وليس للمسألة/. ٢ [٨٧/ب]

ولذلك جعل بعضُهم «رَفِيقًا[٤]» من أسماء الباري، في «الموطأ»: عن خالد بن مَعْدَان يَرْفَعُه: «إن الله رفيق يحب الرفق ويرضى به، ويُعِينُ عليه ما لا يعين على العنف، فإذا ركبتم هذه الدوابَّ العُجْمَ فأنزلوها منازلها، فإن كانت الأرض جَدْبَةً فانْجُوا عليها بنِقْيِها[٥]، وعليكم بسَيْرِ الليل؛ فإن الأرض تُطْوَى بالليل ما لا تطوى بالنهار، وإيَّاكم والتعريس على الطريق؛ فإنها طُرُقُ[٦] الدواب ومأوى الحيَّات»[٧].

وحقيقة الرفق: هي محاولة الأمور بأقلَّ ممَّا تحصل به، وفي أكثر من المدة التي تكون فيه، وهو التَّأَنِّي، فالتَّأَنِّي أَحَدُ قِسْمَيِ الرِّفْقِ.

---

(١) البيان والتحصيل: (١٧/٢٢٨).
(٢) في (ك) و(ص) و(ب): أنه.
(٣) سقط من (ك) و(د) و(ب).
(٤) في (د): رفيق.
(٥) في (د): بنفيها.
(٦) في (ك) و(ص) و(ب): الطرق.
(٧) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الجامع، ما يؤمر من العمل في السفر، (٢/٣٤٤)، رقم: (٢٧٥٨-المجلس العلمي الأعلى).

ومن تمامه تخصيصُ العيال به، فهذا النبي ﷺ قد قال: «وأمَّا أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»[١]، فأخبر - في أصح التأويلين - عن غلظته على عياله.

وهذا رسول الله، وهُوَ هُوَ، هُوَ هُوَ، إلى ما لا ينقضي من الأخبار الكريمة العظيمة[٢] عنه، قد قال لعائشة والسُّودان يلعبون بالدَّرَقِ في المسجد: «تشتهين تنظرين؟ قالت[٣]: فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدِّي على خدِّه، وهو[٤] يقول: دونكم بني أَرْفِدَةَ، حتى إذا مَلِلْتُ قال: حَسْبُكِ؟ قلت: نعم، قال: فاذهبي، قالت عائشة: فاقدروا قَدْرَ الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو»[٥].

السَّابع[٦] عشر من أحكام الأخوة[٧]:

أن تسأله عن حاله إذا لقيته[٨]، وقد كان قَوْمٌ من الصوفية يكرهون السؤال عن الأحوال؛ لئلا يطلع على عَوْرَةٍ يعجز عن سترها، أو يشق ذلك عليه إن كان قادرًا عليها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): العظيمة الكريمة.

(٣) سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٤) سقط من (د).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد، رقم: (٩٥٠-طوق).

(٦) في (ك) و(ص): السادس، ومرَّضها في (د).

(٧) قوله: «من أحكام الأخوة» سقط من (ك) و(ص) و(ب).

(٨) في (ك) و(ص) و(ب): أن يسأله عن حاله إذا لقيه.

قال رجل لآخر: كيف حالك؟ فذَكَرَ له دَيْنًا وخَصَاصَةً، فدفع إليه مالًا، واعتقد أن لا يسأل عن حال أحدًا.

ولقي عمرَ بن الخطاب رجلٌ[١]، فسلَّم عليه فردَّ عليه السَّلام، وسأله عمر عن حاله، فقال له: «أحمد إليك الله[٢]، فقال عمر: هذا[٣] الذي أردتُ منك»[٤]، وكان عمر أراد أن يكشف سريرته، ويطَّلع طريقته، وينظر يقينه وعقيدته.

وأمَّا إن سأله عن حاله في الدين فذلك أحسنُ سؤال، قد رُوي في الآثار: «أن النبي قال لحارثة: كيف أصبحت؟ قال: مؤمن حقًّا، قال له: إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا؛ فاستوى عندي ذَهَبُها وحَجَرُها، وكأني ناظر[٥] إلى عَرْشِ ربي وهو يفصل بين الناس»[٦]، وهذا كلام/ صحيح المعنى، وإن لم يكن له سند صحيح.

٢ [٨٨/أ]

الثامن[٧] عشر: أن يؤاخيه في الله[٨]، لا لِعَرَضٍ من الدنيا.

---

(١) في (ك) و(ص) و(ب): رجلًا.

(٢) في (ك) و(ص) و(ب): الله إليك.

(٣) في (ك): هو.

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كتاب الجامع، جامع السَّلام، (٢/٣٣٠)، رقم: (٢٧١٦-المجلس العلمي الأعلى).

(٥) في (ك): في خـ: أنظر.

(٦) أخرجه الطبراني في أكبر معاجمه عن الحارث رضي الله عنه: (٣/٣٠٢)، رقم: (٣٣٦٧)، وأخرجه الشهاب في مسنده عن معاذ رضي الله عنه: (٢/١٢٧)، رقم: (١٠٢٨).

(٧) في (ك) و(ص) و(ب): السابع، وضعَّفها في (د).

(٨) في (ك) و(ص) و(ب): لله.

وقد روى مالك في «الموطأ»: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ»[(١)].

يريد: لمن خلصت أعمالهم لي، ولم تكن لغَرَضٍ دنياوي[(٢)].

وقد رُوي عن أبي رِمْثَةَ رِفَاعَةَ بن يَثْرِبِي أنه قال للنبي: «إني رجل طبيب، فقال له النبي: إنه لا طبيب لنا إلا الله، بل أنت رفيق»[(٣)].

وقيل لأبي بكر الصديق في مرضه: «ألا ندعو لك طبيبًا؟ فقال: قد سألته، وقال: إني فعَّال لما أريد»[(٤)].

وقد قدَّمنا بَيَانَ اسمِ «الطَّبِيبِ» في كتاب «الأمد الأقصى»[(٥)]، ويجوز أن يسمَّى الرجلُ بطَبِيبٍ.

* * * * *

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: كتاب الجامع، ما جاء في المتحابين في الله، (٢/٣٢٦)، رقم: (٢٦٩٨-المجلس العلمي الأعلى).

(٢) بعده في (ك) و(ص) و(ب): ولا لعرض، وضرب عليه في (د).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الترجل، بابٌ في الخضاب، رقم: (٤٢٠٧-شعيب)، وأخرجه ابن حبَّان في صحيحه: كتاب الجنايات، ذكر الإخبار عن نفي جناية الأب عن ابنه والابن عن أبيه، رقم: (٥٩٩٥-إحسان).

(٤) تقدَّم تخريجه في السفر الأوَّل.

(٥) الأمد الأقصى - بتحقيقنا -: (٢/٣٣-٣٤).

آخِرُ السِّفْرِ الثالث من كتاب «سراج المريدين في سبيل الدين» للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ﷺ، ضبط نصَّه وخرَّج أحاديثه ووثَّق نقوله وترجم لأعلامه وصنع فهارسه وقدَّم له الدكتور عبد الله بن عبد السَّلام بن عبد الله بن محمد بن التِّهامي المصمودي التَّوْرَاتي القَصْرِي، عفا الله عنه وعن آبائه، وذلك في شهر شوَّال من عام ١٤٣٧هـ، بتِطَّاوْن - حرسها الله تعالى - قاعدة شمال المغرب الأقصى، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد، وعلى أزواجه الطَّاهرات، وصحابته وقرابته، ومن تبعهم من الصَّالحين.

فهرس الموضوعات